ميزان الحق

بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا دينية

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة
٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة
٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولي ٢٠٠٥

محمد يونس هاشم

ميزان الحق

بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية

نحو منهج وسطي معاصر لفهم الإسلام

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

- أسباب تخلف المسلمين .
- المذاهب الفاسدة المؤثرة في المجتمع .
- توازن عناصر الإنسان .
- توازن الكون .
- توازن الإسلام .
- علاقة الإسلام بـــ: الروح ..القلب ..العقل ..النفس ..الجسد .
- نقد لأشهر أفلام السينما المصرية وتيماتها .
- المدارس السلفية : النشأة والمنهج والمآخذ .
- خمسة وعشرون مأخذًا على المتنطعين من دعاة الإسلام .
- كيف يعالج الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة .

دار زهور المعرفة والبركة
٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

اسم الكتاب : ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية
المؤلف : محمد يونس هاشم
الناشر : دار زهور المعرفة والبركة .
٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة
رقم الإيداع : ١٢-١١-٥١٧٢-٩٧٧- ٩٧٨

الترقيم الدولي : ٢٢٠٥٠ / ٢٠١٢

هاشم ، محمد يونس

ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية ، نحـــو مـــنهج وســـطي معاصر لفهم الإسلام / محمد يونس هاشم .- ط ٢ مزيدة ومنقحة ٠- الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٢

ص ٤١٤ ، ٢٤ × ١٧ سم

تدمك ٢٢٠٥٠ / ٢٠١٢

١- الإسلام والمجتمع

أ- العنوان ٢١٤-٣٠١٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لم أكن أتوقع عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من مكتبة مدبولي منذ نحو ثماني سنوات أن يكتب لها هذا الذيوع والانتشار خاصة أن الكتاب كان باكورة مؤلفاتي، ولكني فوجئت بانتشار واسع للكتاب ليس على المستوى العربي فحسب إنما على مستوى الجامعات الغربية خاصة الأمريكية فهناك نحو عشرين جامعة غربية من أفضل خمسين جامعة على مستوى العالم يوجد هذا الكتاب في مكتباتها رغم أنه لم يترجم إلى اللغة الإنجليزية، وصدق توقع الأستاذ إبراهيم المشرف على النشر في مكتبة مدبولي عندما قال لي : إن هذا الكتاب سيساهم في تغيير الفكر العربي ، واعتبرت كلامه يومها مجاملة لطيفة .

وبعد نشر الكتاب سرني ردود الفعل الطيبة التي أحدثها الكتاب لدى من أعرفهم ومن لا أعرفهم من داخل مصر وخارجها ولله الفضل والمنّة ، وكان بعض من هاتفني من البلاد العربية يشفق عليَّ من المتطرفين ، وكنت أطمئنهم أننا – المصريين – نحب التدين الوسطي ونكره التطرف والإرهاب ، ويعجب الإخوة العرب عندما يعلمون أن مجمع البحوث الإسلامية صرَّح بنشر الكتاب ولم يعترض على حرف واحد فيه رغم الآراء الجريئة التي تضمنها .

وهاأنذا يشرفني أن أعيد طباعة نشر الكتاب مرة ثانية في طبعة جديدة مزيدة ومنقّحة ، بناءً على رغبة صادقة من الأستاذ يحيى عبد الرحمن رئيس مجلس إدارة دار زهور المعرفة والبركة ، وقد استفدت في هذه الطبعة من كل دراساتي الدينية اللاحقة على نشر هذا الكتاب وكل الملاحظات المفيدة التي أبدها من قرأ هذا الكتاب.

محمد يونس هاشم
٢/ ١٢/ ٢٠١٢



مقدمة الطبعة الأولى

إن الناظر فى أحوال المسلمين فى الآونة الأخيرة ليستولى عليه العجب لأنه سيفاجأ بأن المسلمين – خير أمة أخرجت للناس– متهمون بأنهم :

١ – متخلفون على مستوى الحضارة .

٢ – ضعفاء على مستوى القوة .

٣ – متطرفون على مستوى الرأى .

٤ – منحلون على مستوى الأخلاق .

٥ – فاسدون على مستوى الذوق .

هل هؤلاء المسلمون حقاً أحفاد المصريين القدماء ، والآشوريين ، والبابليين ؟!

هل هم حقا أحفاد صانعى أول حضارات فى التاريخ حضارات مازال العالم عاجزا عن كشف أسرارها حتى الآن ؟!

هل هؤلاء هم حقا أحفاد المسلمين الأوائل الذين حرروا الدنيا من الطغيان ، والجهل ، والتخلف ، وملئوها : عدلاً ، وهدى ، وعلماً ، ورحمة ؟!

كيف وصلنا إلى هذا الدرك الأسفل وقد كنا فى الدرجات العلا ؟!

أين ديننا الحنيف ؟ أين تاريخنا المجيد ؟

أين علماؤنا ومفكرونا ؟ أين خطباؤنا ومثقفونا ؟!

تساؤلات كثيرة يطرحها الواقع المتردى الذى نعيشه .

تساؤلات كثيرة تحتاج لمن يكشف لنا هذا اللغز المحير الذى جعل خير أمة أخرجت للناس أسراباً من البغاث لا وزن لهم ولا شأن موصومون بكل رذيلة ، عارون من كل فضيلة .

فى هذا الكتاب نحاول الإجابة عن هذه التساؤلات .

كما نحاول الإجابة عن غيرها من أسئلة أخرى .

الحكمة التي يجب أن نعيها جيدا تقول : إن من يجعل ظهره مطية فلا يلومن من يركبه ، وإن من ظلم نفسه فلا ينتظرن من عدوه إنصافاً .

والحقيقة التى تتبدى ناصعة لا ريب فيها أن كثيراً من المسلمين فى الآونة الأخيرة أساءوا فهم الدين والدنيا جميعاً بل وأساءوا فهم أنفسهم ودورهم الحضارى الرائد .

إن كثيراً من المنتسبين لهذا الدين العظيم اليوم أصبحوا مضرب المثل للتخلف والرجعية ، وصاروا لقمة سائغة فى فم أعدائهم ، وكل يوم ينتقص من بلادهم ومن كرامتهم رغم أن هذا الدين نفسه حقق به المسلمون الأوائل حضارة عظيمة قادت العالم لمدة ألف عام كان المسلمون فيها أفضل الأمم : خلقاً ، وعلماً ، وحضارة ، وقوة .

إنَّ كثيراً من المنتسبين لهذا الدين العظيم أخذتهم العزة بالإثم .

متخلفون ويرمون غيرهم بالجاهلية .

لا يكفون عن رمى الغرب بكل مثلبة من انحراف خلقى ، واعوجاج سلوكى ، وفساد عقدى ، وفى نفس الوقت يعيشون عالة على ما يصنعه لهم هذا الغرب الرجيم ؛ لا يزرعون ما يأكلون ، ولا ينسجون ما يلبسون ، ولا يصنعون ما يستخدمون . وإنَّ أحدهم أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء قائلاً : يا رب أهلك الغرب ! يا رب أهلك الأمريكان ! ومطعمه من الغرب، ومشربه من الغرب ، وملبسه من الغرب ، غُذِى من الغرب.. فأنى يستجاب له ؟!! (١)

ونحن لا نطلب الافتتان بالغرب في مفاسده وضلالاته ، كما لا نطلب الجهل بعلومه الحديثة وتقنياته .

إن السر فى تخلف المسلمين ليس فى نصوص الدين– القرآن الكريم وصحيح السنة – نفسها فهى صالحة لكل زمان ومكان بفضل ما حباها الله تعالى بها من قابليتها : للفهم المتجدد ، والواقع المتغير ، والمعارف المتنامية ، والتقدم المذهل للعلم { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك : ١٤)

وليست هذه الخصائص التى تميز الشريعة الإسلامية عن أى شريعة أخرى دينية أو دنيوية بالشعارات الجوفاء أو بالأمر المستحدث الطارئ عليها إنما هى خصائص

---

(١) جاء فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ " ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ. يَمُدّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ. يَا رَبّ يَا رَبّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ. فَأَنّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ " .

أصيلة فيها ، التاريخ شاهد على ذلك ، متى قيض الله لها العلماء المجتهدين العالمين العاملين ، والمسلمين المؤمنين العاملين المخلصين .

إذن العيب ليس فى الشريعة الغراء إنما العيب فى المسلمين من : المتحدثين باسم الدين ، والمثقفين ، والفنانين ، أولئك الأناس الأعلى صوتاً والأكثر تأثيراً والأوسع انتشاراً ، أولئك المتطرفون فى الدين أو الدنيا .

إن المتحدثين باسم الدين الأعلى صوتاً والأكثر تأثيراً والأوسع انتشاراً هم "النصِّيون الحرفيون" [١] و" الظاهريون البدو " [٢] و" المتنطعون " وهم غير " علماء الدين " الذين قال الرسول الكريم ﷺ فيهم أنهم ورثة الأنبياء .

" إنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبِيَاءِ ، وَإنَّ الأنبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " (رواه أبو داود والترمذي)

أما النصِّيون الحرفيون الذين نعنيهم فهم أولئك النفر الذين لم يفهموا خصائص هذا الدين الحنيف الشاملة الوسطية الواقعية إنما فهموا الدين على إنه بعض النصوص المجتزأة التى يفسرونها تفسيراً حرفيا بعيداً عن مقاصد الشريعة ، وفقه الواقع ولا علاقة لهذه النصوص المجتزأة ، في الغالب ، بالعلم الصحيح ولا بالعقل الصريح ، ولا بالواقع المعيش !

---

(١) المفسر الحرفي يجتزئ فقرة ما من النص المقدَّس ويعزلها عن الرؤية العامة، ثم يلوى بعد ذلك عنق النص ويوظفه بالطريقة التى تَعنُّ له، أي أنه يفرض عليه أى معنى، إذ أن المفسر الحرفى قد تحرَّر تماماً من القيود الأخرى التى يفرضها عليه النص المقدَّس من خلال معناه الكلى .

(٢) ويقصد بهذا المصطلح أولئك الوعاظ المتخلفون حضارياً الذين ما زالوا يعيشون فى كهوف الجاهلية العربية ويصرون على صب الإسلام فى قالب العادات والتقاليد العربية البائدة ، أولئك الجهال بكل علم حديث وبكل معرفة إنسانية نافعة .

نقصد بهذا المصطلح " الظاهريون البدو" أولئك البدو غلاظ القلوب والأكباد الذين نصَّبوا أنفسهم كهاناً للإسلام ، دون مؤهلات علمية حقيقية ، وورثة لشريعته ، أولئك الذين لم يجز النبي شهادتهم "لا تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدَوِى عَلَى صَاحِبِ قَرْيَةَ " وقد نزل في حقهم: {الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله} أولئك البدو الذين قال النبى ﷺ فيهم : " أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه " (رواه البخاري) والمدهش أن هؤلاء البدو الأجلاف المتنطعين متكبرون يصرون على قصر فهم الدين عليهم وحدهم ولا يسمحون بالاختلاف معهم وكأن الدين ميراث شخصى ورثوه كما ورثوا لبس الجلابيب والعمامة .

ونقصد بالعلم هنا العلم الشامل الذى يكشف أسرار الكون ويستنبط قوانينه وينبه الأفهام ، ويوقظ العقول لترى وتدرس آيات الله فى الآفاق الكونية ، وفى النفوس البشرية .

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (فصلت : ٥٣)

ونقصد بالعقل الصريح هو ما يُميِّز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ولا يتحكم فيه هوى وولا تنحرف به شهوات .

أما فقه الواقع فنعنى به التحليل العميق ، والفهم الدقيق لأحوال المسلمين : اجتماعية ، واقتصادية ، ونفسية ... ، وفهم الواقع الخارجى: سياسيًا ، واقتصاديًا ، وعسكريًا ، وعلميًا ..، وفهم أهم الأفكار والمذاهب العالمية : كالعلمانية ، والاشتراكية ، الوجودية ، والرأسمالية ، والفاشية ، والنازية ، والديمقراطية ، والعولمة ، والنظام العالمي الجديد ...

إن المسلم لا ينبغي أن يعيش فى معزل عما يجرى حوله وإلا تخلف عنه فينبغى أن يكون متابعاً جيداً لما يدور حوله بل مشاركاً فاعلاً فيه .

ولم يكن المسلمون الأوائل بمعزل عن العالم الخارجى بل كانوا يتابعون الصراع الدائر بين الفرس والروم ، وكان النبى ﷺ يعلم أن فى الحبشة ملكا لا يُظْلَم عنده أحد، وأن الفرس لن يفلحوا لأنهم ولوا عليهم امرأة ، وأن جنود مصر هم خير أجناد الأرض ..

وترتب على جهلنا بالواقع أن تقدم غيرنا وتخلفنا ، صعدوا إلى القمر واكتفينا نحن بالغناء له ، تجمعوا حول الأهداف والمصالح الاستراتيجية ، واختلفنا حول أمور وقضايا فرعية ، حاربونا بأحدث الأسلحة الفتاكة ، وقاومناهم بالخطب العنترية البراقة .

إن أيدى الجهل والغباء والتخلف ما مست شيئاً إلا وأفسدته حتى ولو كان ديناً سماويًا ، فلا يؤخذ دين إلا ممن صحت عقولهم واتسعت آفاقهم .

إن هؤلاء النصيين الحرفيين يقفون بالعلم الدينى عند أقوال بعض علماء السلف يكررونها دون فهم لمنهجهم الفكرى ، والعملى وليس المراد بسنة الراشدين :

أقوالهم الجزئية : وآراؤهم الفردية فى الفقه أو التفسير أو ما شابه ذلك بل " منهجهم العام " فى فهم روح الإسلام ، وتطبيق أحكام القـرآن والـسنة أى اتبـاع المـنهج الفكرى والعملى لهم وهو منهج متوازن يقوم فيما يقوم على الثبات علـى الأصـول والغايات ، والمرونة فى الفروع والمسائل . (١)

ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب علـى اخـتلاف عـرفهم وعوائـدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم فقد ضلَّ وأَضَلَّ، وكانت جنايته على الدين أعظم ممـن طبب الناس جميعهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم بما فى كتاب واحد مـن كتـب الطب بل هذا الطبيب الجاهل والمفتي الجاهل أضر ما يكون علـى أديـان النـاس وأبدانهم " (٢)

أما مفهوم العلوم الحديثة والتقنيات المتقدمة عند هؤلاء النصيين الحرفيين فهـى من بدع الكفرة الفجرة ، ولا بأس من الاستفادة بالمخترعات النافعة أمـا الانـشغال بهذه العلوم فإن لم يكن حراماً فعلى الأقل خلاف الأولى،والأولى عكوف المسلمين ، كل المسلمين ، على حفظ المتون والشرح ، والاكتفاء ببيـع المـصاحف والـسُوُك (جمع سواك) وكتب التراث على أبواب المساجد لكسب الرزق .(٣)

مما أوقع الناس فى الحرج مع أن رفع الحرج عن الناس من مقاصد الـشريعة الغراء .

ولم يفهم هؤلاء النصيون الحرفيون والظاهريون البدو أنه عندما لا نزرع ما نأكل ولا نصنع ما نلبس ، ولا ننتج ما نحتاج إليه ، ونتسول كل ذلك من الكفرة الفجرة ، بزعمهم ، فإننا نكون قد أسأنا فهم الدين والدنيا جميعاً .

ولم يفهم هؤلاء المتنطعون أننا لو اكتفينا بالدعاء علـى أعـدائنا دون أن نـشفع الدعاء بالعمل نكون قد رضينا من الغَنِيمَةِ بالإيَاب حتى الإياب السالم لـن يمكننـا أعداؤنا منه .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ٢١٤ .
(٢) ابن قيم الجوزية " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨ .
(٣) من بضع عشرة سنة ترك بعض طلاب كلية الطب دراستهم واكتفوا ببيع السُوُك ، والمصاحف ، وكتب التراث ، وكانت ظاهرة غريبة صدمت المجتمع كله وتناولها الكثيرون بالدارسة فوجودوا أنها من آثار الفهم الخاطئ للدين ، وأن هؤلاء الطلاب ضحايا بعض من الوعاظ الجاهلين بالدين والدنيا معاً .

وهذا الفهم الضيق للدين والعلم والدنيا يلزم المتنطعون أنفسهم به كما يلزمون الناس جميعا به ، بل ويحضُّونهم عليه ، ولما كان المدعو قصارى جهده أن يبلغ درجة الداعى فإن المدعوين من فئات المجتمع المختلفة قصارى جهدهم أن يكونوا هذا الواعظ المتنطع .

أما العلمانيون الذين نعنيهم فعلى النقيض من النصيين الحرفيين فإذا كان النصِّيون الحرفيون والظاهريون البدو يرمون الدنيا والعقل وراء ظهورهم فإن العلمانيين ، من الماركسيين والوجوديين والماديين .. ، يرمون الدين وراء ظهورهم ، وإذا كان الوعاظ النصيون الحرفيون يقدّسون أقوال السالفين فإن المثقفين العلمانيين يقدّسون كتب دارون ، ونيتشة ، وماركس ، وسارتر ، وفرويد ...

والخلاصة إن كان الوعاظ النصيون الحرفيون والظاهريون البدو ييممون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كل فهم جديد للدين بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أَبدعه السالفين نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن المثقفين العلمانيين ييممون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كل فهم قديم للدين تخلف ورجعية وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم ، المادي ، والحكمة تقضى ، في نظرهم ، بأن نأخذ من الغرب فلسفته وفنونه وآدابه كما نأخذ علمه ومخترعاته أن نأخذ أفكار دارون ، ونيتشة ، وماركس ، سارتر ، وفرويد ... كما نأخذ علوم جاليليو ونيوتن وأينشتين ومندل ...

وإذا كانت حجة الوعاظ النصيين الحرفيين أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه فى أزهى عصورهم إلا بفضل تمسكهم بالدين ، واعتقادهم أن التمسك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقق لهم ما تحقق لأسلافهم من ظهور على سائر الأمم .
فإن المثقفين العلمانيين يقولون إن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت فى أسباب العلم المادى .

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدم المسلمون عندما تمسكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم الوعاظ النصيين الحرفيين له .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما يفهمه النصيون الحرفيون على أنه نقل لا عقل فيه ومأثور لا فقه فيه وثبات لا تطور فيه !!

كما أن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت فى أسـباب العلم المادى وهذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحته أوربا والذى كـان عائقاً للتقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلمية ! ليس هـو دين الإسـلام الذى يجعـل العـلم ، بمفهومه الشـامل ، فريضـة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقـائق العلمية .

أما ثالث الأثافى فهم الفنانون والإعلاميون وأعنى بهم دعاة الرذيلـة والانحـلال ومفسدى العقل والذوق منهم .

فإذا كان النصيون الحرفيون ، والعلمانيون الماديون أصحاب رأى ودعاة فكـر ، وإن كنا نختلف معهم فى آرائهم وأفكارهم ، فإن هؤلاء الفنـانين أصـحاب هـوى ودعاة غرائز دنيا يركزون على إثارة الغرائز الجنسية والشهوات النفـسية وتـدمير العقل وتغييب الوعى .

أولئك الذين يستخدمون الفنون والآداب فى إثارة الغرائـز ، وتخريـب العقـل ، وتدمير الروح بدلاً من إثارة العواطف النبيلة ، والذوق الرفيع ، وإثـارة الحماسـة للعمل والجهاد .

هؤلاء لا همَّ لهم إلا تدمير المجتمع ، واستنزاف طاقتـه ، وثرواتـه ، مـستغلين غياب الفهم الصحيح للدين ، واختلاط المفاهيم ، وضعف الإيمان .

مسكين شبابنا ، بل مساكين المسلمون في كل مكان ، إذ يخير بين أن يكون سلفيّاً لا عقل له أو علمانيّاً لا دين له ، أو ماجناً لا حياء له !! .

كما قال الشاعر :

اثنانِ أهلُ الأرضِ : ذو عقلٍ بلا * دينٍ وآخرُ ديِّنٌ لا عقلَ له

كثيراً ما يسألني بعض الشباب عن رأيى فى : الغناء ، اللحية ، النقـاب ، تنظـيم الأسرة ، القيمة النقدية لزكاة الفطر ، التصوير ، فوائد البنـوك ، أو غيرهـا مـن القضايا التى يشغل وعاظنا النصيون الحرفيون بها الـشباب . صـدقونى لا أدرى ماذا أقول لهم ؟

أحاول أن أرشدهم إلى ما هو أهم وأنفع ، وأن يأخذوا من أراء العلماء ما تطمئن له قلوبهم ولكن هذه الإجابة لا ترضيهم وأحاول أن أشرح سبب الخلاف فيظنوني أتهرب من الإجابة !!

وما عساه يكون جوابي أ ليس هو رأى من بين مئات الآراء المتضاربة المتصارعة الممزقة للأمة المهدرة لوقتها وجهدها ؟!

كثيراً ما أفكر في هؤلاء الشباب وأشفق عليهم ، وربما يكون الدافع من وراء هذا الكتاب هذه الحيرة وهذا التشتت الذي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . ربما أضاء لهم ، هذا الكتاب ، شمعة في هذه الكهوف المظلمة .

هذه أهم الطوائف المؤثرة فى توجيه المجتمع العربى ، وأكثر المتأثرين بهذه الطوائف الضالة من الشباب وإن كانت الطائفة الثالثة، الفنانون ،أكثر استهواء لهم .

وهذا لا يعنى أن بقية المجتمع راشدة وتسير على الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

إنما الحقيقة المؤسفة أن هذه الأكثرية من أفراد المجتمعات العربية مشغولة بحياتها اليومية ، وفلسفتها الخاصة التى شكلتها بيئتهم الخاصة ، وعقيدتهم " متى كانت المصلحة الخاصة كان العمل والسعي " و " أنا ومن بعدى الطوفان " !

وقليل أولئك الباحثون عن الحق العاملون به ، قليل أولئك الذين يخلصون العمل لله ، قليل أولئك الذين يعبدون الله حق العبادة . وليس في هذا مبالغة ، ولا دعوة تشاؤمية إنما هى سنة الله فى خلقه { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } (يوسف : ١٠٣)

{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } (يس : ٧)

{ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } (الأعراف : ١٠٢)

وأن القليل أولئك السائرون على طريق الحق .

{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِى الشَّكُورُ } (سبأ : ١١٣)

{ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } (ص : ٢٤)

وإليك هذه الأدلة الواقعية على أن أكثر المجتمع العربي مقصرون في العمل بشريعة الإسلام وسنة خير الأنام .

هل تذكر آخر مرة ذهبت إلى مصلحة حكومية لقضاء حاجة لك ؟

أتذكر كم مرة أجبرت فيها على دفع رشوة لتحصل على حق من حقوقك : استخراج رخصة قيادة أو تجديدها ، تركيب تليفون أو إصلاح أعطاله ، استخراج أى شهادة أو تصريح ...

هل لك تلميذ فى إحدى مراحل التعليم المختلفة ؟

أتذكر كم واحد من القائمين على العملية التعليمية أدى واجبه على الوجه الذى يرضى الله دون انتظار مقابل ؟!

أتذكر كم طبيب زرته ليخفف من آلامك فزادها ؟! إما بتفاقم العلة أو بتفاقم المبلغ الذى تقاضاه منك !

أتذكر يوم أن أردت بناء بيت لتسكن فيه أنت وأولادك ؟ أتذكر كم من الأموال دفعتها لموظفى الحى لاستخراج رخصة البناء أو إدخال المرافق من ماء وكهرباء؟!

أتذكر يوم استعملت عاملاً ، أي عامل ، سباك ، نقاش ، كهربائي ، سمكري ، ميكانيكي ، نجار ...

أتذكر كم واحد من هؤلاء أنجز مهمته على الوجه الذى يرضى الله ، وفى الميعاد المتفق عليه ؟ وكم واحد من هؤلاء أخذ فقط الأجر الذى يستحقه دون استغلال ؟!

أظنك الآن قد اقتنعت أشد الاقتناع .

وإذا لم تكن مقتنعاً بما سبق أو أنك قليل الخبرة بالحياة فسأعرض عليك صورة تراها كل يوم وربما لم تعد تستوقفك من كثرة ما اعتدت عليها إنها صورة الشوارع، وخاصة في الأحياء الشعبية ، فالشارع قد يتسع لأربع أو خمس سيارات ومع ذلك فإن حالات اختناق المرور مزمنة رغم هذا الاتساع ويرجع ذلك لأعمال الحفر التي لا تتوقف أبداً ، والتي لا يتم إصلاحها بعد إتمام المهمة فيها ، وإن تمَّ إصلاحها فسرعان ما يستولى أصحاب المحال على بضعة أمتار من الشارع

ليعرضوا فيها بضائعهم ، غير قانعين بمحالهم ، ثم يأتي الباعة العشوائيون ليستولوا على بضعة أمتار أخرى من الشارع فلا يبقى من الشارع إلا ما يسع عربة واحدة فقط ، إن وسعها ، يشاركها فيه المارَّة أيضاً ؛ لأنهم لا يجدون رصيفاً وقد احتله الباعة ، وإذا توقفت سيارة ، وكثيراً ما يوقف سائقو الميكروباص والتوك توك سياراتهم وقوفاً متكرراً وسط الطريق ، يتوقف على إثره قطار من السيارات ، وإذا حاولت الحكومة إصلاح الأمر وإخلاء الطريق من التعديات ومن الباعة الخارجين عن النظام ضرب الناس كفاً بكف عجباً ولعنوا هؤلاء القساة الظالمين الذين يحاربون الناس فى أرزاقهم مع أن المارة هم أكثر الناس تضرراً من هذه الفوضى وطالما شكوا من هذه الفوضى وعدم النظام الذي عطَّل أعمالهم وضيع أوقاتهم ، وبعد ساعة أو أقل يعود الشارع كما كان أو أسوأ مما كان ، وفى الغالب لا يحدث تنظيم لفوضى الشوارع إلا بسبب مرور أحد المسئولين من هذا الشارع وبعد مرور الرئيس أو الوزير أو المسئول أيّاً كان يعود الوضع على ما كان عليه ، وبدلاً من قيام عمال البلدية بواجبهم فى إصلاح حال الشوارع والمرور والعمل على استتباب النظام يمد كثير منهم أيدهم ليأخذوا رواتب إضافية من المخالفين للنظام ، وهم بهذا يأخذون رواتب من الحكومة على إفساح الطريق لكبار المسئولين فقط ويأخذون رواتب أخرى من المخالفين لسد الطريق على المواطنين !!

ثم يضج الناس بالثورة على الحكومة والنظام وأن هذا البلد لم تعد يُطاق مع أن أخاه هو صاحب المحل الذى استولى على الرصيف الخاص بالمشاة وابن عمه هو الذى وضع عربة الفاكهة ليسد بها الطريق وابنه هو سائق الميكروباص ، وابن خاله هو عضو مجلس الشعب الذى حافظ على هذه الفوضى لصالح أصحاب النفوذ من الفوضويين الذين يعطونه أصواتهم فى الانتخابات ، وأن عمه هو واعظ المسجد الذى ما نهى عن هذه المنكرات .

إن الناس تظن أن النظافة والنظام والعمل والإتقان تهبط على الناس من السماء ولقد هبطت على أوربا وأمريكا فتحضروا وأخطأت طريقها إلى بلادهم فتخلفوا !!

لكن ليس معنى هذا أن الحياة خلت من المؤمنين الصالحين المصلحين فهم موجودون في كل زمان ومكان لكن للأسف قليلون { ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ } (الواقعة : ١٣ ، ١٤) وأصواتهم غير مسموعة وأعمالهم غير مرئية ،

ودعوتهم مستنكرة ، فهم فى نظر الوعاظ النصيين الحرفيين مقصرون في العبـــادة والعلم الشرعي ، وفى نظر العلمانيين والفنانين والإعلاميين هم والوعاظ الحرفيون سواء ظلاميون رجعيون .

وإذا كان هذا هو حال القوى الموجِّهة ، وحال فئات الشعب المختلفة .

فهل نتوقع أن يكون لنا شأن أو قيمة فى هذا العالم ؟

لقد وقفنا فى على سبب تخلفنا فماذا عساه يكون طريقنا للتقدم والرقى ؟

هذا ما نحن بصدده الآن .

إن الذى أدَّى إلى تخلف المسلمين هو الفهم الخاطئ لطبيعـــة الإنــسان ، ولنظـــام الكون ، ولخصائص الدين الإسلامى .

فالإنسان ليس روحاً فقط كما فهم الوعاظ ، وليس عقلاً فقط كما فهم العلمـــانيون، وليس غرائز جنسية فقط كما فهم الفنانون ، إنما الإنسان : روح ، وعقل ، وجسد ، وقلب . {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين : ٤)

وأن من غذَّى جانباً من كيان الإنسان وأهمل الجوانب الأخرى كمن اكتفى بطعـــام واحد وأهمل سائر الأطعمة فحتماً سيصاب بالأمراض الناتجة عن ســوء التغذيـــة ، فسوء التغذية لا ينتج عن قلة الطعام إنما عن عدم تنوعه ليشمل جميع العناصر التى يحتاجها الإنسان فالجسد يحتاج إلى كافة العناصر الغذائية حتى يصح كـــذلك مـــن غذَّى جانباً واحداً من جوانب الإنسان وأهمل بقية الجوانب أو بعضها فإنـــه حتمـــاً سيصاب بنقص فى إيمانه يعرضه للانحراف فى سلوكه .

لقد خلق الله تعالى الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً ، وأنزل دينه متوازنـــاً فـــإن طبق الإنســـان دين الله فى فهم نفســـه وفى فهم الكـــــون فإنـــه يحقـــــق خلافـــة الأرض، وهى عبادة الله وتعمير الكون و تزكية النفس .

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــــهٍ غَيْـــرُهُ هُـــوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١)

فالآية الأولى تبين مهمة الإنسان فى الأرض وهى أن يكون خليفة في الأرض ، والآية الثانية تبين مفهوم هذه الخلافة وهى عبادة الله وتعمير الكون .

ولن يتحقق هذا إلا باتباع كتبه ورسله .

فإن أخذ الإنسان منهج الله وطبقه على كون الله ومخلوقاته تناغمت حياته وحيـــاة بقية الكائنات ، وكوَّن مع بقية الكائنات منظومة بديعة ، ويؤتيه الله { ثَـوَابَ الـدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران : ١٤٨)

وثواب الدنيا : السعادة ، والتقدم ، والظهور على الأعـداء ..، وثـواب الآخـرة {جَنَّاتٍ تَجْرِى من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وَمَـسَاكِنَ طَيِّبَـةً فِـى جَنَّـاتِ عَـدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (التوبة : ٧٢)

وإن لم يفهم نفسه ، ولم يفهم دين الله أصبح نغمة شاذة وسط لحن قدسـى عظـيم فأتعس نفسه ، وأفسد حياته وآخرته .

وسنحاول في هذا الكتاب أن نبين عناصر خلق الإنسان وكيف خلقـه الله تعـالى متوازناً ؟

ثم نبين التوازن فى الكون ، ثم نكشف عن توازن مـنهج الله فـى التعامـل مـع مكونات الإنسان المختلفة ، ومع عناصر الكون المختلفة .

* * *

الفصل الأول

توازن الإنسان والكون والإسلام

وقبل الحديث عن توازن الإسلام وملاءمته للإنسان والكون نتحدث أولاً عن مكونات الإنسان وكيف خلقه الله تعالى متوازناً رغم اختلاف مكوناته .

مكونات الإنسان

يتكون الإنسان من : نفس ، وروح ، وجسد ، وعقل ، وقلب .

وإليك بيان هذه المكونات :

الروح

وهى نفخة من روح الله .

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص : ٧٢)

وهى ما بها حَياةُ الأَنْفُسِ .

وهى تهفو إلى معرفة الله ، وتطمئن بالإيمان به وعبادته سبحانه .

ولا نعلم عن طبيعتها ومكانها شيئاً .{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (الإسراء : ٨٥)

والروح عند جمهور العلماء المسلمين هو مدبر البدن الإنساني ، ومبدأ حياته وهو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية ، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر .

ولقد خلط بعض الناس بين الروح والنفس والحقيقة أنهما مختلفتان . فالنفس هي ذات الإنسان ، أما الروح فنفخة الخالق ، جل وعلا ، فيه .

النفس

وهى ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر .

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس : ٧ ، ٨)

والنفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك : (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك : فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت . (١)

وكما أن النفس تتصف بالإيثار ، والإرادة ، والتواضع ، والطموح ، والكرم ، والعزة ، والكرامة ، والتعاون ، والرضا بالقليل ، وحب الخير للناس ... فإنها أيضاً تتصف بالأثرة ، والعجز ، والكبر ، والكسل ، والبخل ، والذل ، والأنانية ، والجشع ، والحقد ، والحسد ، والظلم ، والطمع ، والغرور ، والتفاخر ...

وتحتاج النفس إلى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير ، وأن تكون شيئاً مذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

العقـل

والعقل عند الفلاسفة هو بوجه عام ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، ويطلق على أسمى صور العمليات الذهنية بعامة وعلى البرهنة والاستدلال بخاصة وهو ما يعين على التجريد واستخلاص المعاني الكلية ، وهو وسيلة المعرفة فيدرك الجزئي كما يدرك المعاني العامة . (٢)

وعند علماء العربية ، العَقْلُ : العِلْمُ بصِـفاتِ الأَشْياءِ ، من حُسْنِها وقُبْحِها ، وكَمَالِها ونُقْصانِها ، أو العِلْمُ بخَيْرِ الخَيْرَيْنِ ، وشَرِّ الشَّرَّيْنِ ، ويكونُ بمُقَدِّماتٍ يَسْتَتِبُّ بِها الأَغْراضُ والمصالِحُ ، ولِهَيْئَةٍ مَحْمودةٍ للإِنْسـانِ في حَرَكاتِه وكَلامِه . والحَـقُّ أنه نورٌ روحاني ، به تُدْرِكُ النفسُ العلُومَ الضَّرورِيَّةَ والنَّظَرِيَّةَ. وابْتَداءُ وجودِه عند اجْتِنانِ الوَلَدِ، ثم لا يَزالُ يَنْمو إلى أن يَكْمُلَ عند البُلوغِ . (٣)

والعقل يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ...

---

(١) تفسير الفخر الرازي للآية الكريمة ج١٧ ص ٢٠

(٢) المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية .

(٣) القاموس المحيط .

القلب :

وهو مستقر الاعتقاد والإيمان ، وهو مجمع الوجدان والمشاعر ، وهو مستودع الأسرار ،كما أنه منبع الذوق الفني والإحساس بالجمال ، وهو متقلب : يحب ويكره، ويعمى ويبصر، يفرح ويحزن ، يطمئن ويخاف ، ويصح ويمرض ، ويَرق ويغلظ ، يرحم ويقسو ...

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ }
(آل عمران:١٥٩)

{ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ }
(البقرة : ٢٢٥)

ولقد لوحظ عند نقل قلب إلى شخص من غيره تتغير صفاته ، في الحب والكره ، والرقة والغلظة ، والرحمة والقسوة بل في الإيمان والكفر ...

تقول د. فريدة الحبيب : " ظاهرة غريبة تتعلق بالمرضى الذين أجريت لهم عمليات زراعة قلب أثارت انتباه علماء وأطباء الولايات المتحدة الأميركية، فبعد تغيير قلوبهم تغيرت أيضاً أمور جذرية عميقة في شخصيات هؤلاء المرضى، واكتسبوا بعض صفات أصحاب القلوب الأصلية " (١)

ويقول عبد الدائم الكحيل بعد دراسة متعمقة لمئات المرضى الذين نقلت إليهم قلوب طبيعية أو صناعية : " أن المريض بعد أن يتم استبدال قلبه بقلب طبيعي أو قلب صناعي، تحدث لديه تغيرات نفسية عميقة، بل إن التغيرات تحدث أحياناً في معتقداته، وما يحبه ويكرهه، بل وتؤثر على إيمانه أيضاً " (٢)

والقلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله .

" ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . ألا وَهِيَ الْقَلْبُ " (متفق عليه)

ويحتاج القلب إلى الإحساس بالأمن ، والحب ، والجمال ، والقبول ، والتناسق والنظام ...

---

(١) جريدة القبس الكويتية ١٩ مايو ٢٠١٠ .

(٢) موقع عبد الدائم الكحيل " أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " على الإنترنت .

الجســد :

وهو البــدن وما يحتوى عليه من الروح والنفس العقــل والقلب والحواس وســائر الأعضاء وله حاجات فسيولوجية أساســية لازمة لحفظ الحياة وصحته النفسية وبقاء نوعه ، وهي نوعان :

١- حاجات فسيولوجية خالصة ، وهي التي تحفظ حياة الإنسان وإذا لم تُلَبَّ يفقد حياته مثل : الأكل ، والشرب ، والتنفس ، والإخراج ، والنوم ، والراحة .... لذا الله جلَّ وعلا خلق في الجسد مُنَبِّهات تُنَبِّهه إلى ضرورة إشباع هذه الحياة فإذا كان في حاجة إلى طعام شعر بالجوع ، وشعوره بالجوع يتزايد ويؤثر على نشاطه وجسمه ، وكذلك إذا كان الجسم في حاجة إلى الشرب شعر الإنسان بالظمأ وإذا لم يشرب ما يروي ظمأه يتزايد هذا الشعور فيجف حلقه ، وتجف شفتاه ويفتر جسمه ، وإذا لم يتنفس شعر بالاختناق ، وإذا لم يخرج فضلاته شعر بآلام في بطنه وثقل .. وإذا لم يشبع الإنسان هذه الغرائز الفسيولوجية الخالصة مات .

٢- حاجات فسيولوجية ذات طابع اجتماعي ، وهي ضرورية لصحة الإنسان الفرد النفسية ، وبقاء الجنس البشري لكن إذا لم تُلَبَّ فإنها تؤثر بالسلب على حياة الإنسان الفرد النفسية لكن لا يفقد بسببها حياته ، وإن كانت تهدد بقاء الجنس البشري مثل : الجنس ، والأمومة ، والعمل ...

هذه هي مكونات الإنسان وهى كما بينا بينها اختلاف فلكل طبيعته الخاصة واحتياجاته الخاصة أيضاً ، ومع هذا الاختلاف لا يوجد بين هذه المكونات ثمة تناقض .

الفرق بين الاختلاف والتناقض

وهنا لنا وقفة للتفرقة بين مفهوم الاختلاف ومفهوم التناقض .

الاختلاف معناه تغاير في الخصائص والصفات لشيئين أو أكثر ولكن لا يعنى الاختلاف أن صحة أحد الأشياء المختلفة تكون بالضــرورة بطلان للشيء الآخر بل ربما يكونان متكاملين ، فمثلاً : الليل خلاف النهار فهل يعنى هذا أن أحدهما حق والآخر باطل أم أنهما متكاملان في نظر العقل .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ } (آل عمران : ١٩٠)

أما التناقض فمعناه أن صحة أحد المتناقضين بطلان للآخر ، فالحق نقيض بالباطل ، والإيمان نقيض الكفر ، والعدل نقيض الظلم ...

وإذا كان هذا كذلك فإن مكونات الإنسان متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين: ٤)

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (المؤمنون : ١٢- ١٤)

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً .

{ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً } (البقرة : ١٣٨)

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠)

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " (متفق عليه)

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

توازن الكون :

وكما خلق الله الإنسان في أحسن صورة خلق الكون في أحسن صورة ، وكما خلق الله تعالى الإنسان متوازناً في عناصره خلق كذلك الكون .

{ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (يس : ٤٠)

{ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } (الحجر : ١٩ - ٢٠)

تأمل قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .

إن الميزان أو التعادل بين القوى والمؤثرات ظاهرة كونية شاملة تمتد من الذرة إلى المجرة . إن حركة الالكترونات في أغلفتها حول النواة تنشأ من قوى طرد مركزية تتعادل مع قوة الجذب الكهربائية بينها وبين النواة ذلك بتأثير التجاذب بين شحنات الالكترونات السالبة وشحنة النواة الموجبة .

إن وجود الأجرام السماوية مرتبط بالتعادل القائم بين قوى جذب الأجسام المركزية كالشمس مع قوى الطرد المركزية الناتجة عن دوران الأجسام التابعة كالأرض في مدار الشمس ، ولولا هذا التوازن لانحدرت الأرض وسقطت داخل الشمس بفعل جاذبيتها أو لخرجت من مدارها بعيداً عن الشمس ؛ ولهلكنا من البرودة الهائلة ببعدنا عن الشمس ، وكذلك سائر الأجرام السماوية فإن بقاءها مرتبط بهذا التوازن المعجز .

كذلك في الكائنات الحية هناك توازنات دقيقة بين أجهزتها وتفاعلاتها ونواتج هذه التفاعلات ، فالجسم الإنساني مثلاً يحتوى على آليات اتزان عديدة يشترك في أدائها خلايا الجسم كله وأجهزته ومنها الاتزان الحراري ، والتوازن الهرموني ، والتوازن المعدني ، واتزان بين التجلط والميوعة ، واتزان الدم بين الحموضة والقلوية ، واتزان خلايا الجسم بين التصنيع والاستهلاك .

إن بقية الكائنات الحية والإنسان على سطح الأرض مرتبط بالاتزان القائم بين جاذبية الأرض والضغط الجوى الواقع على الكائنات من ناحية ، والسرعة الهائلة لدوران الأرض حول نفسها من ناحية أخرى .

كذلك إن ثبات القشرة الأرضية فوق الطبقة المصهورة التي تحتها مرتبط بتثبيت الجبال للقشرة بربطها بالطبقة المصهورة كذلك فلا تهتز القشرة وتترنح فوق الطبقة المصهورة التحتية تحت تأثير دوران الأرض بسرعتها الهائلة .

لكل كائن حي حيواناً كان أم نباتاً دورة حياة يتفاعل فيها مع التربة والماء والهواء وغيرها من الكائنات ، كما أثبتت المعارف الحديثة أن دورة الحياة في الإنسان ترتبط بدورة العناصر المحيطة فمن عناصر الأرض يتكون الإنسان وعلى نتائجها يتغذى ، ويتفاعل معها أخذا وعطاء في عملية التمثيل الغذائي والإخراج وتجديد الخلايا طوال حياته ثم يتحلل بعد مماته .

دورة الخلايا الحية والتي تتمثل في الاستهلاك ثم التجدد المستمر لخلايا الإنسان وغيره من الكائنات الخية فالخلايا الحية تتحول إلى مواد غير حية (الميت من الحي) لتحل محلها خلايا جديدة (الحي من الميت) مثال ذلك : الخلايا الجلدية تتجدد كل ٥٧- ٥٩ يوماً ، وخلايا الدم الحمراء كل ١٢٠ يوماً ، والصفائح الدموية كل ٧-١٠ أيام ، وكرات الدم البيضاء كل ٦-١٢ ساعة .

دورة الكربون : الكربون هو العمود الفقري للمركبات العضوية التي تتكون منها سائر الخلايا الحيوانية والنباتية ، يعتمد الإنسان في غذائه على الحيوان والنبات بينما يعتمد الحيوان في غذائه بدوره على النبات ، ويحصل النبات على غذائه من طاقة الشمس بتمثيل غاز ثاني أكسيد الكربون والماء من خلال عملية التمثيل الضوئي وبذلك يتحول ثاني أكسيد الكربون وضوء الشمس والماء إلى خلايا نباتية حية يتغذى عليها الحيوان والنبات لتكوين خلاياهم الحية من نواتج هضم الطعام "الميت" يتجدد ثاني أكسيد الكربون في الهواء الجوى بعمليات التنفس في الإنسان والحيوان والنبات (الميت من الحي) وتتحلل هذه الكائنات بعد موتها .[١]

توازن الإسلام :

وكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً – كما سبق وبينا– فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون ، فكيف ذلك ؟

أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن CD نيل سوفت .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥)

{ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } (الشورى : ١٧)

وحذّر الله تعالى الإنسان من اختلال الميزان ، والميل لجانب على حساب الآخر كالميـل للدنيا على حسـاب الآخرة أو الميل للجسـد على حسـاب الروح { ولا تخسروا الميزان }

{ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن : ١- ٩)

وتدبر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون ، وأمره تعالى للإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون ، وأكد الله تعالى هذا بالتقرير {ووضع الميزان} والتعليل {ألا تطغوا في الميزان } (لكي لا تتجاوزا الحـد) والأمـر {وأقيموا الوزن بالقسـط} ثم بالنهى {لا تخسـروا الميزان} .

أهناك تأكيد أكثر من هذا على وجوب اتخاذ التوازن منهج حياة ودستوراً شاملاً لفهم الدين والدنيا جميعاً ؟!

ثم تدبر ثانية قوله تعالى " وأقيموا الوزن بالقسط " والقسط هو العدل ، لكن ما هو العدل ؟

ميزان العـدل

للعدل معانٍ كثيرة منها " العدل: ضدُّ الجور ، وعدّل الميزان : سوّاه ، العَدْل هو الذي لا يَميلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم ، وقيل : العَدْل تَقويمُك الشيءَ بالشيءِ من غير جنسه حتى تجعله له مِثْلاً ، ومن أسماء الله تعالى: الحكم العدل . " (١)

ومن هذه التعريفات للعدل يتبين لنا أن ميزان العدل يجب أن يكون .

أولاً : مُنَزَّهاً عن الهوى .

---

(١) انظر مادة عدل في لسان العرب .

ثانياً : غير جائر في الحكم .

ثالثاً : مقوِّماً (بتشديد الواو وكسرها) ما ليس من جنسه .

وبناء على هذا التعريف إذا أردنا ميزان عدل للإنسان فمن الذي يضعه ؟

هل يضعه الإنسان نفسه ؟

بالطبع لا .. لأن الإنسان غير مبرأ من الهوى .

كما أن الإنسان من نفس جنس المُقَوَّم (بتشديد الواو وفتحها) فكيف يكون هو الخصم والحكم في آن واحد ؟!

والعدل يقضي أن خالق الإنسان هو الذي يضع له ميزانه وهو الذي يحكم به ولا سيما أن هذا الخالق – سبحانه– مُنَزَّه عن الهوى بالإضافة إلى إحاطة علمه وشموله لكل ما في السموات والأرض وما بينهما وعلم ما شاء من شيء بعد .

كما أن هذا الخالق – سبحانه وتعالى – هو الذي خلق السموات والأرض بميزان العدل { وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } (الرحمن : ٧) .

والله تعالى سوف يحاسب الناس يوم القيامة بمقتضى هذا الميزان العادل الذي لا ظلم فيه .

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } (الأنبياء : ٤٧)

فترى ماذا يكون الميزان العدل هذا ؟

إنه كتاب الله تعالى : القرآن الكريم { الرحمن علم القرآن }

والله تعالى يأمر نبيه الكريم ، وكل ولي أمر أن يحكم بكتاب الله العزيز الحكيم، وألا يتبع أهواء وميول البشر باسم الديمقراطية فلا اجتهاد في نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة إنما الاجتهاد في غير ذلك.[1]

---

(١) ولقد ضل أقوام حكَّموا عقولهم وأهواءهم وطرحوا دين الله بالكلية ؛ فأباحوا الخمر والميسر ، والزواج المثلي ، أباحوا الزنا والسفور والفجور والشذوذ ... كل هذا باسم الديمقراطية وأن الناس اختارت ذلك وأقرته !!

{ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ } (المائدة : ٤٩)

{ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } (الأنعام : ٥٧)

وأن هذا الأمر ليس جديداً على الإنسانية فمنذ أن أرسل الله تعالى رسله للناس أنزل معهم بيان الحق وكتاب الشرع ، وميزان العدل ؛ ليقضوا بين الناس بما علمهم الله ولا يتبعوا أهواءهم .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥)

ولم يترك الله تعالى الأمم تتخبط خبط عشواء تحتكم لعقلها القاصر أو أهوائها الجامحة إنما أرسل لكل أمة رسولاً ليقضي بينهم بالحق والعدل .

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } (يونس : ٤٧)

كما أمرنا الله تعالى أن يكون ميزان العدل الإلهي هو القانون الذي نحتكم إليه.

{ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (الشعراء : ١٨٢)

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقاً لا يشمل الأقرباء دون الغرباء، ولا الأغنياء دون الفقراء ، ولا الضعفاء دون الشرفاء ، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهي سواء بسواء .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (النساء: ١٣٥)

وكان النبي مثال العدل بما فهم عن الله تعالى .

{ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (المائدة : ٤٢)

وأخبرنا النبي ﷺ أن اختلال ميزان العدل كان السبب في هلاك الأمم .

" إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " (متفق عليه)

كما أمر الله تعالى بالعدل بين طوائف المؤمنين ، وبقتال الطائفة الباغية حتى ترجع لأمر الله فإن رجعت يصلح بين الطائفتين بميزان العدل الإلهي .

{ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الحجرات : ٩)

وتأمل معي ختام الآية والتأكيد الشديد على إقامة العدل بين الناس أجمعين ؛ فميزان العدل الإلهي يتسع ليشمل كل الناس مسلمين وغير مسلمين .

{ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة : ٨)

ومن مظاهر هذا العدل المطلق أنه شمل الأعداء أيضاً أهناك أعظم من هذا ؟

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ (أي لا يدفعكم كره) قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } (المائدة : ٨)

أليس هذا العدل هو عين الرحمة وأن من أنزله هو الرحمن الرحيم ؟

أعرفت الآن لم بدأ الله تعالى آيات سورة الرحمن ، بل السورة بل جميع سور القرآن[١] ، باسم الله تعالى " الرحمن "[٢] ذلك الاسم العظيم الذي لا يشاركه فيه أحد والذي من آثار رحمته أن أنزل القرآن .

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا } (الإسراء : ٨٢)

هذا القرآن العظيم الذي هو شفاء لأمراض القلوب ، وأوهام العقول ، وشهوات النفوس .. ورحمة للمؤمنين لأنه { يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف : ١٥٧)

---

(١) ما عدا سورة التوبة لأنها نزلت في المشركين وهم لا يستحقون رحمة الله تعالى{ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} (الأعراف:١٥٦)

(٢) وأكثر العلماء على أن "الرحمن" مختص بالله عز وجل ، ولا يجوز أن يسمى به غيره ، وقد قيل في اسمه الرحمن: إنه اسم الله العظم؛ ذكره ابن العربي ، وقيل {الرحمن} لجميع الخلق .

ومن آثار رحمته تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠) ، وتعليمه البيان (أي تعليمه من العلوم والمعارف ما يعينه على فهم القرآن ومعرفة أحكامه)

{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }

(القيامة : ١٧ – ١٩)

ومن آثار نعمة الله تعالى علي الإنسان أن خلق له هذا الكون .

{ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} (الرحمن : ٥– ٧)

وجعل فيه من كل شيء موزون بميزان العدل الإلهي .

{ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } (الحجر : ١٩– ٢٠)

وعلى هذا تحدد الآيات – أوائل سورة الرحمن – أولويات الإنسان :

فأولاً : وقبل كل شيء أن يعرف خالقه " الرحمن " ثم يتبع أوامره " القرآن " ليفهم نفسه ويفهم الكون .

وأن كلا من القرآن ، والإنســان ، والكون يتسمون جميعاً بمــيزان العدل ولا عجب فجميعهم صادرون عن الرحمن : فالقــرآن كلامه ، والإنســان خليفته ، والكون بديع صنعه .

إن رحمة الله تعالى قد وسعت كل شيء وصدق الله العظيم إذ يقول :

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَــاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } (الأعراف : ١٥٦)

قال رسول الله ﷺ : " لما خَلَقَ اللهُ الخلقَ كَتبَ في كِتابٍ كتبهُ على نفسه ، فهو موضوع عندهُ على العرشِ : إنَّ رَحمتي تَغلِبُ غضَبي ". في رواية: " سَبَقَتْ غضبي " .(متفق عليه)

وكما أمر الله تعالى الإنســان بالتزام ميزان العدل ، نهاه أيضاً عن الإخلال به {ولا تخسروا الميزان } .

وبعد الحديث عن العدل يأتي الحديث عن الظلم ؛ أفليس بعد العدل إلا الظلم ؟

والظُّلْمُ : وضْعُ الشيءِ في غير موْضِعِه ، والخروج به عن مقتضى العدل ، فمن كفر بالله فهو ظالم لحقِ ربه عليه .

{ يَا بُنَى لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }(لقمان ١٣)

ومن يتعدى حدود الله ظالم لنفسه .

{ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } (الطلاق : ١)

والمقلد غيره ظالم عقله .. والظالم عقله حيوان .. والظالم أهله عاق .. والمتجبر ظالم الناس .. والمهمل في عمله ظالم صاحب العمل.. والذي يغش لينجح ظالم المجتهد .. والراهب ظالم دنياه ، والكافر ظالم آخرته ...

فهل بعد هذا البيان تسمع دعوى جهلة الدين وخوارج العصر الحديث القائلة بأن الدين مأثــور لا علاقة له بالمعقول أو أنه نقل لا عقل ؟!

ولا غرو أن انتشار هذه المفاهيم الخاطئة بين المسلمين قد أوردتنا موارد الهلكة ، ونزعت من قلوب أعدائنا مخافتنا ، بل جرأتهم علينا وعلى ديننا حتى أصبح الإرهابي يعنى المسلم عند الغرب !! .

اتفق أنى تقابلت مع مجموعة من الطلاب الروس الذين يدرسون اللغة العربية وجرى بيني وبين أحدهم حوار طويل وعندما آنست منه ارتياحاً لكلامي عرضت عليه الإسلام – وكان ملحداً – فأجابني على الفور أتدعونني للتخلف ؟! إن المسلمين هم أكثر الناس تخلفاً في العالم ، وتاريخهم كله مؤامرات وقتل و .. و..

واضطررت لمقاطعته وعبثاً حاولت إفهامه أن هناك فرقاً كبيراً بين الإسلام وما يدعو إليه من عدل وإحسان وما ينهى عنه من فحشاء ومنكر وبغى ، وبين أفعال المسلمين ، وكان صعباً على الرجل أن يفهم أن المسلمين المتخلفين أصحاب دين عظيم ، وعندما تدبرت الأمر عذرت الرجل فما يعرفه الغرب عن أحوال المسلمين يزكم الأنوف .

لقد أساء كثير من المسلمين للإسلام مرتين مرة بعدم فهمه الفهم الصحيح ، ومرة عندما نفَّروا غيرهم منه .

ومن أحجيات الدهر أن تلصق تهمة التطرف والإرهاب بالإسلام ذلك الدين القيم الذي لا تعرف عقائده ولا شرائعه إلا العدل والرحمة ومصلحة العباد الحكمة .

يقول ابن القيم : " إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ص – أتم دلالة وأصدقها وهي نوره الذي به أبصر المبصرون وهداه الذي به اهتدى المهتدون وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم وهي العصمة للناس وقوام العالم وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقى من رسومها فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة" (١)

فمدار الشريعة الإسلامي هو مصلحة العباد في المعاش والمعاد بعكس جميع المذاهب والأفكار البشرية التي تعرفها دنيا الناس والتي تتسم بتطرفها في الدين أو تطرفها في الدنيا أو تطرفها في كليهما .

والإسلام يتفرد بأنه وسط في الاعتقاد والتصور.. وسط في التعبد والتنسك .. وسط في الأخلاق والآداب .. وسط في التشريع والنظام .

وسطية الإسلام

الإسلام وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد فيصدقون بكل شيء ، ويؤمنون بغير برهان ، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا

---

(١) ابن قيم الجوزية " أعلام الموقعين عن رب العالمين " ج٣ ص ٣ .

يستمعون لصوت الفطرة ، ولا لنداء العقل ، فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني ، وما عدا ذلك يرفضه وشعاره دائما { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } (البقرة : ١١١)

والإسلام وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار ، وألَّهوا الأوثان والأحجار .

وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدراً لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنـــون إلا بالوحي والإلهام ولا يعـــترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات، فالإسلام يؤمن بالعقل ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ، ويخاطبه بالأوامر والنواهي ، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود وهما : وجود الله تعالى ، وصدق دعوى النبوة ، ولكن يؤمن بالوحي مُكَمِّلاً للعقل ومعيناً له فيما تضل فيه العقول وتختلف ، وما تغلب عليه الأهواء ، وهادياً له إلى ما ليس من تخصصه ولا هو في مقدوره من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى .

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر

والإسلام وسط في عباداته وشعائره بين الأديان والنحل التي ألغت الجانب الرباني – جانب العبادة والتنسك والتأله – من فلسفتها وواجباتها كالبوذية التي اقتصرت على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده .. وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبنة المسيحية .

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة ، أو في السنة كالصوم ، أو في العمر كالحج ليظل دائما موصولاً بالله ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله .

وسطية الإسلام في التشريع

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي . فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم وكثرت فيه المحرمات ، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في كتابهم المقدس : العهد القديم ، والعهد الجديد .

الإسلام لم يحرم إلا الخبيث الضار كما لم يحل إلا الطيب النافع ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف : ١٥٧)

التوازن بين الفرد والجماعة

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي ، والمذهب الجماعي ، فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية ، واعتبار الفرد وهو المحور الأساسي فله حرية التملك ، وحرية القول ، وحرية التصـــرف ، وحرية التمتع ، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفســـه ، وإضرار غيره مادام يستعمل حقه في " الحرية الشخصية " فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا ، وينفقه في اللهو والخمر والفجور ، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين ، ولا سلطان لأحد عليه لأنه " هو حر " .

والمذاهب الاشتراكية – وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية – تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه ، والإكثار من واجباته ، واعتبار المجتمع هو الغاية و هو الأصل ، وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك " الآلة " الجبارة التي هي المجتمع ، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة ، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم ، وإذا شئت قلت هي اللجنة العليا للحزب ، وربما هي زعيم الحزب فحسب ، هي الدكتاتور !! إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات ، وليس له حق المعارضة ، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته ، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي ، فالسجون والمنافي وحبال المشنقة له بالمرصاد !

فلا عجب أن جاء الإسلام – وهو دين الفطرة – نظاماً وسطاً عدلاً لا يجور على الفرد لحساب المجتمع ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه ، وإنما يكلفه من

الواجبات في حدود وسعه ، دون حرج ولا إعنات ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته . (١)

قانون ماعت

لقد كتبت ما سبق ذكره عن ميزان العدل ونشرته منذ ما يقرب من عشر سنوات، وكنت أُعدُّ هذا المفهوم عن ميزان العدل غيـر مـسبوق وفوجئـت ، وأنـا أدرس الحضارة المصرية القديمة بأن المصريين القدماء توصلوا إلى هذا المفهوم ، وإليـك ما جاء عن هذا المفهوم في الحضارة المصرية القديمة .

إن حكام مصر في عصر الدولة القديمة قد اتخذوا قانون " ماعت " دستوراً للحكم، وأن طاعة المصريين حكامهم كانت مشروطة بالتزامهم بتطبيق قانون ماعت فـإن خرجوا عليه ثار المصريون عليهم .

ولقد مثلت شريعة " ماعت " القانون الأساسي لجميع الطبقات الاجتماعية، ولم يكن هناك من هو فوق القانون على الإطلاق ، وكان المواطنون في مصر القديمة طائعين للقانون، حيث خشوا العقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وكانت الدعاوى القضائية تنظر في المحاكم المحلية باستثناء الجرائم التي تنطوي على عقوبة الإعدام، التي ينظرها الفرعون باعتباره القاضي الأعلى .

يقول د. سليم حسن : كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنهـا فكـرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخـلاق ، فهـي العدالـة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقية واجتماعيـة فهـي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " **ومن ثـمَّ قَبِل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بـل لأنـه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعـون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خـالِق الخلْـق ، وقـد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يـسيرون حـسب**

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول وسطية الإسلام راجع كتاب " الخصائص العامة للإسلام " الفصل الرابع "الوسطية" د. يوسف القرضاوى مكتبة وهبة .

تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعية في تاريخ البشرية استمرت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون "ماعت " أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى . (١)

وبناءً على ذلك فإن فترة فرعون موسى تعد إحدى تلك الفترات القليلة التي خرج فيها الفرعون على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرةً لكل من تسوّل له نفسه الخروج عن قانون " ماعت " .

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ }(الزخرف : ٥٤ – ٥٦)

إن قانون " ماعت " هو شريعة الله التي أمر الله الإنسان بتطبيقها ، حتى يكون خليفة في الأرض ، ويحافظ على توازن الكون .

يقول علماء المصريات : " عندما خلق الخالق الكون ، شكَّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها ، وأن كل شيء بداخل هذا العالم مطابق للخطة الإلهية الموضوعة ، ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية ، وقد أطلق المصريون القدماء كلمة " ماعت " على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة .

كان هذا التفاعل بين القوى هو الذي ضمن نظام الكون بدءاً من مكوناته الأساسية : كالحركات السماوية ،وانتظام الظواهر الموسمية ،وتعاقب الزمن، وشروق شمس جديدة في كل صباح .

إلى أقل هذه الظواهر والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنّها الإله للأشياء ، واحترامها ، تلك القواعد التي اشتُقَّتْ منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخلقية . وهكذا كانت "ماعت"

---

(١) د. سليم حسن " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " الهيئة المصرية العامة للكتاب ج١ ص ٢٣٩

هي كُلاً من النظام الكوني ، والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون . " (١)

يقول يان أسمان (٢) : " ماعت تعني أساساً " النظام الكوني " أو " النظام الكوني المتكامل " ، وهذا التصور يجد ما يقابله في الفكر أو في مفردات الحضارات الشرقية الأخرى . ويلخص " شميد " (٣) النتائج التي حصل عليها بقوله : إن تأملات الحضارات الشرقية عن العالم تنطلق من نقطة واحدة وهي اعتقادهم في نظام كوني مطلق وكفيل هذا النظام هو الخالق الواحد الذي لم يخلق العالم فقط ، وإنما يحافظ على النظام الكوني كسيِّد أعلى والملك يمثله في نفس الوظيفة على الأرض . " (٤) وعلى أساس قانون " ماعت " سوف يحاسب الإنسان يوم القيامة فيوضع القانون "ماعت" في كفة ، وقلب الإنسان في كفة ، فقانون " ماعت " يكون : " صنجة (الثِّقْل) توضع في الميزان لوزن قلب الميِّت عند المحاكمة لمعرفة إذا كان "ماعتياً" أو بمعنى آخر يطابق ماعت أي إنسان خيِّر أم لا .. ولهذه الأسباب اعتبرت "ماعت" تجسيداً للحقيقة والعدالة . " (٥)

وهذه بعض إجابات إنسان ثقلت موازينه في الآخرة لأنه اتبع شريعة " ماعت " في الدنيا ولم يرتكب ما يخالفها .

- أنا لم ارتكب جريمة قتل .
- أنا لم ارتكب جريمة اغتصاب .
- أنا لم انتقم لنفسي ، ولم أُرْهِب أحداً ، ولم أقم بفتنة .

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٩٧

(٢) يان أسمان ، عالم ألماني كان يعمل بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، وهو يشغل منذ عام ١٩٧٦ منصب أستاذ بجامعة هيدلبرج أقدم جامعة ألمانية ، وفي عام ١٩٨٤ انتخب عضواً في أكاديمية العلوم بهيدلبرج . وقد نشر مصنفاً ضخماً يرجم فيه الأناشيد والأدعية المصرية القديمة .

(٣) شميد ، عالم متخصص في العهد القديم ، وأكثر علماء الغرب تحليلاً للتصور المصري للماعت ، والذي قدَّم تفسيره عن " العدالة كنظام الكون المتكامل " عام ١٩٦٨ والذي يعتبر اليوم رأيًا متفق عليه بين علماء المصريات . انظر يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " ترجمة د. زكية طبوزاده ، ود. علية شريف دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ص ٢٢

(٤) يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " مرجع سابق ص ٢٢ ، ٢٣

(٥) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٩٧ .

- أنا لم أسبب لأحد ألماً ، ولا حزناً .
- أنا لم أظلم أحداً من الناس ، ولم أتصرف بطريقة شريرة .
- أنا لم أسرق ، ولم آخذ شيئاً ليس من حقي .
- أنا لم أكن مختالاً ، ولا مطففاً في الميزان .
- أنا لم أفسد الأرض الزراعية .
- أنا لم أشهد بغير الصدق ، ولم أتهم أحداً زوراً .
- أنا لم أكن فاحشاً ولا بذيئاً .
- أن لم أحتقر أحداً ، ولم أسخر من أي إنسان .
- أن لم أتجسس على أحد .
- أنا لم أتعجل في إصدار حكم ، وإذا حكمت لم يكن حكمي قاسياً .
- أنا لم أخطئ في حق أحد ، ولم أقصر في حق أحد .
- أنا لم ألوث المياه الجارية .
- أنا لم ألعن الله ولا احتقرته ، ولا فعلت ما يكرهه .
- أنا لم أسب الله ، ولم أسرق صناديق الزكاة والصدقات والنذور .

وهذه المبادئ التي جاءت في قانون ماعت يؤكدها ما جاء في " كتاب الموتى"،كتاب المصريين القدماء المقدس، عند دخول المتوفي قاعة الصدق (الحق) وقيامه بالدفاع عن نفسه يوم يرجع الناس إلى ربهم ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

- إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة .
- إني لم أرتكب القتل .
- إني لم أرتكب الزنا .
- إني لم أفعل ما يمقته الإله .
- إني لم أنطق كذباً .
- لم أكن طمّاعاً .
- لم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب .
- فمي لم يثرثر .
- إني لم أسرق .
- إني لم أسبب تعساً لأي إنسان .
- إني لم أترك أحداً يتضور جوعاً .
- لم أغتصب طعاماً .
- إني لم أنقص مكيال الحبوب .
- إني لم أسب .
- لم أكن متكبراً .
- لم أعب في الذات الملكية [1].

---

(1) د. حربي عباس عطيتو " الفكر الشرقي القديم " دار المعرفة الجامعية ص ٢٥٦ .

قانون ماعت وشريعة الإسلام

وبناءً على ما ذكره المصريون القدماء عن " ماعت " يمكن أن نستنتج الآتي :

١- أن الله تعالى خلَق الكون بكل عناصره بدقة متناهية .

٢- كل عناصر الكون – بما فيها الإنسان – متوازنة في خصائصها ، ومتوازنة مع غيرها من بقية العناصر .

٣- إن أي خروج على نظام الكون يعد إفساداً له .

٤- أن الله تعالى أنزل قانون " ماعت " ليطبقه الإنسان في حياته ، فتصلح حياته وحياة سائر المخلوقات .

٥- يوم القيامة سيكون حساب الإنسان وفق قانون " ماعت " .

٦- الإنسان الخيِّر هو من جاء بقلب سليم مما يخالف قانون " ماعت " .

٧- الإنسان الشرير هو من كذَّب بقانون " ماعت " واتبع هواه .

ولو قارنًا قانون " ماعت " بشريعة الله كما تبدَّت في أروع صورها في الديانة الإسلامية آخر الرسالات السماوية لوجدنا أن الإسلام لا يناقض شيئاً من قانون "ماعت" بل جاء بتمام هذا القانون وكماله .

***

الفصل الثاني

الإســلام والــروح

الماديون والروح

الروح كما بينا نفخة من روح الله تحتاج لمعرفته تعالى وعبادته العبادة الصحيحة، وإذا لم تُشبع حاجتها أتعست صاحبها مهما كان حظه من نعيم الدنيا ، فنعيم الدنيا قد يسد جوع جسد الإنسان نعم ، لكنه أبداً لن يسد جوع روحه فلا غرو أن تجد أولئك الذين أهملوا غذاء أرواحهم تائهين لا يعلمون من هم ؟ ومن الذي أتى بهم في هـــذا العالم ؟ وما هدفهم في هذه الحياة ؟ وماذا بعد الموت ؟

هل هم أبناء هذه الأرض وتطوروا " من خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايـــين السنين . وقد تطورت هذه الخلية ومرت بمراحل منها ، مرحلـــة القـــرد ، انتهـــاء بالإنسان " كما زعم دارون ؟!

وهل " أن المادة أزلية أبدية وهى الخالق والمخلوق في نفس الوقت ؟!

وهل لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجـــود الإنـــسان لأن داروين قد جعل بين الإنسان والقرد نسباً ، وأن ماركس جعل مطلب الإنـــسان فـــي الحياة ينحصر في الحصول على (الغذاء والسكن والجنس) مهملاً بـــذلك جميـــع العوامل الروحية لديه ؟! " (١)

وهل تحققت لهم السعادة عندما أهملوا الروح وحشوا عقولهم بأفكـــار الملحـــدين أتباع العلمانية و الشيوعية والوجودية والداروينية القائلة بـــأن " الإنـــسان كـــالكون والحيوان والنبات وجد صدفة وسينتهي كما بدأ ولا توجد حياة بعد الموت " ؟!

---

(١) موقع الخيمة العربية على الإنترنت بتصرف .

والحقيقة أنهم رغم الترف المادي الذي يعيشون فيه لم يحسوا للسعادة طعماً ؛ فأغرقوا أنفسهم في مستنقع الخمور والفجور واستولى عليهم اليأس والقنوط وكان الانتحار هو النتيجة الحتمية لهذه الحياة التعسة " إن (٤٠) ألف مراهق فرنسي يحاولون الانتحار سنوياً ، وإن (٨٠٠) نفر من هؤلاء لاقوا حتفهم لحظة الانتحار، و إن (١٨٥٢٦) حالة انتحار في أميركا في العام الواحد ، وأوضحت نتائج الدراسة التي أجراها فريق أطباء في السويد أن الكحول يكون السبب في نسبة ٤٤ % من الوفيات وتشمل الوفيات التي تسببها الخمور عمليات الانتحار والسقوط من أماكن مرتفعة وخلص الأطباء إلى هذه النتائج إثر إجرائهم دراسات على وفيات وقعت في السويد طوال خمس سنوات . "[١]

وكان طبيعياً أن يلوذ بعض هؤلاء البائسين بالإسلام لينقذهم مما جنى عليهم الخواء الروحي .

إن الإسلام ينتشر على مستوى المفكرين والمثقفين في الغرب أكثر من انتشاره على مستوى العامة ، وينتشر على مستوى العامة في الغرب كلما ازداد الاختلاط والتقارب مع المسلمين فإن الغرب يجد ارتباطاً روحياً متمثلاً في البعد عن الخمر والإباحية والانتحار عند الاختلاط بالمسلمين كما يجد في دينهم منطقاً فطرياً خالياً من التعقيد وتسلط الرهبان على الشئون الداخلية. وكنت ألاحظ أن المرأة في أوروبا تشعر بغيرة شديدة من المرأة المسلمة المحجبة وتحسدها على استقرارها العائلي والنفسي بل على الجمال الذي يضفيه عليها الحجاب نفسه ، وأعتقد أن هذه الغيرة النفسية العميقة هي أول العوامل في انتشار الحجاب بين الفنانات عندنا. أما انتشار الإسلام بين المثقفين والمفكرين في الغرب فإنه أوسع وأهم وسيزداد مع ازدياد الاستشراق وازدياد مراكز دراسة الإسلام في الجامعات الغربية ونحن نشاهد الآن مؤتمرات وندوات عن الإسلام تعقد في الغرب "[٢]

برغم الحملات الإعلامية المغرضة في جميع وسائل الإعلام الغربية والأمريكية ضد المسلمين والإسلام ، إلا أن عدد الذين يعتنقون الإسلام يزداد بصورة ملحوظة فكل يوم تتوالى أخبار الداخلين في دين الله أفواجاً في الغرب. فهذا وكيل وزارة

(١) عن موقع وكالة الأنباء العالمية B B C على الإنترنت بتصرف .
(٢) د. صلاح عز رئيس اتحاد الطلاب المسلمين في بريطانيا سابقاً عن موقع الشبكة الإسلامية .

العدل الفنزويلى يعتنق الإسلام وهناك خمسة آلاف سويدي يعتنقون الإسلام حديثاً كما أكد ذلك تقرير أعده اتحاد المسلمين في السويد وأودع أخيراً مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة ، وبلغ عدد الذين اعتنقوا الإسلام في أسبانيا خلال السنوات الأخيرة أكثر من عشرين ألف شخص .. واللافت للنظر أن معظم المقبلين على الإسلام من المثقفين والعلماء الذين يعتنقون بعد بحث كبير بل إن هناك مئات الدارسين الغربيين المنصفين الذين أصدروا كتباً تؤكد سمو الإسلام ورسالته على جميع الأديان. فهناك جارودي ومحمد أسد ومريم جميلة وغيرهم الكثيرون .

فالأزمات المزمنة التي يعيشها الغرب الآن والأمراض الفتاكة مثل الإيدز الناجمة عن الإباحية وكذا جرائم العنف وحوادث الانتحار الجماعي والتفسخ الأسرى والخواء العقائدي تدفع بالكثيرين إلى البحث عن الحق وهو دين الإسلام .

إن الغرب اليوم يعيش في ظاهرة تمثل صحوة إسلامية رغم الحملات العارمة ضد الإسلام فإقبال النساء على الإسلام وارتداء الحجاب وانتشار المساجد والمراكز الإسلامية في أنحاء أوروبا يؤكد قوله تعالى: { هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } (الصف : ٩) [١]

العَلْمانيَّة : لغة ، واصطلاحاً

العَلْمانيَّة في العربية مشتقة من الكلمة (عَلْم) ، وهو مرادف لكلمة (عالَم)، ولا علاقة له بالعِلْم (بكسر العين) كما يتوهم الكثيرون ، ولما لم يكن في العربية (عَلْم) بمعنى العالَم، فإنهم قالوا أولاً : (عالَماني) .. ثم أسقطوا ألف المد الأولى من لفظ (عالَماني) وسكّنوا لامه ليصبح (عَلْماني) .

أما في الإنجليزية والفرنسية فهي مشتقة من اليونانية بمعنى "العامة" أو "الشعب" وبشكل أدق عكس الإكليروس أو الطبقة الدينية الحاكمة؛ وإبان عصر النهضة بات المصطلح يشير إلى القضايا التي تهم العامة أو الشعب بعكس القضايا التي تهم خاصته . [٢]

---

(١) نفسه .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن العلمانية راجع د. عبد الرحمن السليمان" تفكيك مصطلح العلمانية " موقع الجمعية الدولية لمترجمي العربية .

العَلْمانيَّة تعني اصطلاحاً فصل الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصًا السياسية عن المؤسسات الدينية .

تعرّف دائرة المعارف البريطانية العَلْمانيَّة بأنها : " حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشئون الأرضية بدلاً من الاهتمام بالشئون الأخروية . وهي تعتبر جزءًا من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة الداعية لإعلاء شأن الإنسان والأمور المرتبطة به بدلاً من إفراط الاهتمام بالعزوف عن شئون الحياة والتأمل في الله واليوم الأخير .

وقد كانت الإنجازات الثقافية البشرية المختلفة في عصر النهضة أحد أبرز منطلقاتها، فبدلاً من تحقيق غايات الإنسان من سعادة ورفاهية في الحياة الآخرة، سعت العَلْمانيَّة في أحد جوانبها إلى تحقيق ذلك في الحياة الحالية ." (١)

نشأة العَلْمانيَّة في أوربا

إن المنهج العلماني الذي انتهجته أوربا في إبان نهضتها لتتخلص من طغيان الكنيسة الكاثوليكية ومن سلطات البابا الذي كان له " سلطة دينية خاصة فهو يُوحى إليه ، من قِبَل الشيطان ، وله الأمر كله ، وهو يغفر السيئات ، ولا يملك أحد عزله، ويقضي بالحرمان حتى على الملوك .. وفي الوقت الذي لم يعد البابا تابعاً لأي من الملوك أصبحوا جميعاً بحكم أنهم مسيحيون تابعين للبابا وخاضعين له ، ثم خطا البابوات خطوة أخرى فأصدروا صكوك الغفران عندما أحسوا بالحاجة للمال لتحقيق أطماعهم وملذاتهم ، واهتمت الكنيسة بالخوارق تبعاً لمعجزات السيد المسيح، وحاربت العلم بناء على ذلك ، وتبعاً لهذا الاتجاه أعدمت الكنيسة حرقاً مايكل سرفتوس (١٥١٨ – ١٥٥٢) لأنه اكتشف الدورة الدموية الصغرى مع أن العالم الدمشقي ابن النفيس (١٢٨٨) اكتشفها قبله بأكثر من قرنين .. وحرقت الكنيسة كتب العلوم ، وساد ظلام كثيف عالم المسيحية وثار المثقفون الغربيون على الكنيسة، وبالتالي ظهر المصلحون ، وظهر البروتستانت ، وضعف صوت الكنيسة، واعتبرت أوربا سقوط سلطان الكنيسة واختفاء الدين تنويراً !! " (٢)

---

(١) www.britannica.com

(٢) د. أحمد شلبي " صراع الحضارات " ص ٦٢ – ٦٤ بتصرف .

إن هذا المنهج العَلْمانيَّ الذي كان له دوافعه ، آنذاك ، هو الذي حدا بأوربا إلى تنحية الدين عن مجالات الحياة : سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، علمية ، فكرية .

مما انحرف بالنهضة الأوربية عن طريق الحضارة الحقيقي الذي يقوم على المزاوجة بين العلم والدين . فعلى أساس دين الله الصحيح ، وعلومه المقدسة قامت الحضارات الكبرى : المصرية القديمة ، واليونانية ، والإسلامية .

يقول حافظ إبراهيم :

وَالعِلمُ إِن لَم تَكتَنِفهُ شَمائِلٌ	تُعليهِ كانَ مَطِيَّةَ الإِخفاقِ
لا تَحسَبَنَّ العِلمَ يَنفَعُ وَحدَهُ	ما لَم يُتَوَّج رَبُّهُ بِخَلاقِ
كَم عالِمٍ مَدَّ العُلومَ حَبائِلاً	لِوَقيعَةٍ وَقَطيعَةٍ وَفِراقِ
وَطَبيبِ قَومٍ قَد أَحَلَّ لِطِبِّهِ	ما لا تُحِلُّ شَريعَةُ الخَلّاقِ
قَتَلَ الأَجِنَّةَ في البُطونِ وَتارَةً	جَمَعَ الدَوانِقَ مِن دَمٍ مُهراقِ

ويجني الغرب ، وكذلك بقية العالم ، نتيجة تخليه عن شريعة الله : حروب ، وتلوث ، وأمراض ، وانتكاس خلقي ..

مقومات الحضارة والرقى

وحتى لا نخدع أنفسنا ونظن أنفسنا ، نحن المسلمين ، أننا أفضل من الغرب المسيحي واليهودي بما حبانا الله تعالى به من نعمة الإسلام التي لا فضل لنا فيها إلا جحودها جحود عمل وتطبيق لا جحود اعتقاد وتصديق على أحسن تقدير . يجب أن نعرف أن الله أوجب على الإنسان تعمير الكون كما أوجب عليه تزكية نفسه وعبادته جل وعلا ، وأن الغرب قد أخذ في أسباب العلم في تعمير الكون والاستفادة منه فأعطاه الله نصيبه في الدنيا من تقدم مادي وعلمي وظهور على سائر الأمم المتخلفة التي لم تأخذ في أسباب العلم والحضارة لكن لا نصيب لهؤلاء في الآخرة ؛ لأن أكثرهم لم يقوموا بمهمة الإنسان الأولى وهى عبادة الله وطاعته ، أما المسلمون فأكثرهم تظاهروا بعبادة الله – شكلاً – بأداء بعض العبادات كالصوم والصلاة دون أن تثمر فيهم هذه العبادات حسن الخلق ولا حسن العمل ، فصلُّوا لكن صلاتهم لم تنههم عن الفحشاء والمنكر فلم تزدهم صلاتهم من الله إلا بعداً ،

وصاموا عن الطعام والشراب وأفطروا على المعاصي والآثام فلم يكن حظهم من صومهم إلا الجوع ، وأهملوا- أو كادوا- مهمة الإنسان الثانية في هذه الحياة وهى تعمير الكون فتخلفوا حضاريًا ، فإذا كان أكثر الغربيين قد أهملوا دين الله الحق فشقوا في الدنيا ولم يعرفوا للسعادة ولا الطمأنينة طعماً وليس لهم في الآخرة من نصيب فقد أهمل أكثر المسلمين الدنيا فتخلفنا في الدنيا ولم نعرف للتقدم ولا للرقي طريقاً وليس لأكثرنا في الدنيا ولا في الآخرة من نصيب – إلا من رحم ربي – لأنه لا يدخل الجنة إلا من آمن بالله تعالى الواحد الأحد وزكى نفسه من آفاتها وعمل الصالحات ومن الأعمال الصالحات تعمير الكون .

تأمل معي هذه الآيات المباركات .

{ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً }
(الإسراء : ١٨-٢١)

والآيات شديدة الوضوح فمن يعمل للدنيا فقط يعطيه الله تعالى الدنيا ويصليه في الآخرة جهنم ، ومن يريد الآخرة لابد له من أمور ثلاثة : إيمان خالص بالله تعالى لا يشوبه شرك ولا رياء ولا سمعه ، وتخلي النفس عن الأخلاق السيئة وتحليها بالأخلاق الحسنة ، وسعى في الأرض لإصلاحها وإقرار العدل والرحمة فيها ، وإعمار الأرض ونشر قيم الحق والخير والجمال فيها من الأعمال الصالحة التي " لا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج ، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقى به الحياة ويسعد به الناس .. وكل عمل نافع يقوم به المسلم ، لخدمة المجتمع ، أو مساعدة أفراده .. " [(١)] .

يقول الله تعالى في سورة الشورى :

{ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } (الشورى : ٢٠)

ويقول تعالى { هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١)

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " ص١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف .

أي خلقكم من تراب هذه الأرض وأمركم بتعميرها فدخول الألف والسين والتاء على الفعل تدل على طلب القيام بالفعل كما يقول علماء اللغة فـ " استسقى " فلانا : أي طلب منه السقي ، و" استطعمه " أي : طلب منه أن يطعمه ، و" استعمره " في الأرض : أي طلب منه تعميرها وإصلاحها .

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " .

ويضرب الله تعالى المثل بذي القرنين ذالك القائد المؤمن ، وقيل أنه نبي ، الذي جمع بين الصلاح والإصلاح ، يذكر الله تعالى لنا قصته لتكون مثالاً لكل من يريد ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة يقول تعالى :

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا } (الكهف : ٨٣- ٨٥)

يبين الله تعالى بجلاء ووضوح لا يقبلان الشك ولا الجدال سر قوة وتمكين ذي القرنين في الأرض وهو أخذه في أسباب العلم والحضارة والتقدم والرقى .

{وآتيناه من كل شيء سببا}، قال ابن عباس: يعني علماً .

لقد أعطى الله تعالى ذا القرنين العلم فأخذ في أسبابه وأخذ العلم عن علماء كل بلد فتحها بعد أن تعلم لغاتهم " كان لا يعرف قوماً إلا كلمهم بلسانهم " (١) وبالعلم والإيمان ملك ذو القرنين الأرض .

سئل النبي عن ذي القرنين فقال: (ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب)(٢) .

ويؤكد القرآن أخذ ذي القرنين بأسباب العلم ثلاث مرات { فَأَتْبَعَ سَبَبًا } (الكهف: ٨٥) { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } (الكهف : ٨٩) { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } (الكهف : ٩٢) .

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الكوني : فيزياء وكيمياء وفلك ورياضيات وهندسة وراثية وعلوم تكنولوجية و .. وفي أسباب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: {وآتيناه من كل شيء سببا}.

(٢) هذا الحديث ذكره القرطبي في تفسيره وكذلك السيوطي عن ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعي) .

الحضارة من : نظام وتعاون وإخلاص ونظافة .. فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولاً أن يؤمن بالله تعالى ويؤدى ما فترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يقرن هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمناً .

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا استَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
(النور : ٥٥)

وفي سورة الروم يضرب لنا الله تعالى المثل بالأمم القوية الأشداء أهلها الذين استطاعوا أن يثيروا الأرض ويعمروها لكنهم كفروا بما جاءتهم به رسولهم من الهدى ودين الحق فأعطاهم الله نصيبهم في الدنيا : القوة والمنعة والعلو وكافأهم بسعيهم في الدنيا فلاحاً وما كان الله ليظلمهم في الدنيا لكنهم ظلموا أنفسهم في الآخرة بترك عبادة الله .

والأمثلة في التاريخ كثيرة فالحضارة اليونانية والرومانية والفارسية والأوربية الحديثة والأمريكية المعاصرة رغم عدم إيمان أكثرهم إلا أن الله مكن لهم في الدنيا ما داموا مصلحين للدنيا فإن تفش فيهم الفساد والظلم دمر الله عليهم .

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (الروم : ٩)

ويقول تعالى في سورة هود أنه سبحانه لن يعاقب الكفار المصلحين في الدنيا بكفرهم بل سيعطيهم أجرهم فيها بقدر إصلاحهم لها ، أما الآخرة فالنار مثوى الكافرين ، أما الأمم التي عاقبها الله تعالى في الدنيا فكان بسبب الإفساد في الأرض لا بسبب الشرك وحده .

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ }
(القصص : ٥٨-٦١)

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } (هود : ١١٧)

قوله تعالى: "وما كان ربك ليهلك القرى" أي أهل القرى . "بظلم" أي بشرك وكفر. "وأهلها مصلحون" أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده" [١]

فالظلم والطغيان والإفساد في الأرض هو سبب هلاك الأمم وليس الكفر وحده والتاريخ يشهد بذلك فأهل الغرب أكثرهم كافرون بالله تعالى لكنهم في الدنيا مصلحون أو على الأقل أفضل من المسلمين في إصلاح الدنيا وتعميرها فلم يهلكهم الله تعالى في الدنيا إنما أهلكنا نحن بهم بسبب ظلم أكثرنا وعدم إصلاحهم في الدنيا

يقول د. حسين مؤنس أحد مؤرخي العرب المحدثين: " إن الحضارة علم وتعاون وفهم ونحن لن نتحرك خطوة إلى الأمام إلا إذا كانت لدينا هذه الأربعة والعلم ليس شهادة بل معرفة وثيقة ومؤكدة .. مئات الشهادات عندنا خسائر قومية لأنها لا تساوى الورق الذي طبعت عليه والواحدة منهن ، أي من الأجنبيات الغربيات ، إذا جلست للعمل انصرفت إليه بقلبها وعقلها وإحساسها جميعا لأنها تريد أن تعمل أحسن ما يستطيع البشر وأقل من هذا لا يرضيها لأنها متحضرة وهي تتعاون مع زميلاتها خطوة خطوة لأن الحضارة تعاون والإنسان الفرد لا يمثل حضارة ولا ينهض بحضارة ، ومصيبة تاريخنا أننا لا نعرف التعاون .. ولو أن الناس عندنا لديهم أدنى إدراك لمعنى العمل المشترك لما كان الأتوبيس عندنا على هذه الصورة المزرية . سألني سائل : ماذا يخسر أولئك الناس لو وقفوا طابورا و تركوا

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٤ .

الخـــارج يخرج ثم دخلوا بالدور بنظـــام وقيمة ؟ قلت : هـــؤلاء يا أخي ناس غير متحضرين ، إنهم همج ، وإخواننا هؤلاء هم أبناء عمومة الآخرين الـــذين يربـــون البلهارســـيا في أجسادهم ، وهم أخوة العمـــال الذين أنتجوا ما يقدر بستة بلايين من الجنيهات بضائع لا يشتريها أحد لأنها لا تصلح للاستعمال والذين أنتجوها يعملـــون دائما دون تركيز ودون التفات ودون اكتراث إنهم غير متحضرين إنهـــم همـــج .. صدقني .. همج ! .. مثل هذا المستوى البدائي الذي نعيش فيه لا يمكـــن أن نـــصل إلى مستوى العلم والإنتاج الذي حدثتك عنه – يقصد الإنتاج الغربي – لأن هذا كله ثمرة العمل الجماعي ، وأنا عشت في أوساط العلم في أوروبا وأمريكـــا وأعـــرف كيف يتعاملون ، لا أحد يعمل منفرداً أبداً وكما أن السيارة التي حدثتك عنهـــا هـــي ثمرة عمل ألف يد وألف عين فكذلك كل قطعة فيها فإن العلم لا يـــزرع ولا يوجـــد على الأرض ولا يستخرج من البحار كاللؤلؤ إنما هو ثمرة العمل الجمـــاعي وقـــد وصل العلم في عصرنا إلى مستويات أشك معها في أن نستطيع اللحاق بهم فيها إلا إذا تغير فينا كل شيء فنحن بدائيون أنانيون ، ونحن مازلنا نهـــيم علـــى وجوهنـــا ضائعين في مجتمعنا هذا الذي هو في الحقيقة غابة . يقول لك الجامعيون لقد أعددنا مكانا لكل حاصل على الثانوية العامة ، وماذا سيفعل الطالب في هـــذا المكـــان ؟ لا شيء . إن أستاذه نفسه بعيد جداً عن فكرة العلم في عصرنا ، والمسالة كلها خطف، الطالب يخطف ، والأستاذ يخطف ، وقرود الغابة مطلقة على وجهها " [١]

ولو أن الغرب المتحضر وصله الإسلام بشكل صحيح ، وأن المسلمين لم يكونـــوا صورة شائهة له ، وكف إعلامه عن تشويهه لدخل الغرب المتحضر فـــي ديـــن الله أفواجنا ، ولتخلى عن كل المعتقدات التي يدين بها سواء أكانت سماوية محرفـــة أو دنيوية مؤلفة .

يسر العقيدة الإسلامية

عقيدة الإسلام تجيب عن كل ما يحير الإنسان في يسر ووضـــوح تجيـــب عـــن الأسئلة التي حيرت عقول البشر دون أن يهتدوا فيها لشيء .

من أنا ؟ ومن الذي أتى بي إلى هذا العالم ؟ وما هدفي في هذه الحيـــاة ؟ ومـــاذا بعد الموت ؟

---

(١) د. حسين مؤنس " المصريون والحضارة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٤٨- ١٥٠ .

فالمسلم يؤمن بأنه خلق من مخلوقات الله .

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (المؤمنون : ١٢- ١٤)

بل جعل الله تعال الإنسان أفضل مخلوقاته وسخر له ما في الأرض جميعاً .

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } (الإسراء : ٧٠)

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا في الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي في الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (الحج : ٦٥)

ولقد خلق الله تعالى الإنسان ، آدم ، بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة .

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } (الحجر : ٢٨- ٢٩)

ولقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم .

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين : ٤)

وإن هذا الإله العظيم هو رب العالمين { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ } (الشعراء : ٢٣ – ٢٤)

{ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ }

(الشعراء : ٧٨-٨٢)

وأقام الله تعالى الحجة على من عبد غيره ممن لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ، واتهمهم بالغباء والجهل والعمى لأنهم عبدوا من لا حول له ولا قوة وتركوا خالق كل شيء والقاهر فوق عباده .

{ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } (الرعد : ١٦)

ويدعو الله تعالى الناس إلى إمعان النظر في بديع خلقه في السموات والأرض ثـم يسأل كل واحد منهم نفسه من أين جاءت هذه المخـلوقات البديعة التي لا يحـصيها عدد ولا يحيط بها علم ؟

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَـل لَّا يُوقِنُونَ } (الطور : ٣٥ ، ٣٦)

كما يلفتهم الذكر الحكيم إلى حقائق في الكون لم يعرف بعـضها العلـم إلا مـن سـنوات قلائل كأهمية الجبـال لحفظ توازن للأرض ، وكاتسـاع السماء اتـساعاً لا حدود له ، وكخلق كل شيء زوجين (ذكر وأنثى ، وسالب وموجب)

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَـثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }

(لقمان : ١٠ – ١١)

{ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِـن كُـلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (الذاريات : ٤٧ – ٤٩)

ولا يملك لمن يستمع لهذه الآيات إلا أن يخشع قلبه ، وأن يقشعر جلده ، وأن يسلم عقله لله الواحد الأحد .

" قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَـقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّـا كَـانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (النمل : ٥٩ – ٦٣)

أبعد هذه الآيات البينات يحتاج الإنسان إلى دليل على وجود الخالق العظيم ؟!

أبعد هذه الشموس المتوهجة يمكن أن يبقى شيئاً من ظلام الشك ؟!

أبعد هذا البراهين الساطعة يمكن أن يجادل عاقل ؟!

إن أي إنسان أوتى شيئاً من إحساس ، أو درهما من عقل ، أو شعاعاً من بصيرة لردد صباح مساء " اللَّهُمَّ إِنِّى أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ الله لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ. " (حديث حسن رواه أبو داود والترمذي)

أما هدف الإنسان في الحياة فهو عبادة الله .

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } (الذاريات : ٥٦ – ٥٨)

وعبادة الله تعالى الصحيحة لا بد أن تثمر حسن خلق وتزكية نفس .

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } (الشمس : ٧–١٠)

كما أن الله أمر الإنسان إلى جانب عبادته تعالى وتزكيته نفسه أن يعمِّر الأرض .

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } (هود : ٦١)

أما مصير الإنسان بعد الموت فيحدده الله تعالى بقوله :

{ فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِي الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِي الْمَأْوَى } (النازعات : ٣٧ – ٤١)

{ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ } (الانفطار : ١٣ – ١٩)

أرأيت أوضح أو أيسر من هذه العقيدة .

ثمار الإيمان بالله تعالى

١- سعة النظر :

إن أولى خصائص الإيمان بالله ومزاياه البارزة أنه يوسع وجهة نظر الإنسان على قدر سعة مملكة الله غير المحدودة ألا ترى أن الإنسان ما دام لا ينظر إلى الدنيا إلا على اعتبار علاقة نفسه فإنما يكون نظره محدودا بالدائرة الضيقة التي تكون محدودة بها قوته وعلمه ومطالب نفسه فهو لا يبحث عن قاض لحاجاته إلا في هذه الدائرة ولا يخشى إلا الأقوياء في هذه الدائرة لا يتكبر إلا على الضعفاء في هذه الدائرة ولا تكون صداقته ولا عداوته ولا محبته ولا بغضاؤه ولا تعظيمه ولا تحقيره إلا محدودا بهذه الدائرة كأن نفسه هى المنظار الذي ينظر به إلى كل شيء في هذا العالم ، ولكنه إذا آمن بالله يخرج نظره من هذه الدائرة الضيقة ويسع الكون كله وهو عندئذ لا ينظر إلى الكون على اعتبار علاقة نفسه وإنما ينظر إليه باعتبار علاقته بالله وهناك تقوم علاقة جديدة بينه وبين سائر الموجودات في هذا الكون فلا يرى فيه شيئا يستحق أن يقضى له حاجاته أو يجلب له نوعا من الضرر أو النفع أو يستحق التعظيم أو الازدراء أو الخوف أو الرجاء وعندئذ لا تكون صداقته ولا عداوته ولا محبته ولا بغضاؤه لنفسه وإنما تكون لله وحده فهو خالق السموات والأرض ورب العالمين ، وأن ليس هو وحده الذي يعبده ويطأطئ له رأسه بالطاعة وإنما كل شيء في السموات والأرض طوعا أو كرها { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } (الإسراء : ٤٤) فالمؤمن بالله لا يكون ضيق النظر محدود الفكر أبداً وما اصطلاح " الدولية " إلا ضيق محدود بالنسبة لسعة نظره وهو جدير بأن يدعى " كونياً " .

٢- الأنفة وعزة النفس

والإيمان يرفع الإنسان من حضيض الذل والهوان إلى أرفع ما يكون من منازل الأنفة وعزة النفس كأن من لم يعرف ربه يطأطئ رأسه لكل شيء في الدنيا إذا رأى فيه نوعا من العظمة والكبرياء أو القدرة على نفعه أو ضره فكان - على هذا - يخافه ويمد إليه يده بالاستعانة والاستجداء ويعلق به آماله وأمانيه ولكنه لما

عرف الله ربه علَمَ علْم اليقين أن الذين كان يمد إليهم يده ويستعين بهم في قضاء حاجاته لا يقولون عنه حاجة إلى معونة ربهم { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } (الإسراء : ٥٧) وأن الذين كان يدعوهم ويعكف على عبادتهم إنما هم عباد أمثاله {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } (الأعراف : ١٩٤) وإن الذين كان يرجو منهم المعونة والمساعدة ، عاجزون عن نصرة أنفسهم فضلا عن أن ينصروه ويجلبوا إليه النفع أو يدفعوا عنه الضرر { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } (الأعراف : ١٩٧) فالإنسان عندما يحصل له هذا العلم يستغنى عن كل قوة من قوى العالم ولا يعود يخافها وعندئذ لا يطأطئ رأسه أمام أحد غير الله .

٣- التذلل والتواضع

وليست هذه الأنفة التي تنشأ في الإنسان لإيمانه بالله كالأنفة الزائفة التي تنشأ فيه لغطرسته بالقوة والجبروت أو الجاه والمال أو الخبرة والكفاءة وإنما لا تكون الأنفة إلا مقترنة بالتواضع ولا تكون فيه عزة النفس إلا متصلة بالتذلل والخضوع لله . يعلم أنه أعجز ما يكون أمام قوة الله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } (الأنعام : ١٨) وانه هو والعالم كله فقير إلى الله تعالى محتاج إلى مغفرته ورحمته وأن الله تعالى غنى عن كل من سواه { وَاللَّهُ الْغَنِي وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء } (محمد : ٣٨) و أن ليس كل نعمة يتمتع بها في هذه الدنيا إلا من عند الله تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ} (النحل : ٥٣) أنى لعاطفة الاستكبار والخيلاء والغطرسة والشموخ أن تجد سبيلا إلى نفس الإنسان إذا استقرت في ذهنه عقيدة الإيمان بالله على هذا النحو .

٤- طمأنينة القلب

فالإيمان بالله يربى الإنسان على كيفية نفسيه قائمة على الثقة والرجائية لا تخذله بحال ولا تدعه ليتغلب عليه اليأس والقنوط إذ الإيمان كنز من الآمال الصادقة لا ينفد ولا يزال يزود الإنسان برصيد غير منقطع من قوة القلب وطمأنينة الروح ويلقى في روعه أنه لو طرد من كل باب من أبواب الدنيا وتقطعت به الأسباب الظاهرة وفارقته الوسائل المادية كلها فإن الله تعالى غير خاذله أبدا { وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُــوا بِــى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } (البقرة : ١٨٦)

فالمؤمن ليس له بحال أن ييأس من رحمة الله ويقطع الأمل في عفوه بــل يتــوب إليه ويستغفره كلما زلت قدمه فيجد الله تعالى غفورا رحيما { وَمَن يَعْمَلْ سُــوءًا أَوْ يظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا } (النساء : ١١٠)

٥- الصبر والتوكل :

إن الثقــة بالله والرجاء في عفــوه وكرمه تترقى في نفس المؤمن حتى تبلغ بــه أعلى مدارج الصبر والاستقامة والتوكل على الله حيث يصبح عزمه مماثلا للحجــر في صلابته واستحكامه ولا تستطيع كــل مــصائب الــدنيا وآلامهــا ومــضارها وخســائرها وقواها المعادية أن تزل قدمه قيد شعرة عما يكون قد عقد عليه عزيمته { إِن يَنصــُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُــرُكُم مِّن بَعْــدِهِ } (آل عمران : ١٦٠) فالمؤمن يعتقد اعتقادا جازما بأنه لا يصيبه شيء فــي هــذه الدنيا إلا بعلم الله وإذنه قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَــا وَعَلَــى اللّــهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } (التوبة : ٥١)

٦- الشجاعة والجرأة :

إن الإيمان بالله ينشّئ في الإنسان صفة خلقية عظيمة هي صفة الجرأة والإقــدام والبسالة والشجاعة . إنما هناك أمران يجلبان الهلع والجبن إلى قلب الإنسان : حبــه لنفسه وأولاده ، و أمواله . والإيمان يطهر نفسه من هذا الخــوف فليــست القــدرة الحقيقة على نفعه أو ضره أو إهلاكه بيد إنسان أو حيوان أو مدفع أو سيف إنما بيد الله العزيز الحكيم فلو أن قوى العالم اجتمعت على أن تجلب إليه الضرر أو تدفعــه عنه فإنها لا تقدر على ذلك إلا بإذن الله { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} (البقرة : ١٠ ٢) ولقد لقن القرآن الكريم المؤمن أن الموت له ســاعة محــددة لا يستطيع أحد أن يستقدمها أو يستأخرها { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًــا مُّؤَجَّلاً } (آل عمران : ١٤٥) والمؤمنون تمتلئ قلوبهم جرأة وإقداما عندما يرون جنود الأعداء لأنهم لا يتوكلون على قوة دنيوية أو وسائل مادية وإنما يتوكلون على الله ويرجون منه النصر والتأييد { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَــدْ جَمَعُــواْ لَكُــمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } (آل عمران: ١٧٣)

٧- **القناعة والاستغناء**

ثم إن الإيمان بالله يزكي نفس الإنسان ويطهرها من الحرص والطمع والجشع والحسد والحقد والبغضاء وما إليها من العواطف الرذيلة والنزعات الركيكة . وذلك أن الإيمان يعمر قلب الإنسان قناعة واستغناء ويجعله لا يتنافس ويتحاسد ولا يتباغض مع غيره ولا يتيه على وجهه في مجاهل الظلم والعدوان وإنما يبذل سعيه للبحث عن فضل ربه مترفعا عن الرذائل مقتنعا بما كتب له قليلا كان أو كثيرا والقرآن قد لقن المؤمن { قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (آل عمران : ٧٣)

وقد علمه أن الرزق بيد الله وحده { اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ } (الرعد : ٢٦)

٨- **صلاح الأخلاق وتنظيم الأعمال**

الإيمان هو العامل الوحيد الذي ينزل بقواه الإصلاحية قويا يتولى دائما مهمة إرشاد الإنسان إلى طريق التقوى والطاعة والانقياد في السر و العلانية . إن الإيمان بعلم الله وقدرته هو الذي يرجع على الإنسان بهذه الفائدة العظيمة و القرآن الكريم نبه الإنسان في غير موضع من آياته على أن علم الله واسع لكل شيء وأنه لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء { إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء } (آل عمران : ٥) { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } (ق : ١٦)

ولقد ألقى القرآن في روع الإنسان أنه لا بد له من الحضور بين يدي ربه {وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ } (البقرة : ٢٢٣)

{ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (البقرة : ٢٠٣)

فالحدود التي وضعها الإسلام بين الحرام و الحلال والأحكام التي أمر بها في الأخلاق والاجتماع والمعاملات لا يتوقف تنفيذها على الشرطة أو الجنود و لا على التعليم والتلقين ، وإنما هو ذلك العليم الخبير الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض والذي لا يستطيع الإنسان إذا خالف أحكامه أن يستتر عليه جريمته أو يسلم من محاسبته بأية حيلة من الحيل . (١)

---

(١) لمزيد من التفصيل حول ثمار الإيمان راجع كتاب " الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها " لأبي الأعلى المودودي ، دار الخلافة للطباعة والنشر ، الباب الثالث الفصل الثالث .

الفصل الثالث

الإســـلام والقــلب

القلب هو مستقر الاعتقاد والإيمان ، وهو مجمـــع الوجـــدان والمـــشاعر ، وهـــو مستودع الأسرار ، كما أنه منبع الذوق الفني والإحساس بالجمال والتناسق .

والقلب متقلب : يحب ويكره ، ويعمى ويبـــصر، ويفـــرح ويحـــزن ، ويطمـــئن ويخاف، ويصح ويمرض ، ويَرق ويغلظ ، ويرحم ويقسو ...

ويحـــتاج إلى الإيمان والإحســـاس بالأمن ، والحب ، والجمـــــال ، والقبـــول ، والتناسق والنظام ...

ولكن كيف تعامل الإسلام مع القلب ؟

لقد خلق الله تعالى القـــلب أميراً وجعل له سائر الأعضـــاء له رعيـــة يـــأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، فإذا صلح القلب صلح سائر الجسد ، وإذا فسد فـــسد ســـائر الجسد .

" إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " (متفق عليه)

لقد سبق النبي الأعظم ﷺ علماء الغرب إلى الحديث عن دور القلب وأهميته فـــي صلاح النفس، بل إنه جعل للقلب دوراً مركزياً فإذا صلح هذا القلـــب فـــإن جميـــع أجهزة الجسد ستصلح، وإذا فسد فسوف تفسد جميع أنظمة الجسم، وهذا مـــا نـــراه اليوم وبخاصة في عمليات القلب الصناعي، حيث نرى بأن جميـــع أنظمـــة الجـــسم تضطرب . [١]

أنواع القلوب

والقلب أنواع أربعة بيَّنها لنا الرسول الكريم .

---

(١) موقع عبد الدائم الكحيل " أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " على الإنترنت .

" القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح .

فأما القلب الأجرد : فقلب المؤمن سراجه فيه نوره . (أي ليس فيه غلٌ ولا غشٌ ، فهو على أصل الفطرة ، فنور الإيمان فيه يُزْهر) .

وأما القلب الأغلف : فقلب الكافر .(فقلب الكافر علَيه غِشاءٌ عن سَماع الحَقّ وقَبوله)

وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق عرف ثم أنكر . (فذلك قلب رجع إلى الكفر بعد الإيمان)

وأما القلب المصفح : فقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه . " (المُصفَح: الذي له وجْهان يَلْقى أهلَ الكُفر بوجْه وأهلَ الإيمان بوجْه. وصَفْحُ كل شيء: وجهُه وناحيتُه)

(أخرجه أحمد وقال ابن كثير: إسناده جيد حسن)

القلب محل أمانة الدين

ولقد شاءت حكمة الله أن جعلت القلب محلاً لأمانة الدين كما بين ذلك النبيﷺ

" أنَّ الأمَانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قُلُوبِ الرّجَالِ . ثُمّ نَزَلَ الْقُرْآنُ . فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السّنّة " (متفق عليه)

تلك الأمانة التي كلف الله تعالى بها عباده ، والتي أشفقت السموات والأرض من حملها .

{ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } (الأحزاب : ٧٢ -٧٣)

وبعد أن جعل الله تعالى أمانة الدين في قلب الإنسان أنزل الله تعالى الرسل والكتب ليتعلم الإنسان كيف يؤدى هذه الأمانة .

{ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } (البقرة : ٩٧)

أي أنزل الله تعالى القرآن على قلب النبي ﷺ لأن القلب هو محل الأمانة والإيمان.

والقلب الذي لم ينشرح للإيمان بالله وكتبه ورسله ضال وإن حصّل معارف الدنيا جميعها ألا ترى أن العالم وصل إلى قمة التقدم العلمي والتقني ومع ذلك فإن كثيراً من سكانه لا يؤمن بالله تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى } (الأعلى : ٢ : ٤)

إن هؤلاء الكفرة لا يشك في صحة عقولهم إنما عميت قلوبهم عن رؤية الحق بيقين .

فالإيمان بالله لا يحتاج إلا لقلب سليم وعقل صحيح [١] وهما أعدل الأشياء قسمة بين البشر فكل إنسان يولد بهما صحيحين ، لكن المعاصي والفتن تطمس على القلوب فلا تنشرح للهدى وإن حاز صاحبها علم الأولين والآخرين ، أما إذا بقي القلب على أصل الفطرة فإنه بقليل من التدبر في الخلق ، أو عند سماع الهدى فإنه ينشرح للإيمان ويصدق بآيات الرحمن ، إن دين الله لا يحتاج لعبقري لكي يصدق به إنما يحتاج لسليم الفطرة ، سليم القلب لكي يؤمن به وإن لم يرزق نعمة البصر .

{ أ فلم يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } (الحج : ٤٦)

فالعمى عن الحق ليس عمى بصر إنما عمى القلب ، وجحود الإيمان ليس اختلال عقل إنما اختلال تدبر وتفكر .

{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } (البقرة : ١٧١)

فالذي لا يؤمن بالله ليس فاقداً للحواس بل فاقد للإحساس فهو " أصم" عن سماع الحق ، " أبكم " عن التكلم به " أعمي" عن الإبصار له .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الذين كفروا لم يكفروا بسبب الجهل بالحق إنما بسبب إنكارهم له بعد إذ بينه الله لهم .

---

(١) فالجنون ، وعدم اكتمال نضج العقل يرفعان التكليف عن الإنسان لقول النبي ﷺ : " رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ. وعن الصبي حتى يحتلم. وعن المجنون حتى يعقل " .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا من بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ } (الشورى : ١٣ – ١٤)

ولقد خلق الله تعالى الإنسان مهيئاً لتحمل الأمانة ففطره على الإسلام : بقلب سليم يميل للإيمان بالله ، وعقل صحيح يُدلل على وجوده سبحانه ، ونفس تطمئن بشرعه، وجوارح تسكن بطاعته جل في علاه .

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠)

وهو معنى قوله ﷺ : " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ) (متفق عليه)

إذن فقد فطر الله القلب على الإيمان به – سبحانه – وخشيته ومحبته ، وأنزل الله الأديان وأرسل رسله الكرام لكي يعلموا الإنسان تفاصيل الإيمان وكيفية عبادة الله تعالى ، ومنهجه وشريعته ، فإذا تمكن الإيمان من قلب العبد قام حينئذٍ بأداء ما فرض الله عليه وانتهى عما نهاه عنه سبحانه ففاز في الدارين .

روى عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قوله تعالى: "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه" كيف انشرح صدره؟ قال: (إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح) قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟. قال: (الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله) (رواه عبد الرزاق ، وابن جرير بنحوه وأخرجه ابن أبى حاتم).

أي إذا دخل الإيمان قلباً فإن صاحبه يكون همه طاعة الله في الدنيا للفوز برضا الله في الآخرة ، ولن يتأتى ذلك إلا بتطهير القلب من كل الشرور والآثام ، والتحلي بالإيمان وحسن الخلق .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلنا يا رسول الله من خير الناس؟ قال "ذو القلب المحموم واللسان الصادق، قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق فما القلب المحموم؟ قال: التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد. قلنا يا رسول الله: فمن على أثره ؟ قال: الذي يشنأ – يكره – الدنيا ويحب الآخرة، قلنا ما نعرف هذا فينا إلا رافعاً مولى رسول الله ﷺ فمن على أثره ؟ قال: مؤمن في حسن خلق. قلنا: أما هذا ففينا . " (رواه ابن ماجه بإسناد صحيح)

والإيمان الصحيح تصديق بالقلب وعمل بالجوارح ، ولقد قرن الله تعالى الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من خمسة وثلاثين موضعاً في آي القرآن الكريم منها :
{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ }
(البقرة : ٢٥)

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } (البقرة : ٢٧٧)

ولقد بشر الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات في أكثر من ثلاث عشرة آية منها بالجنة وما فيها من نعيم دائم منها.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (هود : ٢٣)

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ } (إبراهيم : ٢٣)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً {٣٠} أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً } (الكهف : ٣٠ – ٣١)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً {١٠٧} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً } (الكهف : ١٠٧ – ١٠٨)

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } (يونس : ٩)

ولقد جعلهم الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن خلقه ، وفضلهم على كل من خلق تفضيلاً .

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } (البينة : ٧)

وذكر الله تعالى أنهم قليلون .

{ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } (ص : ٢٤)

" وأصل الإيمان التصديق، وأصل الإسلام الاستسلام والانقياد، فقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن ، وقد يكون صادقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر . و جعل النبي ﷺ " الإسلام " اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل " الإيمان " اسماً لما بطن من الاعتقاد " (١)

فإذا تطهر القلب من أمراض القلوب وامتلأ بأنوار الإيمان فليس لصاحبه إلا الجنة ، أما إن أطاع الشيطان ، واتبع هواه ، وغرته الحياة الدنيا ، وانغمس في الشهوات انطفأ نور الله الذي يملأ قلبه، وصار قلبه أسود مظلماً فيطبع الله عليه.

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار بلاء وفتن وغرور للإنسان {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (الأنفال : ٣٧)

أعوان الإنسان على الإيمان والطاعة

ولقد جعل الله تعالى للإنسان أعواناً على الإيمان والطاعة :

١- **الروح** : وهى نفخة من روحه سبحانه { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } (ص : ٧٢) وهى تهفو إلى معرفة الله ، وتطمئن بالإيمان به و تسكن بعبادته جل وعلا .

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠)

٢- **العقل** : وهو ما يميز به الحق من الباطل ، الخير من الشر " ويصف حجة الإسلام الغزالي العقل بأنه (أنموذج من نور الله) ويصفه الجاحظ بأنه (وكيل الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي " باب الإيمان " ج ١ ص ١٤٥

عند الإنسان) ومن هنا كانت أول كلمة من الوحي الإلهي على محمد ﷺ هي {اقرأ } تتجه إلى مخاطبة العقل " (1)

٣- **القلب السليم** : هذا القلب الذي جعله الله تعالى محلا لأمانة الدين ، وفطره الله تعالى على حبه والافتقار إليه والعز في الذل له والخشية منه والتوكل عليه ، هذا القلب الذي على أصل الفطرة " التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد . "

٤- **الأنبياء والرسل** : ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه بما معهم من البينات ودين الحق ، وليبشروا المؤمنين بالجنة وينذروا الكافرين والعصاة بالنار .

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } (البقرة : ٢١٣)

{ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٤٨} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }
(الأنعام : ٤٨ – ٤٩)

{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا }(النساء : ١٦٥)

٥- **شريعة الله ومنهاجه** التي أنزلها على الرسل لتكون بمثابة الدستور الإلهي الذي يحتكمون إليه في الدنيا والذي يحاكموا بمقتضاه يوم القيامة .

{ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (المائدة : ٤٨)

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } (الصف : ٩)

---

(1) د. محمود حمدي زقزوق " هموم الأمة الإسلامية " ص ١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وكما أن الله تعالى جعل للإنسان أعواناً على الإيمان والطاعة ابتلاه ببعض الفتن منها أربع جاءوا في قول الشاعر :

إني بليت بأربع ما سلطت * إلا لأجل شقاوتي و عنائي

إبليس والدنيا ونفسي و الهوى * كيف الخلاص وكلهم أعدائي

إبليس يسلك في طريق مهالكي * و النفس تأمرني بكل بلائي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري * في ظلمة الشبهات و الآراء

وزخارف الدنيا تقول أما ترى * حسنى وفخر ملابسي وبهائي

وكان بلاء الله تعالى لإنسان ؛ ليعلم الذين آمنوا .

{ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } (آل عمران : ١٤٠)

وليعلم الله الصابرين المهتدين .

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } (البقرة : ١٥٥–١٥٧)

وليعلم الله تعالى أي الناس أحسن عملاً .

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } (هود : ٧)

أما المؤمنون فيسارعون في الإيمان وعمل الخيرات مستجيبين لنداء الفطرة والعقل والرسل فتؤمن قلوبهم وتنفذ جوارحهم شرع الله .

{رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ } (آل عمران : ١٩٣)

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

(الجن : ١– ٢)

واستجابوا لأوامر الله واحتكموا لشرعه .

{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (النور : ٥١)

ويزيدهم الله تعالى إيمانا وهدى .

{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } (محمد : ١٧)

{ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا } (مريم : ٧٦)

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } (يونس : ٩)

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }

(الكهف : ١٣)

ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (الحجرات : ٧- ٨)

أما أولئك الكافرون الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فإن الله تعالى لا يهديهم بل يطبع على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ } (النحل : ١٠٧ – ١٠٩)

وكذلك من ظلم نفسه باتباع هواه وجحد هدى الله .

{ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

(القصص : ٤٩ – ٥١)

كذلك الذين مالوا عن الحق وحادوا عن الصراط المستقيم فإن الله تعالى أبعد الإيمان عن قلوبهم التي ملئت بكره أنبياء الله ورسله .

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (الصف : ٥)

كذلك الذين يحلُون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله تعالى بغير هدى من الله ولا كتاب منير .

{ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (التوبة : ٣٧)

كذلك المنافقون الذين { إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ {١٤} اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {١٥} أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } (البقرة : ١٤ : ١٦)

فالكفر نزع الإيمان من القلب وحشوه بالمعاصي والآثام فلا يعرف الإيمان طريقاً إلى قلب الكافر مهما رأى صاحبه من آيات الله ومعجزات رسله .

{ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } (الأعراف : ١١١)

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ {٥٨} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (الروم : ٥٨ – ٥٩)

وعلاقة القلب بدين الله وشرعه يوضحها لنا رسولنا الكريم الذي أوتي جوامع الكلم في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ. حَدَّثَنَا "أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ. ثُمَّ نَزَلَ الْقُرآنُ. فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ". ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: "يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ (الأثر اليسير) ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجَلِ (المَجْل: أن يكون بين الجلد

واللحم ماءٌ) . كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ (مثل المجل) فَتَرَاهُ مُنْتَبِرا وَلَيْسَ فيه شَيْءٌ (ثُمَّ أَخَذَ حَصىً فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِه) فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ. لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّى الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ " (متفق عليه)

فالأمانة هي مناط التكليف ومحلها القلب ثم أنزل الله القرآن الكريم وجعل الإيمان بما فيه من عقائد محله القلب ، وعلمنا النبي أن رفع الأمانة يكون بفساد القلب و إشرابه للفتن فيرتكب المعاصي من كفر ونفاق وظلم .. ، أما من عمَّر قلبه بالإيمان فيظل قلبه سليماً لا تؤثر فيه الفتن ولهذا كان النبي ﷺ يقول: " يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ).(حديث صحيح رواه ابن ماجه والحاكم وأحمد)

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ. فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِه وَجَارِه؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ. وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِي ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ. فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ، لله أَبُوكَ!

قَالَ حُذَيْفَةُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : " تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودا عُودا. فَأَى قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ. وَأَى قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ. حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا. فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ. وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادا – مائل للسواد – كَالْكُوزِ – إناء كالأبريق – مُجَخِّيا – تجخّى الكوز انكبّ – لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرا. إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ " (رواه مسلم)

ولقد جعل الله تعالى دخول الجنة قاصراً على صاحب القلب السليم من أمراض القلوب{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ }(ق : ٣١–٣٤)

{ وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } (الشعراء:٨٥–٨٩)

" ولقد خص الله تعالى القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح والقلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر

والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: { في قلوبهم مرض .. } ؛ ولأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك " [1]

القلب محل النية

والنية هي أساس كل الأعمال فشرط قبول العمل أن يكون لله خاصاً وأن يكون وفق ما شرع قال اللّه تعالى: {وَمَا أُمِروا إلاَّ ليعبُدوا اللّه مُخلِصينَ لَهُ الدِّين حُنفاء} (البينة : ٥)

ويقول النبي ﷺ : " إن اللّه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه" (رواه أبو داود والنسائى)

فمن ابتغى غير وجه الله بعمله فلا أجر له ولا ثواب من الله وإن صام وصلى وتصدق وجاهد وهؤلاء أهل الرياء .

يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْـزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي قَالَ بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ قَالَ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فُلاَنًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ قَالَ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِى قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ فِى مَاذَا قُتِلْتَ فَيَقُولُ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَرِىءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ». ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٣ .

عَلى رُكْبَتِي فَقَالَ : " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " حديث صحيح (رواه الترمذي والحاكم)

كذلك من أشرك في العمل مع الله غيره من الناس فلا ثواب له وفي الحديث القدسي: "يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك " حديث صحيح (رواه ابن ماجه والبيهقي)

إذن النية هي أساس قبول العمل وبقدر النية يؤجر صاحبها ، فالله تعالى لا ينظر إلى ظاهر العمل ولا إلى صورة صاحبة إنما ينظر إلى قصد صاحبه منه ، وما انعقدت نيته عليه .

" إنَّ الله لا ينْظُرُ إلى أجْسامِكُمْ ، ولا إلى صُوَرِكمْ ، ولَكن ينْظُرُ إلى قُلُوبِكمْ وأعمالكم " (متفق عليه)

ألا ترى أن المنافقين يصلون ويصومون ويجاهدون ويؤدون عبادات الجوارح ولكن بسبب فساد قلوبهم فإن مصيرهم أسوأ مصير في الدرك الأسفل من النار { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } (النساء : ١٤٥)

واستحقوا هذا المصير ، رغم عبادتهم الظاهرية ، لأنهم أرادوا بأعمالهم وجه الناس لا وجه الله { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً } (النساء : ١٤٢)

ونية المؤمن خير من عمله إن كان هناك مانع شرعي من أداء العمل ، وأداء العمل بغير نية لا ينفعه ، ويؤكد النبي ﷺ هذا المعنى بأمثلة كثير منها قوله ﷺ " مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ "
(رواه مسلم)

وقوله ﷺ : " مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقاً أُعْطِيَهَا ولو لَمْ تُصِبْهُ " (رواه مسلم)

وقوله ﷺ " مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ فَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَا لِهَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالا وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ " صحيح (رواه أحمد وابن ماجه والترمذى)

ومن كرم الله تعالى أن من نوى فعل حسنة ولم يفعلها- بسبب عـذر شـرعي - كتبها له حسنة ، فإن فعلها كتب الله له بها عشراً إلى سبعمائة والله يـضاعف لمـن يشاء بحسب نيته ، ومن نوى سيئة ولم يفعلها مخافة الله كتب الله له بتركها حـسنة فإن فعلها كتب الله عليه سيئة واحدة فإن تاب عنها توبة نصوحاً أبدلها الله تعالى لـه حسنة .

قال رسول اللّه ﷺ " إن ربكم عزَّ وجـلَّ رحيم ، وَمَنْ هَمَّ بِحَـسَنَةٍ فَلَـمْ يَعْمَلْهَـا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَـبْ شَـيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " (رواه مسلم) .

الهمُّ العارض والهمُّ العازم

ويجب التفرقة بين الهمِّ العارض والهمِّ العازم . فالهمُّ العارض هو ما يخطر فـي النفس ولا يثبت في القلب ؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قـدرة للمكلف على دفعه . فهو وسوسة شيطان أو هوى نفس لكنه لا ينعقد في القلب بـل يستعيذ المؤمن منه بالله ، ويجاهد بتقوى الله هواه فيكافئه الله تعالى بفرحتين : فرحة عاجلة وهي حلاوة يجدها في قلبه [1]، وفرحة آجلة بحسنات يجدها في كتابه . وهذا النوع هو الذي قال فيه النبي ﷺ " من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .."

أما الهمُّ العازم فهو انعقاد النية والتماس كافة الأسباب الموطئة للفعل وهو نوعـان : همٌّ عازم لفعل خير وهذا يثاب المرء عليه وإن لم يفعله - إن كان هنـاك مـانع شرعي - والأخر هو الهمُّ العازم لفعل شر وهذا يُحاسب الإنسان عليه وإن لم يفعله بسبب مانع قهري خارج عن إرادته .

فمن دبر مالاً ليشترى به زجاجة خمر مثلاً ، ثم ذهب إلى أحد المحال التي تبيعها واشترى إحداها ، وأعد العدة ليتجرع كئوسها وعندما همَّ أن يمسك الزجاجة إذا بها تسقط من يده فتنكسر ويقف أمامها يتحسر على ما فيها من خمـر مـراق إن هـذا الرجل ليعد شارباً للخمر وإن لم يتجرع منها قطرة واحدة لأنه كان عازمـاً علـى شربها والذي منعه من شربها ليس خوفه من الله تعالى إنما انكسار الزجاجة ، هـذا

(١) أخرج الحاكم وصححه عن حنيفة قال: قال رسول الله ﷺ "النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه إيماناً يجد حلاوته في قلبه " .

بخلاف من همّ أن يشرب الخمر فتذكر الله تعالى وتذكر عذابــه فكــسر الزجاجــة مخافة الله تعالى فهو مأجور إن شاء الله وسيكتب له حسنة .

كذلك من همَّ بقتل رجل فرصد حركاته واشترى بندقية واختبأ له منتظراً مــروره وعندما رآه صوب البندقية ناحيته وأطلق عليه الرصاص لكن الرصــاص أخطــأه وتجمع الناس ففر هارباً قبل أن يمسكوا به فإن هذا الرجل قاتل وإن لم يرق قطــرة دم لأنه كان عازماً ومصراً ومترصداً واتخذ كل التدابير للقتل لكن لسبب خارج عن إرادته لم يفلح في القتل ، بخلاف من همَّ بقتل إنسان لكنه تذكر الله تعالى فندم علــى الهمَّ وعدل عن الفعل فهو مثاب لتركه الحرام مخافة الله .

وكذلك امرأة العزيز عزمت على ارتكاب الفاحشة مع سيدنا يوسف ورتبت الأمــر وخططت له فغلقت الأبواب وتزينت و.. لكن رفْض يوســف لإغوائهــا ودخــول العزيز عليهما حالا دون ارتكابها الفاحشة فبعزمها هذا آثمة ، أما يوسف فكان همه همّاً عارضاً ولم يكن عازماً لذا قال لها يوسف { اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّــكِ كُنْــتِ مِــنَ الْخَاطِئِينَ } .

وتعترف امرأة العزيز بأنها كانت عازمة على ارتكاب الفاحشة ومازالــت علــى عزمها هذا بعكس يوسف الذي كان معتصما بالله { وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ } .

فلا عجب إذن أن نجد أهل الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما يستهلون مصنفاتهم بحديث " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.. "

قال الإمام أبو سليمان الخَطَّابي رحمه اللّه: كان المتقدمون من شيوخنا يــستحبُّون تقديم حديث الأعمال بالنيّة أمامَ كل شيء ينشأ ويبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجــة إليه في جميع أنواعها. وبلغنا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال: إنما يُحْفَظُ الرجلُ على قدر نيّته. وقال غيرُه: إنما يُعطى الناسُ على قدر نيّاتهم." (١)

العادات والعبادات

وكما أن العبادات لا تقبل بغير نية خاصة لله فإن العادات المباحة تتحول لعبــادات بالنية الصالحة ! فمن نوى بكسبه وعمله الدنيوي الاستعانة بذلك على القيام بحق الله

(١) الإمام النووي في مقدمة كتاب " الأذكار " .

وحقوق الخلق واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وجماعه انقلبت العادات في حقه إلى عبادات وبارك الله في عمله وفتح له من أبواب الخير والرزق أموراً لا يحتسبها ولا تخطر له على بال ،ومن فاتته هذه النية لجهله أو تهاونه فقد حرم خيراً عظيماً .

فكل عادة إذا أردت بها طاعة الله وامتثالاً لشرعه من المباحات التي أباحها الله تعالى فهي عبادة يؤجر صاحبها عليها حتى اللقمة التي يضعها الرجل في فم زوجته لقوله ﷺ : " وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا في في(فم) امْرَأَتِكَ " (متفق عليه)

ففي الحديث استحباب الإنفاق في وجوه الخير، وفيه أن الأعمال بالنيات، وأنه إنما يثاب على عمله بنيته، وفيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى، وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة ويثاب عليه وقد نبه ﷺ على هذا بقوله ﷺ : حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر بذلك . (١)

ويؤكد الأمام النووي هذه القاعدة فيقول " إن الإنسان إذا فعل شيئاً أصله على الإباحة وقصد به وجه الله تعالى يثاب عليه وذلك كالأكل بنية التقوى على طاعة الله تعالى والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطاً والاستمتاع بزوجته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام وليقضى حقها وليحصل ولداً صالحاً، وهذا معنى قوله ﷺ : (وفي بضع أحدكم صدقة) " (٢)

فهل مسلمو اليوم قد عقدوا نياتهم على طاعة الله ؟ هل راقبوا الله في أعمالهم وأقوالهم ؟ هل أتقنوا أعمالهم مخافة الله وابتغاء رضاه ؟

اللهم لا .. إلا من رحم ربي .

---

(١) الإمام النووي " صحيح مسلم بشرح النووي " ج١١ ص ٧٨ .
(٢) نفسه ج١١ ص ٧٨ .

إتقان العمل والمقابل المادي

إن كثيرا من المسلمين ، لا سيما موظفي الحكومة ، مع الأسف نياتهم سوء وزممهم خربة وأعمالهم يشوبها الرياء والنفاق والسمعة ، فهم لا يكادون يتقنون عملاً ، ومع ذلك لا يكفون عن المطالبة بزيادة رواتبهم !! [١]

جرى حوار مع بعض هؤلاء حول العمل الحكومي وأجمع المتحاورون على أن الدولة مادامت لا تعطينا الأجر الذي نستحقه فليس لها علينا حق تمام العمل ! وعبثاً حاولت إفهامهم أننا ما دمنا قدر ارتضينا العمل فيجب علينا إتقانه لله ، وأن الدولة إن لم يكن في إمكانها زيادة الأجور فهل هذا دافع للتكاسل أم باعث على العمل الجاد حتى ننهض ببلدنا ؟ وكأني أنعق في فلاة ولا من مجيب ، واتهمني البعض أنى منتمٍ للنظام الحاكم لذا فانا أدافع عنه ، واتهمني آخرون بالغباء والتغفيل !! وتذكرت حواراً دار بين وبين شاب ياباني جاء مصر ليدرس اللغة العربية فقلت له في أثناء الحديث أنتم ، شباب اليابان ، تستحقون التقدير والاحترام ؛ لأنكم صنعتم حضارة عظيمة فقال : ليس لنا – نحن الشباب – الفضل في نهضة اليابان بل الفضل كل الفضل للآباء والأجداد الذين بذلوا حياتهم دون مقابل من أجل أن نتقدم نحن ، وعندما تذكرت هذا الحوار الذي مر عليه بضعة عشر عاماً أدركت لما تقدم غيرنا وتخلفنا ، أننا صرنا كعبيد السوء لا نعمل إلا بأجر ولا نخلص إلا بثمن. وتذكرت النبي ﷺ وصحابته الكرام وتابعيهم بإحسان تذكرت كم ضحوا وكم بذلوا في سبيل نشر الدين وتحرير العباد من الطغاة وكم عمروا وأصلحوا دون انتظار أجر إلا من رب العالمين وماتوا ، على الجملة ، فقراء مساكين وأدركت لماذا تقدموا وتخلفنا ؟ وأدركت لماذا استحقوا جنة الله ويخشى علينا عذابه .

لقد قال كل نبي لقومه : { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } أفلا نقتدي بخير خلق الله ؟ أم أن الأحوال تبدلت ولم تعد هذه المقولات

---

(١) وبعد ثورة الخامس والعشرين من يناير لم يكتفوا برفع شكواهم إلى المسئولين إنما بدءوا يضربون عن العمل ويقطعون الطرق ويخربون المنشآت في الوقت الذي تحتاج فيه البلاد لجهد كل المواطنين لرفعة الوطن بعد الخراب على حل به لعقود طويلة ، ومن له طلب أو عنده مظلمة يرفعها بالطرق المشروعة ، وعلى المسئولين أن يجيبوا الطلبات المشروعة ، ويرفعوا الظلم عن المظلومين ، ويقضوا حاجات المعوزين .

صالحة لزماننا كما يقول البعض – غفر الله لنا ولهم – فليقلدوا اليابانيين إذن الـذين يقومون بمظاهرات سلمية من أجل زيادة ساعات العمل دون زيادة الأجر !

إن الطمع والجشع وعدم الرضا أصاب قلوب كثير من المسلمين فجعل الله الفقـر بين عينيهم فلا يغتنوا أبداً ، وإذا قارن أفقر المسلمين اليوم بين ما أنعم الله عليه من رزق وبين ما كان عليه أفضل الخلق أجمعين لما شكا الفقر أبداً .

ذكر عمر بن الخطاب رَضِي اللَّهُ عَنهُ ما أصاب الناس من الدنيا قال: " لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ " (رَوَاهُ مُسلِمٌ) الدقل : أردأ التمر .

وعن أبي طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عـن حجـر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين " (رواه الترمذى)

أُنَاسٍ مِنْ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ فلم يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَـا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَـنْكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " (متفق عليه)

ولو قارن هذا الذي يشكو الفقر دائماً ويترحم على أيام زمان لو قارن بين حياته، التي يشكو منها مر الشكوى ، وبين حياة أبيه وجده لقبّل يديه ظهرا لـبطن شـكرا على نعم الله وآلائه ! فهل أدى هؤلاء الناس شكر النعمة وأخلصوا عملهم لله تعـالى وابتغاء وجهه .

إن تقوى الله مفتاح خزائن الله تعالى { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُـواْ وَاتَّقَـواْ لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّـمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَـذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِـبُونَ } (الأعراف : ٩٦)

فجعل تعالى التقوى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيـد لمـن شكر فقال : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَـذَابِي لَـشَدِيدٌ } (إبراهيم: ٧) .

العرب بين الإنتاج والاستهلاك

لقد تحول العرب إلى مستهلكين سلبيين لما ينتجه له الغرب وليتهم يستهلكون مـا ينتجون لهان الأمر . لقد كان طموح العربي المسلم قديماً طموحا دينياً أخروياً ، ثـم

صار علميّا أو أدبيّا ، واليوم أصبح طموحا ماديّا دنيويّاً . فإذا حصل الإنسان على شيء جديد لم يقنع به بل يطمح إلى غيره .

عندما كنت أذهب إلى قريتي صغيرا كنت أشاهد الناس تتجمع من كل حدب وصوب حول مذياع جدي الذي كان المذياع الوحيد في القرية ، وكان الناس يفترشون تراب الأرض ويستمعون إلى الشيخ عبد الباسط وهم في قمة السعادة ، ومرت سنوات وأحضر صاحب مقهى في قرية تبعد عن قريتنا ما يقرب من عشر كيلو متر تليفزيون ١٤ بوصة أبيض وأسود فلم تكن الألوان قد ظهرت بعد فكان الشباب يقطع هذه المسافة الكبيرة في الظلام وعبر الحقول والمزارع وقد استحالت أشجارها أشباحاً مخيفة يصاحبهم نباح الكلاب الذي لا يتوقف ولا نقيق الضفادع الذي لا يكف ، و كان الظلام دامساً والأرض وعرة ، وجحور العقارب والثعابين والفئران منتشرة في كل مكان فكان سيرهم كمن يسير في حقل ألغام تبدأ الرحلة بعد المغرب وتنتهي في منتصف الليل كل هذا ليشاهدوا التلفزيون لمدة ساعتين أو ثلاثة على الأكثر ولم تكد تمر سنوات قليلة دخلت الكهرباء القرية وامتلك كل من في قريتي جهاز تليفزيون أبيض وأسود وبعد عدة سنوات أخرى تحوّل إلى ملون .

أما سكان العاصمة من أهل قريتنا فقد تمكنوا من امتلاك " الفيديو والدش " واشترى بعضهم الكمبيوتر ليلعب عليه أولاده الألعاب ويشاهدوا الأفلام والمسرحيات ، والكمبيوتر أجيال من ملك جيلاً تطلع إلى الجيل الذي بعده ، وماذا استفاد أهل قريتي من هذا كله غير ضياع الوقت والمال وفساد الأخلاق وإهمال العمل فبعد أن كان الفجر هو ميعاد استيقاظهم أصبح الفجر ميعاد نومهم ! وأنا لا أعترض على اقتناء الأجهزة الحديثة بل على العكس أنا أطالب بتعلم وإتقان كل ما هو جديد إنما أعترض على إساءة استخدامها فنحن بدلاً من أن نستعبد هذه الأجهزة لتتقدم حياتنا استعبدتنا الأجهزة وتأخرت حياتنا فكثير من الناس لا يشاهدون في التليفزيون إلا الأغاني الراقصة والأفلام الهابطة ، وكثير ممن يملكون كمبيوتر لا يعلمون عنه إلا إنه جهاز لمشاهدة الأفلام والأغاني والألعاب المسلية والماهر فيه يضيف إلى هذه الاستخدامات مشاهدة المواقع الإباحية على الإنترنت وعمل دردشة مع الفتيات! فلم تزد الأجهزة الحديثة المتخلف إلا تخلفاً ، والأجهزة المنزلية الحديثة وفرت للمرأة وقتاً وجهداً لا لتهتم بتربية أولادها والاعتناء بهم لكن لتمضى وقتها في مشاهدة التليفزيون ذي العشر قنوات أو الدش ذي الألف قناة أو لتمضية في

الدردشة مع صديقاتها وأقاربها في التليفون !! إن هذه الأجهزة باهظة الثمن أفسدت المجتمع بدلاً من تطويره وأضاعت الوقت بدلاً من توفيره وأصابت الناس بحمى اقتناء الجديد لأنه جديد لا لأن الناس يحتاجونه وويل لمن قصرت يمينه عن شراء شيئا من متاع الحياة الدنيا فقد حكم على أسرته بالشقاء وأصبح معيرة بين الناس إذن فليبذل قصارى جهده في امتلاك الجديد مهما تكلف من جهد أو من تنازل أخلاقي وقيمي !!

هذه هي صورة مجتمعنا يملك أحدث الأجهزة التي صنعها له غيره ويعجز عن زراعة ما يأكل أو نسج ما يلبس أو صناعة ما يركب !! ولا تسمع منه إلا شكوى الزمان وغلاء الأسعار .

إن تعريف الفقير قد تغير في زماننا فقد كان الفقير قديماً هو من لا يجد قوت يومه فأصبح الفقير عندنا من ليس عنده سيارة أو تكييف أو رصيد كبير في البنك !

القلب مجمع الوجدان

والقلب هو أيضاً مجمع الوجدان ، فإن آمن القلب واهتدى حبب الله إليه الإيمان وكره إليه الكفر والفسوق العصيان ،

{ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } (الحجرات : ٧)

وإن ضل القلب طريق الله سكن فيه الشيطان وحبب إليه الكفر والمعاصي والآثام و كره إليه الإيمان والهدى .

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } (البقرة : ١٦٥)

ومن صفات هؤلاء الكفرة الفجرة حب الدنيا وكراهية الآخرة ، ليس ذلك فحسب بل ويصدون الناس عن سبيل الله .

{ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَـئِكَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ } (إبراهيم : ٣)

{ إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا} (الإنسان : ٢٧)

{ كلا بَلْ تُحبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ } (القيامة : ٢٠ – ٢١)

سمات من يحبون الله ورسوله

ومن أحب الله أحب أوامره وأحب كل من يحبه الله تعالى ، وأبغض نواهيه تعالى وأبغض كل من يبغضه الله تعالى .

{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (آل عمران : ٣١)

عَنْ ابْنِ عَبَّاس قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : "أَحِبّوا اللّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبّونِى بِحُبِّ اللّهِ، وَأَحِبّوا أَهْلَ بَيْتِى لِحُبّى " (رواه الترمذى والحاكم)

وعن أنس رَضِى اللّهُ عَنْهُ أن أعرابياً قال لرَسُولِ اللّه ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رَسُول اللّه ﷺ : " ما أعددت لها ؟ " قال : حب اللّه ورسوله. قال : " أنت مع من أحببت " (مُتَّفَقٌ عَلَيْه) .

فمن ادعى حب الله ولم يلتزم شرعه فهو دَعِيٌّ كاذب ، وصدق الشافعي حين قال:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه * هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته * إن المحب لمن يحب مطيع

ولقد ادعى أقوام حب الله ولم يؤمنوا بدينه الذي ارتضى لهم ، بل غلوا في دينهم وزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه فنعى الله تعالى عليهم هذه الدعاوى الباطلة .

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّه وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فلم يُعَذِّبُكم بِذُنُوبكم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْه الْمَصِيرُ } (المائدة : ١٨)

وكذلك فعل غلاة الصوفية والشيعة ادعوا حب الله ورسوله وآل بيته ولم يلتزموا شرع الله وسنة نبيه وهما دليلا حب الله ورسوله .

فطريق محبة الله تعالى حب رسوله ﷺ وعلامة حبه ﷺ اتباع شريعة الله التي جاء بها . روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } (آل عمران : ٣١) قال: "على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس " (رواه الترمذي)

وفسر العلماء محبة الله لعبده بأنها إرادته الخير له وهدايته ورحمته ، ونقيض ذلك بغض الله له .

{ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (التوبة : ٢٤)

ويقول الحبيب المصطفي ﷺ : " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " (متفق عليه)

وإن للإيمان لحلاوة لا يذوقها إلا من رضى بالله ربا وإلها وبمحمد نبيا ورسولا وبالإسلام ديناً خاتماً .

" ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا " (رواه مسلم)

فإن كان الله ورسوله أحب للعبد مما سواهما ، وكان الكفر بهما أبغض إليه من إلقائه في النار ، وإن كان يحب لله ويبغض لله . إن اجتمعت هذه الثلاث في عبد وجد حلاوة الإيمان .

" ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ " (متفق عليه)

ووجبت محبة الله تعالى لمن أحبه وأطاع نبيه ، ويظله بظله يوم لا ظل إلا ظله . قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يَقُولُ : " حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ "

(رواه أحمد والطبراني وغيرهما)

وينعم الله على من أحبه بحب أهل السماء والأرض .

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : " إن الله إذا أَحَبَّ عبداً دعا جبريل فقال إني أُحبُّ فلانا فَأَحِبَّهُ فَيُحبُّهُ جبريل ثم ينادى في السماء إن الله يحب فلانا فَأَحِبُّوهُ فَيُحبُّهُ أهل السماء ثم يُوضَعُ له القبول في الأرض وإذا أَبْغَضَ عبداً دعا جبريل

فيقول إني أُبْغضُ فلانا فَأَبْغضْهُ فَيُبْغضُهُ جبريل ثم ينادى في أهــل الــسماء إن الله يبغض فلانا فَأَبْغضُوهُ فَيُبْغِضُونَهُ ثم تُوضع له البغضاء في الأرض . (رواه مسلم)

حب الشهوات

ومن الابتلاءات التي ابتلى الله بها الناس حب الشهوات : مــن نــساء ، وأولاد ، ومال ،.. وسائر متاع الدنيا .

{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَــرَةِ مِــنَ الــذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُــسْنُ الْمَآبِ } (آل عمران : ١١٤)

لكن الله بين أن الإيمان والعمل الصالح خير ثواباً عند الله فهو الذي يبقى وتفنــى الدنيا وما فيها .

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْــرٌ أَمَلا } (الكهف : ٤٦)

أما من أحب متاع الدنيا وكفر بالمنعم سبحانه فأولئك هم الكافرون .
{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (النحل : ١٠٧)

ومن صفات هؤلاء الكافرين والعصاة أيضاً الحب الشديد للمال .
{ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } (الفجر : ٢٠)
وحب الكفر وكره الإيمان .
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْــتَحَبُّواْ الْكُفْــرَ عَلَــى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَــئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (التوبة : ٢٣)

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُــونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (فصلت : ١٧)

القلب محل التقوى

التقوى من أعمال القلوب وفي ذلك يقول تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْــتَحَنَ اللَّــهُ قُلُــوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } (الحجرات : ٣)

ولقد حدد النبي ﷺ مكان التقوى وهو القلب فقال ﷺ :
" التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ " (رواه مسلم)
ولقد جعل الله تعالى تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب .
{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ } (الحج : ٣٢)
يقول القرطبي : " قال عطاء بن أبي رباح : شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه. وقال الحسن: دين الله قلت: وهذا القول هو الراجح الذي يقدم على غيره لعمومه ." [١]

لكن ما هي تقوى الله ؟

التقوى هي العمل بطاعة الله على وفق منهجه ورجاء رحمته ، وترك معصية الله على وفق منهجه وخوفاً من عقابه .

وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفتهم رهبته عن معاصيه وردتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم من زلة .

لذا لا عجب أن يخبر الرسول ﷺ أن أكثر ما يُدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق.

{ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } (الزمر:٧٣) .

ولما كان طريق الحق طويل وشاق ويحتاج إلى زاد كثير فإن الله أمرنا أن نتزود بتقوى الله فإنها خير زاد على طاعة الله .

{ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ } (البقرة : ١٩٧)

القلب والجمال

لقد جَبَلَ الله تعالى القلوب على حب الجمال بشتى صوره ، والنظام، والتناسق ؛ فتجد القلب يسعد لرؤية الحدائق والبساتين وكل منظر بديع ، ويستلذ لصوت البلابل والعنادل وخرير الماء وحفيف الأشجار وكل صوت جميل ، وتنعشه رائحة الطيب ، ونسمة الهواء العليل .

---

(١) تفسير القرطبي ج٦ ص ٣٧

لقد فطر الله القلب على عشق النظام وبغض الفوضى والإهمال ألا ترى القلب ينشرح برؤية الشمس عند الغروب ، والأزهار البديعة في الربيع ، ومنظر القمر عند التمام ، والوجه الحسن في الأنام ، وينطلق لسان المؤمن عند رؤية شيء من بديع خلق الله ويقول " الله .. الله " كما ينقبض القلب ويضيق بالقبيح من المناظر والأصوات والروائح ، فينقبض برؤية الجيف والقمامة ، ويضيق بسماع الضوضاء والأصوات المنكرة ، ويكاد ينفطر بشم الروائح الخبيثة .

ومن كثرة القبح والفوضى والتلوث بشتى صوره وأنواعه اعتاد الناس على القبيح ولم يعد يزعجهم الضجيج ، وتصالحوا مع الفوضى ونسوا الجمال والهدوء والنظام ولم يعودوا بحاجة إلى شيء منها ! فإذا سرت في طريق غشيت بصرك صور القمامة والفوضى والإهمال في كل مكان واخترقت أذنك أصوات أفراح ومآتم وسيارات ومشاجرات ، وزكمت أنفك روائح قمامة وعرق ودخان وتراب..

والمدهش إننا بعد كل هذا نتساءل لماذا كثرت أمراض السكر وضغط الدم والفشل الكلوي وقرحة المعدة فضلاً عن الأمراض النفسية والعصبية والعقلية ؟!

وكأن هذه الأمراض قد صدَّرها لنا أعداؤنا فقد اعتدنا أن ننسب كل فساد للأمريكان وكل فشل لليهود وكل مصيبة لشياطين الإنس والجن من الغرب الرجيم! مع أن هذا الغرب يتسم بالنِّظام والنظافة والجمال ليتنا نكف عن هذه النغمة فقد مللنا سماع نغمة الضحيَّة والجزار ونفكر كيف نصلح أنفسنا ونرقى بمجتمعاتنا ونسير للإمام ؟

والمحزن حقاً أن كثيراً من المصريين استغلوا ثورة الخامس والعشرين من يناير وما صحبها من انفلات أمني ، وانكسار هيبة الدولة في ارتكاب مزيد من المخالفات ؛ فكثرت القمامة ، وزادت الضوضاء ، اضطرب النظام .

وكنا نأمل أن تكون هناك ثورة على القبح والفوضى والإهمال كما كانت على هناك ثورة على المستبدين الفاسدين .

فتنة النساء

ومما حبب الله للقلوب عشق النساء والميل إليهن ولولا تلك الفطرة ما تزوج الرجال النساء ولا عُمِّر الكون فميل كل نوع من كل جنس لنوعه الآخر تدبير من

الله لتعمير الكون ، فالأليف يحن إلى أليفه لذا يتناكح الإنس ، وتتـــزاوج الحيوانـــات والطيور ، وتتلاقح النباتات .

ولقد صرح النبي ﷺ بأن الله حبب إليه من الدنيا النساء والرائحة الزكية .

" حُبِّب إليَّ النساءُ ، والطيبُ ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة "

(رواه النسائى وأحمد)

وجعل النبي ﷺ المرأة الصالحة خير متاع الدنيا .

" الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وخَيرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ " (رواه مسلم)

والحب قدر وابتلاء لا خيار للإنسان فيه لذا يقول النبي ﷺ معتذراً إلـــى الله عـــن ميله لبعض زوجاته أكثر من غيرهن دون الإخلال بالعدل بينهن جميعاً .

عن عائشة " أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: اللهم هـــذا قـــسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " قال الترمذي يعنى به الحـــب والمـــودة، كذلك فسره أهل العلم " [1]

ولقد طلب سيدنا يوسف من الله تعالى أن يصرف عنه كيد النساء حتى لا يـــصبو إليهن .

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْـــدَهُنَّ أَصْـــبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ } (يوسف : ٣٣)

لذا جعل الله تعالى فتنة النساء في صدر الفتن التي يبتلى الله بها الإنـــسان فقـــال تعالى : { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـــاطِيرِ الْمُقَنطَـــرَةِ مِـــنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } (آل عمران : ١٤)

وجعل النبي فتنة النساء هي أعظم الفتن للرجال .

عن النبي ﷺ قَالَ: "مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ "

(متفق عليه)

لأن الطباع كثيراً ما تميل إلي النساء وتقع في الحرام لأجلهـــن وتـــسعى للقتـــال والعداوة بسببهن .

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج ٩ ص ٣١٣

ولقد جاءت شريعة الإسلام بالمنهج الأمثل ، والشرع الأحكم الذي يعالج العلاقة بين الرجال والنساء فحرم الرهبانية التي جاءت بها المسيحية لأنها كبت لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها وهى ميل الذكر للأنثى والعكس { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } (الحديد : ٢٧) لقد ابتدع المسيحيون هذه الرهبانية - الزُهْدُ في الدُنيا والانْقِطاعُ عَنْ مَلَذَّاتها وَعَنِ الزَّواجِ - ولم يكتب الله تعالى عليهم هذا بل شرع الله لهم التمتع بالطيبات من الرزق من غير إسراف ، كما شرع لهم الزواج بالمحصنات وحرم عليهم اتخاذ الأخدان . وسوف نستوف هذا الموضوع عند حديثنا عن الغريزة الجنسية .

وكما حرَّم الله تعالى الرهبانية والانقطاع عن الزواج حرَّم كذلك الإباحية والزنا والفجور وكل سبيل يؤدي إلى إثارة الغرائز { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } (الإسراء : ٣٢)

أي : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلاً عن الوقوع فيه ذاته .

أنواع الحب

والحب أنواع كثيرة منها : حب الله ورسوله ، والحب في الله ، وحب الوطن ، وحب الأهل والأقارب ، وحب النساء . وحب النساء أنواع ودرجات .

المتحابون في الله

إن المتحابين في الله من غير قرابة ولا نسب، ومن غير مصلحة ولا غرض، ولا شبهة رياء أو هوى في أسمى الدراجات عند الله تعالى وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

" إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى " .

قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ : " هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ ". وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ { أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }.(رواه النسائي وابن حبان وأحمد)

وعن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: قال الله حقت محبتي للمتحابين فيَّ وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ وحقت محبتيَّ للمتناصحين

فيَّ وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ وحقت محبتي للمتباذلين ، المتحابون فـيَّ علـى منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء " (رواه أحمد وغيره)

والحب في الله ثاني ثلاثة من فعلها وجد حلاوة الإيمان .

" ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَـبَّ إِلَيْـهِ ممّـا سواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كَما يَكْـرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النّارِ " (متفق عليه)

والحب في الله فضيلة عزت في زماننا هـذا الذي طغت فيه المصالح على كـل شيء ولا يُظْهر لك الشخص المحبة إلا وكان له مأرب من ورائهـا ، ومـن ودك فاعلم أنها لمصلحة فإن قلاك فاعلم أنها انقضت إلا من رحم ربى .

فإذا كان الإنسان مسئولاً أو ذا مال أو جاه أو سلطان كثر أحباؤه فإن فقد مالـه أو سلطانه لم يعد يعرفه أحد إلا المتحابون في الله فاستحقوا محبة الله والدرجة الرفيعة التي أعدها لهم .

واستحقوا أن يكونوا من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّه الإِمَامُ الْعَدْلُ وَرَجُلٌ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّـهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْـهِ وَتَفَرَّقَـا عَلَيْـهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِـصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا لاَ تَعْلَمُ يَمِينُهُ مَا يُنْفِقُ بِشِمَالِهِ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "

(متفق عليه)

وجعل النبي الحب في الله أوثق عرى الإسلام .

قال رسول الله ﷺ " إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ "

(رواه أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى)

بل أكثر من هذا لقد جعل النبي أن الحب في الله أفضل الأعمال .

قال الرسول اللّه ﷺ : "أفضل الأعمال الحبُّ في اللّه والبغض في اللّه".

(رواه أحمد وأبو داود)

" قيل كيف يكون الحب في اللّه والبغض فيه أفضل من نحـو الـصلاة والـصوم والجهاد ؟ قلنا من أحب في اللّه يحب أنبياءه وأولياءه ومن شرط محبتـه إيـاهم أن

يقفوا أثرهم ويطيع أمرهم، وكذا من أبغض في الله أبغض أعداءه، وبذل جهده في مجاهدتهم بالبنان واللسان . " [١] .

ووعد النبي المتحابون في الله بالجنة .

قال رسول الله ﷺ : "مَنْ عادَ مَرِيضاً، أوْ زَارَ أخاً لَهُ في اللَّه تَعالى، نـادَاهُ مُنـادٍ بأنْ طِبْتَ وَطابَ مَمْشاكَ، وتَبَوَّأتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنزِلاً" (رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه وصححه ابن حبان)

وعن أنس بن مالك: أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ قَالَ وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْنَا وَنَحْنُ كَذَلِكَ قَالَ نَعَمْ فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا"

(متفق عليه)

إن المتحابين في الله وعدهم النبي بأسمى من الجنة لقد وعدهم بحب الله لهم .

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِي ﷺ "أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَىَ. فَأَرْصَدَ اللّهُ لَهُ، عَلَىَ مَدْرَجَتِه، مَلَكاً. فلما أَتَىَ عَلَيْه قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هَـذِه الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْه مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ. غَيْرَ أَنّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللّـهِ عَـزّ وَجَلّ. قَالَ: فَإِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكَ، بِأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَبّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيه " (رواه مسلم)

ولقد شاع بين الناس حب أهل الفساد والفجور من فَسَقَة أهل الفن الهابط وبغض أهل التقوى والصلاح من المؤمنين ، ومن أحب شخصاً تعلق قلبه به ومن تعلق به قلبه لم يعد يذكر غيره ، ومن لم يعد يذكر غيره يُحَبب إليه فعله وقوله حتى ملبسه حتى يصير نسخة منه واستحق أن يحشر معه وصدق رسول الله حين يقول : " الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " (متفق عليه)

حب الوالدين وذوى الأرحام .

إن صلة الأرحام من موجبات الشرع الحكيم وقطعها من أكبر الذنوب والمعاصي حتى وإن كان ذو الرحم كافراً .

---

(١) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٣٦

يقول تعالى : { وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (لقمان : ١٥)

تأمل معي ، أخي الحبيب ، هذه الآية العجيبة التي تأمر بوجوب صلة الوالدين وإن كانا كافرين بل وإن حرصا كل الحرص على أن تكفر بالله فلا تقبل منهما ذلك، ومع هذا يجب أن تكون بارًا بهما محسناً إليهما غير قاطع لرحمهما .

أين ذلك مما نسمع ونرى كل يوم من عقوق الأبناء لوالديهم والإساءة إليهما وربما امتدت أيدي بعض الأبناء الآثمة عليهما بالضرب أو القتل !!

إن الوالدين رغم أنهما يضحيان بالعزيز والغالي في سبيل أبنائهما إلا إنه لا سلطان لهما على أولادهما صغاراً ولا يجنيان منهم إلا الجحود والعقوق كباراً ولا يكاد يمر يوم حتى نسمع جريمة شنعاء في حق الوالدين أحدهما أو كليهما فعندما يكبر الأبوان يصيران عبئاً ثقيلاً على أولادهما الذين يتنصلون منهما وكل واحد من الأبناء يلقى بتبعة أبويه على الآخر ويتذرع بألف حجة للتنصل من رعايتهما ! وينتهي الأمر بإيداع الوالدين إحدى دور المسنين ليظلا بقية حياتهما في تعاسة يحتسيان كئوس الوحدة والشقاء والمرض !

مع أن الله تعالى نص في كتابه العزيز على وجوب رعاية الوالدين حتى الرمق الأخير وألا يتركهم الأولاد يعيشون في غير كنفهم فيقول تعالى :

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا } (الإسراء : ٢٣) فيصرح القرآن الكريم بأن الوالدين يجب أن يبلغا الكبر عند أولادهما لا في دور المسنين { يبلغان عندك الكبر } وعلى الأولاد ألا يُسْمِعوا أبويهما ما يغضبهما حتى ولو كلمة بسيطة فيها تضجر مثل : { أف } بل على الأولاد أن يحيطوا والديهم بالحب والحنان والرحمة وأن يذل نفسه ليعز والديه ويدعو الله دائماً لهما بالمغفرة أحياء وأمواتاً .

وحذرنا الله تعالى من قطع الأرحام فقال : { وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } (النساء : ١)

أي اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

يقول الإمام القرطبي : " اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة. وقد صح أن النبي ﷺ قال لأسماء وقد سألته أ أصل أمي ؟ (نعم صلى أمك) فأمرها بصلتها وهى كافرة. فلتأكيدها دخل الفضل في صلة الكافر " (١)

ولقد جعل الله تعالى في صلة الرحم بركة في الرزق والعمر .

يقول النبي ﷺ : " قَالَ تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ " حديث صحيح (رواه أحمد والترمذي) " منسأة في الأثر " أي أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت " (٢)

وكثيرة تلك الأحاديث التي تحث على صلة الأرحام منها " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ، أَو يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ " (متفق عليه)

الفرق بين الواصل والمكافئ

بعض الناس يعامل أقاربه كما يعامل غيرهم من الناس إن سألوا عنه يسأل عنهم وإن ودُّوه ودهم ، وإن أساءوا إليه أساء إليهم . ويعلمنا النبي ﷺ الفرق بين الواصل للرحم والمكافئ أي المجازى لأقاربه إن صلة فصلة، وإن قطعاً فقطع .

يقول النبي ﷺ : " ليسَ الواصلُ بالمُكافِئِ ولكنَّ الواصِلَ الَّذي إذا انقطعَتْ رحمُهُ وصلَهَا " (رواه البخاري)

وعن عكرمة قال: قال عمر بن الخطاب: ليس الوصل أن تصل من وصلك، ذلك القصاص، ولكن الوصل أن تصل من قطعك "

وهذا من باب الحث على مكارم الأخلاق كقوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} (المؤمنون : ٩٦)

ومنه ما جاء في الحديث الصحيح " صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك وقل الحق ولو على نفسك ".

---

(١) الإمام القرطبي في تفسيره ج ٥ ص ٦

(٢) ابن حجر العسقلانى " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج٦ص٢٠٦

وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من استحل قطيعة الرحم فعادى أهله وألد في خصامهم فيقول النبي ﷺ : " لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ " أي قاطع رحم (رواه مسلم)

عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ :

" إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَت الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هَـذَا مُقَـامُ العَائِذ بِكَ مِنَ القَطِيعة ، قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَك ، وَأَقْطَعَ مَـنْ قَطَعَكَ ؟ قَالَتْ : بَلَى ، قَالَ : فَذَلكَ لَك ، ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ : " اقْرَءوا إِنْ شِـئْتُمْ : { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَـنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } (محمد:٢٢ – ٢٣) (مُتَّفَقٌ عَلَيْه)

وأن رجلاً قال: يا رسول الله! إِنّ لِي قَرابةً أَصلُهُمْ وَيَقْطَعُـونِي ، وَأُحْسِـنُ إِلَـيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأَحلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : " لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْـتَ ، فَكَأَنَّمَـا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلكَ " (رواه مـسلم) ويشرح الإمام مسلم هذا الحديث فيقول : (ويجهلون علي) أي يسيئون والجهـل – هنا – القبيح من القول وهو تشبيه لما يلحقه من الألم بما يلحق آكل الرمـاد الحـار من الألم. (تسفهم المل) المل هو الرماد الحـار. أي كأنمـا تطعمهمـوه. (ظهيـر) الظهير المعين والدافع .

أنواع الرحم

الرحم نوعان : رحم قرابة وولادة ، ورحم إيمان وإسلام .

ورحم القرابة نوعان : رحم يرث ، ورحم لا يرث ، ورحم تجب نفقتـه بـالحكم كالأصول والفروع ، ورحم لا تجب نفقته بالحكم كالحواشي بل بالصلة والإحسان . والصلة تكون بالمال وتكون بالزيارة والإحسان وبالصفح في الأقوال وبالعون فـي الأفعال وبالألفة بالمحبة والاجتماع وغير ذلك من معاني التواصل هذا فـي الـدنيا وأما فيما بعد الموت فبالاستغفار لهم والدعاء ونحو ذلك ومـن الـصلة للـرحمين تعليمهم ما يجهلون وتنبيههم على ما ينفعهم ويضرهم . (١)

وأمر الله تعالى بإيتـاء ذي القربى لقرب رحمه ؛ وجعل تعالى خير الصدقة مـا كانت على القريب ؛ لأن فيها صلة الرحم .

---

(١) الإمام المناوى " فيض القدير " الجزء الثاني حرف الهمزة .

{ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الروم : ٣٨)

حب الوطن

وحب الوطن فطرة مغروسة في الإنسان ، فالإنسان يحن إلى مسقط رأسه ، وإلى البلد الذي وجد فيه راحته لذا فقد كان النبي ﷺ عندما يقترب من المدينة المنورة يسرع بدابته تشوقاً لها وحنياً .

فعن عبد اللّه بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول اللّه ﷺ وهو واقف بالحرورة بسوق مكة يقول: "واللّه إنك لخير أرض اللّه وأحب أرض الله إلى اللّه، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت" (رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة)

أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها .

وما أحسن ما قال بعضهم :

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

ونستعذب الأرض التي لا هوا بها ولا ماؤها عذب و لكنها وطن . [١]

ولله در مصطفي صادق الرافعي إذ يقول :

و لا خير فيمن لا يحب بلاده ولا في حليف الحب إن لم يتيم

ومن تؤوه دار فيجحد فضلها يكن حيواناً فوقه كل أعجم

ألم تر أن الطير إن جاء عشه فآواه في أكنافه يترنم

ومن يظلم الأوطان أو ينسى فضلها تجئه فنون الحادثات بأظلم

و ما يرفع الأوطان إلا رجالها وهل يرقى الناس إلا بسلم

وعن الأصمعي قال : قالت الهند – أهل الهند – ثلاث خصال في ثلاث أصناف من الحيوان: الإبل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدها بعيداً، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدباً، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعاً ، وفيها أيضاً

---

(١) شهاب الدين الأبشيهى " المستطرف في كل فن مستظرف " ٢/ ٩٣.

عن الأصمعي سمعت إعرابيًا يقول إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى إخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه . [١]

ولقد ابتلانا الله بداء عضال وهو كره بعض الناس البلاد والأوطان فلا تكاد تجلس في مجلس إلا انهال بعض الجالسين على مصر طعناً وتجريحاً ، وعلى حكامها باللعنات تصريحاً وتلميحاً ، وإذا ما كُلِّف أحدهم بعمل لا يكاد يقوم به ويلقى اللوم على الحكومة ويحملها كل مسئولية ويعفي نفسه من أية مسئولية ، وأقصى أمانيه السفر وترك البلاد إلى أي مكان ، ونسى هؤلاء أن البلاد لا تكون جميلة إلا بأهلها ، ولا تتقدم إلا برجالها وأن الحكومة إن كانت فاسدة فالمجتمع يكون أفسد ، وصدق القائل إذا أردت أن يحكمك أبو بكر فكن أنت عمر وهم ليسوا عمر ولا أدنى من أي صحابي ومع ذلك يتعجبون لماذا لا يحكمهم أبو بكر أو عمر ! [٢]

سألَ أحَدُهم عليًّا رضي الله عنه" :لماذا لَم يشغب أحدٌ على مَنْ قبلك؟ "فأجابهُ : "لأنَّهم كانوا يَحكُمون أمثالي، وأنا أحْكُم أمثالَك"؛ أيْ: كيفما تكونوا يُولَّ عليكم ؛ فبهت الذي سأل .

لقد فشا في كثير منا الإهمال والسلبية والتواكل وأكل مال الناس بالباطل ، والفوضى والرياء وحب النفس والأنانية ومع ذلك ينتظرون من الحكومة – رغم ذلك – أن تحقق لهم أحلامهم دون بذل أي جهد لمساعدتها فعلى الحكومة أن تجد وظيفة لكل خريج على أن تكون هذه الوظيفة قريبة من محل إقامته ولا تحتاج إلى جهد كبير وبمرتب كبير جداً !! فإذا وفرت له الدولة فرص عمل في مناطق بعيدة مثل توشكى أو سيناء فضَّل البطالة على العمل، وفضَّل سب الحكومة على مساعدتها ! ونقول لمثل هؤلاء : وعلى فرض أن الحكومة فاسدة فكن أنت مصلحاً. فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولن يعفيك فساد غيرك من الحساب على فسادك فعلى الإنسان ألا يقلد إلا في الخير والبر حتى لا يكون إمعة .

يقول النبي :" (لا تَكونوا إمَّعَةً تَقُولونَ إنْ أحسَنَ النَّاسُ أحسنا وإنْ ظَلَموا ظَلَمنا ولكنْ وطِّنُوا أنفُسكُم إنْ أحسَنَ النَّاسُ أن تُحسنُوا وإنْ أسَاءوا فلا تَظلِموا "

(رواه الترمذي والطبراني)

(١) الإمام العجلوني " كشف الخفاء " باب " حب الوطن قتّال " .

(٢) كان هذا حال كثير من الناس قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير ، ولكن الثورة أثبتت أن هؤلاء الناس لم يكونوا يكرهون أوطانهم بل يكرهون حكامهم .

وقال ﷺ : "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ." (متفق عليه)

أي أشدُّهم هلاكاً لأنه قال: ذلك على سبيل الإزراء عليهم والاحتقار لهم وتفضيل نفسه عليهم ، لأنه لا يدرى سرّ اللّه تعالى في خلقه، هكذا كان بعضُ علمائنا وقال الخطابي : معناه : لا يزالُ يعيبُ الناسَ ويذكرُ مساويهم ويقول : فسدَ النّاسُ وهلكوا ونحو ذلك ، فإذا فعل ذلك فهو أهلكُهم : أي أسوأ حالاً فيما يَلحقُه من الإثمِ في عيبهم والوقيعة فيهم ، وربما أدّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن لـه فضلاً عليهم، وأنه خير منهم فيهلك . [١]

وهناك رواية أخرى للحديث " فهو أهلَكَهُم " بفتح الكاف أي هو السبب في هلاكهم بتقصيره في أداء ما هو مكلف به من العمل الجاد المثمر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة .

القلب محل الرحمة

والقلب محل الرحمة ، والرحمة من خصائص هذا الدين العظيم أنه جاء رحمة للعالمين ، رحمة تشمل جميع الكائنات تشمل السموات والأرض وما بينهما من إنس وجن وحيوان وطير ونبات وجماد ، رحمة ليست لجنس منها فقط وليست محدودة بوقت معين إنما رحمة لجميع المخلوقات كلها إلى يوم الدين !!

ولما العجب فإن مصدر هذه الرحمة هو الله الرحمن الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة .

{ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } (الأنعام : ١٢)

ولقد أرسل الله الرحمن الرحيم رب العالمين رسوله الكريم رحمة للعالمين .

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } (الأنبياء : ١٠٧)

فرسل الله خلقوا للرحمة ، ومحمد ﷺ خلق بنفسه رحمة ، فلذلك صار أماناً للخلق من العذاب إلى نفخة الصور .

---

(١) الأمام النووي " الأذكار " باب حفظ اللسان .

{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }
(الأنفال : ٣٣)

وجعل الله تعالى الإسلام والقرآن رحمة للعالمين فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال في قوله الله تعالى :

{ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } (يـونس : ٥٨)
قال : أي بالقرآن وبالإسلام فليفرحوا .

ولقد أخبر الله تعالى بأن من صفات سيدنا محمد الرأفة والرحمة بالمؤمنين .

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَـيْكُم بِـالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (التوبة : ١٢٨)

والرحمة ليست خاصة بالمؤمن فقط ، وإنما تشمل حتى الكفار أيضاً .

قال النبي ﷺ على باب الكعبة ثم قال : " مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟ ". قَالُوا : خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ : " اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ " .. (١)

بل واتسعت الرحمة في الإسلام لتشمل الأعداء أيضاً .
{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ }
(البقرة : ١٩٠)

أي قاتلوا في سبيل اللّه ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي مـن المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والـشيوخ وأصـحاب الـصوامع وتحريـق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة .

عن بريدة أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : " اغزوا في سـبيل اللّه ، قاتلوا من كفر باللّه ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليـد ، ولا أصـحاب الصوامع ". (رواه مسلم)

بل والأعجب أن النبي جعل مجرد نطق الكافر المقاتل بالشهادة فإن ذلـك يجعلـه معصوم الدم وإن كان يقول ذلك تعوذاً من المسلم .

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ج ٨ ص ١٨ .

فعن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ قَالَ : " بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ قَالَ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ رَجُلا مِنْهُمْ قَالَ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ قَالَ فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ قَالَ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فَقَالَ لِي يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا قَالَ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ." (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

وفي رواية : فقال رَسُول اللَّه ﷺ : " أقال لا إله إلا اللَّه وقتلته ؟ " قلت : يا رَسُول اللَّه إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟! " .(متفق عليه)

قوله " متعوذاً " : أي معتصماً بها من القتل لا معتقداً لها " (١)

وعن أبى معبد المقداد بن الأسود رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قال قلت لرَسُول اللَّـه ﷺ : أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة فقال أسلمت لله أأقتله يا رَسُول اللَّه بعد أن قالها ؟ فقال : " لا تقتله " فقلت: يا رَسُول اللَّه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها ؟ فقال: " لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال "
(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

فأية رحمة تلك التي تصون دماء الأعداء ؟! وأي رجل هذا الذي ينهى عن قتل أطفال الكفار المعتدين ونسائهم وشيوخهم و قطع شجرهم ؟! وأي دين هذا الذي جاء رحمة للعاملين ؟! إنها رحمة الله تعالى الرحمن الرحيم بخلقه أرسل بها محمداً ﷺ الرءوف الرحيم ، إنه دين الإسلام .

ولم تقتصر الرحمة في الإسلام على البشر : مؤمنهم ، وكافرهم إنما سمت وارتقت لتشمل الحيوان والنبات أيضا وشملت ، ويا للعجب ، الجماد ولما العجب فكل ما في الكون يسبح بحمد الله وإن كنا لا نفقه تسبيحه .

---

(١) الإمام النووي " رياض الصالحين " ص ٢٥٠

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (الإسراء : ٤٤)

لذا كان الرسول الرءوف الرحيم يحب جميع خلق الله ، وبادلتـه المخلقـات حبـا بحب !! ألم يقل النبي عن جبل أُحُد : " هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " (متفق عليه)

قال على : خرجت مع رسـول الله ﷺ في بعض شعاب مكَّة فما مرَّ بحجـر ولا شجر، ولا مدر، إلا قال: السَّلام عليك يا رسول الله " (١)

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال :

" كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِـذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ " (رواه البخاري)

ومن رحمته ﷺ نهيه عن اتخاذ الناس دوابهم كراسي لأحاديثهم .

أَنَّهُ ﷺ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابَّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمْ: اركَبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً وَلاَ تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبَـةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ . " صحيح (رواه أحمد)

ولقد أخبر النبي ﷺ أن تعذيب الإنسان للحيوان يسلكه النار .

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما أن رَسُولَ اللَّه ﷺ قال : " عُذِّبَت امْرَأَةٌ فـي هِـرَّةٍ سَجَنَتْها حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا ، إِذْ حَبَـسَتْهَا ، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ " (مُتَّفَقٌ عَلَيْه)

بل أخبر النبي ﷺ بأن من يقطع شجرة نافعة للناس أو للبهائم فإن الله تعالى معذبه بقطعها . قال رَسُولُ الله ﷺ : "مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ الله رَأْسَهُ في النَّـارِ" حـديث صحيح (رواه أبو داود والبيهقى)

سُئِلَ أَبُو دَاوُدَ عنْ مَعْنَى هَذَا الحديث فقالَ: "هَذَا الحديثُ مُخْتَصَرٌ، يَعْنى مَنْ قَطَـعَ سِدْرَةً في فَلاَةٍ يَسْتَظِلُّ بها ابنُ السَّبِيلِ وَالْبهَائِمُ عَبَثاً وَظُلْماً بِغَيْرِ حَقٍ يَكُونُ لَـهُ فِيهَـا صَوَّبَ الله رَأْسَهُ في النَّارِ".

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ٦ ص ٣٢٢ .

كما أخبر ﷺ أن إحسان الإنسان للحيوان يرفع أجره ويهديه إلى الجنة .

وعن رسول اللّه ﷺ أنه قال : " بينما رجل يمشي بطريق فاشتدّ عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفّه ثم أمسك الخف بفيه حتى رَقِى فسقى الكلب، فشكر اللّه له فغفر له، قالوا : يا رسول اللّه، وإنّ لنا في البهائم لأجراً؟ قال: في كل ذات كَبِد رطبة أجر." (متفق عليه) وفي رواية للبخاري: فشكر اللّه له فغفر له فأدخله الجنة .

ووصلت الرحمة بالنبي ﷺ أن يعلمنا أن نحسن ذبح ما نذبح من حيوان أو طير لنطعمه فنحد السكين ونرح الذبيحة .

عن رَسُول اللَّه ﷺ قال: " إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته " (رواه مسلم وأصحاب السنن).

كيف يقال بعد ذلك أن الإسلام دين الإرهاب والقسوة والغلظة إن الإسلام دين الرحمة ومن قال بخلاف ذلك من المسلمين أو غيرهم فإنه يتحدث عن دين آخر غير الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله الرحمة المهداة والنعمة المسداة .

كيفية تغيير المنكر

وللأسف أنه شاع بين العالمين اليوم أن الإسلام دين الإرهاب وأن كلمة الإرهابيين مرادفة لكلمة مسلمين ويرجع ذلك لأمرين هما :

أولا : فهم بعض المسلمين الخاطئ للإسلام وأنه يجب استخدام القوة مع المخالفين لهم في الرأي من المسلمين وغيرهم وأن تغيير المنكر باليد على أية حالة هو أسمى درجات الإيمان . وهذا فهم منكر مردود على صاحبه وهاك الحديث الذين يحتج به المتطرفون ليبرروا أعمالهم التخريبية وأفعالهم الآثمة .

روى الأئمة عن أبى سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ " (رواه مسلم)

والحديث حجة على هؤلاء المتطرفين وإليك بيان المقصود بالحديث الشريف "من رأى" معناه وجوب التثبت من حقيقة المراد تغيره وعدم أخذ الناس بالظن واتهامهم

بغير دليل مصداقاً لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (الحجرات : ٦) لذا استخدم النبي ﷺ الفعل " رأى " الذي يدل على تمام اليقين ولم يقل سمع أو قيل له أو ظن ، وكثير من أولئك المتطرفين لا يتحرون الدقة فيما يقومون به من عنف وإرهاب فقد حاول رجل – يعمل سماكاً – أن يقتل الروائي نجيب محفوظ ولما سئل لماذا أردت قتله ؟

- قال لأنه كافر وكتاباته كلها كفر .

- وهل قرأت لنجيب محفوظ ما جعلك تحكم بكفره ؟

- لا .. لم أقرأ !!

واُكتُشف أنه جاهل لا يقرأ وإنما أفتى له أمير الجماعة بقتل محفوظ لأنه كافر فقام هو بتنفيذ الحكم دون تثبت من التهمة !! والذين قتلوا السياح الأجانب في الأقصر عام ٩٧ ، والمواطنين المسيحيين قيل لهم – دون بينة – إنهم كفار مستباحو الدم والمال فقاموا بتنفيذ جرائمهم المنكرة !!

إذن لا بد من التيقن بالدليل القاطع من وقوع المنكر ، ومواجهة صاحب المنكر بتهمته وبيان وجه الحق له – بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن – فربما كان جاهلاً بحقيقة الشرع وأن ما عمله كان عن جهل وليس عن قصد .

نأتي الآن لبيان المقصود بكلمة " منكر " التي وردت في الحديث المنكر هو ما أنكره الشرع بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة وأجمع العلماء على حرمته فإن كان النص ظني الثبوت والدلالة ومما اختلف العلماء فيه فلا يعد منكراً إن صح عن بعض العلماء إباحته وكما يقول العلماء " إنما ينكر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه " ، ففي اختلاف العلماء رحمة لكن المتطرفين يفهمون المنكر على غير هذا ، فالمنكر عندهم هو ما يراه هو منكراً ، وإن خالف رأيه رأى العلماء – أو بعضهم – كتحريمهم حلق اللحية وفرضية النقاب ...

نأتي إلى قوله ﷺ " فليغيره بيده " يظن المتطرفون أن التغير باليد حق لكل إنسان ومقياس قوة الإيمان فعلى قدر إيمانك يكون تغيرك للمنكر فإن كان إيمانك كبير ،

أمثالهم !! فعليك أن تغير ما تراه منكرا بالقوة و إلا كنت ضعيف الإيمـان وبهـذا الفهم المغلوط راحوا يسفكون دماء الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين !! مع أن المطالب بتغير المنكر باليد – بعد التحقق من كونه منكراً شرعاً وإقامة الدليل عليـه ومراجعة صاحبه واستتابته – هم أولياء الأمور وليس العامة بل وليس علماء الدين أيضاً وإلا عمت الفوضى وانتشر الفساد وكثرت الفتن كما حدث فيمـا خـلا مـن سنوات لا أعادها الله علينا ثانية .

فإن كان الإنسان الذي رأى المنكر من غير أولى الأمر فليس مـن حقـه تغيـر المنكر بالقوة إنما عليه تبليغ أولى الأمر بما رأى ليأخذوا تدابيرهم فإن تقاعسوا عن أداء واجبهم فهم المسئولون أمام الله يوم القيامة ، فإن استطاع أن يقدم لمن ارتكـب المنكر نصيحة تبين له خطأ ما يفعل فعل ، وإلا فعليه أن يستنكر هذا المنكر ويبـرأ لله منه .

ولنضرب لذلك مثالاً لتوضيح الأمر .

إذا رأى رجل ابنته البالغ تلبس ما يكشف عورتها أو يجسمها أو يشف عنها فـإن عليه والحالة هذه أن يمنعها بالقوة [1] من الخروج علـى النـاس بهـذه الملابـس الفاضحة فهو والحالة هذه ولى أمرها ، فإذا جاءت صديقة ابنته وكانت ترتدى نفس الملابس فإن عليه أن ينصحها بالحكمة والموعظة الحسنة إذ ليس له عليها سلطان ، فإن خرج إلى الطريق ورأى فتاة ترتدى نفس الملابس الفاضـحة غـض بـصره واستنكر بقلبه ما رأى .

فالإنسان قد يكون في موقف مغيراً للمنكر بالقوة وموقف آخر باللسان وثالث بالقلب .

ونأتي إلى معرفة المقصود بـ" أضعف الإيمان " المذكورة في الحديث فإن معناها أقل درجات التغيير وليس معناها أن من يغير بقلبه ضعيف الإيمـان – إن كـان لا يملك سلطة التغيير باليد أو اللسان – فضعف الإيمان معناه أقـل ثمـرة كمـا قـال العلماء " (أضعف الإيمان) أضعف أعمال الإيمان المتعلقة بإنكار المنكر في ذاته لا بالنظر إلى غير المستطيع ، فإنه بالنظر إليه هو تمام الوسع والطاقة ولـيس عليـه غيره " [2]

---

(١) بعدما يكون قد استنفد جهده في تربيتها على شرع الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

(٢) الإمام السندى " حاشية السندى على النسائي " ج ٨ ص ١١١

ونأتي بعد هذا البيان إلى رأى علماء الدين في شرح الحديث يقول الإمام القرطبي: " قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء ، يعنى عوام الناس " (١)

ويقول القاضي عياض : في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : " يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى ، ويغلظ على المتمادي في غيه والمسرف في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكرا أشد مما غيره ، لكون جانبه محميا عن سطوة الظالم ، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف ، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة ، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى، وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره ، أو يقتصر على تغييره بقلبه، هذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافا لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال وإن قتل ونيل منه كل أذى " (٢)

تقليد المسلمين أعداءهم في جرائمهم

ومن الأمور التي ابتليت بها أمة الإسلام وأصبحت وصمة عار في جبين المسلمين قتل ، وخطف المدنيين بدعوى أن هذا جهاد وأنه سيجبر المحتلين على الجلاء – والعجيب أنهم لم يكتفوا بخطف الأجانب فقط فراحوا يقتلون ويخطفون المسلمين أيضاً ! – مما كان له أسوأ الأثر على تشويه صورة الإسلام والمسلمين أمام العالمين ، والمدهش أنك ما إن تنتقد هذا المسلك المشين الخارج على تعاليم الإسلام حتى ينفجر فيك الناس بمقارنة هذه الأعمال وما يقوم به أعداء المسلمين الذين يرتكبون أبشع الجرائم ضد الأبرياء والمستضعفين ، ونسى هؤلاء أن الإسلام لا ينتصر بتخلي المسلمين عن مبادئه والتمسك بأخلاق أعدائه ، إنما ينتصر بالتحلي بمبادئه ، والتخلي عن المشين من أخلاق أعدائه ، وما انتصر المسلمون الأوائل إلا بقيم الإسلام التي لا تجيز قتل الأبرياء غير المحاربين من أطفال ، ونساء ، وشيوخ، ورهبان ..

---

(١) تفسير القرطبي ج٤ ص ٤٩ .

(٢) الإمام النووي " صحيح مسلم بشرح النووي " ج ٢ ص ٢٥

يذكر المؤرخون المسلمون أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق ﷺ في المعارك الكبرى التي دارت بين المسلمين والإمبراطوريتين العتيدتين فارس والروم- أرسل إليه رأس أحد قادة الأعداء من قلب المعركة إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية.
وكان القائد يظن أن الخليفة يُسَرُّ بذلك، ولكن الخليفة غضب لهذه الفعلة لما فيها من المُثلة، والمساس بكرامة الإنسان، فقالوا له: إنهم يفعلون ذلك برجالنا. فقال الخليفة في استنكار: آستناناً بفارس والروم؟ لا يُحمل إليَّ رأس بعد اليوم! [١]

ولو أننا عملنا ما يعمل أعداؤنا لصرنا مثلهم وهذا ما يتمنونه { وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء } (النساء : ٨٩) .

هذا على المستوى الديني أما على المستوى السياسي فإن هذه الأعمال أضرت بالقضية العادلة التي ندافع عنها فقد حولت الصراع من مقاومة مشروعة لمحتل غاصب ، إلى حرب قوى خيرة (٢) ضد إرهاب حاقد !

ثانيا : الأمر الآخر الذي سبب اتهام الإسلام بالإرهاب هو ترويج أعداء الإسلام لهذه التهمة حتى يجدوا مسوغاً لاحتلال بلاد الإسلام والقضاء على الإسلام نفسه ليقفوا في وجه أفواج الداخلين في الإسلام – رغم سوء حال المسلمين وتقصير دعاة الإسلام – بعدما طحنتهم ماديات الحياة وبعدما فشل ما يدينون به من أديان سماوية محرفة أو عقائد إنسانية مضللة في إنقاذهم مما هم فيه من ضياع .

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر واهتزاز مكانة أمريكا عالميّاً راحت تلصق تهمة الإرهاب بالمسلمين وخاصة تنظيم القاعدة وعلى رأسهم أسامة بن لادن، وحركة طالبان وجعلت ذلك مسوغاً لاحتلال أفغانستان وتدميرها ، كما لم تجد أسلحة التدمير الشامل التي غزت العراق لاتهامه بحيازتها لها !!

وهكذا فإن الإسلام واقع بين المطرقة والسندان واقع بين تخلف أبنائه وكيد وأعدائه .

أمراض القلوب

وأمراض القلوب كثيرة وخطيرة فهي أشد فتكاً من أمراض الأبدان على الإنسان فأمراض الأبدان قد تورث توبة وإنابة إنما أمراض القلوب تورث الكفر والنفاق .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " موقع القرضاوي " بتاريخ ٢٧-١٢-٢٠١٠ .
(2) صرح أحد وزراء خارجية العرب بأن : أمريكا قوة خير للعالم !

يقول الشيخ محمد الغزالي : " معاصي القلوب أخطر من معاص الجوارح وأخشى أن يكون ما ينتشر بيننا وبين غيرنا من عوج خاضع لهذا القانون ! لقد تذكرت حرب ١٩٦٧م التي خسر العرب فيها القدس وسيناء والجولان والضفة الغربية في حرب لم تدم إلا بضع ساعات ؟ .. ولو أن الذي قاد هذه الحرب أحد الخواجات لآثر أن يطلق على دماغه الرصاص واستحى أن يقابل أمته بهذا العار . لكن قائد الهزيمة عندنا عاد إلى قواعده سالماً ليكافئ من يقول له الحمد لله على سلامتك وليطارد من يقول له : كيف ألحقت بنا هذه الفضيحة . إن أوروبا لا تقبل أن يشيع فيها الانحراف الحيواني ، لا تقبل ولا يمكن أن تقبل أن يقع فيها هذا الانحراف الإنساني ، هذا هو الفرق بين الرذيلة عندنا وعندهم ..

إن الكبر والحسد والافتخار بالنفس أو النسب أو المال ، وحب الخلاف وحب الظهور وحب السمعة ، والرغبة في التسلط والرغبة في هضم أولى الكفاية ، إن هذه الرذائل أشنع من ترك العنان للغريزة الجنسية تنطلق على النحو السيئ الموجود في ظل المدنية الحديثة ومن هنا فإن خصومنا لن يضاروا كثيراً أو على عجل من عللهم كما نضار نحن المسلمين من آفات الرياء والكبرياء المبعثرة في كل ناحية . إن الإسلام – بداهة – عافية سابغة من أنواع العلل التي تستهلك النفوس والمجتمعات وهو يحارب صنوف المعاصي ويحصن أبناءه ضدها "[١]

ومن أمراض القلوب : النفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال ...

النفاق

وأخطر أمراض القلوب وأشدها فتكاً النفاق ويذكر الله تعالى لنا صفات المنافقين فيقول جل شأنه :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّه وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } (البقرة : ٨ – ١٠)

---

(١) محمد الغزالي " هموم داعية " ص ٨١

والمنافقون مسلمون – في الظاهر – من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلساننا ويعيشون في أوطاننا لكن ولاءهم لأعداء الله والوطن ينفثون سمومهم في أجهزة الإعلام المختلفة : المسموعة والمرئية والمقروءة ، وفي الفنون المختلفة : أدب ، نحت ، رسم ، غناء ، تمثيل ، ويدَّعون أنهم مصلحون وتقدميون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون بل كثير منهم في زماننا مفسدون ويشعرون .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ } (البقرة : ١٢)

هؤلاء المنافقون هم الذين يستهزئون بشريعة الإسلام وبالمؤمنين فيرمونها بالرجعية ويرمون أهلها بالتخلف ، ويتاجرون في الأعراض والمنكرات فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

والعجيب عندما تناقشهم في أمور دينية يهاجمونها رغم أنها معلومة من الدين بالضرورة يقولون لك لا تزايد علينا في ديننا نحن نفهم الإسلام أكثر منك ولا نحتاج إلى من يعلمنا ديننا !!

{ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ } (البقرة : ١٤–١٦)

هؤلاء هم العدو حقاً ولشدة خطورتهم خصهم الله تعالى بصورة كاملة ذكر فيها تعالى أهم نعوتهم ومنها .

{ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } (المنافقون : ٢– ٤)

هؤلاء هم السوس الذي ينخر في عقول الأمة ليفسدها ، وهم معاول هدم الفضيلة في المجتمع باسم الفن أو الأدب أو العلم ، هؤلاء المنافقون أضر على المسلمين من الأمريكان واليهود ، هؤلاء بطانة السوء التي تفسد الراعي والرعية . { يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }
(آل عمران : ١١٨)

ولقد نجح هؤلاء في غيبة التدين الصحيح أن يغزوا الجامعات والإعلام والسياسة والأعمال المؤثرة في المجتمع ورغم قلة هؤلاء إلا أنهم ذوو تأثير كبير في إفساد المجتمع ومن ورائهم أعداء الله يدعمونهم ويسندون ظهورهم .

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا } (النساء : ١٣٨ – ١٣٩)

هؤلاء المنافقون وراء كل دعوة لعُرْى وخلاعة ، ووراء كل إباحية وفجور، ووراء كل تثبيط للهمم وتغييب للعقول ، ووراء كل دعوة لصرف المسلمين عن شريعة الله تعالى وهدى نبيه المصطفي ، وشغلهم بتوافه الأمور .

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }
(التوبة : ٦٧)

هؤلاء المنافقون أحفاد عبد الله بن أبي بن سلول تجدهم وراء كل فاحشة ، وكل مذهب فاسد .

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (النور : ١٩)

ومهما توارى هؤلاء المنافقون وراء المسميات المختلفة ، والمذاهب المتباينة فإن أقوالهم وأعمالهم تشف عن حقدهم وضغائنهم .

رأيت أحد هؤلاء يعلن في التليفزيون المصري أن جسد المرأة ، كله دون استثناء، ليس عورة وأنه خلق الله ، وخلق الله بديع ولا ينبغي أن يستر منه شيء، ويتعجب من أولئك الذين يدعون ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، إلى تغطية عورات النساء ، وذكر أن المشغولين بأعمالهم لا يلتفتون إلى أجساد النساء العارية بعكس الذين لا عمل لهم ، واستشهد بأن الألمان وهم ذاهبون إلى أعمالهم لا يلتفتون إلى النساء

العاريات اللاتي يعرضن مفاتنهن في محال الدعارة إنما من ينجـذب إلـيهن هـم العرب أمثاله ، ولولا أني سمعت الرجل بنفسي ما صدقت أن مسلماً في تليفزيـون الدولة التي دينها الإسلام يمكن أن يجاهر بهذا والعجيب أن المذيع أيده فيما قال !!

{ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ }(محمد : ٣٠)

أي لتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهـم المـتكلم مـن أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول، كمـا قـال أميـر المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللّه عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللّه علـى صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: "ما أسر أحد سـريرة إلا كـساه اللّـه تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر" (١)

وما يخفي عن المؤمنين من أعمالهم تكفل الله تعالى بكشفه لذوى البصائر .

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } (محمد : ٢٩)

أي أيعتقد المنافقون أن اللّه لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمـرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل اللّه تعالى في ذلك سـورة فبـين فيهـا فضائحهم، ولهذا كانت تسمى سورة " التوبة " الفاضحة .

وبعد سقوط الحكم العلماني الذي حكم مصر عقوداً متطاولة بقيام ثورة ٢٥ ينـاير وصعود التيار الإسلام كشف هؤلاء المنافقون عن كـرههم للإسـلام وأحكامـه ، وبدءوا يخوّفون الناس من الدولة الدينية رغم أن تاريخ الإسلام لم يعـرف الدولـة الدينية ولم يقل بها أحد من قادة التيارات الإسلامية المختلفة ، وشـرعوا يروجـون الشائعات : إذا حكم التيار الإسلامي فسوف يفرضون على النساء ارتداء النقـاب ، وترك العمل والجلوس في البيت ، وسوف يغلقون دور السينما والمـسارح ، ولـن يسمحوا إلا بالتواشيح الدينية ، وسوف يقطعون الأيدي والأرجل والآذان ، وسـوف يحوّلوا مصر إلى أفغانستان ... إلى غير ذلك من التّرهات .

فليحذر هؤلاء المنافقون من عقاب الله تعالى فإن مصيرهم أسوأ مصير أنهم أسوأ من فرعون وملئه ، ومن أبى جهل وحزبه إنهم في الدرك الأسفل من النار خالـدين فيه أبداً .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٢١ .

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا }(النساء : ١٤٥)

فالمنافق في الدرك الأسفل ؛ لغلظ كفره ، وتمكنه من أذى المؤمنين.

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

(الحديد : ١٣- ١٥)

فليسارع هؤلاء بالتوبة قبل أن يأتي الموت بغتة فإن تابوا وأصلحوا فإن الله تعالى يتوب عليهم وهو التواب الرحيم .

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } (النساء : ١٤٥- ١٤٦)

الرياء

المرائي هو من يتظاهر بالصلاح على خلاف ما عليه ليكسب ثناء الناس وشكرهم، فالمرائي وإن كان يؤدى بعض العبادات الظاهرة ويقوم ببعض أعمال الخير فإنه لا يقصد بها وجه الله تعالى إنما يقصد بها وجه الناس أو يشرك مع الله تعالى الناس ولا ثواب للمرائي عند الله تعالى ؛ فالله جل وعلا لا يقبل إلا ما كان له خالصاً ومن الرياء سالماً .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

(البقرة : ٢٦٤)

فمن أنفق صدقة أو عمل معروفاً رئاء الناس فقد أبطل صدقته وأفسد عمله .

أخرج أبو داود والنسائي والطبراني بسند جيد، عن أبى أمامة قال: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما

له؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له. فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله ﷺ : لا شيء له . ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه .

ولقد سمى النبي ﷺ الرياء الشرك الخفي .

" الشرك الخفي أن يعمل الرجل لمكان الرجل " (رواه الحاكم في المستدرك)

أي يعمل العمل من أجل رجل ليثنى عليه أو يذكر عمله هذا للناس فيعرف به.

وعَنْ أَبِي سعيد قَالَ : خرج علَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّال . فَقَالَ : أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُو أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّال ؟) قَالَ ، قُلْنَ : بَلَى . فَقَالَ (الشِّرْكُ الْخفيُّ : أَنْ يَقُومُ الرَّجُلُ يُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صلاَتَهُ لِمَا يرَى مِنْ نَظَر رَجُلٍ " حديث حسن (رواه ابن ماجه)

إن أمة محمد في عصورها المتأخرة قد دب فيهم الرياء واستشرى فلا تكاد تجد رجلاً يخلص العمل لوجه الله العلى القدير إنما لأجل منصب أو مال أو عَرَض من أعراض الدنيا الزائلة إلا من رحم ربي .

ويعلمنا الرسول كيف نتقى الرياء أو الشرك الخفي .

عن أَبِي موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ " . فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيه وَهُوَ أَخْفَي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ : " قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ " حديث صحيح (رواه أحمد)

وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: (صمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك) ثم قال: (إن هؤلاء أول من تسعر بهم النار) .

فالرياء يبطل العمل ، وإن لم يتب عنه صاحبه فإنه يسلكه جهنم .

قال رسول اللّه ﷺ : " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ " (أخرجه مسلم)

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة قال، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فيه نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ في عَمَلٍ عَمِلَهُ للَّه فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّه فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْكِ "

(رواه أحمد وابن ماجه والترمذي)

وقالﷺ : " إنّ أخوفَ ما أخافُ عليْكُمُ الشِّرْكُ الأصغرُ الرّياءُ يقولُ اللّهُ يومَ القيامةِ إذا جزى النّاسَ بأعمالِهِمْ اذهبُوا إلى الّذينَ كُنْتمْ تُراؤُونَ في الدُّنيا فانظُروا هلْ تجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً " (أخرجه أحمد والبيهقى) .

الكبر

الكبرياء لا تكون إلا لله تعالى { ولَهُ الْكِبْرِيَاءُ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (الجاثية : ٣٧)

ومن نازع الله تعالى هذه الصفة من مخلوقاته جعل النار مثواه . { فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } (النحل : ٢٩)

قالَ رَسُولُ الله ﷺ قالَ الله تَعالَى: "الْكِبْرِياء رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ" (أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه)

وفي بدأ الخليقة تكبر إبليس اللعين على السجود لآدم إذ أمره الله تعالى فَطُرِد من الجنة وحلت عليه لعنة الله تعالى .

" إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا من طين فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } (ص : ٧١- ٧٨)

فالشيطان إمام كل المتكبرين وهو الداعي إلى كل كبر على الله وخلقه { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } (ص : ٨٢)

ولقد توعد الله تعالى كل متكبر بأن يصرفه عن آيات الله تعالى الدالة على قدرته، ويعمى بصيرته عن الاهتداء إلى الحق ، ويسلكه طريق الشيطان .

{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ } (الأعراف : ١٤٦)

وذلك لأنهم تكبروا على الإيمان بالله وعبادته فكان جزاؤهم النار .

{ إِنَّهُمْ كانوا إذا قِيل لهُمْ لا إله إلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } (الصافات : ٣٥)

{ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } (غافر: ٦٠)

أما المؤمنون فإنهم لا يستكبرون على الله ولا على خلقه .

{ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ } (السجدة : ١٥)

والكبر طريق الإنسان إلى النار قل أو كثر فلن يدخل الجنة متكبر .

" لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ " (رواه مسلم)

ونهى النبي عن الإطراء والمدح المفرط فيه .

سمع النبي ﷺ رَجلاً يُثْنَي على رَجُلٍ ويُطرِيهِ فَقال النبي ﷺ : " أهلَكتُم أو قَطَعتُم ظَهَر الرَّجُل " (رواه البخاري)

" قطعتم ظهر الرجل " أي أثقلتموه بالإثم، لأنه ربما حمله إطراؤهم له على العجب والكبر، وسلك سبيل المتكبرين، فيقع في الإثم الكبير الذي يقطع الظهر.

والرياء من الأمراض الخطيرة التي تدمر المجتمع فلا عمل يعمل لوجه الله تعالى وإنما للتظاهر به من أجل المصلحة ، ولا يكاد أحد يتولى منصباً حتى تنهال عليه التهاني والهدايا ممن يعرف وممن لا يعرف رياء من أجل الاستفادة من منصبه في قضاء مصالحهم الدنيوية ، وبكثرة الرياء للرؤساء يستمرئونه ويصدقون أنفسهم أنهم عباقرة ولم تنجب الأرض أمثالهم فتأخذهم العزة بالإثم ويتكبرون على الحق فيفسدون .وإن أرادوا أن يولوا المناصب فهي من نصيب من راؤهم لا لذوى الكفاءات من المخلصين الذين يترفعون عن التملق والرياء .

الحسد

الحسد تمنى زوال النعمة . والإنسان دائماً طماع لا يرضى بما قسمه الله له إنما هو دائماً يتمنى المزيد وينظر إلى ما في يد الآخرين لذا يحذرنا الله تعالى من تمنى زوال نعمة الله التي أنعم بها على عباده ويعلمنا أن نسأله تعالى أن يرزقنا من هذه النعم دون تمنى زوالها عن أصحابها .

{ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }
(النساء : ٣٢)

قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي ومجازي، فالحقيقي تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازى فهو الغبطة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحسد في هذا الحديث " لا حَسَدَ إلا على اثْنَتيْنِ : رجلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآنَ فقام به آناء اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ ورجلٌ أعْطاهُ اللَّهُ مالا ، فَهوَ يُنْفِقهُ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ "(متفق عليه)

الحسد هنا معناه المجازى أي لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما .[١]

إن أول جريمة قتل على الأرض كانت بسبب الحسد إذ حسد قابل أخاه هابيل أنْ تقبل الله القربان من أخيه ولم يتقبله منه هو فقتله حسدا من عند نفسه .

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (المائدة : ٢٧ – ٣٠)

والحسد لن يعود على صاحبه بنفع بل يأكل حسناته .

" الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلاَةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ "

(رواه أبو داود وابن ماجه)

ولقد حذرنا النبي ﷺ من الحسد فإنه مفسدة للدين .

أنّ النبي ﷺ قالَ: " دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِي الْحَالِقَةُ ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،

---

(١) المباركفورى " تحفة الأحوزى " باب ما جاء في الحسد .

ولا تُؤمنوا حتّى تحابّوا، أفَلاَ أُنبّئُكُمْ بِمَا يُثَبّتُ ذَلِكَ لَكمْ: أفْشُوا السّلاَمَ بَيْنَكُمْ " (رواه أبو داود والترمذى) ومعنى " تحلق الدين " أنها لا تُبقى شيئاً من الحسنات حتى تذهب بها .

إن الحسد مرض يصيب القلب فيمزقه ويفرى الكبد ويحرقه وعلى كل إنسان أن يتحصن بذكر الله وقرباته فلن يفلح معه حسد بل يُرَد كيد الحاسد إلى نحره .

وقديماً قال ابن المعتز

اصبرْ على كيدِ الحسودِ ... الحسود فإن صَبْرَكَ قاتلهْ
فالنارُ تأكلُ بعضَها ... إن لم تَجِدْ ما تأكلُهْ

واعلم أن دواء الحسد الذي يزيله عن القلب معرفة الحاسد أنه لا يضر بحسده المحسود في الدين ولا في الدنيا وأنه يعود وبال حسده عليه في الدارين إذ لا تزول نعمة بحسد قط ، وإلا لم تبق لله نعمة على أحد حتى نعمة الإيمان لأن الكفار يحبون زواله عن المؤمنين؛ بل المحسود يتمتع بحسنات الحاسد لأنه مظلوم من جهة، سيما إذا أطلق لسانه بالانتقاص والغيبة وهتك الستر وغيرها من أنواع الإيذاء، فيلقى الله مفلساً من الحسنات محروماً من نعمة الآخرة، كما حرم من نعمة سلامة الصدر وسكون القلب والاطمئنان في الدنيا، فإذا تأمل العاقل هذا عرف أنه جرّ لنفسه بالحسد كل غم ونكد في الدنيا والآخرة [١]

والحسد من الأمراض التي كثرت في الآونة الأخيرة فلا يتولى أحد منصباً إلا وقيل أنه من المحاسيب ، ولا تكاد تظهر نعمة على إنسان إلا واتهم بالرشوة والفساد ، ولا اغتنى رجل أعمال إلا وقيل أنه لص أو تاجر مخدرات ، وربما الدافع وراء هذا الحسد وإلقاء التهم من غير دليل كثرة المفاسد في المجتمع لدرجة أصبح الغنى متهماً – في نظر الناس – حتى تثبت براءته .

حب الرياسة والجاه

حب الرياسة والجاه من الأمراض المستوطنة في مرضى القلوب ولقد ابتليت مصر ببعض الأغنياء الذين جمعوا أموالهم من تجارة المخدرات وتجارة السلاح

(١) الصنعاني " سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٢

ومن احتكار وأكل الناس بالباطل ، فلم يكتف هؤلاء بما جمعوا من أموال بل راحوا يزاحمون السياسيين ميدان السياسة ، وراحوا ينفقون الآلاف بل الملايين من أجل الوصول إلى عضوية مجلسي الشعب أو الشورى ، أو مجلس المحافظة . أو المجلس المحلى ، مع أنهم ليس لهم أدنى مؤهلات سياسية حتى الاستماع إلى نشرة الأخبار وقراءة الصحف ! ويدعون – كذباً – أنهم ما رشحوا أنفسهم إلا من أجل خدمة المواطنين ولو أرادوا خدمة المواطنين حقاً لأنفقوا أموالهم هذه في نفع أبناء دائرتهم إنما هو حب الرياسة والجاه، إلى جانب الرغبة في استثمار الحصانة البرلمانية في خدمة مصالحهم الخاصة .

إن كثيراً من أعضاء مجلسي الشعب والشورى عندنا إنما يختارون في – القرى والكفور – عن طريق العصبية القبلية ، وفي العاصمة والمدن عن طريق شراء أصوات الناخبين الفقراء والمنتفعين .

أعلمتم لماذا تسير الأحوال من سيئ لأسوأ ؟!

قال الإمام أبو حامد الغزالي: حب الرياسة والجاه من أمراض القلوب وهو من أضر غوائل النفس وبواطن مكائدها يبتلى به العلماء والعباد فيشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات وحملوها على العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة وطلبت الاستراحة إلى إظهار العلم والعمل فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ولم تعتقد باطلاع الخالق فأحبت مدح الخلق لهم وإكرامهم وتقديمهم في المحافل فأصابت النفس بذلك أعظم اللذات وهو يظن أن حياته بالله وبعبادته وإنما حياته الشهوة الخفية وقد أثبت اسمه عند الله من المنافقين وهو يظن أنه عنده من المقربين . [1]

وإن من شرع الإسلام أن طالب الولاية لا يولى لأنه في الغالب ما طلبها إلا عن حب للرياسة وهوى في نفسه أما الذي يولى هو ذو العلم والخبرة والصلاح والتقوى والزاهد في الوالية .

عن أبى موسى الأشعري قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي فقال أحدهما : يا رَسُول اللَّهِ أمِّرْنا على بعض ما ولاك اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، وقال

---

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج٣ ص ٢٧٥

الآخر مثل ذلك فقال ﷺ : " إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله، أو أحداً حـــرص عليه " (مُتَّفَقٌ عَلَيهِ) .

والخلفاء الراشدون ما طلبوا الولاية إنما اختارهم كبار الصحابة ثم صدَّق النـــاس على هذا الترشيح بحرية كاملة وإليكم قصة بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

عن أنس قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبـــر، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قـــال : .. إن الله قـــد جمـــع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما فـــي الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبـــو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أما بعد أيها الناس، فإنى قد وُلِّيت علـــيكم ولـــست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني . (١)

فكبار الصحابة قد بايعوا أبا بكر في السقيفة – دون رغبة منه – ثم أعلـــن عمـــر هذا الترشيح في المسجد فصدق المسلمون عليه .

أما خلافة عمر فقد رشح أبو بكر عمر – دون رغبة منه – ولم يكن عمـــر مـــن أهل أبى بكر إنما كان أولى الناس بالخلافة بعده وبايع الناس عمر وصـــدَّقوا علـــى ترشيح أبى بكر له .

فلما طُعَن عمر جعل الخلافة في ستة نفر مات النبي وهو عنهم راض ولم يجعـــل من بينهم ابنه عبد الله مع أنه لا يقل عنه تقوى وإيمان حتى لا يصير الحكم وراثيّـــاً ، واختار كبار الصحابة عثمان وبايعه المسلمون ، فلما قُتِل اختار المسلمون عليّاً بن أبى طالب .

وبعد على أصبح الحكم ملْكاً عضوضاً .

روى عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: "الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثـــم تكـــون ملكـــاً عضوضاً " (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائي)

" ملكاً عضوضاً " أي يُصيبُ الرَّعيَّة فيه عسفٌ وظلْم، كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًا (٢)

---

(١) ابن كثير " السيرة النبوية " ج٤ ص ٤٩٣
(٢) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث " ج٣ ص ٤٩٤

والإسلام لا يشترط صورة بعينها لاختيار الحاكم ، المهم أن يُختار الأصلح وأن يبايعه غالبية الناس .

أما صورة اختيار الحكام في الوطن العربي ، قبل الربيع العربي ، فهي أبعد ما تكون عن الإسلام أو حتى عن الديمقراطية الغربية فمعظم حكام العرب جاءوا إلى الحكم إما عن طريق وراثته عن أسلافهم الغابرين أو بانقلابات عسكرية ، أما توريث الحكم فهو افتئات على حق الشعوب في اختيار الأصلح ، وأما الانقلابات العسكرية فقد أتت ببعض العسكر الذين لا خبرة لهم بشئون الحكم والسياسة فأفسدوا البلاد وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وحكم صدام حسين والقذافي حافظ الأسد ونجله بشار وعبد الناصر ومبارك خير شاهد على ذلك .

ولقد جعل الله تعالى الجنة لمن لا يريد علواً في الأرض ولا يطمع في مناصب دنيوية لتحقيق مصالح شخصية .

يقول الله تعالى تعقيبا على قصة قارون .

{ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (القصص : ٨٣)

قال النبي ﷺ في تفسير العلو في الأرض والفساد في هذه الآية الكريمة : "التجبر في الأرض، والآخذ بغير الحق " (أخرجه المحاملى والديلمى)

فكم أولئك الذين تجبروا في الأرض وأخذوا السلطة بغير الحق من المسلمين!!

حب المال

حب المال غريزة متأصلة في الإنسان يولد بها ويشيب عليها إلا من رحم الله

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا } (الكهف : ٤٦)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ " (رواه البخاري)

فالإنسان من طبيعته حب المال بل الحب الشديد للمال لا يقنع منه بالقليل ولا يكتفي منه بالكثير ولا يكف عن طلبه ولا يشبع منه مهما كثر .

{ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } (الفجر : ٢٠)

ورَسُـــولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ " لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالاً لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَـــهُ وَلا يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ " (رواه البخاري)

والمؤمن من يجاهد حب المال بالإكثار من الصدقة وبذل المال في وجــوه البــر حتى يكون من الأبرار .

{ وَلَـــكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـــالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـــاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّـــآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ } (البقرة : ١٧٧)

فالصدقة حجة ودليل قوى إلى إيمان المسلم وحبه لربه ورغبته فـــي ثوابـــه فـــإن النفس مجبولة على حب المال، والشيطان يعد الإنسان الفقر ويزين له الشح والنفس تســـاعده ، فمخالفة النفس والشـــيطان من أقـــوى البراهين عـــلى حب الرحمن.[1]

قالَ رَسُولُ الله ﷺ : "الوُضُوءُ شَطْرُ الإيمانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ، وسُــبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، والصَّلاَةُ نُورٌ، وَالـــصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْــدُو، فَبَـــائِعٌ نَفْــسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا " (رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان)

ولقد وصف الله تعالى من يبرأ من البخل والشح ويروض نفسه على الإنفاق فـــي سبيل الله بالفلاح .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (التغابن : ١٦)

والبخل مذموم في الشرع الحكيم بل مهلك صاحبه .

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَـــدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } (النساء : ٣٧)

والمال في الإسلام مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

{ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُـــوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } (الحديد : ٧)

ولقد توعد الله تعالى من يبخلون بمال الله على عباده بالعذاب الشديد .

---

(١) الإمام المناوي " فيض القدير ". ج١ ص ٦٢٠

{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (آل عمران : ١٨٠)

وفي تفسير قوله تعالى : " سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " قال البخاري: عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعًا أقرعَ له زبيبتان، يُطوَّقُه يوم القيامة، يأخذ بلهْزِمَتَيْه -يعني بشدقَيْه- يقول: أنا مَالُكَ، أنا كنزكَ" ثم تلا هذه الآية: { وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ } .

كما توعد الحق جل وعلا من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم وبان يحمى بما كنز في نار جهنم .

{ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } (التوبة : ٣٥)

ومن الناس من يظن أن كثرة المال نعمة وأن قلته نقمة وبين الله تعالى أن الله يبتلى بالخير والشر فتنة وليس الغنى نعمة كما أن الفقر ليس نقمة وإلا ما كان الله جعل نبيه ومصطفاه مسكيناً .

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }
(الأنبياء : ٣٥)

{ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فقدر عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } (الفجر : ١٥- ١٧)

وإن من الناس من لا يسال الله تعالى إلا المال ويظن أن الغنى سعادة وفلاح ويعاهد الله على صرف المال في مصارفه الشرعية ، ويضرب لنا الحق جل وعلا مثالا لهؤلاء فيقول :

{ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ } (التوبة : ٧٥- ٧٧)

ورغم وعيد الله تعالى للبخلاء ، وتهديده الشديد للكانزين إلا أن أغنياء المسلمين بعدما أفاض الله عليهم من نعيم ، وفجر آبار البترول في بلادهم أودعوا أموالهم بنوك أوربا وأمريكا ليحاربونا به بدلاً من استثماره في البلاد العربية والإسلامية ! إن هؤلاء الأغنياء المقترين ضعاف العقل والدين ظنوا أن الثروات الطبيعية التي مَنَّ الله عليهم بها حقاً مكتسباً ، وأنهم أوتوه على علم عندهم كما قال قارون إنما أوتيته على علم عندي ، ونسوا أو تناسوا أن المال مال الله وما هم إلا أمناء عليه ، ويوم القيامة الله سيسألهم عن هذه الأمانة أدوها أم ضيعوها .

{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } (القصص : ٧٦ – ٧٨)

فأهلك الله أموال هؤلاء المسلمين الكانزين المترفين فاستولى عليها أعداؤهم وأعداء الإسلام وغزو بها بلادهم وبلاد الإسلام ، وساموهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربك عظيم، لعلهم يرجعون إلى الله ، وبدلاً من صرف هذه الأموال على موائد القمار وعلى الراقصات ، والفاجرات يستثمرونها في البلاد العربية ويغنون فقراء المسلمين عن السؤال ومد يدهم لأعدائهم .

إن الدراسات الاقتصادية تقول : لو أن أغنياء المسلمين أدُّوا فقط زكاة أموالهم ما كان هناك فقير في الوطن العربي لكن أحدهم لينفق الملايين لوجه الشيطان ولا ينفق الملاليم لوجه الله تعالى ، وإن أنفق أبطل صدقته بالمن والأذى ، لقد ضحت مصر في سبيل الوطن العربي بثرواتها ودماء أبنائها ولما مدَّ العرب أيدهم إليها بالمساعدة مدُّوا مع أيدهم ألسنة حِرَاب بالمن والأذى مع أن ما هم فيه من نعيم كان بسبب مصر فبعد حرب العاشر من رمضان ارتفع ثمن برميل النفط من خمسة إلى ثلاثين دولاراً ، وليتهم اكتفوا بالمن والأذى لكن طالبونا بكل الأموال التي ساعدونا بها مضيفين إليها الفوائد أيضاً وبالفعل قامت مصر بتسديدها إليهم !!

لماذا تقدم الغرب وتخلفنا :

لقد تقدم الغرب لأنهم أخذوا في أسباب العلم والتفكير العلمي وشجعوا البحث والتجريب وتحرروا من عبادة القديم والتقليد ولم يستسلموا للأفكار الشائعة بل عملوا بجد وإخلاص لإيجاد حلول جديدة و أتاحوا الفرصة لمفكريهم ومبدعيهم أن يقودوا الركب ، وحاربوا الجهل والتخلف والتقليد ، وجعلوا مقياس الترقي فيهم للمبدعين المبتكرين الذين يحسنون استخدام عقولهم ، وصرفوا مبالغ طائلة على المخترعات والابتكارات والاكتشافات وكافئوا المتميزين وقدروهم وحثوهم على مواصلة البحث والتجريب ، وذللوا أمامهم كل العقبات ووضعوا كل إمكانياتهم في خدمتهم .

إن أمريكا لتنفق على البحث العلمي ٢,٥ % من ميزانيتها ، أما إسرائيل فتنفق ٣% من ميزانيتها على البحث العلمي وهما أكبر دولتين تنفقان على البحوث العلمية، فكم ننفق نحن ؟! ويجيبك المهتمون بالبحث العلمي في مصر قائلين :

رغم كل ما يقال عن أهمية دفع البحث العلمي في الجامعات المصرية إلا أن دفع العجلة يتم تقريبا بالزق ، وكأن البحث العلمي قد احتل المرتبة الدنيا في سلم أولويات الإنفاق الجامعي فالموارد البحثية شحيحة للغاية وتمويل الجامعات المصرية للبحث العلمي غير موجود بأي مقياس حقيقي ، والبحث العلمي الذي يعد أحد أهم وظائف الجامعات لا يحظى إلا بالدعم الكلامي فقط الذي لا يرقى إلى مستوى الفعل. (١)

لذا كان من الطبيعي أن يتقدموا ويبسطوا نفوذهم علينا خاصة أنهم لا يكتفون بإعطاء الفرصة لأفراد شعوبهم لكي يبتكروا ويبدعوا ويساهموا في تقدمهم ورقيهم بل استقطبوا العقول النابهة من كل بلاد العالم وخاصة البلاد المتخلفة وييسروا لهم جميع السبل وهيئوا لهم جميع الظروف ليبدعوا ويبتكروا فأبدعوا وابتكروا وأتوا بالابتكارات مع أن هؤلاء الأشخاص كانوا في بلادهم طاقات معطلة ، وكمٌ مهمل ، وهذا سر تقدم الغرب وتخلف العرب .

إن الغرب أحسن تعليم أبنائه فنمى مواهبهم وفجر قدراتهم العقلية وشجع المفكرين والمتميزين ، وجعل مقياس الترقي هو الإبداع ، وشجع على التجريب والتجديد

---

(١) جريدة " الأخبار " المصرية بتاريخ ٨ / ٤ / ٢٠٠٤ .

وحارب التكرار والتقليد أما نحن فأسأنا تعليم أولادنا وقتلنا فيهم الإبداع والتفكير وشجعنا فيهم الحفظ والتقليد ، وجعلنا مقياس الترقي فينا هو اتباع التعليمات والروتين وحاربنا التجريب والتجديد حتى أصبح التعليم عندنا شعاره بقدر ما تحفظ من الملازم والملخصات تحصل على أعلى الدرجات ! وبقدر ما تُعْمل عقلك وتبدع يكون حظك من الفشل والإخفاق ! ، أما في مجال العمل حكومي فبقدر ما تتمسك بالروتين وتنافق المسئولين تترقى وتكون من المرموقين !

فإذا تركنا نظام التعليم وذهبنا إلى مجال الثقافة والفن فإننا نجده يدعم الفساد ويثير الغرائز ويغرى بالانحلال فإذا جئنا إلى مجال الدعوة الدينية فإن وعاظنا يدعمون قيم التقليد والإتباع للقديم ويحذرون من التجديد والإبداع ؛ فالسلف لم يترك للخلف شيئا يضيفونه في مجال الدين والدنيا ، وباب الاجتهاد قد أغلق بالضبة والمفتاح والخير كل الخير في اتباع القديم والشر كل الشر في الإبداع والتجديد !!

هل عرفنا لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟

ولا يكف وعاظنا عن رمى الغرب بالمعاصي والفجور وحمد الله على ما هم فيه من تقوى وإيمان مع أن معاصي الغرب لم تقف ضد تقدمهم ، وإيمانهم المزعوم عرقل تقدمنا ، والحقيقة أننا لم نبصر إلا معاصي الجوارح عند غيرنا وعمينا عن معاصي القلوب فينا .

أنواع المعاصي

المعاصي نوعان : معاصي قلوب ومعاصي جوارح . معاصي القلوب كما بينا هي : النفاق والرياء وحب الرياسة ... ومعاصي الجوارح أشهرها الزنا وشرب الخمر ، ومعاصي القلوب أشد فتكاً بالمجتمع من معاصي الجوارح وهذا هو السر في تخلفنا وتقدم الغربيين لقد تفشت فينا أمراض القلوب فانتشر فينا النفاق فلا يوجد مرءوس إلا وينافق رئيسه أما الكذب فلا يكاد يسلم منه أحد – إلا من رحم ربى – فالناس تكذب بمناسبة وبدون مناسبة ، مضطرة وغير مضطرة لدرجة أنك إذا أردت إن تستوثق من كلام شخص فما عليك إلا أن تستحلفه بكل عزيز عليه تستحلفه بالأحياء والأموات بالقرآن والإنجيل وبرحمة أبيه وأمه ، وتهدده إن كان كاذباً بالدعاء عليه بالعمى أو يفرمه قطار أو ... لماذا كل هذا ؟ حتى تضمن أن

يصدقك القول !! أ أريتم الحال التي وصلنا إليه لا يكاد احد يقول الصدق وإن قاله لا يكاد أحد يصدقه !! أما أمراض مثل : الإهمال ، والمحسوبية ، والواسطة ، وعدم إتقان العمل ، والسلبية ، والتواكل ... فحدث ولا حرج والعجيب أننا نسأل لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟!

والحقيقة إن الغرب لم تتفش فيهم أمراض القلوب كما تفشت فينا نحن المسلمين! فهم يقدسون العمل ، ويقولون الصدق ولا يكذبون – على العموم – ولا ينافق المرءوس رئيسه بل يراجعه إن أخطأ ويشكوه لرئيسه إن قصَّر ، وهم يتقنون إعمالهم حباً في الإتقان وليس سمعة ورياء ... لذا تقدموا وتخلفنا .

نعم كثير منهم يرتكبون بعض معاصي الجوارح كالزنا وشرب الخمر لكن هذه المعاصي – في الغالب – لا تؤثر على عملهم فلا يمارسونها إلا في أوقات فراغهم وأجازاتهم ، أما عندما تدق ساعة العمل فالكل يعمل بإخلاص ونظام وتعاون ملفت للنظر لذا تقدموا وتخلفنا .

لقد قدسوا النظام واحترموا القوانين وأدمنوا النظافة والجمال وعبثنا نحن بكل هذا استهنا بالقوانين وأدمنا الفوضى واللامبالاة والسلبية والقبح والفساد !!

ولنذهب في رحلة إلى أمريكا لنرى لماذا تقدموا وتخلفنا يصحبنا في هذه الرحلة الصحفي عادل حمودة في كتابه " أمريكا الجنة والنار " نام الصحفي في الطائرة ولم يشاهد فيلمًا كان يعرض على الركاب وإذا بالمضيفة تعيد له ثلاث دولارات من ثمن تذكرة الطائرة لأنه لم يشاهد الفيلم وعندما أظهر عجبه من هذا التصرف قالت له : " كيف تدفع ثمن خدمة لم تحصل عليها ؟ " سؤال غريب فوجئت به .. سؤال غريب بالنسبة لي ، وربما بالنسبة لغيري من ملايين المصريين .. فنحن دائماً ندفع ثمن خدمات لا نحصل عليها .. ندفع ضرائب لا نشعر بعائدها : أدفع دعماً لصندوق معاشات ضباط الشرطة وأتعرض لإهاناتهم عند استخراج رخصة السيارة، وعند تجديد بطاقتي الشخصية وعند دخول قسم البوليس شاكياً أو صاحب حق .. أدفع ضرائب للطرق على كل لتر بنزين تستهلكه سيارتي ولا أجد سوى المطبات والحفر في الشوارع .. أدفع رسوم النظافة ولا أرى سوى التراب وأكوام القمامة .. أدفع ثلث دخلي ضرائب مهن حرة ولا أجد سريراً في مستشفي ولا ابتسامة في مكتب ولا سلعة في مجمع استهلاكي !

رأيت الرئيس نيكسون وهو يبكي في إحدى محطات التليفزيون بمدينة واشنطون وهو يسجل حواراً بمناسبة مرور ١٠ سنوات على أشهر فضائحه وأشهر الفضائح الأمريكية .. " ووترجيت " كان نيكسون تتساقط منه حبات العرق وحبات الخجل وقطرات الحياء والكسوف .

–سيدي الرئيس : هل أنت تشعر بالندم على فضيحتك في ووترجيت .

–نعم !

– هل أنت مذنب ؟

– نعم !

– هل تشعر أحياناً باحتقار نفسك بسبب هذه الجريمة الفظيعة التي ارتكبتها في حق الحرية ؟

– نعم !

– هل مسحتَ كل حسناتك بهذه الخطيئة ؟

– نعم !

لم يكن نيكسون يملك سوى أن يجيب بكلمة واحدة : نعم ! كانت كل إجاباته ذليلة .. مسكينة .. منكسرة.. وضعيفة .... ماذا فعل لينال كل هذا العقاب ؟

تجسس وتصنت .. زرع ميكرفونات في أحد مباني الحزب المنافس له .. هل هذه جرائم تستحق العقاب ؟ هل هذه جرائم تستحق طرد " الحاكم " ؟!

لا أعتقد أن هذه الجرائم تستحق حتى الإشارة إليها خاصة إذا كان الذي يناقشها مواطن قادم من الشرق الأوسط أو من العالم الثالث أو من المنطقة العربية ففي الشرق الأوسط ، انتهاك واغتصاب حقوق الإنسان أسهل من شرب زجاجة مياه غازية . وفي المنطقة العربية سجون سياسية ، قُتِل وعُذِب فيها مئات من البشر لأنهم قالوا : لا .. وتهم لفقت لرجال تجرءوا وخرجوا عن النص الحكومي أو شخبطوا بالطباشير على جدران الحكام وكلاب مسعورة متوحشة نهشت بأسنانها وأنيابها لحم كتاب وصحافيين مزقوا وثيقة زواجهم من السلطة ومارسوا الحرية .. كل هذا يحدث ومازال يحدث دون أن يسقط حاكم واحد ولا أن يعاقب موظف واحد ولا أن يحال ضابط واحد إلى المعاش ..

أمريكا كلها تتحدث عن ووترجيت وكأنه حادث لا يزال طازجا وكأنه وقع من عشر ساعات لا منذ عشر سنوات .. لماذا كل هذه الضجة ؟ يقولون : حتى لا ننسى الكارثة التي سنقع فيها .. لا بد لأي مجتمع يتطلع إلى المستقبل من ذاكرة قوية ونشطة تذكره بعيوب الماضي .. الذاكرة القوية كالسيف الحاد ، يجب أن توضع على رقبة المجتمع حتى لا يكرر فضائحه وخطاياه .

صدقني لو قلت لك إن بعض رجال حزب الرئيس نيكسون كانوا وراء الإبلاغ عنه ليس بسبب صراع شخصي على العكس كانوا أصدقاء له وكانوا من المستفيدين من استمراره وإنما لأن الجريمة هنا تمس المجتمع كله وتهدد النظام السياسي كله لأن الجريمة أكبر من أن يستوعبها التعصب للحزب أو الدفاع عن رئيس .. الجريمة هنا جريمة قومية .. جريمة ضد الحرية ..

لو كنت مكاني وسمعت هذا الكلام لخطر على بالك فورا أولئك الذين يرفضون أن نفتح ملفات التاريخ في بلادنا إنهم تحت دعوى نبش الماضي يريدون التستر على جرائم ارتكبت في حقنا جميعا .. وتحت شعار النظر إلى المستقبل يريدون منا أن ننسى ما جرى لنا .. والشعوب التي تنسى ما مضى عليها أن تنسى أيضا ما يمكن أن يحدث لها الآن وغدا وقبل قيام الساعة بساعة .. " [1].

الإسراف والترف والبطر :

ومن أمراضنا التي دمرت مجتمعاتنا الإسراف والترف والبطر ، والإسراف والترف والبطر أمراض قديمة لكنها زادت في العقدين الأخيرين فهناك إسراف كبير في الترف وبطر النعم يسيطر على أمتنا العربية فالكماليات أضحت ضروريات والترفيهات صارت أساسيات ، فمثلاً : في مجال الأكل – وسبق الحديث على اقتناء الأجهزة الكهربائية – وهو مما لا يستغنى عنه إنسان تجد الناس – وخاصة الأطفال والشباب – قد بطروا طعام المنزل وأسرفوا في الأكل خارجه في محلات أجنبية أو مصرية تبيع الوجبات الجاهزة وغيرها من الأطعمة الدخيلة على مجتمعنا العربي الإسلامي وتلك الأطعمة لا تسمن ولا تغنى من جوع إنما ذات خطورة شديدة على الصحة واقتصاد الأسرة وكل يوم نسمع عن حالات تسمم بسبب هذه المأكولات غير الآمنة صحياً بل المؤكد ضرها لكنه الإسراف والترف والبطر.

---

(١) عادل حمودة " أمريكا الجنة والنار " ص٣٤ : ٥٤ بتصرف .

ومن لا يأكل في هذه المحلات فحتماً يشترى أكياس البطاطس المحمرة والمشروبات الغازية وغير ذلك من الأطعمة المغلفة أو المشروبات المعلبة .

إن نظرة سريعة لنفقات طلاب المدارس والجامعات على هذه المأكولات والمشروبات – غالية الثمن ضارة التأثير – لتثبت بجلاء مدى الإسراف في الترف وبطر النعم الذي وصلنا إليه .

كان الطلاب قديما يأكلون ما تعده لهم الأمهات من أطعمة صحية – كالجبن والبيض والفول المدمس – ولا يأخذون من المصاريف إلا ما يشترون به لوازم الدراسة أو المواصلات وهذه الأجيال هي التي حررت مصر وبنت حضارتها ، أما اليوم فإن طعام البيت لا يؤكل رغم فائدته وخلوه من المواد الحافظ المهلكة ومن الفساد الناتج عن تحلل المواد العضوية في الأطعمة الجاهزة ، وإنما الذي يأكله هؤلاء الأطفال والشباب هو ما يشترونه من أطعمة ومشروبات تكلفهم الكثير من الجنيهات في شرائها ، والكثير من الجنيهات في العلاج منها !!

إن الناظر إلى هؤلاء الشباب ليخيل إليه أن هذه الأمة غنية إلى درجة كبيرة تسمح لها بهذا الترف والإسراف ، والحقيقة المؤلمة أن هذه الأمة فقيرة معدمة لا يوجد فيها من لا يشكو من الفاقة والفقر والمرض !!

إن الله تعالى جعل ترف الأمم سبباً لهلاكها ونذيراً لدمارها

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } (الإسراء : ١٦)

وقرأ عليٌّ رضي الله عنه " أَمَّرْنا " بالتشديد أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم ، وقيل " أمرنا " أي أكثرنا من المترفين المنعمين قال أبو عبيد: وإنما اخترنا "أمرنا" لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمترف: المنعم؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم . (١)

{ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ } (هود : ١٦)

"ما أترفوا فيه" أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة .

---

(١) تفسير القرطبي ج١٠ ص ٢٣٤ .

لقد توعد الله تعالى المترفين بالفقر والجوع وها نحن نشهد كل يوم الحالة الاقتصادية تسير من سيء لأسوأ بسبب إهمال العمل البنَّاء ، وانتشار الكسل والاسترخاء ، وبسبب الإسراف في الترف وبطر النعم الذي عمَّ الناس .

{ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } (المؤمنون : ٦٤)

" إذا هم يجأرون " أي يضجون ويستغيثون. وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور .

هذا عن عذابهم في الدنيا فإما عذابهم في الآخرة فيجعلهم الله تعالى في سموم وحميم .

{ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ } (الواقعة : ٤١ – ٤٥) .

وذكر لنا الله تعالى أن بطر النعمة كان سبباً في هلاك قرى كثيرة ما بقيت منهم إلا الأطلال .

{ وكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } (القصص : ٨٥)

أي طغت وكفرت نعمة اللّه فيما أنعم به عليهم من الأرزاق .

ولقد وصف الله تعالى المبذرين بأنهم أخوان الشياطين في التبذير والسفه ومعصية الله ، والتبذير لا يكون بكثرة الإنفاق إنما التبذير يكون بإنفاقه في غير الحق فربما صرف رجل الآلاف ولا يعد مسرفاً لأنه صرفها في منفعة لا بد منها ، وقد يعد مبذراً بإنفاقه اليسير في شراء شر لا خير فيه .

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } (الإسراء : ٢٦ – ٢٧)

قال ابن مسعود: التبذير : الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس ، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .[١]

---

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٦٩ .

وليس معنى هذا إن يقتر الإنسان على نفسه وأولاده إنما معناه أن يحسن التصرف فيما عنده من نعم ويعتدل في الإنفاق فإنه مسئول عن ماله " مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ " حديث صحيح (رواه الترمذى)

وميزان العدل الذي يجب أن يزن به الإنسان إنفاقه هو قوله تعالى :
{ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}
(الإسراء : ٢٩)

إننا نستهلك أضعاف ما ننتج ، ونرمى في القمامة أضعاف ما نأكل ، ونبطر النعم أضعاف ما نشكر ، ونطلب من الأجر أضعاف ما نستحق ، ونضيع الوقت في الملاهي أضعاف ما نعمل !

أعرفتم لماذا تقدم الغرب وتخلفنا . أرجو أن نعى الدرس جيداً وأن نتدارك ما فاتنا .

إذا سألت الموظف : لماذا ترتشي ؟ وإذا سالت العامل لم تهمل ؟ وإذا سالت الفلاح لم هجرت أرضك وسافرت ؟ وإذا سالت التاجر لم تغش ؟ فإن الإجابة تكاد تكون واحدة وهى : لأن ما نحصل عليه من أجر لا يفي بحاجاتنا وحاجة أولادنا ، وإن كان الحلال يكفي ما مددنا أيدينا للحرام فنحن عبيد لقمة العيش نطلبها حيث وجدناها مغموسة بالحلال أو بالحرام .

وهؤلاء الناس فعلاً عبيد لغير الله عبيد للدرهم والدينار استعبدهم المال فعبدوه ولم يكتفوا بالحلال وهو – بحمد الله – كاف ومتيسر لكن نفوسهم الجشعة وقلوبهم المريضة تطلب المزيد "لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لا بْتَغَى وادياً ثالثاً ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابن آدمَ إلا الترابُ " (أخرجه مسلم).

يقول النبي ﷺ في هؤلاء " تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ (من أنواع الثياب) إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ " (رَوَاهُ الْبُخَارِى)

فإن قنع هؤلاء أدعياء الفقر بالحلال واستغنوا به عن الحرام وأخلصوا عملهم وطلبوا من الله أجرهم بارك الله لهم في أموالهم وحفظ لهم أزواجهم وعيالهم ، ووقاه الله شر الأمراض ، وشر استغلال المستغلين .

لكن معظم هؤلاء كعبد السوء الذي لا يعمل إلا إذا أخذ ولا يقسط إلا إذا استوفي وكأنه ليس وراء الدنيا آخرة وليس بعد الموت حساب !

أعلمتم لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟ لأننا أصبحنا كعبيد السوء لا نعمل لله بل للدرهم والدينار والخميصة والقطيفة كثير منا اتخذوا الدنيا إلهاً فاتخذتهم عبيداً ، ونـسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واستغلوا الناسَ فاستغلهم الناسُ ، سرقوا فسُرِقوا ، قبلوا الرشـوة فأجبروا على دفع أضعافها .

الحب بين الرجل والمرأة

لقد أكثر الناس الحديث عن هذا النوع من الحب حتى أصبح إذا ذكر لفظ الحـب انصرف إلى هذا النوع دون سواه وليس هذا الأمر بالجديد المستحدث إنما هو قـديم قدم البشرية ، وإن كان يكثر الحديث عنه عندما يكثر الاختلاط بين الجنسين ، وعند فراغ القلب مما يشغله من عظيم الأمور ، وعند فراغ الإنسان من تحصيل حاجاتـه الإنسانية : من طعام ، وشراب ، وأمان ، وراحة ، وصحة ..

ألا ترى أن العاشق – عادة – إذا كان جائعاً ، أو ظمآن ، أو خائفاً ، أو مريـضا، أو مهموماً ، أو مشغولا بعمل مهم .. فإنه لا يفكر إلا في طعامه وشرابه وراحته ، وصحته ، وعمله . فإن طَعِم ، وشرب ، وبرئ ، واستراح ، وأنهى عمله فكر فـي محبوبه .

وإن كان هناك من ابتلاه الله تعالى بحب مَلَكَ عليه نفسه وشغله عما سواه .

فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : خيار أمتى الذين يعفون إذا أتاهم الله من البلاء شيئاً، قالوا: يا رسول الله وأي بلاء هو ؟ قال : العشق " (أخرجه الديلمي)

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : اللهـم إنـى لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعونى أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بى مـا بـدا لكم. فنظروا فإذا امرأة طويلة أدماء .قالت نعم فـديتك. فقـدموه فـضربوا عنقـه، فجاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فلمـا قـدموا علـى رسول الله ﷺ أخبروه بذلك فقال رسول الله ﷺ : أما كان فيكم رجـل رحـيم ؟ " (رواه النسائي والبيهقى والطبراني)

لكن أمثال هذين قليلون لا يقاس عليهم فالحياة ليست كلها حب كمـا صـور لنـا الشعراء وصدقهم المراهقون ، والفارغون ، والغاوون فكثير من قول الشعراء مبالغ فيه وليس حقيقيّاً كما قيل (إن أعذب الشعر أكذبه) وفي ذلك يقول : جل وعلا :

{والشعراء يتبعهم الغـــاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مـــا لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعـــد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي نقلب ينقلبون } (الشعراء : ٢٢٤– ٢٢٧)

وشواهد المبالغات والشطحات الشعرية كثيرة .

كقول عنترة في الغزل :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل　　منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها　　لمعت كبارق ثغرك المتبســم

وكقول جميل ابن معمر :

أصلى فأبكى في الصلاة لذكرها　　لي لويل ممـــا يكتب الملـــكان

وكقول مجنون ليلى :

أراني ذا صـــليت يممت نحوها　　بوجهي إن كان المصلى ورائي

ويقول شوقي في مسرحية مجنون ليلى أن النار أحرقت يدي قيس وما شعر بهـــا حتى أغشى عليه لأن نار حبه لليلى أقوى وأشد !! :

ليلى : ويح قيـــــس تحرقت　　راحتاه و ما شعر

قيس : أنت أججت في الحشى　　لاعج الشوق فاستعر

ثم تخشــــين جمرة　　تأكل الجلد والشعر

حبك الشيء يعمى ويصم

فحبك الدنيا يعميك ويصمك عن الآخرة فتعيش للدنيا عبداً ويجعل الله الفقـــر بـــين عينيك فلا تقنع ، وحبك هواك يعميك ويصمك عمن يخالفه فيضلك عن الحـــق فـــلا تهتدي ولا ترشد ، وحبك شخص يعميك ويصمك عن عيوبه فتصبح أســـيره ، أمـــا حبك الله تعالى فإنه يبصرك برؤية آيات الله في الكون ، ويسمعك نداء الحق القدسي الجميل ، ويشرح لك صدرك ، ويضع عنك وزرك ، وينير لك عقلك فتعيش ســـعيداً وتموت مطمئناً ،وترجع إلى ربك راضياً مرضيّاً فتدخل في عباده وتدخل جنته .

ويعرف ابن حزم الحب في مصنفه عنه " طوق الحمامة " فيقول : " الحب أوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالتها أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمستنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل وقد أحب من الخلفاء المهديين ، والأئمة الراشدين كثير . " (١)

وعقد ابن حزم باباً لعلامات الحب ذكر فيه " وللحب علامات يفقهها الفَطِن ويهتدي إليها الذكي فأولها إدمان النظر فترى الناظر لا يطرف يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال ، ومنها الإقبال بالحديث فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ، والإنصات لحديثه إذا حدّث ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك وأي وجه من الوجوه القول تناول ، ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه والاستهانة بكل خطب جليل داع لمفارقته ، ومنها روعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ، ومنها اضطراب يبدو على الحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة ، ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان يشح به قبل ذلك كأنه الموهوب له فكم بخيل جاد وجبان تشجع وغليظ الطبع تظّرف وجاهل تأدب وفقير تجمل ، وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سِراراً والإعراض عن كل من حَضر إلا عن المحبوب جهاراً ، ومن علاماته أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ويستلذ الكلام في أخباره ، ومن علاماته حب الوحدة والأنس بالانفراد ونحول الجسم ، والسهر من أعراض المحبين وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب ووصفوا طول الليل ، ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته ، والبكاء من علامات المحب ، ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه وحفظ لكل ما يقع منه وبحثه عن أخباره حتى لا يسقط عنه دقيقة ولا جليلة وتتبعه لحركاته . " (٢)

---

(١) ابن حزم الأندلسي " طوق الحمامة " ص ١١

(٢) نفسه من ص ٢٣ : ٣١ بتصرف .

وللحب مراتب كثيرة ذكرها العلماء يتدرج فيها المحبون .[١]

ولقد أصبح موضوع الحب هو المادة الرئيسية للأغاني ، والأفلام ، والأدب ، والفن عامة ، وكأنه لم يعد في الحياة سواه ، فهو الحياة ولا حياة بدونه ! ولقد أثّر هذا الإلحاح العجيب في الحديث عن الحب على الشباب من الجنسين فلم يعد الشباب يفكر إلا في الحب وليس له طموح إلا لقاء من يحب !!

ولقد ساهم الفكر العفن المتشح بالعلم ، والعلم منه براء في تزكية نار الغريزة بين الجنسين بما أشاعوه من وجوب الاختلاط بين الجنسين بلا قيد ولا شرط ، والزعم أن ذلك يجنبهم العقد النفسية ، والكبت إلى غير ذلك من المصطلحات التي نقلها كثير من علماء النفس دون تمحيص عن فرويد ذلك العالم النفسي الشهير والذي يعد إماماً لكثير من علماء النفس عندنا مع أنه هو نفسه مريض النفس ملتاث الفكر لا يعرف غير الجنس دافعاً للإنسان وكل الناس عنده مرضى نفسيون لديهم مركبات نقص ، وكل أعمال فرويد تحتاج لمراجعة وتصحيح فهي خرقاء هوجاء تنقصها الدقة العلمية ويغلب عليها التسرع " إن تطبيق مبادئ التحليل على كتابات فرويد عامة يبين لنا خوفه من الموت، وهو خوف صرح به في رسائله لخطيبته. في حين تبدى هذا الخوف في كتاباته بالتعجل والغزارة. وهى صفات تدمغ كتابات المؤلفين الخائفين من الموت. فهم يريدون كتابة ما لديهم بسرعة قبل أن يفاجئهم الموت. فإذا ما وجدوا متسعاً من الوقت قاموا بمراجعات قاسية لأعمالهم."[٢]

إن تأثر كثير من الناس بآراء فرويد في التحليل النفسي ، وبالغرب في الفن والأزياء ، والفكر التحرري الانحلالي جعل المجتمعات العربية مسخاً مشوهاً فلا هي مجتمع غربي بسلبياته وإيجابياته أي بانحلاله وتقدمه العلمي ، ولا هي مجتمع

---

(١) جاء في فقه اللغة للثعالبى عن الأئمة(أوّل مراتِبِ الحُبِّ الهَوَى ثُمَّ العَلاَقَةُ وهى الحُبُّ اللاَّزِمُ للقَلْبِ ثُمَّ الكلَف وهو شِدَّة الحُبِّ ثُمَّ العشقُ وهو اسم لمَا فَضَلَ عَنِ المقْدار الذي اسْمُهُ الحُبُّ ثُمَّ الشعَف وهو إحْرَاق الحُبِّ القَلْبَ مَعَ لَذَة يَجِدُها وكَذَلكَ اللَّوْعَة واللاَّعِجُ ، فإنّ تلْكَ حُرَقَةُ الهَوَى ، وهذا هوَ الهَوَى المُحْرِق ثمَّ الشَّغَفُ وهو أنْ يبْلُغَ الحُبُّ شَغافَ القَلْبِ ، وهى جِلْدَة دُونَهُ وقد قُرِئَتَا جميعاً {شَغَفَها حُبّاً} وَشَعَفَها ثمَ الجوَى وَهو الهَوَى البَاطِنُ ثُمَّ التَّيْمُ ، وهُوَ أنْ يَستَعْبِدَهُ الحُبُّ ، ومنهُ سُمِّى تَيْمُ اللّه أى عَبْدُ الله ، ومنهُ رَجُلٌ مُتَيمٌ ثمَّ التَبْلُ وهُو أنْ يُسْقمهُ الهَوَى ومنهُ رَجُل مَتبُول ثم التَدْليهُ وهُوَ ذَهَابُ العَقْلِ منَ الهَوَى ، ومنهُ رَجُلٌ مُدَلَّهٌ ثمَّ الهُيُومُ ، وهُوَ أنْ يَذْهَب عَلى وَجْهِهِ لغَلَبَة الهَوَى عَلَيه ، ومنهُ رَجُل هَائِم).

(٢) عن مركز الدراسات النفسية www.filnafs.com

عربي بتخلفه وقيمه الأخلاقية فقد أبقى على تخلفه وأخذ من الغرب انحلاله فجمع بين الأسوأين بدلاً من أن يجمع بين الحسنيين !!

ونحن لسنا ضد الحب العفيف ، ولا ضد الفنون الراقية المهذبة للنفس المحركة للعواطف النبيلة ، الدافعة إلى السعي والعمل والاستمتاع بكل ما هو جميل مباح ، لكن نحن ضد كل انحراف للإنسان عن رسالته التي خلقه الله من أجلها وهى عبادته وتعمير كونه ، نحن ضد إثارة الغرائز الجنسية باسم الفن ، وضد إباحة كل محرم باسم العلم ، وضد كل فساد باسم التقدم والمدنية .

الحب عاطفة أودعها الله تعالى القلوب ، ولا إرادة للإنسان فيها لذا لن يحاسبه الله عليه إنما الحساب يكون على الأفعال والأقوال فمثلاً : إذا أحب شاب فتاة فليس في ذلك حرمة لكن إن خلا بها من غير مَحْرَم ، وحدثها حديث الهوى فهذا هو الحرام المنهى عنه رُوى عن النبي ﷺ قال: " لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، إلاّ كانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ " (رواه أحمد والحاكم)

أما إذا أحب شاب فتاة وتزوجها فهذا هو الحب المرغوب فيه الدافع إلى الزواج والذي يعف صاحبه عن الحرام ، فإذا أحب شاب فتاة ولم يقدر على الزواج بها لضيق ذات اليد فليجتهد في عمله وليعف نفسه عن فعل المعاصي فيرزقه الله من حيث لا يحتسب وييسر له الزواج بها أو بأحسن منها .

{ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (الطلاق : ٢-٣)
ويقول النبي ﷺ : " ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونهم المجاهد في سبيل الله والناكح الذي يريد العفاف والمكاتب الذي يريد الأداء "

(رواه الخمسة إلا أبا داود)
فإن ابتلى اللهُ تعالى الإنسانَ بحب من لا تحل له أو ما لم يقدر على الزواج منها فعليه أن يكتم هواه في قلبه ويخالف هواه في التعلق بها فلا يخالطها ولا يحدثها حتى يصرف الله تعالى عنه هذا الابتلاء ؛ فإن ذلك مما قد يبتلى به المرء ويثاب إن عف نفسه ويحاسب إن أطاع هواه وارتكب المنهى عنه من كلام وخلوة .

وقد روى عن النبي ﷺ قوله : " مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ "(١) لأن العشق وإن كان مبدأه النظر والسماع لكنهما غير موجبين له فهو فعل الله بالعبد بلا سبب وقال بعض الحكماء: العشق طمع يحدث في القلب قهراً ، وكلما قوى زاد صاحبه قلقاً وضجراً فيلتهب به الصدر فيحترق الدم فيصير مع الصفراء سوداء وطغيانه يفسد الفكر ويؤدى للجنون فربما مات وقتل نفسه، وإذا كان فعل القلب وأكثر أفعاله ضروريات فلا يؤاخذ به بل يؤجر عليه، والمراد بالعفة العفة عن إيتاء النفس حظها طلباً لراحة قلبه ومتابعة لهوى نفسه، وإن كان في غير محرم وكان صاحبه يأثم، لكن رتبة الشهادة سنية لا تنال إلا بفضيلة كاملة أو بلية شاملة وإنما قارب وصف من عف وصف القتيل في سبيل الله لتركه لذة نفسه فكما بذل المجاهد مهجته لإعلاء كلمة الله فهذا جاهد نفسه في مخالفة هواها بمحبته للقديم – الله تعالى – خوفاً ورهبة وإيثاراً على ما يحدث " (٢)

فالحب عاطفة نبيلة إذا كانت بين زوجين تعفهما عن الحرام ، والحب حرام إن كان يدفع إلى انتهاك الحرمات ، وانتشار الموبقات .

إن الفتاة الملتزمة أستاذة في الحب متفوقة فيه على غيرها ؛ لأنها تحب حيث ينبغي أن تحب ، ومتى ينبغي أن تحب

يقول د. عبد الصبور شاهين : " الفتاة المتدينة لا تستخدم الحب سلعة تتاجر بها ، لكنها تدخره عاطفة طاهرة في علاقتها بزوجها ، في فترة حساسة تحتاج إلى المزيد من العواطف لتوثيق الروابط وبناء الأسرة ، ولذلك فهي أبعد الناس عن الحب " السوبر ماركت " الذي يعرض لكل من هب ودب والذي ينتهي غالباً بالاستهلاك والبحث عن جديد ، وينقل أستاذ دار العلوم حديثه من الفتاة المتدينة إلى الشاب الملتزم بأوامر دينه : إنه مثل الفتاة حريص على الأخلاق لأن الفتى والفتاة كليهما له عِرض يحرص عليه ويدافع عنه ويصونه من نزوات العبث وتصرفات المراهقة، وكما أن الفتاة تخشى أن تتعثر قدمها في تجربة تسيء إلى أخلاقها ودينها

---

(١) حديث " من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد " له طرق عن ابن عباس وأخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور ، والخطيب في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، قد رواه الزبير بن بكار عن مجاهد مرفوعاً بسند صحيح ، وذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج " كشف الخفاء للإمام العجلونى .

(٢) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج٦ ص ٢٣٣

فكذلك الفتى يخشى أن تعثر قدمه في تجربة لا تعقب إلا الندم فالحب في حياة المتدين عاطفة شريفة وموقف بناء وطريق إلى السعادة الحقة لأنها عاطفة لا تغيب عنها رقابة الله . "(١)

أما الشباب الماجن العابث فإنه لا يعرف للحب الحقيقي طريقاً فقد تاهت قدماه في مغامرات طائشة وعبث ومجون أفسد عليه روحه الطاهرة ، وقلبه الأخضر البريء، وتعدد العلاقات بين الجنسين يعكر عاطفة الحب النبيلة بل يفسدها فإذا ما تزوج هذا الشباب بعد ذلك لا يجد الحب الطاهر مكاناً في قلبه بعدما أفسدته العلاقات المحرمة قبل الزواج ولا يستمتع بهذه النعمة الكبيرة التي يستمتع بها كل مؤمن ادخر حبه لزوجته فتكون زوجته هي كل النساء لأنه لم يفتح قلبه إلا لها ولم تنطق شفتاه بكلمة حب إلا فيها ، ولم تر عيناه سواها فيدوم الحب بينهما ويؤلف الله تعالى بين قلبيهما ويبارك الله لهما ويبارك عليهما ويجعل الله تعالى بيتهما سكناً ومودة ورحمة فليس هناك علاقات فاسدة تطاردهما وتفسد عليهما حياتهما بمقارنتها بالحياة الجديدة ، وعلى العكس من ذلك من أطاع هواه ولم يصرف نفسه عن الهوى ، ولم يغض بصره عن الحرام ، فأقام علاقات مع من لا تحل له وخلا بهن وعابثهن فيصبح قلبه سلعة مستهلكة من كثرة ما تداولته الأيدي فلم يعد يحس للحب الحقيقي الطاهر طعماً فإذا تزوج بإحدى صديقاته القدامى – وهذا نادر ما يحدث إذ أن الشاب لا يقبل أن يتزوج فتاة أقام معها علاقة قبل الزواج فهي عنده غير مصونة العرض ، ولا مؤتمنة على الشرف – فإن حياتهما تصبح جحيماً من الشك والغيرة القاتلة فهو أولاً : لا يأمن على وفائها وإخلاصها له فربما حنّت لعلاقة سابقة ، وربما ملت حياتها معه وتبحث عن علاقة جديدة فما يمنعها من هذا ولا ذاك مانع ؟ لن يمنعها إلا الخوف من الله والتحلى بالخلق القويم وهو شاهد على عدم اتصافها بهما فقد عصت الله عندما أقامت علاقة معه قبل الزواج وهي غير أمينة على شرفها فقد خانت أباها وأهلها وأقامت علاقة مع من لا يحل لها !

فإذا أقسمت له على إخلاصها فلن يصدقها فقد كانت تكذب على أبيها من قبل لتستر علاقتها به .

---

(١) محمد عبد القدوس " الإسلام في حياتنا الحديثة " ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

وإن تزوج الشاب بمن لم يقم معها علاقة سابقة فإن علاقاته بغيرها تفسد عليه هناءته فكلما تذكر صاحباته مل زوجته فهذه كانت بارعة الجمال وتلك كانت خفيفة الظل وثالثة كانت ذات ثراء فاحش .. فتصغر في عينيه زوجته مهما كانت ذات حسن وجمال فما تملكه يد الهوائي تزهده نفسه .

ونحن إذ نتحدث عن الحب فنعنى به هذا الحب الطاهر الداعي إلى الزواج والذي لا يخالف صاحبه الشرع ، وليس الحب العابث اللاهي الذي هو من همزات الشيطان .

والحب ليس بمحرم فهو قدر مكتوب لكن ما يترتب عليه من فعل أو قول هو الذي يحاسب الإنسان عليه فعن أم المؤمنين عائشة " أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ " (رواه أحمد وأصحاب السنن)

قال الترمذي يعنى به الحب والمودة، كذلك فسره أهل العلم "[1]

والحديث يدل على أن المحبة وميل القلب أمر ليس بمقدور العبد بل هو من أقدار الرب ويدل له قوله تعالى :

{ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ } (الأنفال : ٦٣) بعد قوله: { لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ }

وبه فسر { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ " (الأنفال : ٢٤)[2]

قصة يوسف الصديق مع امرأة العزيز

ولقد ضرب الله تعالى لنا المثل في القرآن بمن عفَّ نفسه عن الحرام وفضل السجن على الوقوع في الزنا وغواية النساء مع أنه كان شاباً في شرخ الشباب فكان جزاء صبره وعفته أن مكن الله له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، أما من انساقت وراء حبها ، وراودت من أحبت عن نفسه فقد كشف الله ستره عنها ، وألزمها الذل والصَّغار ، فالعفة والصبر على الهوى رفعا صاحبهما لدرجة الصديقين ، واتباع الهوى وعدم الصبر عليه قد جعل الأعزة أذلة .

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ج٩ ص ٣١٣
(٢) راجع الصنعانى " سبل السلام " كتاب النكاح .

{ وراودتْهُ التي هُو في بيْتِهَا عن نَفْسه وغَلَّقت الأبْواب وَقَالتْ هيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ ربِّى أَحْسَنَ مثْواى إنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } (يوسف : ٢٣)

رفض الشاب التقى الورع الفقير عرض المرأة ذات المنصب والمال والجمال ، وقد تهيأت له في زينتها ، وأحكمت إغلاق الأبواب حتى لا يخاف أحداً يفاجئه ، ولم تترك شيئاً من دواع الزنا إلا فعلته ، ومع ذلك عفَّ يوسف الصديق نفسه عن الحرام واستعاذ بالله من غواية المرأة . فلما وجدت منه الإعراض والعفة قررت إجباره على المعصية قهراً فجذبته بقوة من قميصه وقاومها بكل قوته لدرجة أن قميصه قد تمزق ، ولم يستجب لها لا غنجاً ودلالاً ، ولا عنفاً وإجباراً .[١]

وانتشر خبر حب امرأة العزيز ليوسف ومراودتها له عن نفسه وتحدثت بذلك النساء في مجالسهن وأنكرن عليها فعل الفاحشة .

{ وَقَالَ نِسْوَةٌ في الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا في ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } (يوسف : ٣٠)

فلما بلغها ما قلن قررت أن تفتنهن بمن فتنت هى به حتى يعذرنها ولا ينكرن عليها .

{ فلما سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فلما رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ } (يوسف : ٣١)

فلما فُتن به – وحب من لا يحل لك فتنة من الله – وقطعن أيديهن دون أن يشعرن من فرط جمال يوسف واستيلاء الشيطان على قلوبهن فلولا إذ رأينه غضضن أبصارهن كما أمر الله تعالى ؛ لحفظهن الله من الغواية ولما قطعن أيديهن لكنهن

---

(١) بعض الناس يسيء فهم قوله تعالي {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} ويتهم سيدنا يوسف بأنه كان عازماً على فعل الفاحشة لولا أن الله تعالى أنقذه منها ، والحقيقة كما بينا في موضع سابق أن همّ سيدنا يوسف كان همّاً عارضاً ولم يكن همّاً عازماً بخلاف همّ امرأة العزيز الذي كان همّاً عازماً ولقد اعترفت امرأة العزيز بأنها كانت عازمة على ارتكاب الفاحشة ومازالت على عزمها { وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ } .

زغن فأزاغ الله قلوبهن – وفي هذا درس فاحفظه – وعند ذلك قالت امرأة العزيز مبررة غوايتها ومعترفة بجريمتها

{ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ } (يوسف:٣٢)

ومع ذلك لم تفقد الأمل في استجابته لرغباتها الشريرة وقررت أن تستخدم وسيلة ثالثة وهى تهديده بالسجن بعدما فشلت الوسيلتان الأخريان: الدلال، والإجبار.

{ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ } (يوسف : ٣٢)

لكن من ذاق حلاوة الإيمان وأحب الله وشرعه ليستعذب السجن في طاعة الله على النعيم في معصيته .

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ }(يوسف : ٣٣)

لكن نسوة المدينة – من الطبقة الأرستقراطية – رحن يطاردنه بحبهن في كل مكان ويعرضن عليه أنفسهن مستخدمات كل ما في جعبة النساء من غواية – وهو كثير – ومستخدمات ما عندهن من أسلحة – وهى فتاكة – في الإيقاع به في حبائلهن وهنا يلجأ المؤمن إلى الله فهو خير حافظاً ؛ ليصرف عنه السوء والفتن والغواية ، والله دائماً سميع لدعاء المؤمن عليم بحاله قدير على إجابته إلى ما فيه صلاحه .

{ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (يوسف : ٣٣- ٣٤)

ويدخل يوسف السجن ظلماً بسبب كيد النساء إن كيدهن كان عظيماً ، ولكن الحق لابد أن يظهر وإن كثر الباطل ، ولابد للفجر أن يطلع ولو طال الظلام – هذه سنة الله في خلقه فاصبر – ويرى الملك رؤياه العجيبة ويخبره ساقيه – صاحب يوسف في السجن – بعلم يوسف بتأويل الأحاديث فيطلب الملك إحضار يوسف من السجن ليفسر له رؤياه، لكن يوسف الصديق يرفض أن يخرج من السجن إلا مرفوع الرأس عالي الهامة وأنه ما دخل السجن لأنه خائن داعر إنما دخله لأنه أمين طاهر ؛ فيطلب من الرسول الذي أرسله الملك أن يفتح الملك التحقيق في قضية دخوله السجن مرة أخرى وأن يحقق مع نسوة المدينة اللاتي قطعن أيديهن ، ومكرن به السوء .

{ وقال الْملكُ ائتونى به فلما جاءهُ الرّسُولُ قال ارْجعْ إلى ربِّك فاسْـألْهُ مـا بـالُ النسْوة اللاّتى قطَّعْن أيْديهُنَّ إنَّ ربِّى بكيْدهنَّ عليمٌ } (يوسف : ٥٠)

ويفتح الملك التحقيق مرة ثانية ويباشر التحقيق بنفسه ويستجوب الشهود بنفسـه – وهذا ما ينبغي أن يفعله كل حاكم ألا يكتفب بالتقارير ترفع إليه من عماله بل يباشر أحوال الرعية بنفسه قدر جهده وهذا درس لكل مسئول فاحفظ – وتعتـرف نـسوة المدينة بجريمتهن وبمراودتهن ليوسف عن نفسه كما يعترفن ببراءة يوسـف ممـا نسب إليه زوراً .

{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْـهِ مِـن سُوءٍ } (يوسف : ٥١)

ولما وجدت امرأة العزيز أن الأمر قد اتضح ، وأن المستور قـد افتـضح ، وأن الإنكار لن يفيد اعترفت بجريمتها .

{ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّـهُ عَـن نَّفْـسِهِ وَإِنَّـهُ لَمِـنَ الصَّادِقِينَ} (يوسف : ٥١)

وعَزَت امرأة العزيز جريمتها لإطاعتها نفسها الأمارة بالسوء التي تأمر مـن لـم يعتصم بالله إلى كل حرام ، أما من اعتصم بالله ونهى النفس عن الهوى فلا سلطان لنفس عليه ولا لشيطان ، ولا لكائن من كان .

{وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}
(يوسف : ٥١)

ويخرج يوسف رافع الرأس ، موفور العرض ، برئ الساحة ، مطـاع الأمـر ، ويقول له الملك تمنى عليَّ فما تتمناه فهو مجاب فيطلب من الملك أن يجعله وزيـراً فيجيبه الملك إلى طلبه ويطلق يده في حكم مصر فمن أجدر لتولى هـذه المناصـب من يوسف الصديق حافظ الأمانة العالم بشرع الله وبأحوال النـاس طـاهر الـذيل عفيف النفس .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلما كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِـينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } (يوسف : ٥٤)

وبعفة يوسف وصبره وإيمانه وأمانته استحق أن يمكن الله له فـي الأرض يتبـوء من نعيمها ما يشاء ، ويتزوج بامرأة ذات شأن عظيم_" ويقال : إن زوج زليخـا –

امرأة العزيز – كان قد مات، فولاه الملك مكانه، وزوَّجه امرأته زليخا، فكان وزير صدق " (١)

وفي هذا دليل على أن من يترك الحرام مخافة الله يرزقه الله بخير منـــه أو مثلـــه بالحلال .

وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّـشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } (يوسف : ٥٦)

كان هذا أجره في الدنيا أما أجر الآخرة فأكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

{ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} (يوسف : ٥٧)

هذه قصة من عفَّ نفسه عن الحرام {فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِـرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران : ١٤٨)

المراهقون والحب

كثير من الشباب والمراهقين يظنون كل عواطف أو أحاسيس حباً لذا نسمع عجبـاً نسمع صبياً – أو صبية – في الثالثة أو الرابعة عشرة يتحدث عن الحب وأن لـه – أو لها – علاقة حب مع الجنس الآخر أما إذا بلغ الشاب العشرين من عمـره ولـم يمر بعلاقة حب عُدَّ من الشواذ المعقدين !

ويُعْزَى هذا الفهم الخاطئ للعواطف نحو الجنس الآخر إلـى الأفـلام والأغـاني والروايات الرومانسية التي يغرم الشباب بمشاهدتها أو قراءتها فـي هـذه الـسن ، ويعيش الشاب في دور العاشق ويسهر الليل ويعد النجوم ويتقلب على جمـر النـار من جراء الصد والهجران وهذا كله وَهْم يرجع إلى سوء التربية من الأهـل ومـن القائمين على العملية التعليمة ووسائل الإعلام والترفيه ، إذ لـو بُـصِّر الـشاب – بطريقة علمية دينية – بحقيقة المرحلة التي يمر بها ، وإذا غمر الوالـدان أولادهـم بالحب والعطف وأشبعوا عندهم عاطفة الحب التي تتفجر في سن المراهقة ما حدث ما يحدث ونراه كل يوم من أن أكثر من ٨٠% من الشباب لهم علاقـات غراميـة يخلون فيها بمن يحبون وكثيراً ما يحدث ما لا تحمد عقباه من جراء هذا الاختلاط .

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج١ ص ٢٤٢

إن مرحلة البلوغ تبدأ كما يقول علماء النفس بتغيرات داخلية وخارجية تصحبها خصائص فسيولوجية ، وميول اجتماعية ، وعاطفية واتجاهات جنسية ، والمراهق يتعلق عاطفيًا بمن يكبره سناً من الجنس الآخر فيتعلق المراهق بمدرسته، أو إحدى الفنانات أو إحدى قريباته أو جيرانه ، ويلاحظ أنها في البداية تكون أكبر سناً منه ثم تتحول هذه العاطفة إلى فتاة في مثل سنه زميلة ، جارة ، قريبة ..، والشيء نفسه يحدث للمراهقة فتتجه عواطفها للفنان : ممثل أو مغن ، أو رياضي مشهور : لاعب كرة أو تنس أو سباحة .. ، أو مدرس ، أو قريب ، أو جار .. ثم تتحول عاطفة المراهقة إلى من في مثل سنها : زميل ، قريب ، جار .. وغالباً ما تكون هذه العاطفة متقلبة وموزعة على أكثر من شخص ، كما تمتاز في البداية بالنزعة الرومانسية التي تخلو من أية رغبات جنسية ، كما أنها تمتاز بالمثالية وبعدها عن الواقعية والمنطقية ، ولما تصطدم هذه العواطف بالواقع والمعايير الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية ، يلجأ المراهق إلى العزلة والانفراد بالنفس لأن المجتمع لا يحقق له ما يريد فيرفضه ويلجأ إلى أحلام اليقظة لحل مشاكله التي يعجز في الواقع عن تحقيقها ، فيصنع لنفسه عالماً خاصاً به يصنع فيه ما يحب مع من يحب ، وينتقم فيه ممن يقفون عقبة في سبيل أحلامه ، وأحلام اليقظة وإن كانت تخفف عن المراهق بعض توتره النفسي في البداية ، لكن إن استسلم لها المراهق وأصبح أسيراً لخياله وبعد عن الواقع ، وترك السعي كوسيلة عملية لتحقيق أحلامه، فإن أحلام اليقظة هذه تؤدى بصاحبها إلى السلبية وإلى الكذب الذي يلجأ إليه المراهق ليعوض به ما عجز عن تحقيقه فيظل يكذب ويكذب حتى يصدق نفسه وينسى الواقع الحقيقي وتصبح عنده شخصيتان : شخصية واقعية يبغضها ويبغض ما يذكره بها ، وشخصية من صنع خياله وأكاذيبه يحبها ولا يتخيل نفسه بدونها ، وفي النهاية لا يستطيع العيش بهاتين الشخصيتين المتناقضتين ، ولا بهذه الازدواجية فيقرر التخلص من إحدى الشخصيتين ، فإما يتخلص من الشخصية المتخيلة ويواجه الواقع ويحاول أن يحقق أحلامه أو جزءاً منها بسعيه واجتهاده ، ويكون هذا ممكناً إذا وجد من الأسرة ، والمدرسة ، والمجتمع العناية الكافية في توجيهه الوجهة السليمة وتفهم طبيعة المرحلة التي يمر بها ومساعدته على عبورها بسلام ، أما إذا لم يجد ممن حوله المساعدة ، ولم يتفهم حقيقة المرحلة السنية التي يمر بها يظل رافضاً لشخصيته الواقعية ، ومتمسكا بشخصيته المتخيلة فإنه يقرر التخلص في النهاية من شخصيته الواقعية البغيضة وهذا معناه أنه يقرر الانتحار .

وبسبب جهل المراهق بطبيعة المرحلة التي يمر بها وبسبب غيبة دور الأسرة، والمدرسة ، والمجتمع ، فإن المراهق يكون دليله في هذه المرحلة الخطيرة هو عواطفه وميوله الخاصة وآراء أصدقائه وهى تغذى فيه هذه الميول وتدعمها ، ويأتي دور الإعلام الفاسد ، والأدب الداعر ليزكى فيه نوازع الانحراف العاطفي والسلوكي ويرشده إلى طريق الرذيلة التي تبدأ بإقامة علاقات غرامية بين الجنسين باسم الحب ، وتنتهي بالزنا والمخدرات والجريمة ..

الزواج العرفي

في السنوات الأخير لجأ بعض الشباب إلى حيلة شيطانية وهى الزواج العرفي ليضفوا على ما يمارسونه من الزنا وممارسات فاحشة صفة الشرعية ، والشرع براء مما يفعلون فما يفعلون إنما هو الزنا المحرم ولا علاقة له بالزواج الشرعي، فهم يعدون الورقة التي يكتبها شاب لفتاة يعترف فيها بالزواج منها ويوقع عليها صديقان لهما هم يعدون هذا العبث وثيقة زواج شرعية !!

والزواج الشرعي لابد فيه من :

١- موافقة ولى أمر الفتاة فلا نكاح بدون ولى لقوله تعالى :

{ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ } (النساء: ٢٥)

وصح عن النبي ﷺ قوله " لا نكاح إلا بولي " (رواه أحمد وأصحاب السنن)

وعنه ﷺ أنه قال : " لا نكاح إلا بولي وشاهدين " (البيهقى والطبرانى وابن حبان)

وقد ذكر النبي ﷺ صراحة أن المرأة إذا زوجت نفسها بغير إذن وليها فإن زواجها باطل وأكد ذلك بتكرار كلمة باطل ثلاثاً .

" أَيُّمَا امْرَأَة نَكَحَتْ بغَيْرِ إِذْنِ مَوَاليهَا فَنكَاحُهَا بَاطلٌ ، فَنكَاحُهَا بَاطلٌ ، فَنكَاحُهَا بَاطلٌ فَإنْ دَخَلَ بهَا فَالْمَهْرُ لَهَا بمَا أَصَابَ منْهَا فَإنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ " (رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة والحاكم) .

وقد أجمع العلماء على أنه لا يحل للمرأة أن تزوج نفسها بنفسها بلا ولى ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا الإمام أبو حنيفة الذي أباح أن تزوج المرأة البالغ الرشيد نفسها بشرطين :

(أ) أن تتزوج بكفء والكفاءة هي مساواة الرجل للمرأة في أمور مخصوصة، وهى ست :

١- النسب (المكانة الاجتماعية) .
٢- الإسلام .(فلا يحل أن تتزوج بغير مسلم) .
٣- الحرفة (العلم والثقافة وطبيعة العمل) .
٤- والحرية .
٥- الديانة (المستوى الديني والأخلاقي) .
٦- المال (الحالة الاقتصادية) .

كما أن من يتركون الصلاة ويعلنون أنهم لا يصلون ولا يصومون، فإن هؤلاء ليسوا أكفاء للصالحات وبنات الصالحين، فإذا تزوجت واحداً من هؤلاء كان للولي الاعتراض وفسخ العقد .

والكفاءة شرط لنفاذ العقد ولزومه فإذا زوجت المرأة نفسها لمن هو دونها في أمر من الأمور الستة المذكورة كان لوليها حق الاعتراض على العقد، فلا ينفذ حتى يرضى ، أو يفسخه القاضي ." (١)

أما الشرط الثاني الذي اشترطه أبو حنيفة لزواج البالغ الرشيد نفسها :

(ب) أن يكون لها مهر المثل أي مهر فتاة من أهلها أو أقاربها كأختها أو ابنة عمها أو ابنة خالتها ... اللاتي في مثل سنها ، وتعليمها ، ووضعها الاجتماعي ، والاقتصادي ، والتعليمي ، والجمال ..

وقد جاء في فتاوى الأزهر الشريف .

" أنه إذا كان كامل الأهلية أنثى ولها ولى عاصب لا يكون تزويجها نفسها صحيحا نافذاً لازماً إلا إذا كان الزوج الذي يريد التزوج بها كفئاً لها والمهر المشروط هو مهر مثلها حتى لا يعير وليها العاصب بمصاهرة غير الكفء أو بنقصها عن مهر مثلها ومهر المثل هو مهر امرأة من قوم أبيها كأختها وعمتها وبنت عمها تساويها وقت العقد سناً وجمالاً ومالاً وبلداً وعصراً وعقلاً وديناً وأدباً وخلقاً وعلماً وبكارة أو ثيوبة وعدم ولد فإن لم توجد واحدة من قوم أبيها تساويها في هذه الصفات ينظر إلى مهر امرأة أجنبية تساويها في هذه الصفات . " (٢)

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى " الفقه على المذاهب الأربعة " ج ٤ ص ٣٥ .
(٢) " فتاوى الأزهر الشريف في مائة عام " موضوع زواج المرأة البالغ دون إذن وليها المفتى الشيخ حسن مأمون ٢٣سبتمبر ١٩٥٨

وممـا سبق يتبن لنا جليًا أنه حتى عند أيسر المذاهب المتساهلة في الزواج – المذهب الحنفي – فإن الكفاءة ، ومهر المثل شرطان لنفاذ العقد ولزومه فإن فقد العقد كلا الشرطين أو أحدهما فإن من حق وليها فسخ العقد . فما بالكم إذا كان هذا العقد غير قانوني وغير معترف به عند التقاضي كما هو الحال فيما يسمى بالزواج العرفي بصورته الحالية .

نأتي إلى الشرط الثاني من شروط صحة الزواج وهو الإشهاد عليه على الأقل شاهدي عدل فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: " لا نكاح إلا بولي وشاهدين "

(البيهقي والطبراني وابن حبان)

فشاهدا العدل شرط من شروط صحة الزواج فما المقصود بالعدالة وما هي الشروط الواجب توافرها في شاهد العدل حتى تصح شهادته ؟

إن المسلمين اتفقوا على اشتراط العدالة في قبول شهادة الشاهد لقوله تعالى {ممن ترضون من الشهداء} ولقوله تعالى {وأشهدوا ذوى عدل منكم} واختلفوا فيما هي العدالة؛ فقال الجمهور: هي صفة زائدة على الإسلام – أي بالإضافة للإسلام – وهو أن يكون ملتزماً لواجبات الشرع ومستحباته ، مجنباً للمحرمات والمكروهات . " [1]

وعليه فإن الشاهد العدل الذي تصح شهادته يجب أن يكون ملتزماً بواجبات الشرع يؤدى فرائض الإسلام من صلاة وصيام وتمسك بشرع الله ومستحباته .

كما اشترط العلماء في الشاهد العدل أن يجتنب المحرمات مثل : الزنا ، وشرب الخمر ، وعقوق الوالدين، والكذب ، وشهادة الزور ، والقمار ، وقذف المحصنات ، والسرقة ، واليمين الغموس[2] ، والتشبه بالنساء ، والدياثة[3] ، والنمّ ، والغدر ،

---

(١) الإمام ابن رشد القرطبى " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " الجزء الثاني كتاب الأقضية الفصل الأول في الشهادة .

(٢) اليمين الغموس : اليمين الكاذبة التي يتعمدها صاحبها علما بأن الأمر بخلافه وسميت غموس لأنها تغمس صاحبها في الأثم ثم في النار " القاموس المحيط

(٣) قال رسول الله ﷺ : (لا يدخل الجنة ديوث) والديوث هو الذي انعدمت شهامته وغيرته على عرضه فأصبح لا يبالى بمن يدخل على أهل بيته ومن يخرج ولا يهمه سلوك نسائه وبناته بل يسكت على المهانة ويرضى بالدون ويقر الخطيئة في أهله فهذا من أبغض الناس عند الله يوم القيامة ولن تنفعه عبادة ، ولا طاعة ولا قربة يتقرب بها إلى الله ما دام فيه هذا الداء الخطير " عبد الرحمن الجزيرى الفقه على المذاهب الأربعة " ج ٥ ص ٥٩

وتصديق الكاهن والمنجم (١) ، وإيذاء الجار ، ولبس الحرير والذهب ، والجدل والمراء ..

فهل من يشهد على مثل هذا الزواج العرفي تنطبق عليهم شروط العدالة ؟

اللهم لا .. فهم أبعد ما يكونون عن العدالة فكثير من فرائض الشرع هم لها مضيعون ، وكثير من المحرمات هم لها فاعلون ، أما المستحبات فلا يكادون يسمعون عنها ، وكذلك المكروهات ، ويكفي لسقوط عدالتهم أنهم ممن لا يقيمون الصلاة وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالى ، ولا يبرون والديهم ، ولا يصدقون في الحديث ، ويتشبهون بالنساء ، ويؤمنون بالأبراج والنجوم ، ولا يغضون البصر ، ولا يستحون من الله ، وهم متصفون بالدياثة ... فكيف يؤتمن على أعراض الناس فاسق فاقد العرض مطعون الشرف !!

كل ذلك إن كان الزواج مشهرا معروفاً فإن كان في السر كما هو حال الزواج المسمى – خطئا – عرفيّاً كما يفهمه طلاب المدارس والجامعات فإنه إلى جانب افتقاده إلى الشرطين السابقين وهما الكفاءة ، ومهر المثل ، فإنه يفتقد إلى شرط صحة وهو الإشهار حيث يتم دون علم أحد من أهل الفتاة وأهل الفتى ويظل في طي الكتمان ، حتى تحدث كارثة تكشفه كحمل الفتاة ، أو رغبة الفتى في قطع العلاقة – بعدما وصل إلى ما أراد – وفي هذه الحالة تضطر الفتاة إلى مصارحة أهلها بهذه الكارثة التي تنزل على العائلة كالصاعقة فهم لا يتوقعون أن ابنتهم تعرف شيئا عن الجنس الآخر فضلاً عن إقامة علاقة معه أما أن تصل الأمور إلى

---

(١) لقد أغرم كثير من الشباب والفتيات بقراءة الأبراج وطوالع النجوم وإتيان الدجالين من قارئي الكف والفنجان وتصديقهم فيما يقولون ولقد صح عن النبي قوله : " من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد " رواه أحمد والحاكم و " جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من أتى عرافا فسأل عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة). والعراف هو الحازر والمنجم الذي يدعى علم الغيب وهى من العرافة وصاحبها عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها. وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك. وكذا ينطلق عليها اسم الكهانة؛ قاله القاضي عياض. والكهانة: ادعاء علم الغيب. قال علماؤنا: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين، والكهان لا سيما بالديار المصرية؛ فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد أنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل؛ ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة). فكيف بمن أتخذهم وأنفق عليهم معتمداً على أقوالهم. " تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣

الزنا فهذا مما لم يخطر لهم على بال فقد أرسلوا ابنتهم إلى المدرســـة أو الجامعـــة لتتعلم وبذلوا في سبيل ملابسها ودروسها ومصاريفها كل ما يملكون لتصبح ابنـــتهم طبيبة أو مهندسة أو ذات مؤهل جامعي يفاخرون به ويهيئ لها الزواج برجـــل ذي خلق ودين وعلم يفاخرون به فإذا بها تجلب عليهم العار الذي ليس بعده عـــار إنهـــا تضع رءوسهم في الوحل إلى أبد الآبدين فإذا ما حاولوا إصـــلاح هـــذه الجريمـــة والخروج من هذا المستنقع الآسن فلا يستطيعون فمرتكب الجريمة مع ابنتهم فتـــى غرير مازال يأخذ مصروفه من أبيه وأمامه ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً حتـــى ينتهي من دراسته ومن البحث عن وظيفة ، ومن العمل ، والادخـــار ، والحـــصول على شقة ، وتجهيزها ، وإتمام الزواج على فرض إنجاز كل مرحلة بنجـــاح دون معوقات !!

فلما كان هذا الحل مستحيلاً أو شبه مستحل فالحل الآخر إنهاء هذه العلاقة الآثمـــة وكأن شيئاً لم يكن لكن هذا الحل مستحل أيضاً لأن هذه العلاقة ليست زواجاً ينتهـــي عند الخلاف بالطلاق إذ لم يكن هناك زواج ابتداء حتى يكون هناك طلاق هـــذا إذا وافق الشاب على هذا ، الحل الثالث اللجوء إلى القضاء للتفريق بين الـــزانيين لكـــن المحكمة لن تسمع دعوى الزوجية عند إنكار الزوج إلا بوثيقة زواج رسمية

فقد نصت المادة ٩٩ من المرسوم بقانون ٧٨ لسنة١٩٣١في فقرتها الأخيرة " ولا تسمع عند الإنكار دعوى الزوجية أو الإقرار بها إلا إذا كانت ثابتـــة بوثيقـــة زواج رسمية . "

وحيث إنه ليس هناك وثيقة زواج رسمية في القضية محل النزاع فـــإن الـــدعوى ترفض ، والحل الأخير أن يتجاهل الأهل هذا الزواج وكأنه لـــم يكـــن ويغـــروا أي شخص بالزواج من ابنتهم الزانية مهتوكة العرض، فإن وجدوا من يرضى بها على هذه الحال فإن صديقها القديم يستطيع أن يقدم ورقة الزواج العرفي إلى النيابة متهماً خليلته بأنها تريد الجمع بين الأزواج فهي على ذمته بموجب ورقة الزواج العرفـــي التي معه ، وهكذا فإنها مشكلة لا حل لها .

ولقد حاول المشرع أن يجد حلاً لآلاف الفتيات اللاتي سقطن ضحايا لهذا الـــزواج الباطل فأصدر المادة ١٧ من القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ التي تـــنص علـــى " لا تقبل الدعاوي الناشئة عن عقد الزواج إذا كان سن الزوجة يقل عن ست عشرة سنة

ميلادية أو كان سن الزوج يقل عن ثماني عشرة سنة ميلادية وقت رفع الدعوي ولا تقبل عند الإنكار الدعاوي الناشئة عن عقد الزواج في الوقائع اللاحقة علي أول أغسطس سنة ١٩٣١ ما لم يكن الزواج ثابتاً بوثيقة رسمية ومع ذلك تقبل دعوي التطليق أو الفسخ بحسب الأحوال دون غيرهما إذا كان الزواج ثابتاً بأية كتابة . "

فقد سمح هذا القانون بفسخ عقد الزواج العرفي حتى يسمح للفتيات بالزواج من آخر بعد أن كن مثل البيت الوقف .

وعلى ذلك يكون هذا الزواج – مجازاً – زواجاً باطلاً باطلاً باطلاً ،للأسباب الآتية :

١– أنه تم دون إذن ولى الفتاة .

٢– أن الفتاة لم تأخذ مهر المثل .

٣– أن الشهود عليه لا تتحقق فيهم شروط العدالة .

٤– أنه غير مشهر إنما تم في السر ولم يعلن .

٥– أنه غير موثق بوثيقة زواج رسمية .

والشرط الأخير يفقد الزواج العرفي صفة الشرعية القانونية إلى جانب عدم شرعيته الدينية ؛ فهذا الزواج – الباطل – لا يثبت عند إنكار الزوج له لا نسباً ولا ميراثاً ، ولا حقوقاً للمرأة فحتى القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ لا يحول الزواج العرفي إلى شرعي إنما فقط يفسخ العقد ليسمح للفتاة بالزواج فقط .

وعليه فهذه الورقة التي يشهد عليها طالبان لا تساوى ثمن الحبر الذي كتبت به ، وهذه العلاقة المترتبة عليها هي علاقة آثمة وهي الزنا الفاحش ، وأتحدى أن يرتضى شاب ممن قاموا بهذا الزنا على أخته أو أمه الزواج بهذه الطريقة الآثمة .

ونختم هذا الموضوع بفتوى الشيخ معوض مبروك عباس ، أمين لجنة الفتوى بالأزهر عن هذا الزواج :

في الحقيقة لا تمر ساعة إلا ويسأل بعض الشباب في لجنة الفتوى عن حكم الشرع في الزواج العرفي، وهل هو حلال أو حرام ؟

الزواج الذي اشتهر في هذه الأيام باسم الزواج العرفي مغالطة وتسمية الأشياء بغير اسمها الصحيح فاسمه في الحقيقة " الزواج السري "وهو اجتماع الرجل مع المرأة فقط سرًا مع كتابة ورقة بينهما يعترف فيها الرجل بأنه تزوج المرأة حتى ولو كان هناك شهود على هذه الورقة فهذه مغالطة لتبرير فعلتهم، هذا بالإضافة إلى أن مثل هذا الزواج لا تترتب عليه آثاره .

كما أنني ألفت النظر إلى عدم الاستجابة إلى تقنين هذا الزواج ما دام قد تم في السر؛ لأن معنى هذا أننا نقنن لإباحة الزنا وفي هذا ما فيه من خطر على المجتمع وكثرة الأبناء غير الشرعيين (أبناء الزنا) وأيضا بتقنين هذا الزواج فإننا نقول للبنت افعلي ما شئت، واخرجي على طاعة الآباء والأولياء فتنقطع بذلك الروابط الأسرية وتتفكك الأسر .

وختامًا أقول للقائمين على أمر الإعلام في مصر والعالم الإسلامي وضحوا الناس مخاطر هذا النوع من الزواج، وبينوا للناس كيف يكون سببًا في ضياع حق المرأة وهيبتها وكرامتها هي أسرتها، وأن يشرح العلماء والخطباء على المنابر في المحافل الإسلامية، ويلفتوا النظر إلى ضرورة التمسك بتعاليم الإسلام وترسيخ مبادئه في نفوس الناس، كما أنني أهيب بإخواننا العلماء ألا يصدروا كلامهم بكلمة حلال ثم يضعون الشروط بعد ذلك .

ولا تقل لي إن هذا الزواج صحيح لأنه أخذ الشكل الرسمي للعقد، أو أنه يصح على بعض المذاهب، فليس هناك مذهب يجيزه على هذا الصورة المهينة التي تستبيح الأعراض، وتساعد على انتشار الرذيلة في المجتمع، فهذا لم يسلم به أحد مطلقًا من علماء الإسلام قديمًا أو حديثًا .[1]

اللهم إنى أبرأ لك مما يفعل هؤلاء الفسقة الفجرة الذين استحلوا حرماتك ، وانتهكوا أعراض إمائك ، وأشاعوا الفاحشة في المجتمع ، اللهم اكشف سترك عنهم اللهم وافضحهم .

القلب والفنون الجميلة

الفنون الجميلة : كالأدب ، والموسيقا ، والغناء ، والتصوير ، والتمثيل ..

---

(١) إسلام أون لاين نت .

مما يرتاح لها القلب وتسعد بها النفوس لما فيها من تناسق ونظام فالأدب تناسق للألفاظ ونظام لموسيقا الكلمات ، والغناء جمال في الصوت ونظام في الأداء، والموسيقا تناسق للنغم ، والرسم تناسق لألوان والظلال ، والتمثيل يجمع كل هذه الفنون ، ولكن يشترط الإسلام إلى جانب الجمال الفني عدم مخالفة الشرع .

هل كل لهو حرام ؟

وهناك من يحرم كل فن جميل بدعوى أنها تلهى عن ذكر الله واستشهدوا بقوله تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } (لقمان : ٦)

وبالحديث الشريف " كل لهو يلهو به المؤمن هو باطل إلا ثلاثة ملاعبة الرجل أهله وتأديبه فرسه ورميه عن قوسه " ولقد ناقش العلماء هذه الحجة فذكر ابن حجر العسقلانى في شرح الباب الذي عقده البخارى بعنوان " باب كل لهو باطل إذا شغل عن طاعة الله " فقال " أن هذا الحديث ليس دليلاً على تحريم الملاهى المباحة لأن أي عمل يلهى عن طاعة الله فهو حرام سواء أ كان هذا العمل مشروعاً أو مباحاً فليس التحريم خاصاً باللهو المباح فقط (كما يفهمه المحرمون لكل لهو وفن وإن كان مباحاً) إنما يشمل أيضاً فيما يشمل كل عمل مشروع أو مندوب كصلاة النافلة أو تلاوة القرآن أو حتى فريضة كالسعي على المعاش أو طلب العلم .. إن كان هذا يشغل الإنسان عن عبادة مقررة حان وقت أدائها كالصلاة المفروضة مثلاً .

قوله (باب كل لهو باطل إذا شغله) أي شغل اللاهي به (عن طاعة الله) أي كمن النهى بشيء من الأشياء مطلقا سواء كان مأذونا في فعله أو منهياً عنه كمن اشتغل بصلاة نافلة أو بتلاوة أو ذكر أو تفكر في معاني القرآن مثلا حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمداً فإنه يدخل تحت هذا الضابط، وإذا كان هذا في الأشياء المرغب فيها المطلوب فعلها فكيف حال ما دونها "[١]

ويؤكد الإمام الشوكاني هذا المعنى فيقول : " يقول الغزالي : قوله ﷺ " فهو باطل " لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة انتهى. وهو جواب صحيح لأن ما لا

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج ١١ ص ٩١

فائدة فيه من قسم المباح على أن التلهى بالنظر إلى الحبشة وهم يرقصون في مسجده ﷺ كما ثبت في الصحيح خارج عن تلك الأمور الثلاثة .. وقد استدل المجوزون بأدلة منها قوله تعالى {ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث} ووجهه التمسك أن الطيبات جمع محلى باللام فيشمل كل طيب والطيب يطلق بإزاء المستلذ وهو الأكثر المتبادر إلى الفهم عند التجرد عن القرائن ويطلق بإزاء الطاهر والحلال وصيغة العموم كلية تتناول كل فرد من أفراد العام فتدخل أفراد المعاني الثلاثة كلها ولو قصرنا العام على بعض أفراده لكان قصره على المتبادر الظاهر وقد صرح ابن عبد السلام في دلائل الأحكام أن المراد في الآية بالطيبات المستلذات .. ومن جملة ما قاله المجوزون أنا لو حكمنا بتحريم اللهو لكونه لهواً لكان جميع ما في الدنيا محرماً لأنه لهو لقوله تعالى {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو} ويجاب بأنه لا حكم على جميع ما يصدق عليه مسمى اللهو لكونه لهواً بل الحكم بتحريم لهو خاص وهو لهو الحديث المنصوص عليه في القرآن لكنه لما علل في الآية بعلة الإضلال عن سبيل اللّه لم ينتهض للاستدلال به على المطلوب وقد تقدم ما قاله ابن حزم ووافقه على ذلك أبو بكر ابن العربي في كتابه الأحكام وقال لم يصح في التحريم – الغناء – شيء وكذلك قال الغزالي وابن النحوي في العمدة وهكذا قال ابن طاهر إنه لم يصح منها حرف واحد والمراد ما هو مرفوع منها وإلا فحديث ابن مسعود في تفسير قوله تعالى {ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل اللّه} قد تقدم أنه صحيح وقد ذكر هذا الاستثناء ابن حزم فقال إنهم لو أسندوا حديثاً واحداً فهو إلى غير رسول اللّه ﷺ ولا حجة في أحد دونه كما روى عن ابن عباس وابن مسعود في تفسير قوله تعالى {ومن الناس} الآية أنهما فسرا اللهو بالغناء قال ونص الآية يبطل احتجاجهم لقوله تعالى { ليضل عن سبيل اللّه} وهذه صفة من فعلها كان كافراً ولو أن شخصاً اشترى مصحفاً ليضل به عن سبيل اللّه ويتخذها هزواً لكان كافراً فهذا هو الذي ذم اللّه تعالى وما ذم من اشترى لهو الحديث ليروح به نفسه لا ليضل به عن سبيل اللّه انتهى.

قال الفاكهاني: لم أعلم في كتاب اللّه ولا في السنة حديثاً صحيحاً صريحاً في تحريم الملاهي وإنما هي ظواهر وعمومات يتأنس بها لا أدلة قطعية "[1] .

---

(١) الإمام الشوكانى " نيل الأوطار " ج ٨ ص ١٧٩

ويقول العالم الفقيه يوسف القرضاوي :

الإسلام دين واقعي لا يحلق في أجواء الخيال والمثالية الواهمة، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع. ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ولكنه يعاملهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

لذلك لم يفرض على الناس -ولم يفترض فيهم- أن يكون كل كلامهم ذكرا، وكل صمتهم فكرا، وكل سماعهم قرآنا، وكل فراغهم في المسجد. وإنما اعترف بهم وبفطرتهم وغرائزهم التي خلقهم الله عليها، وقد خلقهم سبحانه يفرحون ويمرحون ويضحكون ويلعبون، كما خلقهم يأكلون ويشربون .

ولقد بلغ السمو الروحي ببعض أصحاب النبي ﷺ مبلغاً ظنوا معه أن الجد الصارم، والتعبد الدائم لا بد أن يكون ديدنهم ، وأن عليهم أن يديروا ظهورهم لكل متع الحياة ، وطيبات الدنيا، فلا يلهون ولا يلعبون ، بل تظل أبصارهم وأفكارهم متجهة إلى الآخرة ومعانيها بعيدة عن الحياة ولهوها .

ولنستمع إلى حديث هذا الصحابي الجليل حنظلة الأسيدى – وكان من كتاب رسول الله ﷺ – قال يحدثنا عن نفسه: لقينى أبو بكر وقال: كيف أنت يا حنظلة ؟

قلت: نافق حنظلة .

قال: سبحان الله، ما تقول ؟

قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا (لاعبنا) الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً .

قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

قال حنظلة: فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ .

قلت: نافق حنظلة يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟

قلت: يا رسول الله. نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيراً.

قال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده: إنكم لو تدومون على ما تكونون عندى وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة ، وكرر هذه الكلمة –ساعة وساعة– ثلاث مرات ".[1] (رواه مسلم)

وكانت حياته ﷺ مثالاً رائعاً للحياة الإنسانية المتكاملة: فهو في خلوته يصلى ويطيل الخشوع والبكاء والقيام حتى تتورم قدماه، وهو في الحق لا يبالى بأحد في جنب الله، ولكنه مع الحياة والناس بشر سوى يحب الطيبات، ويبش ويبتسم، ويداعب ويمزح، ولا يقول إلا حقاً .

كان ﷺ يحب السرور وما يجلبه، ويكره الحزن وما يدفع إليه من ديون ومتاعب، ويستعيذ بالله من شره ، ويقول : "اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن" (متفق عليه)

ومما روى في مزاحه أن امرأة عجوزا جاءته تقول له: يا رسول الله، ادع الله لى أن يدخلنى الجنة. فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوزاً . وانزعجت المرأة وبكت –ظناً منها أنها لن تدخل الجنة– فلما رأى ذلك منها بين لها غرضه: إن العجوز لن تدخل الجنة عجوزاً ، بل ينشئها الله خلقاً آخر، فتدخلها شابة بكراً . وتلا عليها قول الله تعالى: (إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا) (الواقعة:٣٥-٣٧)

وكذلك كان الصحابة الطيبون الطاهرون، يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون، معرفة منهم بحظ النفس، وتلبية لنداء الفطرة وتمكينا للقلوب من حقها في الراحة، واللهو البريء لتكون أقدر على مواصلة السير في طريق الجد. وإنه لطريق طويل.

قال على بن أبى طالب : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة.

وقال: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي.

---

(١) وفي رواية " روحوا القلوب ساعة فساعة " يقول الإمام السيوطي في شرح الحديث :
أي أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب. قال أبو الدرداء: "إنى لأجمّ فؤادى ببعض الباطل" أى اللهو الجائز "لأنشط للحق". وذكر عند المصطفي ﷺ القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال " أقراءة وشعر؟" فقال "نعم، ساعة هذا وساعة ذاك". وقال على كرم الله وجهه "أجِمّوا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان" أى تكل " الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي .تتمة باب حرف الراء .

وقال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل، ليكون أعون لها على الحق.

فلا بأس على المسلم أن يتفكه ويمزح بما يشرح صدره، ولا حرج عليه أن يروح نفسه ونفوس رفقائه بلهو مباح. على ألا يجعل ذلك ديدنه وخلقه في كل أوقاته، ويملأ به صباحه ومساءه، فينشغل به عن الواجبات، ويهزل في موضع الجد. ولذا قيل (أعط الكلام من المزح بقدر ما يعطى الطعام من الملح).

وقد أذن النبي ﷺ للحبشة أن يلعبوا بها في مسجده الشريف، وأذن لزوجته عائشة أن تنظر إليهم، وهو يقول لهم: "دونكم يا بنى أرفدة ". وهى كنية ينادى بها أبناء الحبشة عند العرب.

ويبدو أن عمر -لطبيعته الصارمة- لم يرقه هذا اللهو، وأراد أن يمنعهم، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، فقد روى الصحيحان عن أبى هريرة قال: بينما الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم، دخل عمر فأهوى إلى الحصباء فحصبهم بها، فقال رسول الله ﷺ : "دعهم يا عمر".

وإنه لتوجيه نبوى كريم في معاملة الزوجات وترويح أنفسهن بإتاحة مثل هذا اللهو المباح. قالت عائشة زوج النبي الكريم: "لقد رأيت النبي ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأمه، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو".

وقالت كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ في بيته -وهن اللُعَب- وكان لي صواحب يلعبن معي، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن (يستخفين هيبة منه) فيسر بهن إلى، فيلعبن معي".[1]

ويقول الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الفقيه المجتهد محمود شلتوت : " إن الله خلق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التي يجد لها أثراً في نفسه، به يهدأ وبه يرتاح وبه ينشط وتسكن جوارحه، فتراه ينشرح بالمناظر الجميلة كالخضرة المنسقة والماء الصافي والوجه الحسن والروائح الزكية، وأن الشرائع لا

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الحلال والحرام في الإسلام " باب " في اللهو والترفيه "

تقضى على الغرائز بل تنظمها، والتوسط في الإسلام أصل عظيم أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الجزئيات، منها قوله تعالى :

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف ٣١) وبهذا كانت شريعة الإسلام موجهة الإنسان في مقتضيات الغريزة إلى الحد الوسط ، فلم تترك لانتزاع الغريزة في حب المناظر الطيبة ولا المسموعات المستلذة وإنما جاءت بتهذيبها وتعديلها إلى مالا ضرر فيه ولا شر يقول ابن حزم إن الأمر مرتبط بالنية فمن نوى ترويح نفسه وتنشيطها للطاعة فهو مطيع محسن، ومن لم ينو لا طاعة ولا معصية فهو لغو معفو عنه، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها وقعوده على باب داره متفرجاً .

ولقد كنت أرى أن هذا القدر كاف في معرفة حكم الشرع في الموسيقا وفي سائر ما يحب الإنسان ويهوى بمقتضى غريزته لولا أن كثيراً من الناس لا يكتفون بل لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه في معرفة الحلال والحرام ، وإنما يقنعهم عرض ما قيل في الكتب وأُثِر عن الفقهاء ، وإذا كان ولابد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع (أي سماع الغناء) في إثارة الشوق إلى الحج وفي تحريض الغزاة على القتال وفي مناسبات السرور المألوفة كالعيد والعرس ، وقدوم الغائب وما إليها . ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيين يقرر أحدهما الحرمة ، ويستند إلى أحاديث وآثار ، ويقرر الآخر الحِّل ، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار ، وكان من قول القائلين بالحِّل : " إنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله ، ولا في معقولهما من القياس والاستدلال ما يقتضي تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات " وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة وقالوا:إنه لم يصح منها شيء[1]

الأدب

ومن أهم الفنون التي تميل إليها القلوب فن الأدب : الشعر والنثر .

فالكلمة في مجال الأدب تتوقد حيوية وإثارة وتتسم بالجمال والمتعة ، وتفعل بالمتلقي فعل السحر لكن الإسلام يشترط أن تكون الكلمة نافعة غير ضارة بناءة غير هدامة فالاستمتاع بجمال التعبير لا ينسينا أهمية معناه وخطورة مغزاه فإن مجَّد

---

(١) الإمام الأكبر محمود شلتوت " الفتاوى " دار الشروق ص ٤١٠ – ٤١٣ بتصرف .

الأدب الخمر ، وإن تفحش في الغزل ، وإن أقذع في الهجـاء ، وإن خـرج علـى الشرع فهو غير مقبول وإن كان بارعاً في قيمه الفنية والتعبيرية .

يقول الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر " الأدب في أوضـاعه المستقيمة إنما هو لإصلاح المجتمع والسير به في طريق الكمال خطوة فخطوة وأن من يضع لبنة في صرح الفضيلة فإنما يضع لبنة في صرح الكمال وأن من يـضع لبنة في صرح الرذيلة فإنما يضع لبنة في صرح النقص . " (١)

فالشعر الجميل معنى وبلاغة " كان رسول الله ﷺ يسمعه ، وأبو بكـر ينـشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا. قال ابن عمر: ولا ينكـر الحـسن مـن الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولى النهي، وليس أحد من كبار الصحابة وأهـل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا خناً ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثـور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال سمعت رسـول الله ﷺ على المنبر يقول: " أصدق كلمة – أو أشـعر كلمة – قالتها العرب قول لبيـد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل " (٢)

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : " إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن مـا ترمونهم به نضح النبل " (رواه الترمذى وأحمد)

ولقد فقد الشعر معناه ومبناه عند كثير من شعراء الحداثة ومـا بعـدها فألفاظـه ومعانية تتسم عندهم بالاستغلاق والاستبهام ، وتفتقر إلى الفصاحة والإبانة والبيان ، لقد تحول الشعر إلى ألاعيب لفظية مجردة من قواعد اللغـة ومـن قواعـد الفـن الشـعري لا يربط بين الألفاظ رابط ولا يحكمها قانون ، وإذا انتقد هذا المذهب ناقد واتهم شعرهم بالاستغلاق والاستبهام رموه بالجهل والتخلف وقالوا : إن العيب فيـه وليس فيما يكتبون من ألاعيب لفظية ! ولن أطيل في هذا الموضوع لأنه – والحمد لله – لا يقرأ أدبهم سواهم فلقد أعرض الناس عن قراءة أدبهم فأصـبحت كتـابتهم موجهة لأنفسهم ولم يكتب لها قدراً من الذيوع والانتشار .

---

(١) الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود " موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة " ص ٢٣
(٢) " تفسير القرطبي " ج ١٣ ص ١٤٧ .

فن الموسيقا والغناء

ومما شاع في زمننا هذا شيوعا ليس له حد الموسيقا والغناء لدرجة جعلت المشتغلين بهذه الفنون لا يبارون في الشهرة والثراء مما أغرى كل عاطل أو باحث عن الشهرة والثراء أن يقتحم هذا المجال ويمتهن هذه المهنة مما جعل الغناء في السنوات الأخيرة طريقاً سهلاً للربح السريع والشهرة الواسعة فدخل هذا المجال دخلاء على الفن الجميل ليس بغرض حبهم للغناء وحرصهم على تقديم فن جميل بل بهدف الاسترزاق ، والعجيب أن هذه العملة الرديئة قد طردت العملة الصحيحة من السوق والمسئول عن ذلك أجهزة الإعلام التي ركزت على أصحاب الأصوات المنكرة والألحان المكررة فألفت أذن الشباب القبيح ، وتعودت عيونهم المنكر – الفيديو كليب – ففسدت الأذواق ، وانحلت الأخلاق ، نقول هذا حتى لا يظن الإنسان أن كل أنواع الغناء مباحة فيقبل عليها فيسقط في هوة الحرام .

أما الغناء الجميل المهذب للنفوس الخالي من المنكرات فإنه مباح خاصة في المناسبات السعيدة كالأعياد والأفراح بشرط إلا يقرن بمحرم أو يشغل عن واجب .

فقد سمع النبي الغناء وأمر عائشة بأن تكون هديتها لعروس ذات قرابة لها مغنياً يغنى لها .

وهاك الحديث الذي رواه ابن ماجة " عن ابن عباس قال "أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول اللّه ﷺ فقال أهديتكم الفتاة قالوا نعم قال أرسلتم معها من يغنى ؟ قالت : لا... فقال ﷺ : إن الأنصار قوم فيها غزل فلو بعثتم معها من يقول أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم." (رواه ابن ماجه)

وعن عائشة رضى الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ : " يا عائشة ، ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو . (رواه البخارى) ويشرح البخاري " اللهو " فيقول : اللهو مباح ، كضرب دف وغناء ليس فيه وصف للمفاتن وما يثير كوامن النفس ".

بل يعقد البخاري فصلاً عنوانه " سنة العيدين لأهل الإسلام " استهله بهذا الحديث" عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار، تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث[1] ، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال

(١) يوم بعاث يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج. وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج .

أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ : (يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا " (متفق عليه)[١] .

وورد عن بعض صحابة رسول الله سماعهم للغناء فقد جاء في الحديث الصحيح عن عامر بن سعد قال : " دخلت على قرظه بن كعب وأبى مسعود الأنصارى في عرس وإذا جوار يغنين فقلت أنتما صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل بدر يفعل هذا عندكم فقال اجلس إن شئت فاسمع معنا وإن شئت اذهب قد رخص لنا في اللهو عند العرس " (رواه النسائى والحاكم وصححه)

لكنا لسنا مع كل غناء فإذا كانت الكلمة خادشة للحياء فاحشة أو داعية إلى منكر ، وإذا كان الأداء فيه تكسر وتخنث ، وإذا صحب هذا الغناء رقص مثير فهو حرام بلا خلاف .

يقول د. يوسف القرضاوي :

" ومن اللهو الذي تستريح إليه النفوس، وتطرب له القلوب، وتنعم به الآذان الغناء ، وقد أباحه الإسلام ما لم يشتمل على فحش أو خنا أو تحريض على إثم ، ولا بأس أن تصاحبه الموسيقى غير المثيرة.

ويستحب في المناسبات السارة، إشاعة للسرور، وترويحا للنفوس وذلك كأيام العيد والعرس وقدوم الغائب، وفي وقت الوليمة، والعقيقة، وعند ولادة المولود ...

وقد روى عن كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم سمعوا الغناء ولم يروا بسماعه بأساً .

أما ما ورد فيه من أحاديث نبوية فكلها مثخنة بالجراح لم يسلم منها حديث من طعن عند فقهاء الحديث وعلمائه، قال القاضي أبو بكر بن العربي: لم يصح في تحريم الغناء شيء. "[٢]

إن الغناء المباح إذن هو الذي يثير العواطف النبيلة لا الغرائز الفاجرة ، كما يشترط فيه ألا يصاحبه محرم : كخمر أو رقص وأن ويؤدى بطريقة خالية من التكسر ، إلى جانب سلامة الكلام من المحرم والقبيح ،[١] .

---

(١) ولمزيد من التفاصيل على إباحة الغناء يرجع إلى فتاوى الأزهر الشريف ، " فقه السنة " للشيخ سيد سابق ، فتاوى د. يوسف القرضاوى ، وفتاوى الشيخ شلتوت ، والشيخ عطية صقر ، والشيخ محمد الغزالي ، وغيرهم ...

(٢) د. يوسف القرضاوى " الحلال والحرام في الإسلام " باب " في اللهو والترفيه " بتصرف .

أما الأغاني التي انتشرت في السنوات الأخيرة تحت عنوان أغاني شبابية أو حديثة فلا علاقة لها بالفن الجميل ولا الخلق القويم فقد خلت من المعاني الشريفة، ومن الأصوات الجميلة ، واشتملت على رقص فاجر ، وعرى فاضح ، وتكسر مثير ، والأغاني بهذا الشكل حرام حرام حرام فهى خالية من كل فن جميل متصفة بكل محرم وقبيح ، وبالطبع ليس كل المطربين هكذا فهناك أغان يحرص أصحابها على حسن اختيار الكلمات ، والألحان والأداء ، ولا تصاحبها مفاسد .

وإذا كان هناك من يبيح الغناء بأي شكل وعلى أية صورة فإن هناك من يحرمون الغناء جملة وتفصيلاً وإن كان غناء وطنيّاً أو احتفالاً بأعياد النصر !!

التصوير والنحت

فنكتفي بذكر فتوى الأزهر الشريف في حكم التصوير ، ونحت التماثيل وخلاصتها :

١- القرآن الكريم ذم عبادة الأوثان وردد قصص الأقوام الوثنيين السابقين ومواقف الأنبياء معهم.

٢ – التصوير الضوئي المعروف الآن للإنسان والحيوان والرسم لا بأس بهما متى كان ذلك لأغراض علمية مفيدة للناس، وخلت الصور والرسوم من مظاهر التعظيم ومظنة التكريم وإثارة الغرائز لارتكاب الفواحش والمحرمات.

٣- تحريم النحت والحفر الذي يكون تمثالا كاملا لإنسان أو حيوان.

٤ – آثار الأمم السابقة وسيلة لدراسة تاريخهم علميّاً وسياسيّاً وحربيّاً، وأخذ النافع من هذا التاريخ. وهذا يقتضى جواز إقامة المتاحف.

٥ – اعتبار الآثار سجلاً تاريخيّاً يلزم المحافظة عليه. لأنه من الضرورات العلمية.

٦ –جواز استعمال لعب الصغار ولو على هيئة تماثيل لتعليم الأطفال وتسليتهم"[٢]

نأتي إلى فن آخر شاع في زماننا وهو فن التمثيل .

---

(١) ولقد صرح أحمد زويل في حوار أجرته معه مجلة " آخر ساعة " المصرية بعد حصوله على جائزة نوبل بأن " كل اكتشافاتي العلمية توصلت إليها على صوت أم كلثوم " ولزويل جائزة سنوية للمواهب الشابة في الغناء العربي .

(٢) "فتاوى الأزهر في مائة عام " .

فن التمثيـــل

إن التمثيل من أهم الفنون التي تجذب الناس وتؤثر فيهم فهو فن مؤثر قادر علـــى التغيير والإصلاح متى قيد الله له رجالاً يخشون الله ويتقونه ، لكن مع الأســف أن هذا الفن الجميل سيطر عليه منذ نشأته الخلعاء والماجنون ، والفسقة ودعاة الغرائز الدنيا – إلا من رحم ربي – فحادوا به عن سواء السبيل لدرجة انه أضحى – فـــي كثير من الأحيان – عنواناً على الفسق والمجون والفحــش والــسفور ، وممــا زاد الطين بلة والداء علة أن أصبح هذا الفن الجميل قاصراً – في الغالب – على هــذه الفئة بعدما اكتفي الملتزمون دينيّا بأن حكموا عليه بالتحريم وعلى أصحابه بالفــسق والفجور ، حتى الذين كانون يعملون في هذا المجال وهداهم الله وتابوا هجــروه – في الغالب – ولم يحاولوا أن يصلحوا ما أفسدوه عــن طريــق هــذا الفــن الــذي يجيــدونه ! والعجيب أن المعــتزلين عملوا دعــاة للإســـلام وزاحمـــوا أهــل التخصص في مجال الدعوة !

وسوف نذكر أشهر الموضوعات التي اهتمت بها السينما وكيف عالجتهــا لنحــذر شبابنا من هذه الأفلام ونكشف ما فيها من فساد فكرى وخلقي ، لعلنا نــشارك ولــو بجهد يسير في إنقاذ شبابنا بل مجتمعنا من السموم التي تقدم له في شكل فن جميــل كما نحاول أن نشارك قدر استطاعتنا في مضمار أغلق دون أهله ولا تــسمع فيــه دعوى من غيرهم بحجة عدم التخصص وأنه لا دخل لعلماء الدين في الفــن ؛ لأن علماء الدين لهم ميدانهم وهو المسجد الذي لا ينازعهم فيه أحد فلا يؤم ناقــد فنــي الناس كما لا يصعد ممثل المنبر ، ورجال الدين كما سبق وأشرنا يكتفون بإصــدار الفتاوى بتحريم الفنون كل الفنون ويظنون أنهم بذلك قد أبرءوا ذمتهم أمام الله ، كما أنه لا يستطيع واحد منهم أن يدعى أنه من رواد السينما أو من مشاهدي الأفــلام – وإن كان من باب النقد – فهذا يتنافي مع مكانته الدينية ، وإن تحدث أحدهم عن أحد الأفلام أو المسلسلات اتهم بالرجعية والتخلف ، والتدخل فيما لا علم له به ، وبهــذا اتسعت الفجوة بين الفن وأهله ، وبين الدين ورجاله واكتفــي كــل مــن الطــرفين بالإساءة للآخر وضاع الناس بينهم فلا رجال الدين بينوا لنا المخالفــات الــشرعية التي تشتمل عليها الأفلام فنقتنع بوجهة نظرهم ، ولا أهل الفن قدموا لنا فناً نظيفــاً يبنى ولا يهدم .

وسأحاول – قدر جهدي ومبلغ علمي – أن أعبر حقل الألغام وأن أناقش مضمون أهم التيمات السينمائية بنظرة أتمنى أن تكون موضوعية لأني لا أزعم أنـــي رأيـت كل الأفلام ولا قرأت كل ما كتب عن السينما إنما أزعم أنى درست الأدب وفنونه ، ومذاهبه النقدية كما أزعم أنني متابع للحركة الفنية عموماً ، وأزعم أننـــي قــرأت وسمعت عشرات بل لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت مئات من المقالات النقدية لكبار نقاد الفن والمهتمين به .

حوار بين شيخ مستنير وناقد فني

وأحب أن أبدأ بالإجابة عن سؤال مهم وهو ، هل من حق رجل الــدين أن ينقــد عملاً فنيّاً ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نتخيل أن هناك حواراً بين ناقد نفي ورجل مـــن رجـــال الدين المستنيرين حول إجابة هذا السؤال .

الشيخ : نعم من حقه .

الناقد : كيف وهو غير متخصص في النقد الفني ؟

– إن رجل الدين عندما ينقد فيلماً ينقد فكرته أولاً ، ثم ينقد ما عساه يكون مخـــلاً بمبادئ الدين وقيمه .

– وما دخل الدين في الفن ؟! هذا له مجال مغاير لذاك .

– بالطبع الدين له دخل بكل أفعال الإنسان يقوّمها ويهذبها ، ويميز الخبيث فيهـــا من الطيب .

– الفنون والآداب تخضع لمقاييس فنية أدرى بها أهلها .

– الدين أنزله الله ليكون منهج حياة للبشر وليس فقط عبادة تؤدى ولا علاقة لهـــا بسائر حركة الإنسان .

– لكن هناك مساحة من الحرية أعطاها الله للإنسان لكي يستمتع بحياته {وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} (القصص : ٧٧) فالحياة ليست كلها عبادة إنما ساعة وساعة .

لقد شرع الله تعالى الدين لسعادة الإنسان في الدارين ، ولا تعارض بـــين الـــدين وكل لهو برئ ، إنما الدين يحرم كل ما هو خبيث { وَيُحِلُّ لَهُــمُ الطَّيِّبَــاتِ وَيُحَــرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ} (الأعراف : ١٥٧) ثم نأتي للآية التي اجتزأتها من ســياقها لــو ذكرتها كاملة لعرفت المراد بنصيب الإنسان من الدنيا وهو من الطيبات لا الخبائث

فإن النبي ﷺ كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ، ويشرب الماء البارد ، لكنه كان لا يشرب الخمر ولا يشاهد الرقص ، ولا يلعب الميسر .

– لكن من يحكم بكون هذا الأمر خبيثاً أو طيباً ؟! أن العملية نسبية تختلف من إنسان للآخر حسب تعليمه وثقافته وتربيته .

– لقد فصَّل الله تعالى المحرمات في كتابه العزيز وفي سنة نبيه الكريم ، ولم يمت النبي إلا وقد اكتمل الدين عقيدة وشريعة وعبادة ومعاملات وأخلاق .. " قد تركتكم على البيضاء. ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هلك. من يعش منكم فيسرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ. وعليكم بالطاعة." (رواه أحمد وابن ماجة والحاكم) .

– لكن معظم الفنون – إن لم يكن كلها – من محدثات العصر ولم يأت بشأنها نصوص تحرم أو تبيح .

– هناك مبادئ عامة معلومة من الدين بالضرورة وليس هناك مسلم حقاً يجهلها فضلاً عن أن ينكرها مثل : التبرج ، والعرى ، والتكسر في القول والسير ، ومشاهدة الأحضان والقبلات فضلاً عن ممارستها مع غير من لا تحل له عياناً جهاراً.. هذه من المحرمات في الإسلام فإذا اشتمل فن من الفنون عليها أو على بعضها يكون هذا المشهد مُحَرَّماً على من قام به أو شاهده .

–لكن أحياناً الضرورة الفنية تقتضى أن تظهر ممثلة تؤدى دور راقصة أو ساقطة متبرجة كاشفة عن مواطن الفتنة فيها حتى يصدق الناس أنها راقصة فليس من المعقول أن نأتي بامرأة منتقبة لتؤدى دور راقصة مثلاً ! إن التبرج والعرى والتكسر والأحضان والقبلات وما إلى ذلك إنما هي وسائل لتقديم فن هادف وليست مقصودة لذاتها .

– في الإسلام الوسائل تأخذ حكم المقاصد ، فلا بد أن يكون المقصد شريفاً ووسيلة الوصول إليه شريفة ؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة إذ يشترط الإسلام أن تكون الوسيلة مشروعة لغاية مشروعة فلا يصح أن أسرق من الأغنياء لأتصدق على الفقراء أو أتاجر في المخدرات لأبنى جامع " إن اللّه طيِّب لا يقبل إلا طيباً "

والفنان الناجح لو أراد أن يقدم النموذج المنحرف، يمكن أن يقدمه بلمسات لطيفة، كما في قصة يوسف عليه السلام، لكن معظم الفنانين الآن يُحسِّنُون الفاحشة.

ومن الممكن أن يكون الفيلم واقعيًا ويلمس الأشياء لمساً بين الانحراف دون الإغراق في تفاصيل تثير غرائز المشاهد وتبعده عن الهدف الرئيس. وقديماً قال البحتري : والشعر لمحٌ تكفي إشاره ... وليس بالهذر طولت خطبه

ويقول أيضاً : ومعانٍ لو فصلتها القوافي ... هجنت شعر جرولٍ ولبيد

لكن مع الأسف فإن كثيراً من الفنانين لا يكتفون بالإشارة إلى الانحراف بل يقصدون إلى إثارة الغرائز الجنسية قصداً .

– معنى ذلك أنك ترفض ظهور المرأة في الأعمال الفنية ، والاكتفاء بدور الرجال فقط !

– لا.. أنا لم أقل هذا إنما أقول إن ظهور المرأة في الأعمال الفنية يجب أن يكون كإنسانة تؤدى دوراً لخدمة المجتمع مكملاً لدور الرجل ومتمماً له ، لكن أن تقدم المرأة كأنثى أو كجسد ومهمتها في الفيلم تكمن في غواية الرجال ومهمتها في السينما تكمن في غواية المشاهدين فلا ، وللأسف الشديد لقد أساءت كثير من الأعمال الفنية إلى المرأة بتحويلها إلى جسد فاتن لتروج بها فكراً فاسداً وتثير به غرائز جنسية نائمة ، ولم تقدمها كإنسان يساهم في غرس القيم النبيلة .

– لكن هناك قواعد تعارف عليها أهل هذه الصناعة يجب أن تراعى ولا دخل للدين فيها .

– أولاً : الدين ليس ضد كل فن جميل هادف يرقى بالذوق ويدعو للفضيلة إنما الدين ضد كل انحراف وفساد ورذيلة . ثانياً : نحن مأمورون باتباع الله وليس اتباع أحد سواه ، وقواعد هذا الفن إنما وضعها من يختلف عنا في الدين واللغة والعادات والتقاليد .. فَلِم يجب علينا تقليدهم فيها ؟! ولِمَ نستورد من الغرب أفلامهم وأزياءهم، وانحرافهم ، وعاداتهم ؟ إن أغلب موضوعات السينما المصرية إنما هي مأخوذة من أفلام أجنبية تعالج مشاكلهم بما يتناسب مع قيمهم . فلم هذا الإصرار على التقليد الأعمى ؟ لماذا لا نستقى موضوعات الأفلام من واقع بيئتنا العربية الإسلامية ؟ كما نراعي عادات وقيم هذه البيئة في معالجتها . لماذا لا نعالج مشاكلنا نحن بالوسائل المناسبة لمجتمعاتنا بدلاً من استيراد معالجات لمشاكل غيرنا تجلب لنا المشاكل ، إن المُشاهد لأفلامنا يجد أنها – غالباً – مبتوتة الصلة بينها وبين

مجتمعنا، لقد استسهل المؤلفون فاقتبسوا أو سطوا على أفكار الأفلام الأجنبيــة ولــم يفكروا في تأليف جاد يعبر عنا ، واختار المخرجون نفس الطريق فأخرجوا بــنفس فكر أساتذتهم الأجانب ، وكذلك فعل الممثلون ، والنتيجة أن أصبحت أفلامنا مــسخاً مشوهاً كالغراب الذي أراد أن يقلد مشية الطاووس فلا هو أتقنها ولا هو استطاع أن يعود لمشيته !! .

لماذا لا تكون لنا شخصيتنا المستقلة النابعة من ديننا وأخلاقنا وبيئتنا ، إن الغرب تقدمت علومهم ، وانتكست أخلاقهم وفنونهم فلماذا نُصِرُّ على تقليدهم فيما انتكــسوا فيه ؟! لماذا لا نقلدهم فقط فيما برعوا فيه مــن العلــوم والمعــارف ؟! إن الفنــون والآداب وليدة بيئاتها ولا توصف بالتقدم والتخلف بعكس العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجية .. فلا وطن لها ولا جنس فإذا كان أحمد زويل يطرب لأم كلثوم فــلا ضير عليه إنما يضير الإنسان أن يجهل الكمبيوتر ويحفظ أغاني مايكل جاكسون !

- معنى هذا أنك تدين كل الفنون والآداب فكلها مبينة على أفكار ومــذاهب فنيــة أجنبية .

- الدين لا يبيح المنكر ولا يُقِرُّ القبيح ويحارب الفساد شرقيّاً كان أو غربيّاً ، فأهلاً بكل جديد في العلم والتكنولوجيا والفن الهادف ، لكن لا .. لكل فكر منحل لا خلــق له أو إباحي لا حياء له أو هادم لقيم المجتمع ودينه .

- إن المتصدي لنقد فن التمثيل مثلاً لابد أن يكون دارساً لفن الإخراج والإضــاءة والديكور والتمثيل والحركة ، .. . حتى يتسنى له الحكم علــى الأعمــال الفنيــة ، ورجل دين يجهل كل هذه الأمور بالكلية .

- معك حق أن أتفق معك إن ليس كل رجل دين بقادر على التصدي لنقد الأعمال الفنية إنما يجب أن يعود ذلك إلى اللجان المتخصصة (الرقابة) لكن على أن يكون لهذه اللجان معايير أخلاقية صادر بها تشريع من مجلس الشعب ومصدق عليه مــن رئيس الجمهورية حتى لا يترك أمر منع العمل الفني أو إباحته للهوى فيمنع فيلمــاً ينقد نظاماً سياسيّاً فاسداً ويُجَاز فيلمٌ يدعو للرذيلة ويشيع الفاحشة ! لابد من مقــاييس محددة تتفق عليها الأمة ولا يترك الأمر لهوي الفنانين أو الرقابة أو المــسئولين أو رجال الدين .

- يبدو من كلامك أنك غير راضٍ عن أي عمل فني .

- الحقيقة أن هنـــاك مسلسلات كثـــيرة ذات مضمون هادف كما أنها في الوقـــت نفسه ذات قيمة فنية عالية جداً مثل المسلسلات سورية التاريخية مثـــل : صـــــلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، والحجاج ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير وغيرها ،كما يعجبني من المسلسلات المصرية : عمر بن عبد العزيز ، عائلة ونيس ، أبـــو العلا البشري ، هي والمستحيل ، والشهد والدموع ، وإمام الـــدعاة .. وكثيـــر مـــن المسلسلات الدينية والاجتماعية .

- وماذا عن الأفلام ؟

- للأسف إن السينما تداعب منذ نشأتها الشباك كما أنها تستقى موضـــوعاتها مـــن أفلام غربية لذا فهي – غالباً – ما تضحي بالفضيلة في ســـبيل اجتـــذاب الجمهـــور وخاصة من المراهقين والمنحلين أخلاقيّاً وهذه هي الفئات التي تذهب إلى الـــسينما خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة ومع ذلك فإن هناك أفلاماً ذات قيمة فنية عالية كما أنها ذات قيمة أخلاقية – وإن كانت لا تخلو من بعـــض الهنـــات – مثـــل : عمـــر المختار ، في بيتنا رجل ، سواق الأتوبيس ، آخر الرجال المحترمين ، خـــرج ولـــم يعد ، العار ، جري الوحوش ، مافيا ، طباخ الرئيس ، عسل أسود ، وغيرها الكثير كما أن معظم الأفلام التي أنتجها التليفزيون المصري كانت أفلاماً جديدة لأنهـــا لـــم تستهدف الربح ولا إثارة الغرائز مثل : فوزية البرجوازية ، محاكمة علـــي بابـــا ، المراكبي وغيرها .

نقد لأشهر أفلام السينما المصرية

وبعد هذا الحوار المتخيل سوف نتناول بعض الأفلام الشهيرة بالنقد الذي أتمنى أن يكون موضوعيّاً .

نبدأ بالأفلام التي حققت أعلى الإيرادات في تاريخ السينما المصرية والتي لا يكف التليفزيون عن عرضها ليل نهار وأشهر هذه الأفلام فيلم "خلى بالك من زوزو" فهذا الفيلم يحاول أن يعلى من قيمة العمل والكفاح ويساعد الطبقات الدنيا على الارتقـــاء في السلم الاجتماعي كما يحاول أن يزيل الفوارق الطبقية ويستبدل بسؤال ابن مـــن أنت ؟ سؤال من أنت ؟ كما يحاول أن يدعم الطبقة الوسطى التي بدأ عودها يـــشتد

لتأخذ مكانها المستحق في المجتمع ، كما يسعى للقضاء على صلف وتكبر الطبقة الأرستقراطية ، لكن المعالجة السينمائية لهذه الأفكار التقدمية لم تكن على مستوى الفكر مما أضر أبلغ الضرر بالموضوع فانتماء البطلة " زوزو " إلى فئة العوالم ، وامتهانها لهذه المهنة المستهجنة من المجتمع أضعف موقفها كما أحرج من يدافع عنها ، أما مشاهد الرقص الخليع فقد قضت على الموضوع تماماً وجعلت المشاهد لا يخرج من الفيلم بفكرة تقدمية تدعوه للتفكير والتأمل ومراجعة أفكاره إنما يخرج بمشاهد مثيرة تدعوه للفساد والانحراف وإثارة الغرائز .

هذا هو الفيلم الذي حقق أعلى الإيرادات عند عرضه سنة ٧٢ هذا هو الفيلم الذي لا يكاد يمر شهر حتى يذاع على إحدى القنوات التلفزيونية المحلية ، فضلاً عن الفضائية ، وهذا ما جعل دعاة الدين يصمون الفنون كلها بالإباحية والفساد ، ويحكمون عليها جميعاً بأنها حرام ، ويحذرون الناس من مشاهدتها ، واكتفوا بهذا الموقف العدائي من كل الفنون ولم يفكروا أو يسعوا في وضع البديل السمين لهذا الفن الغث ؛ فضاعت تحذيراتهم سدى ، وانتصر الفن الهابط ، والفكر الفاسد ، فلا يكفي أن تلعن الظلام بل عليك أن تضيء ولو شمعة ، فأين هو الفن الإسلامي الملتزم البديل ؟!!

لقد اختار الملتزمون الخطابة الدينية ، والكتب الإسلامية ، وأخيراً السياسة والحكم ، واختار كثير من الخلعاء الفنون ، والآداب ، واختار العلمانيون الصحافة ، والإعلام ؛ واختار الناس الفنون ، والإعلام ؛ لأنه غزاهم في عقر دارهم ، ولأنه لعب على غرائزهم وشهواتهم ، ومن اختار الدين من المتنطعين تطرف – إلا من رحم ربى – وهذا هو المجتمع العربي والمصري .

وفي مقابل هذا التطرف الفني الذي يبيح المنكرات هناك تطرف ديني يقف على طرف النقيض فيحرم المباحات !

فإذا جئنا إلى فيلم آخر حقق أيضاً أعلى الإيرادات في السينما المصرية حين عرض سنة ٦٩ إنه فيلم " أبى فوق الشجرة " ذلك الفيلم الذي يحض الشباب على الاختلاط بدون ضوابط بل يحثهم حثاً على الوقوع في الرذيلة ، فبطل الفيلم – عبد الحليم حافظ وهو مطرب محبوب خاصة من الشباب – لم يكتف من حبيبته بالعبث الطائش (خلوة ، أحضان ، قبلات ..) إنما كان يطمع في المزيد فلما لم تستجب له

حبيبته رمى بنفسه في أحضان راقصة بغى وغرق حتى أذنيه في الرذيلة (خمـر ، وزنا ، وقمار..) وعندما تأتى حبيبته لانتشاله من هذا المستنقع الآسن يعلن لحبيبته أنه لم يتغير وأفكاره ما زالت كما هي ، وتعلن له حبيبته أنها تغيرت ومعنـى هـذا أنها على استعداد أن تجاريه في نزواته .

وإليكم نهاية الفيلم .

" عادل : أمال كان مشوار طويل يا أمال لكن أنا ما تغيرتش .

أمال : أنا اتغيرت يا عادل ."

فيطوقها بذراعيه ، وينتهي الفيلم بوابل من القبلات بين عادل وأمال .

هذا هو الفكر الذي يوجه للشباب والمراهقين ، ولقد الحـصى المراهقـون عـدد القبلات في الفيلم فإذا هي رقماً قياسياً لم يحطم حتى الآن !

أفلام اللمبي

وفيلم اللمبى الذي أنتج عام ٢٠٠٢ يعتبر علامة فارقه في تاريخ السينما المصرية من حيث أنه أثر على نوعية الأفلام المطلوبة في السوق وأظهر أن الأفـلام التـي تنتمي إلى النوع الشعبي هي الأفلام المطلوبة وبكثافـة، وقـد حقـق فـيلم أعلـى الإيرادات لدرجه أذهلت المنتجين وقد وصل أجر بطل الفـيلم لحـوالي ٦ ملايـين جنيه.

واللمبي شخصية شاب جاهل منحرف بلطجي لا يكاد يفيق من الـسكر طريقتـه الوحيد للحصول على ما يريد هي العنف والخروج على القـانون والآداب العامـة ولكن هذه الشخصية تقدم كنموذج لشخصية الفهلوي الذي يستطيع أن يحقق ما يريد ويحصل على ما يريد مما يجعله مثلاً يحتذى للشباب والمـراهقين ، وبعـد ذلـك نتعجب من شيوع الجرائم وكثرة المجرمين .

وقد تعرض الفيلم للكثير من الانتقادات الحادة من قبل النقاد لسوء وضعف قـصة الفيلم والسيناريو وذلك لأنه يكاد يخلو من فكرة رئيسة.

ولقد أصدر د. مدكور ثابت رئيس الرقابة على المصنفات الفنية المصرية قـراراً بإيقاف التصاريح لأي فيلم جديد عن شخصية اللمبي. وكانت الشركة المنتجة للفيلم " شركة السبكي للإنتاج " تنوي إنتاج سلسلة أعمال تحمل اسم شخصية " اللمبي" على غرار أفلام الممثل الراحل إسماعيل ياسين. (١)

---

(١) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢١ أغسطس ٢٠٠٢م .

ومع ذلك ونظراً للشهرة التي حققها الفيلم والمبلغ الخيالية التي جلبها فقد قدم منه عدة أفلام وهي " اللي بالي بالك " " واللنبي ٨ جيجا " بالإضافة إلى فيلم الناظر الذي ظهرت فيه هذه الشخصية لأول مرة .

كما أن أفلام محمد سعد الأخرى لا تختلف كثيراً عن شخصية اللمبي مثل : عوكل وبوحه وكركر وبوشكاش فقد ظل متمسكاً بمفردات " اللمبي" اللفظية والجسدية

هذه هي الأفلام التي حققت أعلى الإيرادات والتي يقبل الشباب على مشاهدتها وتقليد ما جاء فيها ، إن احتقار دعاة الدين للفنون وتحريمها أعطى الفرصة لأصحاب الهوى أن يسيطروا على أهم وسائل العصر تأثيراً في الناس وكان الأولى بها رجال الفكر الصحيح والخلق الرفيع ، والدين القويم أن يرتادوا هذا المجال .

إن الأفلام – وخاصة القديم منها – لا يكاد يخول بيت رجل ثري أو من الطبقة الوسطى من ركن خاص للخمر " bar " ولا يوجد بطل فقيراً أو غنياً إلا وشرب الخمر أو المخدرات والمفتِّرات فإن لم يكن عند الأزمات فعلى الأقل في ليلة الزفاف، هل هذا ما يعلمونه للناس عند الأزمات بدلاً من اللجوء إلى الله يلجئون إلى الشيطان ، وعند الزواج بدلاً من بدء الإنسان حياته الجديدة بطاعة الله يبدأها بمعصيته وأي معصية إنها أم الكبائر ؟!.

ولا يخلو فيلم من قبلات وأحضان ومشاهد جنسية ، وعرى ، ورقص خليع .

ولا يكاد يأتي برجل الدين إلا في صورة مزرية تدعو على السخرية والاستهزاء.

وإن إقامة الفتاة علاقة تشتمل على خلوة وأحضان وقبلات بمن تحب هي الوسيلة الوحيدة لاختيار الزوج المناسب . وأن الزواج على الطريقة القديمة وهى أن يطرق الشاب الصالح الراغب في الزواج باب بيت رجل صالح ليخطب ابنته التي لم يقم معها بعلاقة غرامية سالفة تخلف وجهل !

نأتي إلى فيلم يعد نموذجاً واضحاً على نوعية الأفلام التي تقدم للمشاهدين في التليفزيون هو فيلم يحبه الكثيرون ويظلون يضحكون على مشاهده الساخرة مدة عرض الفيلم ذاهلين عن مضمونه الحقيقي ورسالته الفاسدة إنه فيلم " الكيت كات " في هذا الفيلم لا همَّ لأبطاله الرئيسيين والثانويين أيضاً إلا ارتكاب الفواحش (زنا ،

وخيانة ، ومخدرات ، وخمر) ولم يظهر بجانب هذه الصور المشينة صورة واحدة لشخصية سوية بعيدة عن الانحراف ، شخصية آمن قلبها بالله وتطور عقلها وفكرها ليستوعب كل حديث وعملت جوارحها لبناء الوطن ورقيه ، لكن الصورة المقدمة لأبطال أفلامنا هي صورة الفاسقين أو المتطرفين فقط ، فماذا يقول من كان على قمة النقد السينمائي والمسئول عن الرقابة أيضاً عن هذا الفيلم : " فيلم داود عبد السيد " الكيت كات " واحد من هذه الأفلام التي تسمو بالإنسان وتعلى من قدره وتحترم طاقاته الخلاقة وتنتزع بالبهجة من أحراش الاكتئاب .. " (١) يخيل إليك أن الناقد السينمائي ورئيس الرقابة يتكلم عن دين سماوي لا عن فيلم سينمائي !! وهل هناك ثمرة ترجى من دين أكثر مما ذكر ؟! ثم يوضح لنا الناقد مقوِّمات نجاح هذا الفيلم فيقول " والنساء عند داود عبد السيد كلهن ضائعات أقرب إلى الخيانة وإن كان الفيلم يلتمس لهن الأعذار والدوافع ولا يحكم عليهن أحكاماً أخلاقية فحين نرى " حلاوتهم " زوجة سليمان الجواهرجي تفتح بابها للرجال وتصل ذروة المأساة بهروبها .. وفتحية زوجة الأسطى حسن " العليل" التي تخونه مع المعلم " هرم " وعواطف الأرملة أم حلاوتهم التي لا تأبه لهروب ابنتها من بيت الزوجية مادامت لم تعد إليها، وتتمنى الخلاص من فتاتيها الأخريين .. ولا تتورع عن الاستجابة لمداعبات الشيخ حسنى بل وتعده بلقاء في اليوم التالي . إن الفيلم رغم البعد اللا أخلاقي في سلوك شخصياته ينظر إليهن برحمة وتفهم لحاجات النفس والجسد وهو نفس الموقف الذي يقفه من الرجال . " (٢)

هذا نموذج لكثير من أفلامنا ، وهؤلاء هم بعض نقاد الفن عندنا ، وأنا لا ألوم هؤلاء فإذا كان المضمار خالياً من العدائين فلا تستغرب أن يفوز بالسباق الكسيح والأعمى .

ونحاول الآن أن نناقش أهم الموضوعات التي تناولتها السينما على مدى تاريخها وخاصة في مراحلها الأخيرة ونتصدى لما جاء فيها لنفتح الباب لمزيد من الكتابات في هذا المجال من أهل الفن الجميل وأصحاب الفكر المستنير ليكملوا هذا المشوار الطويل .

---

(١) على أبو شادي " كلاسيكيات السينما المصرية " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢١٠ .
(٢) المرجع السابق نفسه .

فمن الواجب مناقشة هذه الفنون فكراً بفكر مناقشة هادئة علمية بدلاً من الاكتفاء بوصمها بالفساد دون إقامة الدليل على ذلك مما يجعل هؤلاء يتمادون في غيهم ونحن نتوجه بهذه المناقشة أولاً لجماهير المصريين الساعية إلى الحق المحبة للفضيلة لكنها تتخبط في سيرها بسبب ضباب الزيف والخداع وركام الفكر العلماني، والانحلالي ، ثم نتوجه به إلى أهل الفن وكتابه ونقاده لعل الله أن يهديهم إلى سواء السبيل ويسخروا فنهم لخدمة وطنهم ويجدوا شيئاً نافعاً يقدموه بين يدي الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، كما نتوجه به إلى تلك الفئة الصغيرة من الفنانين والكتاب المخلصين الفاهمين لدور الفن في بناء المجتمع ورفعته ، ومحاربة السلبية والفوضى والجهل والرذيلة داعين الله أن يثبتهم على طريق الحق والخير والجمال .

أهم تيمات السينما المصرية

أهم التيمات التي قدمتها السينما هي : الشباب والحب ، المراهقة ، تجارة الرقيق الأبيض ، المحلل ، الانتقام ، الجنس كمحرك لأفعال الإنسان ، الإدمان ، تجارة المخدرات ، العاهرة الطيبة (البريئة) ، الاغتصاب ، التفريط في العرض للفوز بمن تحب . الحموات الشريرات .

وإليك بعض عناوين الأفلام لبيان أهداف القائمين على صناعة السينما : بنات إبليس ، بنت الهوى ، بنت حظ ، امرأة سيئة السمعة ، امرأة قتلها الحب ، امرأة من نار ، امرأة واحدة لا تكفي ، أحب الرقص ، إغراء ، ألف بوسة وبوسة ، اغتصاب، الأنثى والذئب ، الجسد ، الحب الحرام ، المراهقات ، المغتصبون ، مذكرات مراهقة ، امرأة لكل الرجال ، وكر الملذات ، الأحضان الدافئة ، حب المراهقة ، حالة مراهقة ، المراهقون الثلاثة ، درب العوالم ، كيد العوالم ، دلع البنات ، درب الهوى ، ديسكو ديسكو ، رغبات ممنوعة ، زوجة لخمسة رجال ، سوق النساء ، شوارع من نار ، سوق المتعة ، شلة مراهقين ، صائد النساء ، عبيد الجسد ، هي والرجال ، عشاق تحت سن العشرين ، عشرة بلدي ، نساء وذئاب ، نساء ضائعات ، فتاة شاذة ، لهيب الجسد ، نساء الليل .

وهذا ليس معناه أن غير هذه الأفلام أفلام تقدم الفضيلة إنما معظم الأفلام – مع الأسف – تدعو إلى الانحراف والرذيلة وتثير الغرائز وإن كانت يهدف بعضها – أحياناً – إلى قيم نبيلة .

حتى الأفلام الدينية فكلها نمطية صبت في قالب واحد فهي تبدأ بمشاهد لعبادة الكفار الأصنام ، وتركز في هذه المرحلة على ألوان الفجور بطريقة صريحة مباشرة مثيرة من خمر ورقص وعرى وشذوذ ، ثم تعرض لنا ألوان التعذيب ، وهي دائماً الصلب على جذوع النخل والجلد بالسياط ، والكي بالنار ، والسحل على رمال الصحراء الحارقة ، ثم تعرض لنا بعض مشاهد من الغزوات والقتال وجثث القتلى والدماء والأشلاء ، وينتهي الفيلم بنصرة الإسلام عسكرياً وهزيمة الكفار ، صورة كربونية واحدة مما جعل هذه الأفلام مملة ومنفرة ، لكن أن تبين هذه الأفلام – بفنية – جوهر دعوة الإسلام وكيفية علاجه لكل مشاكل العصر ، وأن تقدم صور صادقة للإيمان الحقيقي والخلق القويم ، وصور عميقة للبطولة العربية وأخلاق المسلمين مع أهل البلاد التي فتحوها .. فهذا ما لا يفكر فيه أهل هذه الصناعة بل ربما يتعمدون البعد عنه .

تيمة المحلّل .

ومن التيمات المخالفة للدين والأخلاق تيمة المحلِّل وهو الشخص الذي يتزوج بامرأة طلقت ثلاثاً ليحلها لزوجها رغم أن هذا ليس زواجاً شرعيّاً وإنما هو الزنا المحرم فإن أحد شروط صحة الزواج أن يكون الزواج بنية التأبيد أي عدم تقييده بوقت ينتهي فيه فإن قُيِّدَ الزواج بوقت فهو زواج باطل إلا أن السادة الفنانين أغرموا بهذه التيمة مؤكدين أنها طريقة مشروعة لإعادة الزوجة إلى زوجها مما ترتب عليه انتشار هذه الظاهرة بين الناس !!

ففي فيلم " زوج تحت الطلب " يسأل البطل – عادل إمام – المأذون هل هذا العمل حرام ؟ فيرد عليه قائلاً : لا إنما هو مكروه ، ويسأل البطل : يعني إيه ، فيرد عليه المأذون إنه كالطلاق حلال لكنه مكروه !!

مع أن هذا النوع من الزواج من الكبائر لحديث النبي ﷺ.

فعن عبد الله بن مسعود قال: " لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له "

(رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه)

وأخرج الحاكم والبيهقى عن نافع قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول ؟ فقال: لا .. الإنكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ " .

فإذا حدث ، وكثيراً ما يحدث ، أن طلق رجلاً زوجته ثلاثاً فإنه يأتي بمن يحللها له فهذا ما تعلمه من الأفلام والمسرحيات أنه حلال !!

فإذا جئنا إلى صورة رجل الدين الإسلامي فإنها تقدم بطريقة ساخرة تدعو للضحك لما يقوم به من تقعر في اللغة وغرابة في اللفظ وفي إهانة رموز الدين إهانة للدين نفسه ، حتى إذا ما ظهر بعض المتطرفين وجد الفنانون أن الفرصة قد سنحت لوصم كل متدين بالإرهاب وانهالت – وما زالت – الأفلام والمسرحيات والتمثيليات التي تحارب التدين والمتدينين عموماً ، وبالقطع نحن لسنا مع الإرهاب إنما نحن مع التدين المعتدل الذي لا أثر له فيما يقدم من أفلام .

تيمة الإرهابي

فإذا جئنا إلى أشهر فيلم قُدِّم عن الإرهاب نجد أنه يعرض صورة المتدين في أبشع صورة فهو شهواني ، متسلط ، متخلف ، جاهل ، سفاح ، وفي المقابل يطرح الفيلم البديل لهذا التدين – كما في فيلم الإرهابي – أسرة تتكون من أب وأم وثلاثة أبناء فإذا نظرنا إلى الأبناء وهم النموذج المحتذى به المقابل للشاب المتطرف الإرهابي نجد أن الابن شيوعي ويعلق في حجرته صوراً لرموز الشيوعية ، ولا يتورع عن شرب الخمر ، والابنة الكبرى فتاة رومانسية حالمة تقع في غرام الإرهابي – الذي تجهل حقيقته – لمجرد قراءتها للأشعار والكتب التي في الحقيبة التي وجدت معه وهى لا تلتزم بأي سلوك ديني معتدل في ملبس ولا في أداء العبادات المشروعة ، أما الابنة الصغرى فهي فتاة منحلة أخلاقيا وسلوكيّاً وهي نموذج لفتاة غربية لا علاقة لها بالإسلام ولا بشرعه ولا علاقة لها بأخلاقيات الشرق ، فإذا جئنا إلى الجار المسيحي فإنه نموذج للرجل الطيب الودود الشهم والعجيب أن هذه النماذج تقدم كبديل لنموذج المسلم المتطرف فإن كان بطل الفيلم متطرفاً حقاً فإنه يمثل فئة صغيرة جداً لا تذكر من مجموع المسلمين المتدينين الحقيقيين الذين يخافون الله أما النماذج المقدمة كبديل فهي نماذج متطرفة فكريّاً وسلوكيّاً .

حتى النقاد الفنيون لا يعجبهم طريقة معالجة التطرف الديني بتطرف خلقي تقول إحدى الناقدات عن فيلم الإرهابي :

الوصفة السينمائية لما سوف يأتي من أفلام في هذه المرحلة الزمنية التي نعيشها، تضع ظاهرة الإرهاب على قائمة العناصر التي تعتمد عليها تركيبة الفيلم . سوف تمتلئ الشاشة يقيناً بممثلين يطلقون لحاهم ويضعون أغطية فوق رءوسهم وينطقون بلغة عربية فصحى فتتحول لغتنا الجميلة إلى وعاء لقيء من أفكار ينزلق بسببها جماعات يتحول أفرادها إلى قتلة ينفذون جرائمهم مع سبق الإصرار والترصد ويملئون الشاشة بالدماء . . أدعو الله ألا تتحول الظاهرة التي ابتلينا بها على مسرح الواقع إلى تجارة يبيعها لنا السينمائيون على الشاشة وها هي السينما تقدم "الإرهابي" الذي يقوم ببطولته الفنان الظاهر عادل إمام وعلى عكس أفلامه السابقة يسقط البطل مع نهاية الفيلم صريعاً وبرصاص زملاء التنظيم الإرهابي وبرصاص جنود الأمن الذين يطاردونه .

وفي الوصفة الفيلمية التي ميزت الإنتاج السينمائي في مراحل سابقة ، كان العنف الفردي واللجوء إلى الساطور والبندقية لحسم الصراع ، من بين العناصر الضرورية في التوليفة السينمائية، وكانت إرادة البطل الفرد هي التي تحسم الصراع، وليس القانون ولا المكلفون بالدفاع عنه ، وكانت مظاهر الفساد السياسي والاجتماعي هي المادة التي تعتمد عليها حبكة الفيلم. باختصار لم يكن القانون هو الحل في التصدي لهذه المظاهر وإنما القتل والتصفية الجسدية للظلمة الفاسدين الشيء الذي يبشر بالفوضى ويمهد للإرهاب الذي نعانى منه الآن .

وفي فيلم " الإرهابي " البطل فقير ومحروم لكنه مضلل يمتلئ عقله بأفكار تحوله إلى أداة هدم وتخريب وإرهاب لكنه تاب وكفر عن خطيئته وأعلن براءته أمام أفراد العائلة التي أوته وأحبته وضمته إلى " واحتها " وارفة الظلال بعد أن يتخلص من مرارته . . يقدم الفيلم " عائلة " يعيش وسط أفرادها (الإرهابي) بعد أن ينتهي من بعض مهامه الإجرامية التي حددتها له (الجماعة) . . عائلة طبيب ثرى يعيش داخل فيلا جميلة مع أبنائه الثلاثة وزوجته . وكل واحد من هذه الأبناء يمثل اتجاهاً بعينه: محسن (إبراهيم يسرى) مهندس الديكور اليساري وفاتن (حنان شوقي) الفتاة (المودرن) وسوسن الرومانسية. . الأول يعلق على جدران حجرته صورة "جيفارا" أحد أهم الأبطال الثوريين في القرن العشرين ولينين الزعيم الروسي قائد الثورة البلشفية ١٩١٧ ومؤسس الاتحاد السوفيتي ، والذي يحمل اسمه مؤلف الفيلم . .

والثانية تعشق مادونا المغنية الأمريكية رمز الجنس ومعاداة كل القيم وعلى رأسها القيم الدينية والأخلاقية ومايكل جاكسون المغنى الأسود مغتصب الأطفال وعمرو دياب مطرب الأغنية الشبابية الحديثة والثالثة سوسن التي كانت قد صدمت الإرهابي بسيارتها وأتت به إلى فيلتها كي يعالجه والدها الطبيب فهي رومانسية "محلية" تحب عبد الحليم حافظ وعبد الوهاب وأم كلثوم ، صاحبة صوت حالم وعيون " ناعسة " أسرة ليست نموذجاً بأي حال لأسرة مصرية عادية كتلك التي هبط عليها الشاب الوطني الثائر في قصة إحسان عبد القدوس (في بيتنا رجل) ؟ إنها أسرة بلا مشاكل رغم أن كلاً من أبنائها يمثل " إشكالية" خاصة ، وبالذات شخصية فاتن فتاة الجامعة الأمريكية وممثلة الإعلانات التي تبدو مسخاً سخيفاً بسلوكها ومكياجها وملابسها استحضر حوارها مع (الإرهابي) ومسامرتها له وتعليقاتها بينما يلعبان الورق (الكوتشينة) ثم ثورتها ضده ثورة عامة عندما يتبسط معها يمد يده إلى ساقها العارية في مقدمة لإيذائها جسديّاً ، هذه الثورة تبدو مفتعلة وغير مقبولة أو مقنعة . أيضاً شخصية سوسن التي تنبهر بشخصية (الإرهابي) ظناً منها أنه أستاذ فلسفة ومؤلف أشعار رومانسية فضلاً عن كونه شخصاً حزيناً ورقيقاً ومن ثم تحبه وتتودد إليه وتجلس أمامه كي تحلق له ذقنه ثم تتحسس بأناملها وجهه، تمسحه بالعطر أو تطبع قبلة فوق خده، المفروض أنها بريئة ورقيقة ! هذه وغيرها سلوكيات ليست دارجة ولا هي من أصول الأعراف ولا التقاليد الخاصة بالفتاة المصرية العصرية والمتعلمة ، ولا هي ، وهذا هو المهم ، تمثل العوامل القوية التي تسهم في تغيير " أيديولوجية " الإرهابي التي تدفع به إلى القتل والسطو وإباحة أعراض وأموال المسلمين " الكافرين " !! فالنهاية في الفيلم نهاية تخيلية تدخل من باب الأمنيات والأحلام المستحيلة " [١]

قضية عادل إمام

أصدرت محكمة الجيزة يوم ٢٤ / ٤ / ٢٠١٢ حكمها على الفنان عادل إمام بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل والنفاذ كما قد كلفته بكفالة قيمتها ألف جنيه مصري.

وكانت التهمه الموجهة إلى عادل إمام أنه قد قام في مشواره الفني بأعمال يسخر فيها من الدين الإسلامي واللحية والنقاب وهذا الحكم قد جاء من دعوى قضائية قـدمها ضده أحد المحامين منذ عام ٢٠١١ .

(١) " موسوعة سينما العرب " اسطوانة ليزر " C D " شركة صخر لبرامج الحاسب .

وفور صدور هذا الحكم ثار الفنانون والعلمانيون من المثقفين وأعضاء اتحاد الكتاب والإعلاميون والنخب السياسية ضد هذا الحكم وطالبوا عدم الحجر على حرية الإبداع وعدم المساس بحرية الفنان في تقديم ما يشاء ، ونددوا بهجمة التيار الإسلامي على الفن والفنانين ، وتسابق كبار المسئولين في التيار الإسلامي إلى الدفاع عن حرية الفن والفنانين !!

وأعلنت نقابة المهن الفنية تضامنها مع الفنان عادل إمام، ضد حكم حبسه بتهمة ازدراء الأديان، وأصدرت بياناً جاء فيه : " تدين نقابة المهن الفنية الحكم الصادر ضد الفنان عادل إمام، وتعلن استمرار تضامنها معه في قضيته من أجل البحث عن حرية الإبداع الفني، خاصة في ظل الأوضاع السياسية السيئة، التي تمر بها مصر حالياً، في سابقة هي الأولى من نوعها في الوسط الفني، رغم احترامنا لأحكام القضاء المصري ".

ودعا مجلس إدارة النقابة كل شرفاء الوطن من مثقفين وفنانين وغيرهم للتضامن مع الفنان عادل إمام في قضيته، والمطالبة بإصدار تشريع يحمى الفكر والفن وحرية الإبداع.

وأعلنت النقابة انضمامها للمسيرات الاحتجاجية السلمية «حتى لا يتم تخويف المبدعين باسم الدين، وحتى لا يتم محاسبة الفنان سواء ممثل أو مؤلف أو مخرج، على آرائه السياسية والاجتماعية، لأنها في المقام الأول أعمال فنية تخضع لقانون الرقابة على المصنفات ."

وهددت النقابة بالدعوة لاعتصام مفتوح لجمع العاملين بالحقل الفني، في حالة تنفيذ الحكم على عادل إمام، أو إصدار أحكام تقيد حرية الفكر على أي فنان آخر، " حتى لا تفرض على الفن قيود باسم الدين ."

وفي سياق متصل، أعلنت لجنة الحريات باتحاد الناشرين المصريين تضامنها الكامل مع الفنان عادل إمام، واستنكرت ما سمته " التهم المرسلة " التي وجهت إليه من خلال الأعمال الفنية، التي تقمصها- حسب خيال مؤلفي هذه الأعمال . (١)

ونظم اتحاد الكتّاب وقفة احتجاجية أمام مقر الاتحاد بالزمالك تضامناً مع عادل إمام وحرية الإبداع .

---

(١) جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٢/٤/٢٦

وتبارت القنوات الفضائية في مناقشة الموضوع واستضافة الفنانين والمثقفين العلمانيين للحديث في هذا الموضوع .

ومع ذلك فقد أيدت محكمة الاستئناف الحكم السابق بسجن عادل إمام بسبب تهمة ازدراء الإسلام .

والحقيقة إن المتأمل في هذه القضية ليستولي عليه العجب فإن الفنانين والمثقفين العلمانيين الذين لا يكفون ليل نهار عن ترديد المطالبة بالحفاظ على مدنية الدولة واحترام الدستور والقانون ، واتهام التيار الإسلامي بالعمل على إقامة دولة دينية هؤلاء وأولئك هم من انقلب على الدولة المدنية والدستور والقانون ، أليس في الدولة المدنية من حق أي إنسان أن يرفع دعوى على آخر إذا بدر منه ما يسيء إليه أو إلى معتقده ؟ والقضاء المستقل الحر يفصل في الدعوى ، ومن الحق المتهم الاستئناف والنقض لكن ليس من حقه أو من حق غيره التعليق على أحكام القضاء .

ولكننا فوجئنا بدعاة الدولة المدنية يعلقون على أحكام القضاء بل ويتظاهرون ضدها، ويهاجمون التيار الإسلامي بدعوى فرض أفكارهم الرجعية على الفن مع أن التيار الإسلامي لم يرفع الدعوى ، والتيار الإسلامي لم يصدر الحكم ، إنما الذي أقام الدعوى محام لا ينتمي لجماعة دينية إنما أحس بأن بعض أفلام عادل إمام تسيء إلى الدين الإسلامي دين غالبية الشعب المصري وكأي رجل متحضر لم يلجأ إلى العنف والإرهاب بل لجأ إلى القضاء ، والقضاء هو الذي أصدر الحكم ،ففيم أخطأ الرجل ؟ ولماذا ثار هؤلاء ضد التيار الإسلامي ؟! إلا إذا كانت ثورتهم لهدم الدولة المدنية بإرهاب القضاة والاعتراض على أحكامهم ، وعدم الالتزام بها .

ثم هل هذه هي أول دعوى تقام ضد عادل إمام ؟

والحقيقة أنه أقيمت ضده دعوى سنة ١٩٨٣م أقامها ١٥٠ محامياً بسبب فيلمه "الأفوكاتو" وطالبوا بوقف عرض الفيلم وحصولهم على تعويض مؤقت ١٠١ جنيه، لأن الفيلم يصور رجال القضاء والمحاماة – وليس الإسلام ! – بصورة غير لائقة ويصفهم بأنهم مرتشون وأفاقون وأن الفيلم يسيء إلى سمعة مصر ووصلت القضية إلى القاضي مرتضى منصور وشاهد نسخة الفيلم ، وأصدر وقتها حكماً بحبس كل من رأفت الميهى المخرج وعادل إمام بطل الفيلم سنة مع الشغل وكفالة عشرة آلاف جنيه .

وكان القرار من كبار المسئولين في العهد البائد بوقف تنفيذ الحكم، وهنا أعلن القاضي مرتضى منصور استقالته من منصبه كقاضي في واقعة غير مسبوقة من على منصة القضاء وقبلها كان قد أرسل استقالته إلى كل الصحف. احتجاجاً على عدم احترام قدسية المهنة .

ونحن على أعتاب الجمهورية الثانية لا بد أن نقرر مبادئ حاكمة يجب أن يلتزم بها كل الناس : حكاماً ومحكومين ، فنانين وغير فنانين إعلاميين وغير إعلاميين أن حرية الرأي والفكر والإبداع مكفولة لكل الناس لكن دون ازدراء دين أو هجوم على أشخاص وطنيين أو الإضرار بمصالح الوطن والمواطنين ومن تجاوز ذلك من أي الفئات فمن حق من وقع عليه الضرر اللجوء إلى القضاء ، ويجب أن ينصاع الكل لأحكام القضاء .

ولا ينبغي أن يستثنى من هذا أي فئة أو جهة أو طائفة أو مهنة فالقانون يجب أن يخضع له الجميع ، لكن إذا أساء إنسان إلى مقدس أو أخطأ في حق غيره أو في حق المجتمع يقدم إلى المحكمة فإن كان فناناً أو أديباً أو إعلاميّاً أو من رجال النظام فيترك لنقابته أو مؤسسته الحكم عليه فهذا إخلال بميزان العدل فينبغي أن يكون الكل أمام القانون سواء .

تيمة الاغتصاب .

نأتي إلى تيمة أخرى وهى الاغتصاب فإذا وقعت جريمتا اغتصاب لفتاة المعادى ، وفتاة العتبة – وإن أظهرت النيابة بعد ذلك براءة المتهم فيها – فإن أهل الفن وجدوا ضالتهم في هاتين القضيتين فراحوا ينتجون الأفلام التي تتحدث عن الاغتصاب وليتهم عالجوا هذه الظاهرة علاجاً يبغض الناس فيها وليتهم عرضوا هذه القضية عرضاً فنيّاً بعيداً عن الإثارة لكن للأسف فإنهم قدموا صورة الاغتصاب في شكل مثير يروج له ولا يحذر منه ، وهذا ما يذكرنا بالأبحاث التي كشفت أن تناول الأفلام لموضوع المخدرات وتجارها قد ساهم في رواج المخدرات بدلاً من التنفير منه !!

وإليكم رأى أحد نقاد الفن لفيلم اغتصاب نقدمه لكم من باب " وشهد شاهد من أهلها ".

أمامي نموذج لسينما الثمانينات الرديئة – فيلم اغتصاب – حيث تتشكل تركيبة ليست متجانسة أو مقبولة من عناصر الدين والجنس والعنف . تلك الخلطة المحفوظة التي تشكل بدورها جانباً كبيراً من صناعة أفلام الثمانينات بعد أن تراءى في الأفق الاجتماعي الجنوح إلى الدين كمهرب وملاذ من أزمة اقتصادية وأخلاقية طاحنة .وحيث يطفو فوق التيار شخصيات لا تهرب من أزمة وإنما تستغلها وتحولها إلى فرصة للمغانم باسم الدين ، وحيث يشذ بعض الهاربين من الفتك الاجتماعي فيصلوا بهذه النزعة إلى حد التطرف وقد يلجأ آخرون منهم إلى العنف لفرض وصاية ليست مشروعة ولا علاقة لها بالدين في شيء . . وكالعادة تأهبت السينما بعد أن فتحت لها الإشارة ورأت النور الأخضر للانقضاض على الظاهرة الدينية من ناحية وعلى ما أفرزته مرحلة القلق الاجتماعي من بعض مظاهر عنف أخذ أشكالاً متعددة كالاغتصاب أو قتل الأزواج من ناحية ثانية . . وبالأسلوب الاستهلاكي شديد السذاجة والفجاجة قدمت هذه السينما إنتاجها من الأفلام التي تجدها أحياناً تتملق الظاهرة الدينية وتنساق وراء أيديولوجيين ينتمون إليها وتتملق السلطة بتقديم أشكال شائهة ومنفرة من تجار الورع الأفاقين والمنافقين والاستغلاليين في أفلام عن توظيف الأموال وعن حوادث الاغتصاب وعن تجارة المخدرات إلخ وامتلأت الشاشة بالمحجبات ولم تتخل عن الداعرات وسالت الدماء ولم ينس المنتجون صوت الآذان والذين يتزاحمون لأداء الصلاة ولم يخرج من بين هذه البضاعة الاستهلاكية سوى عدد محدود جداً من الأفلام التي يمكن أن تنتزع عنها صفة الزيف والاتجار في أوجاع الناس وأمراض المجتمع التي يعانى منها . قطار الملذات وفيلم " اغتصاب " من الأفلام التي ترى في الدين علاجاً من العنف والأزمة الجنسية والنفسية تعتبره تعويذة تصون صاحبها من المغتصبين والنصابين وربما كان لوجهة النظر هذه احترامها لو جاءت في سياق مقنع وصادق . . لكن الفيلم يصل إلى واحة الدين مستخدماً قطار الملذات الحسية الحيوانية، وقبل أن يهدئ الغرائز بذكر الله وتقواه يكون قد شعللها لسيقان النساء ومؤخرتهن وقبل أن يهيئ العقول لفهم الدعوة الدينية الهادئة والعميقة التي تتجسد في مشهد الجامع والشيخ الجليل الذي يهتدي بكتاب الله عز وجل يكون قد طمس عقول المتفرجين واحتقرها بأحداث ومواقف ومثيرات لفظية وبصرية تفترض تخلفهم وتجردهم من

أي حس أخلاقي .. ولو كان الدين مجرد صلاة ولحى وذقون ودعــوات تــتم فـــي لحظة ضعف أو شعور بالحاجة لكان مجتمعنا الآن في ازهي حالاته وأكثرها سمواً .. ويكفي النظر إلى كل هذا الحشد المهول من المصلين الــذي يملئــون شــوارع العاصمة ومدن البلاد وقراها حتى نطمئن ونعتقد أننا أقمنا بالفعل مدنا فاضلة عامرة بالإنتاج من عرق أبناء الوطن المخلصين وظاهرة خالية مـــن تجـــار المخـــدرات وحوادث الاغتصاب وعمليات السطو على أموال الناس وشراء ذممهم إلـــى هـــذه البضاعة التي تبيعها السينما في الأفلام التي تتاجر بـــالغرائز وتـــستفز المـــشـــاهد وتحبب إليه العنف وتســـليه بمشاهد العرى وأجساد النســـاء ثم تهمس له بموعظـــة كاذبة في النهاية " اغتصاب ومغتصبون " و " اغتصاب " مثل المغتصبون إعـــلان صريح عن ركوب موجة الجنس المرضى العنيف ، وهو إعلان موجـــه للجمهـــور لتشجيعه يقول مدير السينما التي تعرض الفيلم : كثير من المتفرجين يـــأتي لاســـم الفيلم لكنهم يخرجون بعد العرض غاضبين ! غاضبون لأن الفيلم أقل إثارة وسخونة من قرينه المغتصبون مع أن الاثنين يوضعان في سلة واحدة كبضاعة تنتمـــي إلـــى مصنع واحد . . الفارق يكمن في قوة التركيبة .والذي لا أتصوره أن يعتقـــد كتـــاب هذه الأفلام ومخرجوها أنهم يقدمون شيئاً ذا قيمة تتجاوز فكرة التـــسلية بـــالطريق الخالية من الذوق أو الجمال مع أن العقد المبرم بين صانع الفيلم ومتفرجة صـــريح للغاية ومعلنا عنه في اختيار العنوان وفي الصورة المرســـومة علـــى الإعـــلان . ضوافرها هرشت مخى ويحاول فاروق سعيد كاتب الفيلم أن يضاهى كتاب الحـــوار عندنا (شريف المنياوى – مصطفي محرم – وحيد حامد – ومحمود أبو زيد) إلخ هؤلاء المولعون بصك لغة حوار فيلمي خاصة جداً لا علاقة لها بلغة أبناء البلـــد ، ولا بلغة الفتوات أو رواد الغرز والمواخير ولا بتلك اللغة المتداولـــة بـــين النـــاس العاديين في الشوارع والأسواق ، ربما كانت هلوسة مساطيل غـــابوا بالفعـــل عـــن الوعي .. وأعتقد أن هذا النوع من الإنتاج السينمائي تتحـــول المـــشاهد فيـــه إلـــى مجموعة من النمر المستقلة مجرد تمثيليات فكاهية قصيرة تسلى المتفـــرج لا يهـــتم فيها المخرج أو السيناريست بعنصر البناء والمتكامل للعمل الفني الذي يعتمد علـــى لغة الصورة وارتباطها العضوي بما سبقها وما يلحق بها من صور وبالتالي فالبنـــاء هنا يبدو مهلهلاً رغم عنصر التوليف الجنسي إذا صح التعبير والانتقال من صـــورة

حسية لسيقان امرأة مثلاً إلى صنبور مياه له مدلوله الجنسي إلى صور نساء معلقة على الحائط وشاب يرقد تحتها إلخ فربما كان هذا هو الخيط الممتد الذي يربط بين بعض هذه النمر.. وقس على هذا باقي مشاهد الفيلم بدءاً من البداية داخل أتوبيس النقل العام إلى مشهد ورشة الميكانيكا إلى جراج السيارة والسايس المهووس بأجساد النساء إلى مشهد السيارة التي تحمل المسافرين إلى البدرشين وسائقها الحشاش وكل هذه المشاهد التي يتحول فيها الناس العاديون إلى أوغاد أمام بلطجة النصاب وينهزم الصوت الوحيد العاقل أمام ضربات رفاق المواخير والغرز وتصل بنا إلى نهايات سعيدة ساذجة مشاهد لا يدعمها سياق مقبول أو تشخيص مقنع للشخصيات أو عنصر إقناع من أي نوع كان فكرياً أو بصرياً أو سمعياً . (١)

تيمة البغاء وتجارة الرقيق الأبيض .

إما تيمة البغاء أو تجارة الرقيق فإنها من الموضوعات الأثيرة لدى صناع السينما، وهى إما تجعل المشاهد يتعاطف مع الساقطات لأن ظروف المجتمع قد أجبرتهن على احتراف هذه المهنة ، أو تجعل المشاهد مفتوناً بهذا العالم ويسعى لدخوله وعدم الاكتفاء فقط بمشاهدته .

وإليكم ما كتبه أحد النقاد الفنيين عن فيلم يمثل هذه النوعية من الأفلام وهو فيلم "سوق النساء " :

قضية مستهلكة القصة ملفقة عنوان الفيلم مدخل مادته الموضوعية : " سوق النساء " بقول آخر : تجارة الرقيق الأبيض . وبتعبير أكثر تجارية : الدعارة وبصراحة أكثر وأكثر " الجنس أقدم مهنة في التاريخ . . أحد الموضوعات المحببة الرائجة والشائعة منذ بداية اختراع السينما وحتى الآن ! وفي كل عصر من العصور يأخذ هذا الموضوع أبعاد الزمن الذي يدور فيه ، ويكتسي بالثوب "الموضة" الذي يرضى مزاج المستهلك .. لقد فاجأنا المخرج المؤلف بأن بطله الذي يتاجر في أجساد الجميلات وتصديرها إلى المغرمين بهذا الطبق الشهي ، مريض نفسياً ويعانى من تشوهات خلقية وأن وجهه الوسيم أقرب إلى وجه الشمبانزى. وقصة الفيلم تقدم محررة حوادث تفاجأ أثناء تغطية حادث انتحار إحدى الفتيات بأن

---

(١) " موسوعة سينما العرب " اسطوانة ليزر " C D " شركة صخر لبرامج الحاسب .

الشابة المنتحرة ليست سوى شقيقتها الصغرى ، وتفهم من تحقيقات البوليس أن للجريمة علاقة وطيدة بنشاطات منافية للآداب . وبينما تدفع هذه الشابة محررة الحوادث ثمن انتحار شقيقتها والسمعة السيئة التي لحقت بها وبالأسرة عموماً ، نجدها تصر على مواجهة هذا كله باقتفاء أثر المجرم الذي دفع شقيقتها إلى هذه النهاية ، مستخدمة سلاح الجمال ، والجسد أيضاً لإيقاعه ومن ثم تسليمه إلى مصيره فالغاية إذن تبرر الوسيلة ، ولا بأس من اعتماد المؤلف في توليفة لأحداث الحبكة رغم موضوعها المستهلك إلى كل الأساليب التي تحول المحررة الصغيرة إلى غانية شريفة .(١)

تيمة المراهقات

تاريخ السينما حافل بتيمة المراهقات ليس على مستوى التناول فحسب بل على مستوى عناوين الأفلام التي استنفدت جميع كلمات مادة " رهق " وإليك ثبتاً ببعض أسماء هذه الأفلام : المراهقون ، المراهقات ، المراهقون والمراهقات ، المراهقة ، المراهقون الثلاثة ، حب المراهقة ، حالة مراهقة ، مذكرات مراهقة .. ولماذا هذا الإصرار على هذا الموضوع ؟ ليس بالطبع الهدف هو معالجة هذه المرحلة العمرية الخطيرة في عمر الإنسان ومحاولة عبورها بسلام ، إنما ببساطة إن هذا المصطلح إذا وضع عنواناً على فيلم فإن معناه مجموعة من الفتيات الشابات الجميلات الفاتنات غير المستهلكات سيقمن بمغامرات مليئة بمشاهد الحب والجنس والحركات المثيرة فلا هدف – في نظر أصحاب هذه الأفلام – للمراهقات إلا كل ما يتعلق بالحب والجنس والإثارة وهى مادة محببة لرواد السينما من الجنسين خاصة إذا كان من يقوم بهذه الإثارة شباب صغير السن رشق الجسم بهى الطلعة .

وإليكم هذا التحليل الفني لفيلم من هذه النوعية الموجهة للشباب والمراهقين وهو فيلم " ديسكو ديسكو " .

مشكلة الفيلم " الهادف " أنه يلجأ إلى تحقيق هدفه باستخدام العناصر ذاتها التي يزعم صانعوه إدانتهم لها فتكون النتيجة عمل زاعق النفاق يروج للرذيلة بينما يدَّعي الذود عن الفضيلة ! ! وفيلم " ديسكو . . ديسكو " من هذا النوع سواء وعى

---

(١) " موسوعة سينما العرب " اسطوانة ليزر " C D " شركة صخر لبرامج الحاسب .

صانعوه هذه الحقيقة أم لا ... توافرت للفيلم مشاهد لمناظر الرقص داخل صالة الديسكو مصحوبة بحركات الشباب الصاخبة والمجنونة على اعتبار أنها مظاهر سلبية لحياة الشباب وفي نفس الوقت عناصر ترفيهية للمتفرج على الفيلم مع أن الحقيقة التي أغفلها الفيلم هي أن الولع بهذه الموسيقى المستوردة جاء وانتشر مع ثقافة التهجين وعمليات التغريب المتصلة التي تدخل ضمن عواملها المنشطة هذه المدارس التي تدار بواسطة " مسز فلانة " أو " مسز علانة " أيا كان الاسم . وهذا الاستخدام النفعي المزدوج ينطبق أيضاً على أسلوب التناول لعناصر الجنس الطبيعي والمنحرف – والعنف بأشكاله فإذا أضفنا إلى ذلك كله الفهم القاصر في تصوير الفيلم لشخصية المتطرف " حسنين " برغباته الحيوانية إزاء النساء وتعامله مع شقيقته كأنثى " كافرة " تستحق القتل لاكتشفنا قصور الفيلم نفسه في معالجة هذه الظواهر العديدة بصورة مقنعة ومنطقية وربما اقتنعنا أيضاً أنه كما يقول المثل الشعبي " العيار اللى ما يصبشى . . يدوش ."(١)

تيمة الفتوة .

التوليفة السينمائية لهذه التيمة هي إرادة البطل الفرد هي التي تحسم الصراع ، وليس القانون ولا المكلفون بالدفاع عنه . وهى من التيمات الشهيرة في الأفلام التي تدعم البلطجة والعنف فلكي تحقق ما تريد فعليك أن تملك القوة البدنية لإخضاع الناس لاحترامك والانقياد لك ، يقال هذا لنا بدلاً من تعليم الناس أن القوة الحقيقة هي قوة الإيمان ، وقوة الأخلاق هذه القوى البناءة التي يتفاضل بها الناس { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } (الحجرات : ١٣) مما يدعم مقاييس الحق والخير والجمال في المجتمع بدلاً من تدعيم قيم البلطجة والفتونة ، ولا يوجد فيلم إلا والبطل فيه يستخدم القوة في الحصول على ما يريد أو لمواجهة أعدائه .

تيمة الانتقام

وهى من أشهر التيمات في السينما المصرية وهى تسير على نمط واحد البطل رجل طيب لكنه يغدر به فيقرر الانتقام ممن غدروا به ويتحول بقدرة قادر إلى سفاح معتاد الإجرام ولا يترك الأمر لولى الأمر ليأخذ له حقه وهى تيمة تعود بنا

(١) " موسوعة سينما العرب " اسطوانة ليزر " CD " شركة صخر لبرامج الحاسب .

إلى العصر الجاهلي حيث عادة الثأر والتي أتى الإسلام ليبطلها و يضع أمر القصاص بيد ولي الأمر وليس للمعتدى عليه { وَلَكُمْ في الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (البقرة : ١٧٩) { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ } (المائدة : ٤٥)

ومثال ذلك : أمير الانتقام ، ورصيف نمرة خمسة ، وأمير الدهاء ، ودائرة الانتقام ، والظالم والمظلوم ، واحد من الناس .. وهذه الأفلام – وغيرها كثير – مأخوذة عن قصة فرنسية لإسكندر ديماس هي " الكونت دي مونت كريستو "

أما الانتقام بالنسبة للمرأة فيأخذ شكلاً آخر هو شكل المكر والدهاء فإذا غُدِر بالمرأة فإنها تقوم بالتمثيل على من غدر بها وتوهمه بأنها تحبه حتى توقعه في غرامها مستخدمة كل أسلحة المرأة وإما أن تنتقم ممن غدر بها في النهاية أو تتعاطف معه وتحبه إذ تكتشف إنه مظلوم وضحية مثلها كما في فيلم " دماء على النيل " لهند رستم وفريد شوقى أو فيلم " دعاء الكروان " لفاتن حمامة وأحمد مظهر، وأحيانا تجمع بين استخدام القوة مع أعدائها إلى جانب استخدام الغواية مثل فيلم "المرأة الحديدة " لنجلاء فتحي .

وفي السنوات الأخيرة دخلت تيمة قتل الأزواج بالساطور مما زرع الشك في صدر الأزواج ، وأغرى الزوجات بالانتقام من أزواجهم بالقتل لأقل الأسباب !!

تيمة الحب

وتيمة الحب في السينما المصرية تدعم مبدأ أن الحياة هي الحب والحب هو الحياة ولابد للشاب أن يمارس هذه العاطفة وأن يجعلها هي محور حياته وغايته من هذه الحياة وليضحى بكل ما يملك من أجل من أحب !!

ولا عجب أننا أن نرى صبياً أو صبية – فضلاً عن الشباب – لا يحلم بالحب وبالسعادة التي سيجنيها من وراء إقامة علاقة مع الجنس الآخر وألا يكتفي من محبوبته بمجرد النظرات البريئة ولا حتى الجلسات الرومانسية إنما يريد أن تمتد العلاقة حتى الفراش تماماً كما يرى في الأفلام .

أما مستقبله ومستقبل بلاده ، ودينه وأخلاقه والحلال والحرام ، والجنة والنار فهذا مما لا يخطر له على بال ، وإن خطر فهو لا يفعل حراماً فكل أبطال السينما

المحبوبين يفعلون هذا وأكثر ولا يتهمهم أحد بأنهم يرتكبون مخالفات شرعية ، حتى وإن كان هذا حراماً فإنه لا يستطيع الاستغناء عنه لقد تربى على هذا وتفتحت عيناه عليه ، وفي النهاية يقولون له حرام إن من يحرمون هذه العلاقات والمخالفات الشرعية متزمتون وإرهابيون وعندهم مركبات نقص – كما تصور الأفلام الملتزم الذي يحرم مثل هذه العلاقات بأنه عنده مركب نقص فيحرمه على غيره ويفعله هو في السر – وأخيراً إن استطعنا أن نقنع واحداً بأنه حرام فإنه يقول كما قال أبو نواس عن الخمر

وإن قالوا حرام فقل حرام ولكن اللذاذة في الحرام

تيمة تفريط الفتاة في عرضها

ومن هذه الأفلام التي تناولت هذه التيمة فيلم " موعد مع السعادة " لفاتن حمامة وعماد حمدي ويحكى الفيلم عن إحسان تلك الفتاة الفقيرة التي تعيش مع أبيها في منطقة البحيرات الذي كان يرعى منزل أحد الأثرياء- عماد حمدي – الذي يحضر في أوقات متفرقة لاصطياد البط تقع إحسان – فاتن حمامة – في حب الشاب الثرى الذي لا يشعر بها مما يضطرها للتزين له لتوقعه في غرامها وبالفعل يستلفت نظره جمالها وتفرِّط له في شرفها وهو فاقد الوعي من شرب الخمر وعندما تكتشف أنها حامل تهرب إلى القاهرة وتلد طفلتها ، ويسافر الشاب إلى أوربا لاستكمال دراسته دون أن يعلم بحمل إحسان منه ثم يعود ليصبح طبيباً مشهوراً ويعمل في نفس المستشفي التي تعمل فيها إحسان ممرضة ويتزوج بها ويعترف بابنته منها !

هل يعقل أن الفتاة الفقيرة الجاهلة مسلوبة الشرف أن تتزوج بشاب ثرى دارس للطب في أوربا وينتمي إلى أكبر العائلات ؟!

الفيلم يجيب عن هذا التساؤل نعم يمكن أن يحدث هذا بشرط أن الفتاة تحب الشاب وتضحي في سبيل حبها له حتى بشرفها ، أهذا ما تعلمه السينما لبناتنا أن يكون التفريط في العِرض محققاً للأماني المستحيلة بدلاً من تدميره للمستقبل المضمون ؟!

ونفس هذه التيمة في فيلم " ليلة من عمري " لنفس البطل عماد حمدي لكن هذه المرة مع شادية الأعجب أن الفيلمين أنتجا في نفس العام ١٩٥٤م وقصة فيلم " ليلة من عمري " تحكى أن فتاة تعمل في حقل من حقول العنب تقع في حب ابن صاحب

العزبة ويتورطان في علاقتهما وتحمل منه ويسافر إلى أوربـا للدراسـة وتطـول غيبته، ويكتشف أبوها ما حدث بعد أن تظهر عليها علامات الحمل يهرب بها الأب إلى إحدى قريباته ، وتلد الفتاة مولودها ثم تعود إلى البلدة وستفسر عن أخبار حبيبها وبعد حين يعود ويتزوجها !!

نفس القصة ونفس البطل ونفس العام وأكاد أجزم أن هذه القصة مأخوذة من فـيلم أجنبي اشتهر في ذلك الوقت فهرول صناع السينما – كما هي عادتهم دائماً – إلـى تقديم نفس الفكرة دون مراعاة لقيم المجتمع العربي الشرقي المسلم !

نفس القصة قد تكررت بشكل أسوأ في فيلمين لم يفصل بينها إلا عام واحد وفكرة الفيلمين ببساطة – أو بوقاحة – أن فتاة تقيم علاقة بشاب تفقد على أثرهـا شـرفها ويسافر الشاب وتحمل الفتاة يشفق عليها رجل ميسور ويتزوجهـا ويحـسن إليهـا ويربى لها ابنها ، ويعود الشاب الذي ما تزال الفتاة تحبه – رغم زواجها بغيـره – ويكتشف الزوج هذه العلاقة فينسحب بهدوء تاركاً زوجته وولدها لحبيبها القديم الذي هتك عرضها وتركها وهرب ، ويتنازل الزوج الطيب عن زوجتـه لهـذا الـشاب الطائش الفاجر رغم حبه الشديد لزوجته !!

هذه الفكرة القذرة بل المدمرة للفضيلة والمأخوذة عن قصة أجنبية مقتبـسة عـن قصة الكاتب الفرنسي مارسيل بانيول ، كالعادة ، تنتج عام ١٩٧٥ م بعنوان " نغـم في حياتي " وهو آخر فيلم للمغنى الشهير فريد الأطرش ومرفت أمـين ، وبعـدها بعام تنج بعنوان " توحيدة " لنور الشريف وماجدة الخطيب وأكاد أجزم أنها مـؤامرة لتقويض بنيان الفضيلة في بلادنا ولقد أتت هذه المؤامرة ثمارها فأصبحت الفـضيلة في بلادنا الآن تخلف وأصبحت العفة والشرف تراث بائد غير مأسـوف عليـه !! وحسبنا الله ونعم الوكيل .

أفلام تجار المخدرات

وهى تصور لنا كيفية الكسب السريع دون عمل ، والثـراء الفـاحش دون جهـد كبير، كما توضح كثير من الأفلام أن تجَّار المخدرات يتسترون وراء الدين فيظهـر تاجر المخدرات في شكل رجل صالح محافظ على أداء العبـادات وممـسك دائمـا بالمسبحة مما يزرى بأهل الصلاح والتقوى ويجعل المشاهد ينظر بريبة لكل رجـل

صالح متمسك بالدين بعكس أبطال الأفلام الفسقة الفجرة الذين تظهرهم الأفلام بأنهم النموذج المحتذى .

انظر فيلم " رصيف نمرة خمسة " وفيلم " الإمبراطور " وإن كانت الأفلام تنتهي – غالباً – بالقبض على تاجر المخدرات فإن هذه النهاية التي لا تستغرق بضع دقائق تأتى بعدما يكون المشاهد قد عشق حياة المغامرة والثراء السريع ، ويرى الشباب المحبط والعاطل في هذه الأفلام الحل السريع لكل مشاكله ، ويوهم نفسه بأنه سوف يصنع نهاية مغايرة للفيلم فيتجنب أخطاء البطل وبذلك تكون هذه الأفلام داعية للانحراف وليس العكس وهذا ما أثبتته الأبحاث النفسية والاجتماعية من أن أفلام العنف ، والمخدرات ، والجريمة لم تمنع العنف والمخدرات والجريمة بل بالعكس زادت من الجريمة والعنف والمخدرات !!

فأبطال هذه الأفلام ممن يحبهم الجمهور ويميل لتقليدهم و الاقتداء بهم ويترسخ حبه لهم والرغبة في تقليدهم في اللا شعور أو في الشعور .

والملاحظ على معظم الأفلام أنها تستخدم المرأة ليس كإنسانة لها كرامة وإنما كأنثى مثيرة لغرائز الرجال وفي هذا امتهان لكرامة المرأة ولقد جرى القائمون على فن التمثيل عندنا على نهج الفنانين الغربيين الذين قدموا المرأة بهذه الصورة المشينة وأخذوا هذه الصورة الجاهزة ولم يجهدوا أنفسهم لمناقشة قضايا المجتمع العربي . ما ضرهم لو قدموا الصورة الصحيحة للمرأة العربية المسلمة ووضحوا الطريقة القويمة للعلاقة بين الرجل والمرأة " إنّ الفن يحاول دائماً إبراز مفاتن المرأة ، وهو ما نلاحظه في اختيار المخرجين، والذين يمارسون الفن المسرحي والتلفزيوني والسينمائي، حتى على مستوى الفن الإعلاني الدعائي، فهم جميعاً يركزون على المرأة الجسد ، لأن المشاهد سوف يندمج بالمشهد أو بالصورة الإعلامية من خلال الإيحاءات الجنسية التي تُمثلها في هذا المجال ... إن المرأة لا بد أن تخرج للمجتمع كإنسانة لا كأنثى، لأن المجتمع ليس مكان عرض الأنوثة، باعتبار أن الأنوثة حتى في جوانبها الجمالية الفنية في الجسد – إذا صحَّ التعبير – تنفتح على الجنس، والإسلام لا يريد للمجتمع أن يعيش حالة طوارئ جنسية إنَّ هذا ينتج عن دراسة العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها علاقة ذكر وأنثى، لكنّ المرأة عندما تخرج كإنسانة من دون مساحيق تجميل أو أساليب إغراء، فإنها لا توحي إلا بالاحترام والتقدير .

إن مشكلتنا أن الآخرين يصنعون لنا الظاهرة والخط ونحن نألفه، فإذا ألفناه أصبح طبيعة ثانية عندنا. حتى إن بعضنا يحاول تأويل الخطوط الإسلامية لمـصلحة مـا تعارف عليه الإنسان أو الناس . [١]

إن الدين كما بينا ليس ضد الفنون الجميلة إنما ضد الإباحية والفجور باسـم الفـن يقول الفنان إيمان البحر درويش :

" الفن الإسلامي وغير الإسلامي يجب أن تكون له قواعد، والعبـارة المتعـارف عليها والتي يطلقها جميع الفنانين في جميع اللقاءات أن الفن رسالة ، والمفهوم مـن الفن رسالة : أن يكون الفن الهادف الذي يضيف إلى الناس الأحاسيس الإيجابية، في العاطفة مثلاً يبعد عن إثارة الغرائز، ويسمو بالروح إلى أسـمى المعـاني ، وفـي مجال الغناء الوطني يحث على الجهاد والشجاعة وإعداد القوة بكل أشكالها ؛ سـواء نفسية أم مادية ، وفي مجال الدين: إظهار ما في الدين من سلوكيات ومن فـضائل الأعمال، فلو تكلمنا عن الفن الإسلامي فلا يمكن أن يكون الفـن الإسـلامي هـو الحديث عن الدين فقط؛ لأن الإسلام حياة قال تعالى: { قُـلْ إِنَّ صَـلاَتِي وَنُـسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (الأنعام : ١٦٢) فمن المفروض أن يكون كل إنسان سواء كان فنانًا أم غير فنان يكون أمامه القدوة الرسول ﷺ في جميع منـاحي الحياة، فعندما يتخذ الفن مهنة فيجب أن يكون الفنان كالخطيـب علـى المنبـر أو المقاتل في الميدان من ناحية روح العمل ووجهته وتأثيره . وبذلك يكون الفـن لـه رسـالة واضحة للجميع ؛ سواء كان إسلاميًا أم غير إسلامي .. من الممكن جدًا أن يكون الفنان من خلال الأشرطة والمسرح والسينما وكل وسائل الإعلام المختلفة أن يكون داعية بشكل مؤثر أكثر من الخطباء في المساجد وأكثـر مـن الكتـاب فـي الصحافة، وذلك لأن الفن الممتع يؤثر بشكل قوى جدًا على الناس، والأمثلة كثيـرة في التأثير السلبي فإذا استخدمناه في التأثير الإيجابي فأعتقد أنه سيكون مؤثرًا جدًا[٢]

ونختم هذا الموضوع بكلمة جامعة عن فن السينما وما تقدمه من أفلام تقولها ناقدة فنية وهى خيرية البشلاوي .

---

(١) السيد محمد حسين فضل الله مجلة «لها» ١٣ نوفمبر ٢٠٠٣ .

(٢) من حوار للفنان إيمان البحر درويش ، إسلام أون لاين

يرى المتابع المتذوق لفن السينما انطباعاً عاماً بالحصار ، فقد كان هناك في مجال النشاط السينمائي التجاري شبه مؤامرة على عقل المتفرج ومصيدة أصبحت تحيكيها الأفلام تحبس فيها عقل المشاهد داخل إطار واحد من التفكير وشكل واحد من أشكال المتعة وأصبح لا مفر من عالم يصنع قيمه بعيدا عن الواقع الحقيقي للناس معبراً عن واقع خاص لا ترى فيه سوى مجموعة بعينها من الشخصيات تصبح هي النموذج الأمثل في نفوس الجماهير التي تتردد على السينما ، ويصبح تمثلها ومكانها هي حلم الفتيات والفتيان على حد سواء . شخصيات على شاكلة "بمبة كشر" و "امرأة سيئة السمعة" و " المراهقين الثلاثة " ... إلخ .

فالدور الرئيسي الذي تلعبه الأفلام السينمائية في بلدنا والذي يمثله الجانب الأكبر من الإنتاج السينمائي المصري ما يزال حتى الآن يحث عن احترام الشطارة والفهلوة في شتى أشكالها وتمجيد الأنانية الفردية ، ويعمد إلى تلوين الواقع بألوان زاهية لا تكشف عن الحقيقة ، كما يعمد إلى تزييف التاريخ واختلاق أبطال وهميين لإخفاء الدور البطولي الحقيقي الذي لعبته الجماهير . . بالإضافة إلى تمجيد النجاح الفرادى على حساب الآخرين باعتباره نجاحاً للأذكى والأكثر مقدره وقوة ، ولا بأس من استخدام أي نوع من الوسائل في سبيل تحقيق الغاية .فنحن نجد في هذه الأفلام تأكيدا على الانفصال الكامل بين مظاهر التخلف الأخلاقي والروحي وبين ينابيع الفقر والاستغلال والقهر . ويمكننا أن نضرب لذلك عشرات الأمثلة التي تشمل جميع ما قدمه مخرجون من نوع حسن الإمام وحسام الدين مصطفي وحلمي رفله بل والجيل الجديد من أمثال نادر جلال مثلاً . وليس مصادفة أن تزدهر هذه الأيام ظاهرة فتيات الشقق المفروشة في القاهرة وتحتل أخبارهن مساحات في الصحف والمجلات ، فنظرة على الأفلام تجعلنا ندرك جانباً من الأسباب التي تقف وراء هذه الظاهرة الغربية على مجتمعنا وأن ارتبطت بواقعه . إن أوضاع السينما المصرية لن تتغير ولم تساير أي نوع من التقدم رغم الأحداث الكبيرة التي مرت بنا وهى أوضاع تدفعنا إلى البحث عن مبرر هذا التخلف والتنقيب وراء سينما قومية تسعى إلى تحرير المواطن ماديا وروحيا والمحافظة في نفس الوقت على أصالته الإنسانية . (١)

---

(١) " موسوعة سينما العرب " اسطوانة ليزر " C D " شركة صخر لبرامج الحاسب .

ونحن إذ نقدم سلبيات السينما ليس هدفنا أن نقدم هذا النقد دليلاً للمحرمين للفنون على الإطلاق إنما نحن نذكر هذه العيوب ونحن آسفين وكنا نتمنى أن تؤدى هذه الفنون المؤثرة دوراً إيجابيًا لخدمة المجتمع بدلاً من هذا الدور السلبي الذي يقوض قيم المجتمع ؛ فليست هذه الصورة المزرية التي عليها كثير من الفنون بالشيء المبهج إنما من الأشياء المؤسفة حقاً والتي كنا نتمنى ألا تحدث .

الفنون الغربية وأثر اليهود فيها

هذا عن فنوننا فماذا عن فنون الغرب ؟

لقد استطاع الغرب أن يسخِّر كثيراً من هذه الفنون لخدمة أهدافه ومصالحه فلقد سخرت الشيوعية والنازية والصهيونية هذه الفنون فنشرت أفكارها في كل بلاد العالم وأثَّرت في معظم شعوب الدنيا بأفكارها العنصرية أو الإلحادية أو الإباحية ودرَّت بالإضافة للدعاية لمذاهبهم الهدامة أموالاً طائلة فقد استطاعت أن تحشو رءوس العالم بأفكارها الخبيثة وأن تنظف جيوبهم من عملاتهم النفيسة ، فزيفت وعيهم ، واستولت على أموالهم !!

والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي بذكر فيلم " قائمة شندلر" وأترك الحديث للصحفية المصرية مها عبد الفتاح لتحدثنا عن هذا الفيلم الصهيوني وعن تأثيره الشديد ليس في الغربيين المتعاطفين مع اليهود بل تأثيره في العرب المسلمين المعادين للصهيونية وإلى أي مدى تستطيع الفنون خدمة أهداف دينية أو استعمارية بطريقة ساحرة ليس فيها إراقة قطرة دم واحدة .

ودونكم ما كتبته مها عبد الفتاح عن فيلم " قائمة شندلر" :

منذ سنوات شاهدنا فيلم 'قائمة شندلر' خمس نساء مصريات معاً دخلنا نشاهد فيلماً يعرض لمعاناة اليهود في أوروبا على أيدي النازي .. فيلم بلغ به مخرجه العبقرى "سبيلبرج" قمة الإعجاز في التأثير البليغ على المشاهد.. اختار له اللون الأبيض والأسود دون الألوان الطبيعية إلا في النهاية فقط .. الحركة وتحريك المجاميع والتقاط التعبير في السحنة والملامح بلغ بها المخرج ذرى الواقعية التأثيرية بالصورة قبل الكلمة فوصل بها إلى أعمق المشاعر في المشاهد واستولى على روحه يعتصرها في ذوبان من الانفعال من أول الفيلم لآخره على نحو منهك..

الذي حدث يومها أننا دخلنا الفيلم ونحن ابتداء شبه متنمرات ضد الموضوع ولأسباب كثيرة، سياسية وإنسانية وخلافه.. إنما الذي اذكره جيداً وسجلته في حينه ولا أكاد أصدقه الآن بعد زوال تأثيره أنه قد هزنا وأبكانا نحن المصريات الخمس إلى ذلك الحد وأسال دمعاً ساخناً ذرفناه وبقى يسح على نحو غير إرادي مع معظم مشاهد الفيلم إلى حد زجر بعضنا البعض خلال ذلك بتعليقات من حين لآخر لنوقف هذا الفيضان الجارف المسكوب منا ' كفاية هَمّ .. هل أصبحوا من بعض أهلنا ولا إيه.. بس.. إحنا ناقصين.'..كنا ننهنه مثلنا مثل الجمهور في السينما لا تعرف منهم من أي دين ولا ملة.. يبدو أن الفن يذيب المشاعر كما لا يذيبها شيء آخر يوحد بينها تماما كما قد يفرق بذات القدر وأكثر.. إنما ولا اذكر مخرجا سينمائيا آخر غير سبيلبرج استطاع أن يحقق معاً مثل هذا الكم من التأثير البالغ من خلال عمل سينمائي.. في النهاية خرجنا من السينما ونحن على نحو يدعو إلى السخرية .. عيون منتفخة وأنوف محمرة وحالة من الانفعال لا أذكر من مثيل لها مع فيلم آخر.. إذن لهذا الحد يبلغ مفعول الإبداع بل قل خطورته أيضاً .. وأظن ما كتبته يومها تعبيراً عن مشاعر خمس من المصريات مع فيلم قائمة شندلر قد ساهم ربما على نحو غير مباشر في منع عرض هذا الفيلم في مصر.. فما عاد ينقص إلا أن نقيم مناحة لضحايا النازية من اليهود بينما يهود في إسرائيل نهشوا الأرض الفلسطينية ويسومون شعبها العذاب ألواناً .. (١)

ولا يكتفي الصهيونية العالمية بتقديم الفنون الداعمة للمشروع الصهيوني إنما تحارب أيضاً أي محاولة لكشف هذا المشروع أو تقف عائقاً دون إتمامه كما فعلت مع فيلم " آلام المسيح " الذي أخرجه ميل جبسون فقد عمد جبسون إلى إظهار دور اليهود في حمل الحاكم الروماني على صلب المسيح رغم أنه كان غير راغب في ذلك فليس ثمة تهمة يمكن أن يحاكمها بها .

قرر جبسون أن يبعد بهذا الفيلم عن عباءة شركات الإنتاج اليهودية الكبرى في هوليوود متحرراً من تمويلهم وهيمنتهم ليقدم فيلماً يريده كمسيحى كاثوليكى محافظ أن يأتي الفيلم أميناً على الحقائق التاريخية والدينية وحدها.

---

(١) محمد عبد الفتاح " حرية المبدع والتمويل الأجنبي ". عن موقع " إسلام أون لاين "

لقد شن اليهود على جبسون حرباً شعواء في محاولة لوأد فيلمه "آلام المسيح" أو إجباره على إجراء تغييرات جذرية.. فلما رفض التغيير شنوا عليه حربهم الشعواء، فلما وقف معه مؤيداً كل من شاهد الفيلم في العروض الخاصة وواصل هو الإصرار على الصمود واستعصى عليهم ، حاصروا الفيلم عن طريق كبرى شركات التوزيع والتي من جراء ذلك لم تجرؤ أي منها الاتفاق على توزيع الفيلم وبعد أكثر من عام وجد الموزع الفدائي الذي قبل توزيعه في تحد وتقرر عرض الفيلم في ألفي دار للعرض بين أنحاء الولايات المتحدة .

فهل انتهت المعركة عند هذا الحد وتوقفت حرب المنظمات ضد الفيلم وصاحبه ؟ يبدو الأمر غير ذلك لان أحدث حلقات المعركة التي فرضوها عليه نجدها ذات شقين: شق منها يدل على إن ميل جبسون قرر الاستجابة نوعاً ما إلى ضغوط تلك المنظمات وقَبِل أن يحذف مشهداً واحداً من الفيلم عند عرضه على الجمهور وهو طبقاً لوصف المشهد كما جاء في ملزمة الأفلام للنيويورك تايمز هو الذي يظهر فيه الكاهن اليهودي الأكبر في نبوءة نذير إلى جموع اليهود لحظة صلب السيد المسيح فقال الكاهن قائلاً لهم باللغة الآرامية ما معناه أن دمه لسوف يعلق بنا وبأبنائنا "المشهد المحذوف وفق ما جاء في الصحيفة الأمريكية الكبرى يبدو فيه تاريخيّاً القائد الروماني "بونتيوس بيلاته" وهو غير راض عن المبالغة في إيذاء المسيح وزوجة هذا القائد تحذره من العواقب.. ولكنه ليهدئ من زمجرة اليهود المتجمهرين يوافق على أن يضرب السيد المسيح ضرباً مبرحاً ويعذبونه بالسياط ومع ذلك يطالبه اليهود ومعهم كاهنهم الأكبر حسب ما يجئ في الفيلم ويطالبون القائد الروماني بالمزيد.

هنا يقول القائد باللاتينية cccc homo بمعني: انظروا إليه.. فيبدو المسيح والدماء تسيل بغزارة منه ولكن الكاهن الأعلى يظل مصراً على ضرورة أن يصلب قائلاً بالآرامية اصلبوه" فيجيبه القائد الروماني بيلاته "ألا يكتفي بهذا ؟" فيزأر الغوغاء : كلا ! وعندئذ يوافق القائد الروماني على المضي في إجراءات صلب المسيح . (١)

---

(١) مها عبد الفتاح " من أسطورة الإبداع إلى عمق التأثير في الفن السينمائي." جريد أخبار اليوم ١٤ / ٢ / ٢٠٠٤ .

أرأيتم كيف يعمل اليهود لخدمة أهدافهم الاستعمارية وتأكيد أهـدافهم العنـصرية مستخدمين كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة في تحقيـق هـذه الأهـداف ، فينفقون الملايين على إنتاج الأفلام المدعمة لهذه الأهداف ، ويحـاربون كـل مـن يحاول قول الحقيقة وكشف افتراءاتهم ، وتجنيد فنانين في كل بلد في العالم للدعايـة لادعاءاتهم .

ويذكر لنا محمد عبد الفتاح هذا المخطط ويصرح بأسماء أهم من جندوا لتحقيقه " في السنوات الأخيرة، ووفقاً لسياسة جون دلاس مدير المخابرات الأمريكية الأسبق، الذي وعى لنظرية " فتنمة الحرب " أي يحارب الفيتنامي فيتنامياً آخر، بـدلاً مـن الجيش الأمريكي، أو جيوش الحلفاء. انتقلت هذه النظرية إلى الـسينما حيـث تـم استخدام فنانين من نفس البلد الذي يراد اختراقه في صناعة أفلام تهدف إلى تحقيـق ما ينشده الاستعمار الجديد. ومن هنا ظهر ما يسمى بالتمويل الغربي، لإنتاج أفـلام تحمل أفكار ووجهات نظر صاحب التمويل أو لا تعاديه على الأقل. من هنا رأينـا فرنسا وبلجيكا وسويسرا، تحتضن "شباب السينما الجديد" الذي يحلم بإخراج فيلمـه الأول، وأيضًا أصحاب الخبرة الذين يريدون الاستمرار والتواجد، لذلك سرعان مـا نرى أسماء بعينها مصرية وتونسية ومغربية ولبنانية وكلها تعمل تحت راية التمويل الغربي، فهناك يوسف شاهين، ونورى بوزيد، ومفيـدة تلاتلـي، ورانـدة شـهال، ويسرى نصر الله، وأسماء البكري .

لذا جاءت "أفلام التمويل" وهى تهتم بتقديم "الفلكلور الشعبي" وطقـوس العـادات الشعبية من خلال حفلات الزار والمواليد والأفراح، بالإضافة إلى أفلام هدفها الفتنة الطائفية وازدراء الأديان مثل فيلم "متحضرات" اللبناني- المخرجة لبنانية، والتمويل سويسري فرنسي وأيضاً بعض الفنيين. وفيلم "المصير" الذي قدمه يوسـف شـاهين الذي لم ير في الأندلس، سوى محرقة للفكر الحر، لا ينقذه سوى مـساعدة فرنـسا ليصل للعالم!

خطورة الإنتاج المشترك أنه يأتي مستخدمًا نفس اللغة، والشخصيات ليبـشر فـي صورة متخفية، تسلب المواطن انتماءه، وتحوله إلى حالم بعالم آخر، لـيس وطنـه وتربطه بعادات وتقاليد وتراث ليس له، في الوقت الذي تحقر فيه كل ما هو أصـيل لديه! إن حرية المبدع يجب ألا تصطدم بحرية المشاهد فـي أن يعـرف الحقيقـة، وحريته أيضاً في أن يعرف من "يقف" وراء ما يقدم له ؟ ولماذا ؟!

التمويل الغربي حق أريد به باطل، واستغلال بشع غير إنساني للخواء الذي يعانى منه المبدع الذي فقد ارتباطه بجذوره الحقيقية. من هنا يأتي تحذيرنا من هذه الأفلام، التي تحاول أن تغزو عقولنا ووجداننا سواء أكانت مباشرة، من إنتاج الغرب، أو غير مباشرة يصنعها للغرب بعض منا! وسوف يأتي يومًا، تسقط فيه كل الدعاوى الباطلة . (١)

وانظروا كيف نجحت الصهيونية في خداع العالم وكسب تعاطفه وتأييد مشاريعهم الاستعمارية في الوقت الذي فشل العرب والمسلمون في كسب تأييد الغرب لنصرة حقوقهم المشروعة ، وهذا هو الفرق بين من يُصِرُّ على ركوب الجمل في سباق للطائرات النفاثة !!

***

---

(١) محمد عبد الفتاح " حرية المبدع والتمويل الأجنبي ". عن موقع " إسلام أون لاين "



الفصل الرابع
الإسلام والعقل

إن البشرية تدين للمفكرين المبدعين بالفضل في تقدمها وتحضرها وحلّ مشاكلها ، فالمفكرون المبدعون هم أُسُّ أي حضارة وعماد أي تقدم ورقي ، والأغبياء والجاهلون والمنحرفون هم أُسُّ كل تخلف وسبب كل رجعية ، فالعقل والذكاء ما دخل في شيء إلا زانه وطوره ، والجهل والغباء ما دخل في شيء إلا شانه وأفسده حتى وإن كان ديناً سماوياً .

والأمم المتقدمة هي التي تعلى من شأن العقل وتشجع المبدعين والمبتكرين ، والأمم المتخلفة هي التي تغض من شأن العقل وتحارب المبدعين والمفكرين .

التفكير الإبداعي

التفكير الإبداعي له تعريفات كثيرة منها :

- أن تأتي بفكرة جديدة بالنسبة لك وللآخرين .
- القدرة على توليد أفكار جديدة ومفيدة .
- الإتيان إلى حيز الوجود بشيء لم يكن موجوداً من قبل .
- القدرة على عمل ترابط ورؤية علاقات وروابط جديدة .
- القدرة على أن ينهل الإنسان من موارد متنوعة ويوحد بينها بشكل متكامل وجديد .
- تمكن العقل من إدراك العلاقة بين شيئين بطريقة يتولد عنها ظهور شيء ثالث.

إن من دعاة الإسلام من يعدُ كل إبداع بدعة وكل مستحدث ضلالة ، وكل مجتهد مُبْتَدِع خارج من الملّة !

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (البقرة : ١١٧) كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يجوز أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وخص رسول عليه، فهي في حيز المدح. وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الأفعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه. ويعضد هذا قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه، لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح، وهي وإن كان النبي ﷺ قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس، عليها، فمحافظة عمر رضي الله عنه عليها، وجمع الناس لها، وندبهم إليها، بدعة لكنها بدعة محمودة ممدوحة. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسول فهي في حيز الذم والإنكار " [1]

إن من أكبر ما ابتليت به الأمة فهمها الخاطئ للبدعة فليس كل بدعة ضلالة وليس كل جديد مستنكر بل المُبْدِع رجل مجتهد مفكر متدبر أعمل عقله وسخر علمه في إنشاء ما لم يسبق إليه بشرط أن يكون هذا الإبداع لا يخالف القرآن الكريم ولا صحيح السنة وعلى هذا يكون الخلفاء الراشدون مبدعين ، وابن عباس مبدع ، وأبو حنيفة مبدع، والقرطبي مبدع ، وابن حزم مبدع ، والنووي مبدع ، والغزالي مبدع، وابن حجر مبدع، وغيرهم من كبار العلماء المجتهدين وكل علماء الطبيعة والفلك والرياضيات مبدعون وإن أخطأ أحدهم ، وكل ابن آدم خطاء ، فله أجر كما بين ذلك الرسول ." إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد . " (متفق عليه)

وينطبق هذا القول على من له أهلية الاجتهاد من العلماء .

وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضي الله عنهم: إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ٨٧

الأفضل في ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة ومن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه .(١)

قال ابن عبد السلام: في أواخر " القواعد " البدعة خمسة أقسام :

" فالواجبة " كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم .

" والمحرمة " ما خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة .

" والمندوبة " كل إحسان لم يعهد عينه في العهد النبوي كالاجتماع عن التراويح وبناء المدارس والربط والكلام في التصوف المحمود وعقد مجالس المناظرة إن أريد بذلك وجه الله .

" والمباحة " كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر، والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن .

وقد يكون بعض ذلك مكروهاً أو خلاف الأولى والله أعلم .(٢)

إن حجة النصيين الحرفيين ومن سار على نهجهم من المسلمين أن كل ما لم يفعله السلف الصالح يعد بدعة ضالة ، ولعمري إن هذا الفهم السقيم لهو البدعة الضالة .

وقد نبَّه الشاطبى إلى هذه الحقيقة بوضوح ؛ فقد جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدى إلى تفرق الأمم شيعاً وجعل بأسها بينها شديد : " أن يعتقد الإنسان في نفسه ، أو يُعتَقد فيه ، أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين وهو لم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيا ، وخلافه خلافاً ، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع ، يعنى فروع الدين ، وتارة في كلى وأصل من أصول ، من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية ، فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها ، حتى يصير منها ما ظهر له بادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا رسوخ في فهم مقاصدها ، وهذا هو المبتدع وعليه نبَّه الحديث

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣١٠ .
(٢) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٣ ص ٢٥٤ .

الصحيح أنه قال : لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " [١] ونحن نقول ما ابتدع عالم قط ولكنه استفتى من ليس بعالم .

قال مالك بن أنس بكى ربيعة بكاءً شديداً فقيل له : مصيبة نزلت بك ؟ فقال : لا... ولكن استفتى من لا علم عنده) .

والحق أن نصف العلم ، مع العجب والغرور ، يضر أكثر من الجهل الكلى مع الاعتراف ؛ لأن الجهل بسيط ، وذلك جهل مركب وهو جهل من لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى . [٢]

والتاريخ الإنساني العام خير شاهد على ذلك فما تقدمت أمة إلا وكان المفكرون المبدعون هم طليعتها ، وما تخلفت أمة إلا وكان المقلدون الجامدون قادتها .

ولن نذهب بعيداً فالحضارة الإسلامية على يد من قامت ؟ وعلى يد من انهارت ؟

لقد قامت الحضارة الإسلامية على يد رجال أعملوا عقولهم فأحسنوا فهم دينهم ودنياهم فآمنوا وعملوا الصالحات وكان معظمهم ينتمون لحضارات قديمة ذات صبغة علمية عقلية – كالحضارة المصرية القديمة والبابلية والفارسية – ووجدوا في الدين الجديد ما كان ينقصهم من الهدى والرشاد ، وإذكاء لما عندهم من عقل وذكاء فصنعوا حضارة عظيمة لا يفتأ غير المسلمين يعترفون بها حتى الآن .

فلما غَلَبتْ روح التقليد والتكرار وأغلق باب الاجتهاد غربت شمس الحضارة الإسلامية لتشرق على أوروبا في بداية القرن السادس عشر ، وما تقدمت أوروبا إلا بعد أن كفرت بعبادتها للقدماء كأرسطو وبدأ علماؤها ومفكروها ينظرون للأمام ويعملون عقولهم ويدرسون الحضارة الإسلامية ويطورونها فتقدموا وتخلفنا ، نظروا للأمام ونظرنا للخلف ، فاخروا بأنهم يصنعون حضارة حديثة وافتخرنا بأننا كنا أصحاب حضارة قديمة ، ويوم أدركنا أننا تخلفنا قلنا نقلد أجدادنا علّنا نتقدم مثلهم ونسينا أن سر تقدم أجدادنا أنهم لم يقلدوا آباءهم بل أعملوا عقولهم واهتدوا بقرآنهم وسنة نبيهم .

---

(١) أبو اسحاق الشاطبى " الاعتصام " ج ٢ص ١٧٣ .

(٢) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٦٣

فزاد تخلفنا لأننا اتخذنا مقلدينا أئمة وحاربنا مفكرينا ومبدعينا مع أن الحضارة الإسلامية ما قامت إلا على أكتاف هؤلاء المفكرين المبدعين .

مكانة العقل في الإسلام

إن للعقل مكانةً ساميةً في الإسلام فقد ذكر القرآن العقل ومشتقاته نحو تسع وأربعين مرة ، أما كلمة العلم ومشتقاتها فقد ذكرت أكثر من سبعمائة مرة في القرآن الكريم .

وقد وصف الله تعالى من أوتى الحكمة ، وهي إحدى ثمار العقل ، بأنه أوتي خيراً كثيراً { يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (البقرة : ٢٦٩)

وجعل الإسلام العقل مناط التكليف فلا إيمان لمن لا عقل وكان النبي ﷺ إذا ذُكر له عبادة رجل سأل عن عقله وهو القائل " إن لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعت قول الفجار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }.(الملك : ١٠) (أخرجه ابن المجبر)

قال الإمام النسفي في تفسير الآية الكريمة : " وقالوا لو كنا نسمع الإنذار سماع طالب الحق أو نعقل أي نعقله عقل متأمل ما كنا في أصحاب السعير في جملة أهل النار وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملزمتان .[١]

ولقد حرم الله تعالى كل ما يفسد العقل مثل : الخمر والمخدرات والمسكرات ..

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (المائدة : ٩٠)

وعن ابن عمر عن النبيﷺ قال " كل مسكر خمر، وكل خمر حرام "
(رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن)

سُمِّيَتْ الخمر خَمْراً لأنَّها تَخْمُرُ العَقْلَ وتَسْتُرُهُ .[٢]

وبالعقل عُرف الله تعالى. وبالعقل قام الدليل على النبوة . والعقل هو المخاطب في آي القرآن والمطالب بالاهتداء إلى الخالق جل وعلا .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ }
(آل عمران : ٩٠)

---

(١) تفسير النسفي ج٤ ص ٢٦٤

(٢) انظر القاموس المحيط مادة " خمر " .

والعقل هو المكلّف بتدبر الكون والاهتداء إلى سنن الله في خلقه وهو بحكم طبيعته يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ..

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} (الزمر : ٢١)

والعقل إن لم يؤمن بدين الله الحق تخبط في مذاهب وفلسفات شتى يقنع بإحداها اليوم ثم ما لبيث أن يتركها لمذهب آخر عندما تظهر له مفاسده ، ويظل ينتقل من مذهب إلى مذهب هكذا دواليك كريشة في مهب الريح أو كزورق تتقاذفه الأمواج العاتية ولا يصل إلى الإيمان واليقين الذي لا يزعزعه شك ولا تخالطه ريبة إلا مع دين الله الصحيح " الإسلام " ، وبدون هذا الدين القويم لا يستقر العقل على مذهب فكلها لها عيوبها ومسالبها التي ذكرها أعداء هذا المذهب أو أثبتته الأيام وكشفها الواقع والأمثلة على ذلك كثيرة ، فكثير من الناس في الشرق والغرب آمنوا بالماركسية وبماركس نبيها ثم ما لبثوا أن تبدت لهم عيوبها : كفقدان الدافع للعمل ، والقضاء على الطموح والرغبة في الترقي ، وافتقار الروح للإيمان بخالقها الكامل الخالد القادر ، وإفقار الأغنياء وعدم إغناء الفقراء ، وديكتاتورية الحزب الشيوعي وتسلطه وقهره للشعوب واغتناه على حساب إفقار جميع الطبقات .

فكفر بعضهم بالماركسية ولجئوا إلى الوجودية ولاذوا بنبيها سارتر الذي هو على النقيض من ماركس ، لكن سرعان ما ظهرت عيوب الوجودية : كالحيرة والقلق الذي أصاب نفوس الوجوديين بالدمار وقد ترك هذا القلق المرضى رواسبه حالياً في المجتمعات الغربية وصاحبه تفكك كثير من جوانب هذه المجتمعات .[1] مما جعل هؤلاء الوجوديين وغيرهم من أصحاب الأفكار الفلسفية المعاصرة يلجئون إلى حركات اللا معقول واللا مبالاة وغيرها من حركات أخرى غريبة وشاذة .[2] وهكذا يظل العقل البعيد عن دين الله القويم يتخبط في ظلمات الجهل والشك ولن يصل إلى الإيمان واليقين مما يجعل صاحبه ينغمس في الشهوات الحسية والملذات

---

(١) سماح رافع محمد ، ومحمد مصطفي البسيوني " الفلسفة ومشكلات الإنسان " ص ٧٨
(٢) نفسه ص ٨٧

الحيوانية والشذوذ ، ثم يدمن المخدرات والمسكرات ليطمس بها على عقله الذي لم يوصله لشيء وأخيراً يلجأ إلى الانتحار ليتخلص من هذه الحياة البائسة الخالية من السعادة إذ لا سعادة إلا في ظل إيمان حقيقي بدين الله تعالى" الإسلام " .

والعجيب أن الإسلام أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الله تعالى : المقروء (القرآن الكريم) ، والمشهود (الكون) كما أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الإنسانية : المقروء (التاريخ) ، والمشاهد (الواقع) .

وسوف نوضح هذا بشيء من التفصيل حتى نبين دور العقل في فهم الدين ، وفهم الكون ، والتاريخ ، والواقع .. كما أكدت ذلك نصوص الدين : القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

أولا : دور العقل في فهم كتاب الله المقروء (القرآن الكريم)

يقول الله تعالى في واجب الإنسان نحو القرآن المبارك .

{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } (ص : ٢٩)

إذن واجب الإنسان نحو القرآن الكريم كما اخبر الله تعالى هو التدبر والفهم .

وأمر الله تعالى بالبحث الدقيق في القرآن الكريم ، ومعرفة توازنه العجيب ، وآياته التي تسير في خط مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف . وأحكامه المتوازنة في ذاتها ، والمتوازنة مع كيان الإنسان المخاطب بها فلا تناقض فيها ولا تعارض .

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا } (النساء : ٨٢)

وقد نعى الله تعالى على أولئك الذين ختم الجهل والهوى على قلوبهم وصرفهم عن تدبر القرآن جهلهم وغباءهم .

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد : ٢٤)

وأخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين يرتلون القرآن ويتدبرون معانيه هم الفائزون أما الذين كفروا بالقرآن فأولئك هم الخاسرون .

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (البقرة : ١٢١)

إذن الواجب نحو القرآن الكريم ، كما بينت الآيات ، هو التدبر .

معنى التدبر والفرق بينه وبين الحفظ

تدبر الأمر أي فهمه وفكر فيه وعرف ما تؤول إليه عاقبته ،وتـدبر القـرآن أي تفكر فيه ليعرف معناه فكان في هذا رد على فساد قول من قـال : لا يؤخـذ مـن تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيـه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس.(١)

أما كلمة الحفظ فلها معنيان هما : الاستظهار ، والصيانة والحراسة .

أما عن حفْظ القرآن لاستظهاره فقط دون فهم وتدبر ، ودون أن يمس القلبَ نورُه فليس هو المقصود فقد جاء في تفسير قوله تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } (فاطر : ٣٢) .

الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل بـه، والـسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . (٢)

ولقد وضح لنا النبي كريم الفرق بين الحافظ والفاهم حيال ما جـاء مـن الهـدى والعلم فقال ﷺ : "إِنّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللّهُ به عَزّ وَجَلّ مِنَ الْهُدَىَ وَالْعِلْمِ كَمَثَـلِ غَيْـثٍ أَصَابَ أَرْضاً. فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيّبَةٌ. قَبِلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَت الْكَلأَ وَالْعُـشْبَ الْكَثِيـرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ. فَنَفَعَ اللّهُ بِهَا النّاسَ. فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَـوْا. وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىَ. إِنّمَا هي قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً. فَذَلِكَ مَثَـلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللّهُ به ، فَعَلِمَ وَعَلّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِـذَلِكَ رَأْساً. وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىَ اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ " (متفق عليه).

يبين النبي ﷺ أن الذي انتفع بالهدى هو النوع الأول من الناس الذين لهـم أفهـام ثاقبة ولهم رسوخ في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وعندهم اجتهـاد ، أمـا النصيون الحرفيون فهم الحافظون لأسانيد الأحاديث ومتونها الجاهلون بعللها وفقهها فهم ، النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهـاد فـي الطاعـة

(١) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠

(٢) تفسير القرطبي ج١٤ ص ٣٤٨

والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .[1]

ولقد شبّه الله تعالى اليهود ومن على شاكلتهم ممن آثروا حفظ نصوص الدين على فهمها بالحمار الذي يحمل أسفاراً لا يفقه فيها شيئًا .

{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (الجمعة : ٥)

أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيّاً ولا يدرى ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى: { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف : ١٧٩)[2]

إن الفقه هو المصحح لجميع العبادات وهي بدونه فاسدة ، فالمتعبد على جهل يتعب نفسه دائماً كالحمار وهو يحسب أنه يحسن صنعاً وفي تشبيهه بالحمار مذمة ظاهرة وتهجين لحاله كما في قوله تعالى : { كمثل الحمار يحمل أسفاراً} وشهادة عليه بالبله وقلة العقل .[3]

أما حفظ القرآن بمعنى الصيانة والوقاية والحراسة فقد تكفّل الله تعالى به .

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (الحجر : ٩)

{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } (القيامة : ١٧)

وما طالبنا الله بحفظ القرآن الكريم – بمعنى استظهاره فقط دون الوقوف على معانيه – يقول علي رضي الله عنه : " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها " [4]

إنما طالبنا الله تعالى بحفظ الفرج عن الزنا ، وحفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وكذب ... ، وحفظ البطن عن أكل الحرام ، وحفظ العين عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، طالبنا بعامة حفظ الجوارح والقلوب عن معصية الله ...

---

(١) الإمام النووي" صحيح مسلم بشرح النووي " ج ١٥ ص ٤٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١٧ .
(٣) الإمام المناوي " فيض القدير " ج٦ ص ٣٣٩ .
(٤) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٤٤

حتى أن الصحابي الجيل الذي اختاره أبو بكر لجمع القرآن كان أهم مؤهلاته العقل إلى جانب الأمانة قال زيد بن ثابت قال أبو بكر: " إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه "

(رواه البخاري)

المتدبرون والمقلدون ..

لقد أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم وإعمال العقل في استخراج كنوزه واستكشاف أسراره في آيات كثيرة منها قوله تعالى :

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا } (النساء: ٨٢)

{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ } (ص: ٢٩) .

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد: ٢٤) .

فالواجب على العلماء والدعاة إلى الله تعالى إعمال عقولهم في الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك في ضوء العلوم الحديثة والواقع المتغير والتطور المستدام وعدم الاكتفاء بترديد ما تركه لهم السابقون .

إن الحق تعالى يريد أن يعطي الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسألة برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبال واع وبفكر وتدبر . { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } (محمد : ٢٤)

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافي من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك في العقائد أن تؤمن ، وفي الأحكام أن تفعل .[١]

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار والزجر ، أي : أيعرضون عن كتاب الله تعالى فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهي .

{ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } أي : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التي حالت بينهم وبين التدبر والتفكر .[٢]

---

(١) تفسير الشعراوي ج ١ص ٨٢٣

(٢) محمد سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج ١ ص ٣٨٩٥

لقد نعى الله على أولئك المتخلفين الذين يرفضون الفهم الجديد ويقدسون مواريث القديم البائدة تقليدهم ، أولئك الجهال المقلدون لغيرهم تقليداً أعمى دون بصيرة ، ودون فقه لدين أو لواقع فقال تعالى :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } (البقرة : ١٧٠)

ويشدد القرآن في الدعوة إلى تدبر كتاب الله وسنة رسوله ويقيم الحجة على أولئك العاكفين على تلاوة ما خلفه القدماء من معارف ذاهلين عن تدبر القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } (المائدة : ١٠٤)

والآية وإن كانت قد نزلت في عرب الجاهلية الذين تحكمت فيهم آراؤهم السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلة فهي عامة في كل من قلد غيره دون فهم واتبع أقوال السالفين دون مراعاة للواقع المتغير ولا للعلم المتجدد وأحوال الناس المختلفة .

يقول القرطبي : " قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد . " (١)

فلا غرو أن يصف الله تعالى المقلدين تقليداً أعمى بالعمى في الدنيا ، وتوعدهم بالعمى في الآخرة { وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } (الإسراء : ٧٢)

ولا يظن ظان أننا ننهي عن حفظ القرآن الكريم وتلاوته فهذا من العبادات المقررة .

فالنبيَّ ﷺ قَالَ : " يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " (رواه أبو داود والترمذي)

والمقصود بقارئ القرآن في الحديث: هو الذي كان يتلوه في الدنيا حق تلاوته، ويعمل بأحكامه فيأتمر بأوامره ويزدجر عن نواهيه، فهذا قارئ القرآن الذي يقرؤه رغبة فيه . (١)

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١١ .

إنما ننهي عن الاستماع إلى أولئك الذين عطّلوا عقولهم فلم يتدبروا القرآن الكريم، ولم يديموا النظر فيه إنما اكتفوا بالتمسك بظاهر الآيات وحفظ بعض الآثار ويريدون أن يحملوا الناس قهراً على فهمهم السقيم .

يقول تعالى : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } (الحجر: ١٢، ١٣)

يقول الفخر الرازي : " نقول التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وقال بعده كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عناداً وجهلاً فكان هذا موجباً للحوق الذم الشديد بهم ." [٢]

أولو الألباب

ما خاطب الله تعالى أولى الحفظ مرة إنما خاطب أولى الألباب في ست عشرة مرة في كتابه العظيم .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِى الأَلْبَابِ }

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب بدراسة سير الأنبياء والصالحين واستخلاص العبرة والموعظة من حياتهم ، والإقتداء بهم في حياتهم الزاخرة بالإيمان والعمل الصالح .

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الأَلْبَابِ}

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب تدبر دورة المياه في الحياة فكيف يصعد البخار العذب من أسطح المحيطات والبحار المالحة عندما تسقط أشعة الشمس عليها ، ثم يتكاثف في طبقات الجو ، وتحركه الرياح ليسقط على منابع الأنهار ويجرى بالخير والنماء فيشرب والناس والحيوان و وينبت الزرع مختلفا أوانه وطعومه

---

(١) مركز الفتوى بإشراف د.عبد الله الفقيه

(٢) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٩ ص ١٢٩

وتنشأ{جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(الرعد:٤)

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ } (الحديد : ٢١)

كما يقرر القرآن أن الراسخين في العلم هم الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله .

{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (آل عمران : ٧)

كما أن الله تعالى وصف أولى الألباب بأنهم هم أصحاب البصيرة الذين يدركون أن ما جاء به الأنبياء هو الحق بعكس الأغبياء الجهال الذي يصفهم الله تعالى بعمى القلب { أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (الرعد : ١٩)

كما يعلمنا الله تعالى أن أولى الألباب هم الذين يعملون بأحسن ما عرفوا من علوم الأقدمين وإبداعات المحدثين فهم غير مقلدين إنما يدرسون ويتعلمون ويعملون بأحسن ما عرفوا ودرسوا .

{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } (الزمر : ١٨)

واللب أخص من العقل وهو الخالص من الشوائب ، وقيل هو ما زكى من العقل وكل لب عقل ولا عكس . (١)

والعقل إن سيطر عليه الهوى فسد ، وإن بعد عن هدى الدين ضل ، وإن دخل فيما لا مجال له فيه شطَّ .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

---

(١) الإمام المناوى" فيض القدير" ج٢ ص ٧٠

ومما سبق يتبن لنا مدى تقدير الله تعالى للعقل حيث ترك له في مجال العقيـــدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود : حقيقة وجود الله ووحدانيتـــه ، وحقيقـــة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

يلفت الله تعالى الإنسان إلى إدراك وجوده ، سبحانه ، بتدبر بديع خلقـــه والبحـــث عن خالق هذا الوجود .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ثم يطلب الله تعالى من الإنسان أن يسأل نفسه بعد تفكـــره فـــي خلـــق الـــسموات والأرض وما بينهما .

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا الـــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَـــل لا يُوقِنُونَ } (الطور: ٣٥، ٣٦)

فأتى الله تعالى لمنكري وجود الله تعالى بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفـــه الأشـــياء فـــي صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقِرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً مـــن زجـــاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا لـــه سبحانه بالخَلْق؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنـــا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن؟

إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق ، سبحانه وتعالى ، قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنـــا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُـــوَ } (آل عمران : ١٨) ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم، فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين؟

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : ٤٢] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنفوه ويُصفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .
وفي موضع آخر : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } (المؤمنون : ٩١) [١]

انظر كيف ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقة في هذا الوجود وهي: حقيقة وجود الله ووحدانيته .

كما ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى حقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ } (سبأ : ٤٦)

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ص ٧٠٢٣ ، ٧٠٢٤

الله تعالى يدعو الناس إلى التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

{ أن تقوموا لله . مثنى وفرادى } . . مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء . . وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

{ ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة } . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوي المبين . [١]

وهكذا عهد الله تعالى إلى العقل البشري أن يهتدي إلى أعظم حقيقيتين في مجال العقيدة : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة.

أما في مجال التشريع فقد ترك الحق تبارك وتعالى للعقل أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع منها على الأصول وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويراعى القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان . ولا عجب بعد ذلك أن تعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي . [٢]

إن العقل الكامل لازم للمجتهد بلا جدال يتدبر به معاني الأحكام : يرجع بالفروع إلى أصولها المقررة ، وبالجزئيات إلى كلياتها الثابتة ، ويفصل المجمل في الكتاب بالمفصل من السُّنة ، ويستظهر الخفي منه بالجلي منها ، والبحث عن علل الأحكام الظاهرة ليقيس غير المقرر على المقرر منها ، وغير ذلك من عمل المجتهد في استنباطه من الكتاب والسنة وأخذه بالقياس وانتظامه في سلك الإجماع التي هي أصول الدين على أنه شرع الله الذي بسطه فيها وحصره في دائرتها . أستغفر الله أن يكون في ديننا ما لا يحتمله العقل ولا يسعه تصوره ، بل نحن قررنا أن العقل

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٦ ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٢) د. يوسف القرضاوى "الخصائص العامة في الإسلام " مكتبة وهبة ص ٥٨

السليم مستحسن لكل ما جاء به الدين الحكيم مستهجن لكل ما نهى عنه الشرع القويم" (١)

العقل والغيب

لقد فتح الله تعالى الباب واسعاً أمام العقل ليكتشف سنن الله تعالى في خلقه ، ويسخر القوانين التي تسير الكون في نفعه ، وأراحه من عناء البحث فيما لا مجال للعقل فيه من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله وحده :

{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (الأنعام : ٥٩)

وسد الله تعالى على المؤمن باباً من أبواب الضلال الذي أفنى خلق كثير من الفلاسفة أعمارهم في الوصول إلى حقيقة من حقائقه بعيداً عن دين الله فما زادت عقولهم إلا جهلاً وما زادت قلوبهم إلا ضلالاً إنه باب علم الغيب .

{ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } (الجن : ٢٦- ٢٧)

حتى الأنبياء والمرسلون ، فما بالك بمن دونهم ، لا يعلمون من الغيب شيئاً إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه وهذا هو أعظم البشر أجمعين يقول :
{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
(الأعراف : ١٨٨)
والغيب ما لا يدرك بالحواس ، والحواس هي منافذ العقل ولقد ضل كل من بحث في الغيب بعقله من فلاسفة اليونان ومن نهج نهجهم لذا وجه القرآن الكريم المسلم إلى ما تدركه حواسه في الكون ليبحث فيه فهو مجال علمه ، وأن يؤمن بما أخبره الله تعالى به من الغيب .

ثانياً : دور العقل في فهم كتاب الله المشهود (الكون)

القرآن حافل بالآيات الداعية للبحث في الكون اللافتة إلى بديع صنع الله .

---

(١) طه البشري " مجلة المنار " ج ٩ ص ٧٧١ .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (البقرة : ١٦٤)

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} (نوح : ١٦ – ٢٠)

فالله تعالى يأمرنا بدراسة القمر ، وهناك سورة باسمه ، فهل صعدنا للقمر ودرسناه ؟!

ويأمرنا أن ندرس الشمس ونستفيد من نورها وحرارتها فهل استفدنا من أشعتها وطاقتها ؟!

ويلفتنا إلى أنه سبحانه خلق الإنسان من طين الأرض ، فهل حللنا عناصر التربة وعناصر الإنسان وقارنا بين هذه العناصر وتلك ليزداد يقيننا بالله تعالى ؟!

هل درسنا الأرض وكيف { قدر فيها أقواتها } وما فوقها من أحياء { وما تحت الثرى } من كنوز .

من المؤسف أن كثيراً من المسلمين تركوا كل هذا لأعدائنا لكي يستطيلوا به علينا، وشغلوا أنفسهم بأمور غيبية نهانا رسول الله عن بالبحث فيها ، لقد اشتغل كثير من المسلمين قديماً وحديثا بقضية ذات الله تعالى وصفاته وأقحموها على أصول الدين وشغلوا الناس بها عن البحث في الكون وتدبر آيات الله فيه ، وأصبحت هذه القضية المنهي عن البحث فيها من أهم مباحث العقيدة ، ومن أهم أسباب تمزيق المسلمين شيعاً وأحزاباً وكان الأولى السكوت عنها فلقد نهانا النبي عن التكلم فيها بل عن نهانا عن مجرد التفكير فيها ، وسكت الصحابة عنها فلم يؤثر عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان فيها شيء .

وكثيرة هي الآيات التي يأمرنا جلَّ وعلا فيها بالبحث في الكون وكشف سننه ومن المؤسف أننا تركنا البحث في الكون وسننه لأعدائنا ؛ فتقدموا وتخلفنا ، واحتلوا أرضنا واكتفينا نحن بالدعاء عليهم !!

إن آيات الله في الكون لا يدركها كليل البصر ، ولا يتدبرها ضعيف العقل ، ولا يؤمن بها أعمى القلب وهم للأسف كثيرون في قومنا !!

{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الجاثية : ٣-٥)

والمحجوبون عن رؤية آيات الله في الأنفس وفي الآفاق نماذج رديئة للإسلام وفتنة عنه ولو أطالوا القراءة وتحريك الشفاه .

ولو درسنا آيات الله في الآفاق لزاد إيماننا به تعالى ولا نصلح حالنا في الدنيا .

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } (فصلت : ٥٣)

ويلفتنا الله تعالى إلى ما في الأرض من كنوز ، وما في أنفسنا من إعجاز ، لكننا أهملنا علوم الزراعة والري ، والهندسة ، والجيولوجيا ، والبترول والتعدين ،... كما أهملنا علوم الطب والطبيعة ، وعلوم الإنسان حتى جاء علماء الغرب فاستولوا على خيرات أرضنا ،وأجهزوا على ثرواتها ، وعشنا نحن عالة على علومهم الغث منها والسمين .

{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (الزاريات: ٢٠ – ٢١)

إن الذاكرين لله حقاً ليس أولئك الذين يرددون أوراداً لا تتجاوز حناجرهم إنما أولئك الذين يتدبرون هذا الكون العظيم ويستنبطون أسراره التي أودعها الله تعالى فيه ويسخرونها لنفع الناس وتردد ألسنتهم أمام إبداع الخالق جل وعلا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ومن هدى الآيات يتضح لنا أن الكون هو ميدان الإبداع والاكتشاف ، والاختراع، وأن بحث المؤمن في الكون عبادة ، وتدبره فيه خشية .

تأمل هذه الآية العجيبة التي تجعل خشية الله تعالى محصورة في العلماء وفي مقدمتهم علماء الكون من المؤمنين بالطبع .

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }
(فاطر: ٢٧ – ٢٨)

إذا كان ذلك كذلك فأين علماء المسلمين في علوم الكون المختلفة ؟!
ماذا بعد هذه الآيات من دعوة لكي يغزو المسلم الفضاء ويكشف أسرار السماء ؟!

ماذا بعد هذه الدعوة لكي يركب المسلم الماء ، ويدرس ما فيه من أحياء ؟!

ماذا بعد هذه الدعوة لكي يضرب في الأرض و يدرس الحيوان والتربة والنبات ، ويخترق الأرض و يخرج ما فيها من معادن وثروات ؟!

إنه إن عمّرَ الكونَ وعَبَدَ الله ، فاز بنعيم الدنيا وأرضى مولاه ، أي فاز بحسنتي الدنيا والآخرة .

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (البقرة : ٢٠١)

فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرفت كلّ شر فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلَّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام (١) .

وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين.

عن أَنَس، قَالَ: " كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (متفق عليه)

فبالإيمان الصادق والعلم النافع والعمل الصالح يجمع الإنسان بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة كما فعل سلفنا الصالح الذين آمنوا وعملوا الصالحات فدانت لهم الدنيا : شرقاً وغرباً ، وانتشر دين الله في سائر البقاع ، وانتفع بعلمهم سائر الأصقاع .

{ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران : ١٤٨)

كما يرفع الله تعالى درجات العلماء في الدنيا والآخرة .

{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (المجادلة : ١١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٥٨

وجاء " في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } (النصر: ١) فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجَلُ رسول ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم " (١)

إن دراسة الكون نهج قرآني واضح ، لبناء الإيمان : أولاً : ولدعمه وحراسته . ثانياً: ولمنافع البشر ومتاعهم . ثالثاً : ومع ذلك فإن أجيالاً كثيفة أغلقت مشاعرها دون هذه الدارسة . (٢)

ثالثًا : دور العقل في دراسة ، واستخلاص العبرة من التاريخ .

أمرنا الله تعالى بأن ندرس تاريخ من سبقونا لنأخذ منه العبرة ونستفيد من إصلاحهم ولا نكرر أخطاءهم ، ولعمري إن في دراسة التاريخ لفوائد جمة وعبرة لمن يعتبر .

يقول تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } (العنكبوت:٢٠)

ولم يكتف الله الرحمن الرحيم بأمرنا بالبحث في تاريخ من سبقونا بل أمرنا أيضاً بدراسة آثارهم الباقية .

{ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } (الصافات : ١٣٧– ١٣٨)

كانت قريش تمر وهي في طريقها إلى الشام بمدائن قوم لوط لذا أمرهم الله تعالى بدراسة هذه الآثار وتاريخ هذه القرية ليستخلصوا منها العبرة ولا يكونوا أمثالهم فالعاقل من اتعظ بغيره .

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أ فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} (الفرقان:٤٠)

فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا : أي في أسفارهم ليعتبروا .

{وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ } (الفجر : ١٠)

والأوتاد : الآثار ذات الدعائم المشدودة إلى الأرض بقوة مثل المسلات وغيرها.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٣٠٠ .

(٢) محمد الغزالي " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " دار الصحوة للنشر والتوزيع ص ٧٠

أ ليس عاراً على المصريين أن تظل آثارهم خرساء حتى يأتي الأجنبي – شامبليون – فيستنطقها ؟!

أما كان أولى بنا أن نتعلم لغة أجدادنا ونفهم ما تركوه لنا من حضارة شهد لها التاريخ بالخلود ، والعالم بالعبقرية ؟!

ويحدثنا القرآن الكريم عن ثمود (قوم نبي الله صالح) وعن آثارهم .

{ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ } (الحجر : ٨٢)

{ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ } (الفجر : ٩) .

وبعد أن كذبت ثمود نبي الله صالح وعقروا الناقة أهلكهم الله تعالى .
{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا }
(الشمس : ١١– ١٥)

وظلت بيوتهم شاهدة عليهم وعبرة للعقلاء من بعدهم .

{ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (النمل : ٥٢)

ولم يكتف الله عز وجل بأن أمرنا بدراسة تاريخ الإنسانية وآثار القدماء بل قص علينا قصصا كثيرة من حياة الأمم .

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } (يوسف : ٣)

ومعنى القص ليس مجرد الحكاية تروى للتفكه أو لشغل الفراغ ، إنما القصص يرويها القرآن لنتتبع أثرها بما توفر لدينا من علوم ومعارف ، ونستخلص منها الحكمة و المعرفة.

فكم من العلوم والمعارف سوف نجنيها إذا بحثنا بحثا علميا دقيقا للآثار الفرعونية مثلا .

وهذا هو معنى القصص كما جاء في القرآن الكريم ومعاجم اللغة " قَصَصْتُ الشيء إذا تتبّعْت أثره شيئاً بعد شيء؛ ومنه قوله تعالى: وقالت لأُخْتِه قُصّيه؛ أي اتّبعى أثَرَه "(١)

---

(١) مادة قصص في معجم لسان العرب .

ويوضح الله تعالى الهدف من القصص فيقول :

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ } (يوسف : ١١١)

تأمل معي هذه الآية العجيبة التي توضح لنا الهدف من دراسة تاريخ الإنسانية، وهو العِبْرة أتدرى ما معنى العبرة ؟

العبرة هي : " العَجَب. واعْتَبَر منه: تعجّب. وفي التنزيل: فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبصار؛ أي تدبّروا وانظُروا ، والعبرة : كالمَوْعظة مما يَتّعظُ به الإنسان ويَعمَل به ويَعتبر ليستدل به على غيره. والعِبْرة: الاعتبارُ بما مضى " [١]

ومَن هؤلاء الذين يتدبرون التاريخ ويستدلون به على غيره ؟

يجيبك القرآن الكريم : { عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ }

وأولو الألباب الذين يعرفون أن طبيعة الإنسان واحدة منذ خلقه الله تعالى – وإن كانت معارفه متنامية – وأن على العاقل أن يتعظ بغيره حتى يدرك ما أدرك من نجاح ويتجنب ما أصابه من فشل ، والاتعاظ غير التقليد.

فإذا كان الاتعاظ يدفع للأمام فإن التقليد يشد للخلف .

والقرآن الكريم يجعل السبب الرئيسي في هلاك الأمم والشعوب السالفة هو الظلم، والظلم أنواع كثيرة كما بينا ذلك في موضع سابق .

{ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } (الحج : ٤٥)

والناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أنه ما عزت أمة إلا بسلطان وما ذلت إلا بظلم ، وما تكامل بناؤها إلا بدين .

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ } (الرحمن : ٣٣) .

السلطان : هو الحجة والبينة كما يعنى القوة ،و القهر[٢] أي لن تستطيع أمة من الأمم أن تبسط سلطانها إلا بحجة علمية ، أو قوة عسكرية ، أو كلاهما معاً .

---

(١) مادة عبر في معجم لسان العرب .

(٢) انظر مادة سلط في لسان العرب ، والقاموس المحيط .

فإذا كان الهكسوس والتتار والرومان مثلاً [١] ، قد بسطوا سلطانهم بالقوة وحدها فإن اليونان ، والبلاد الأوربية الحديثة ، وأمريكا المعاصرة قد بسطت سلطانها بالعلم والقوة جميعاً .

لكن الحضارة الفرعونية ، والحضارة الإسلامية [٢] إنما كان سبب تحضرها وقوتها هو الدين الذي يشمل فيما يشمل على قوة العقيدة وقوة الأخلاق وقوة العلم إلى جانب القوة العسكرية .

ما الحضارة ؟

الحضارة لابد أن يتوفر فيها جانبان : دين سماوي (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) ، وإبداع إنساني : علمي (علوم طبيعية ، ورياضية ، وفلكية ...) وتقني (اختراعات متطورة) ومادي (تشيد وبناء ...) وفني (أدب ، ورسم ، ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة : فروسية ، رمي ، سباحة ، عدو ، مصارعة ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحياً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) ونفسيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابد أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة ، فيما نعلم ، إلا في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة .

وليست هذه دعوى مزعومة ، أو مفخرة مكذوبة ، إنما هي الحق الأبلج .

رابعاً : دور العقل في فهم الواقع

أما عن دور العقل في فهم الواقع فقد أعطى الإسلام العقل مجالاً واسعاً في فهم الدين في ضوء الواقع مما جعل الدين الإسلامي يمتاز عن غيره من الأديان أنه يجمع بين الاستفادة من خلاصة ما أبدعه البشر من علوم نافعة في فهم كتاب الله وسنة نبيه فأن هذا الدين العظيم غير مبتوت الصلة بأحوال الناس ومصالحهم في

---

(١) في بداية دولتهم وقبل تأثرهم باليونان علميّاً وثقافياً .

(٢) ربما تكون هناك حضارات أخرى تشترك معهما لكن لا تتوفر لدى معلومات كافية للحديث عنها مثل حضارة ما بين النهرين .

كل زمان ومكان ولمَ لا .. وهو الرسالة الخاتمة وآخر بيان من الله تعالى لخلقه جميعا { هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } (آل عمران : ١٣٨)

ولمَ لا.. ورسول الله مبعوث رحمة للعالمين { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء : ١٠٧) ومبعوث لكافة البشر من عرب وعجم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا }(سبأ : ٢٨)

لذا فإن هذا الدين العظيم يراعى أحوال الناس في كل زمان ومكان بفضل العلماء الذين يجددون للإسلام شبابه { إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها }(أبو داود والحاكم و البيهقي) هؤلاء العلماء الذين قال الرسول فيهم (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) (رواه مسلم) هؤلاء العلماء أمناء الله على خلقه لأن الله تعالى فقههم في الدين وبصرهم بأحوال الناس (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة) (رواه مسلم وأحمد)

هؤلاء العلماء الذين ورثوا الفهم الصحيح للدين عن النبي ﷺ في فهمه الدين والدنيا فقد كان النبي عالماً بأحوال بالناس ليس المسلمين فحسب بل عالماً بأحوال الأمم المختلفة والملوك وإلا فكيف عرف أن في الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد لذا وجه الهجرة الأولى إليه ولم يوجهها لقيصر الروم أو كسرى الفرس .

ونجده ﷺ يختار المدينة مكاناً لهجرته، ويتعامل مع جميع الأطراف الموجودة فيها وحولها بأسلوب يناسب أحوالها . وعندما أرسل ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : " إنك تأتى قوماً أهل كتاب " (متفق عليه) وهذا من إدراكه ﷺ واقع كل بلد وما يحتاج إليه؛ ولذلك قال له:" فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله "(متفق عليه)

وكذلك نلمس عمق هذا العلم في غزواته ، ورسائله إلى الأمم والملوك والقبائل. وكذلك يبرز هذا الجانب في استقباله للوفود، وتعامله معهم، وإنزاله للناس منازلهم .

إن لم يكن هذا هو الذروة في فقه الواقع فأين يكون ؟

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب :٢١)

ومن أقوى الأدلة على عناية الكتاب والسنة بفقه الواقع قصة الفرس والروم ، وفيها يبرز اهتمام الصحابة أيضا بهذا العلم ، وإدراكهم لأهميته، والقصة كما وردت في سورة الروم، أنه قامت حرب بين فارس والروم، فانتصر الفرس على الروم، وهنا حزن المسلمون لهذا الأمر، فقام أبو بكر رضي الله عنه وراهن أحد المشركين على انتصار الروم على الفرس، وحدد لذلك أجلا قصيرا.

فأخبر أبو بكر رضي الله عنه الرسول ﷺ بذلك فأقره، وأمره بزيادة مدة الأجل إلى عشر سنين، ففعل أبو بكر، وجاءت الآيات في سورة الروم (الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الروم : ١- ٥)

ويبرز فقه الواقع في هذه القصة فيما يلي :

١- أن القصة بين فريقين ليسا مسلمين ومع ذلك خلدها القرآن الكريم ؛ لأثرها المباشر على حياة المسلمين .

٢- اهتمام المسلمين بهذه القضية، وحزنهم عندما انتصرت فارس، وفرحهم عندما انتصر الروم.

٣- معايشة أبى بكر لهذه الأحداث، والمراهنة على انتصار الروم.

٤- إقرار الرسول ﷺ لأبى بكر بل طلبه أن يمد في الأجل لأن (البضع) إلى عشر سنوات . والقضية ليست قضية سياسية بحتة كما يتصور كثير من الناس ، بل هي قضية مبدأ ، فانتصار الملحدين على أهل الكتاب يؤثر على المسلمين ، وانتصار أهل الكتاب دليل على انتصار الحق على الباطل ، وهو مؤذن بانتصار المسلمين على أهل الكتاب بعد ذلك ؛ لأنهم هم الذين على الحق .

ونحن نعيش في واقع سريع التغير كثير التقلب فعلى مستوى العلمي لا يكاد يوم يمر إلا وأتى باكتشاف جديد أو بعلم فريد . وعلى المستوى الاقتصادي فإن التغير فيه أسرع ، والصراع فيه أشد ، أما على المستوى السياسي والعسكر فالأمر أخطر والخطب أفدح .

إن الجهل بالواقع وعدم إعمال العقل واستخدام أحدث الوسائل التكنولوجية قد جعلنا غنيمة لأعدائنا ومجالاً لاستثمارهم على جميع المستويات ، فقد أصبحنا البقرة الحلوب التي يتصارعون عليها .

فعلى المستوى الاقتصادي سيطر الغرب الصليبي على جميع مواردنا وباعونا جميع منتجاتهم ، فاغتنوا وافتقرنا ، وتقدموا وتخلفنا ، وأصبحنا عالة على جميع ما ينتجون من الإبرة إلى الصاروخ ولو تلفت أحدنا حوله ليجد معظم ما حوله – إن لم يكن كل – من إنتاج الغرب فالثياب التي نلبسها ، والأجهزة التي نستخدمها ، ووسائل المواصلات التي نركبها ، والأسلحة التي نتسلح بها ، وكثير من المطعومات والمشروبات التي نأكلها من الغرب ...

والحقيقة أن الفقيه لا بد له من أن يعيش واقعه ويطالع الجديد في العلوم الطبيعية والحكمية فمجموعة العلوم إنسانية والاجتماعية والتاريخية، التي لا يرى النصيون الحرفيون فائدة منها ، لم تعد تنفع معها النظرة العابرة، أو الملاحظة الآنية، أو الأُمنية المخلصة. حتى أنه يمكن القول: بأن وسائل وأدوات سبر حقيقة المجتمع، وكشف خفاياه، ومعرفة واقعه، وتحديد وجهاته، أصبحت علوماً. فعلم الإحصاء وحصر الإمكانات والاستطلاعات والمسح والبحث الاجتماعي بوسائل منهجية للتقويم والقياس لم يعد أرقاماً جامدة، وإنما يعبر عن مؤشرات ويحمل دلالات لا يمكن تجاهلها عند أي دراسة أو تخطيط أو تجديد أو تنمية للموارد البشرية والمادية.. فلم يعد علم الإحصاء أداة ووسيلة، وإنما أصبح مقوماً لا يمكن تجاوزه.

حتى أن استطلاع الرأي والتعرف على التحولات الاجتماعية وأسبابها، أصبح علماً وفناً، لا يقتصر على قراءة الحاضر وإنما يتجاوز إلى التأثير فيه والتوجيه له. وليست الاستبيانات وفنية وضعها وما يطرح فيها من أسئلة، وما يتوصل إليه من نتائج، بأقل شأنًا في فقه الواقع وامتلاك مفاتحه، والدخول إليه من أبوابه، بعيداً عن المجازفات والخبط الأعشى. إن علوم فقه الواقع اليوم أشبه بالحواس والنوافذ العقلية للحركة الإنسانية، والأمة التي تفتقدها في عالم اليوم أمة تعيش فيما يشبه مدارس الصم والبكم. (١)

وكان من شروط المفتي أن يكون عارفًا بأعراف بلده وزمانه وعادات أهله، حتى إن ابن عابدين قال: " من لم يكن عالمًا بعادات أهل زمانه فهو جاهل " .

إن تغير الزمان والمكان أو أحدهما يعني تغير الواقع.

---

(١) أحمد بوعود " فقه الواقع (أصول وضوابط) مكتبة مشكاة الإسلامية ص ١٥ ، ١٦

وما يكون محققًا لمصلحة في زمن ما قد لا يحققها في آخر، وما يحقق مفسدة في زمن ما قد لا يحققها في زمن آخر.. وقد رأينا من ذلك إسقاط عمر رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم، عندما رأى أنه وبتغير الزمان، لم يعد يحقق تلك المصلحة، ولم تعد هناك حاجة إلى ذلك.

وإن النظر في الواقع والعلم بمكوناته، في الزمان والمكان، إليه يرجع في تقدير المصلحة وإنشاء الفتوى وتغير المواقف. وقد عقد لهذا ابن القيم فصلاً عنونه: تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والعوائد والنيات)، يقرر فيه أن الفتوى، بما بنيت عليه من مصلحة، تتغير بتغير العناصر المذكورة . (١)

والعجيب أن أكثر البلاد تمسكاً – في الظاهر – بالدين هي أكثر البلاد اعتماداً على الغرب في كل حياتها فلا تكاد تنتج شيئاً تستخدمه أو تزرع شيئاً تأكله ، والأعجب أن علماءها لا يكفون عن اتهام حكامنا بأنهم عملاء للأمريكان واتهام علمائنا بالنفاق لأننا عملنا معاهدة مع إسرائيل استرددنا بها أرضنا المحتلة ويشاء الله أن يبتليهم بالأمريكان فلا يكاد صدام حسين يغزو الكويت حتى هرول حكامهم للأمريكان يطلبون منهم العون والمدد باذلين لهم الغالي والنفيس وإذا بهم وهم الأتقياء الورعون يستعينون بالكفار على إخوانهم المسلمين !! وأرسى الأمريكان وحلفاؤهم قواعدهم في البلاد العربية وأخضعوها لسيطرتهم ، وأجبرهم الأمريكان على تغير مناهج التعليم الديني في بلادهم ولم نسمع لعلمائهم صوتا يعارض أو يتهم حكوماتهم بالخيانة والعمالة . ونحن إذ نقول هذا ليس من باب الشماتة – فاللهم لا شماتة – فهم إخواننا في الإسلام والعروبة إنما نقوله هذا من أجل أن نتعلم من أخطائنا وألا نكررها وأن نفقه الواقع المر الذي نعيش فيه ذلك الواقع الذي كان في تجاهله ضياع بلاد الإسلام وضياع هيبة المسلمين .

فماذا جنى النصيون الحرفيون من جهلهم بموازين القوى العالمية ومن ملاحقة التطور الحادث في مجالات العلم و التقدم التكنولوجي المتنامي ؟ ماذا جنى هؤلاء من إكالة السباب لأعداء الإسلام من الغرب المسيحي أو لعميلتهم في الشرق إسرائيل، ومن إكالة السباب – أي والله السباب – للمسلمين واتهامهم بالخروج على الدين والسير في ركب الغرب الكافر وعدم الحكم بشرع الله كما يفهمونه هم ؟

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المصلحة الرجوع إلى كتابنا " المدارس السلفية " الباب الأول الفصل الخامس " بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد " .

ماذا جنى هؤلاء من ترديدهم لبعض الأحاديث الشريفة بلا فقه ، ولـبعض الآراء لبعض السلف دون وعي ؟

ماذا جنى هؤلاء من عدم فهم الدين الفهم الصحيح العصري واقتصارهم من الدين على إرسال اللحية وتقصير الجلباب ، ولبس النقاب وتحريم التصوير والغناء ... وجعل الحرب حرب دفاع عن هذه الأمور ، وحرب هجوم على من خالفهم فيها ؟

ماذا جنى هؤلاء من عدائهم للمسلمين الذين يختلفون معهم في الرأي ويأخذون بآراء الفقهاء والعلماء التي تتناسب وحياتهم ومعيشتهم ؟

لقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه المفاهيم أن انتشر الإرهاب باسم الدين ، وانتشر التخلف باسم الدين ، وارتكست الأمة وتراجعت مكانتها ، واحتلت أراضيها وديست كرامتها .

وبعد هذا الحديث الطويل عن العقل ودوره في فهم كتابي الله المقروء والمشاهد ، وكتابي : الإنسانية التاريخ ، نتحدث عن نشأة الفرق الإسلامية ، وعلم الكلام ، ونشأة السلفية كرد فعل لهذه الفرق والجماعات .

نشأة الفرق الإسلامية

في عهد النبوة والصحابة كان هناك اتفاق فيما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو ما كان ظاهرًا متواترًا من أحكام الدِّين، معلومًا عند الخاصِّ والعامِّ دون نظر ولا تأمل وجوباً أو تحريماً ، مثل: توحيد الله تعالى ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص أو عيب ، وأن الملائكة خلق الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأن رسل الله تعالى مبعوثون لهداية البشر وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل علي سيدنا محمد ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأن هناك بعثاً وحساباً بعد الموت وأن الأبرار في نعيم وأن الفجار في جحيم ، كذلك من المعلوم من الدين بالضرورة أركان الإسلام الخمس وتحريم الزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين والسحر والقتل والسرقة والغش والسرقة والكذب ... إلى غير ذلك من المسائل التي ينتشر بين المسلمين وجوبها أو تحريمها في العقيدة والشريعة .

أما الاختلافات فقد حدثت في بعض الأمور الجزئية غير قطعية الثبوت والدلالة واجتهد فقهاء الصحابة في فهمها ، ولم يترتب على اختلافهم فيها فُرقة أو خلاف إنما وقعت الفرقة والخلاف بسبب السياسة وليس الدين .

واختلف صحابة رسول الله كثيراً في غير المعلوم من الدين بالضرورة إما بسبب عدم علمهم بالنص أو بسبب اجتهادهم في فهمه .

قال ابن القيم :" أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً " (١)

وكان الصحابة وتابعيهم بإحسان يتقبلون هذه الآراء المختلفة بالقبول الحسن لما فيها من سعة ورحمة ، ويتخيرون منها ما ترتاح إليه قلوبهم وتطيقه نفوسهم أو يجتهد علماؤهم فينشئون آراءً جديدة .

ولم يعرف الصحابة وتابعيهم بإحسان المعارك الكلامية حول الآراء الفقهية ؛ فقد كان يشغلهم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وإعلاء رايته ، والسعي على الرزق ولكن مع الفتنة الكبرى بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما ظهرت الفرق السياسية مثل : الشيعة والخوارج ثم ما لبثتا أن تحولتا إلى فرق دينية تستمد من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة أو الموضوعة حجيتها.

يقول رشيد رضا " تلقى العرب الأميون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في بيانه بالقبول ؛ إذ لم يكن لديهم فلسفة دينية يحكمونها في دين التوحيد الفضيلة ، بعد أن اجتث الله به شجرة الشرك الخبيثة ، ولا كان لديهم تقاليد تشريعية يعقدون بها شريعته العادلة النقية ، فسهل فهم الشعوب والأمم له منهم ، وتلقوه بالقبول عنهم ، فلم يلبث الألوف من مواليهم الأعاجم منذ العصر الأول والثاني أن حذقوا لغة هذا الدين ففهموا كتابه المنزل ، وشاركوا أساتذتهم العرب في نشر الدعوة وتدوين اللغة والسنة ، ثم فيما استلزم ذلك من فتح الأمصار ، ونشر دين الله في الأقطار ، انتشر الإسلام في الشرق والغرب بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ ، فبلغ ملكه في جيل واحد ما لم يبلغ ملك الروم (الرومان) في ثمانية قرون ، فكانوا أعظم دول الفتح والاستعمار في الأرض ، وأشدها مراعاة للرحمة والعدل . (٢)

نشأة علم الكلام

لما اتسعت رقعة الإسلام وفتح المسلمون بلاد فارس والروم البيزنطيين حتى امتد ملكهم من غربي الصين إلى جنوب فرنسا واختلط المسلمون بسكان هذه البلاد .

---

(١) ابن القيم "إعلام الموقعين " ج ١ ص ٤٩

(٢) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣

وكما انتشر الإسلام بين أهل البلاد المفتوحة انتشر بين المسلمين علومهم ومعارفهم وفلسفتهم ، وبدأت المعارك الكلامية حول الإسلام والأديان القديمة السماوية مثـل : اليهودية أو المسيحية أو الوضعية مثل : المانوية والزرادشتية والمزدكية وغيرهـا ، وظهر علم الكلام الذي يهتم ببحث العقائد الإسلامية وإثباتها بالأدلة العقلية والنقليـة والتصدي للتحديات التي فرضها اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى .

ونظراً لانتشار البدع في المسلمين ، وتفشي فلسفة الأمم وتقاليد الملل من أقطارها لذا احتاجوا إلى التوسع في التشريع المدني والقضائي والسياسي ، فوضـعوا علـم الفقه بداعية حاجة الحكام ، وعلم الكلام لحراسة العقائد من البدع ونظريات الفلـسفة المختلفة ، فاختلط بعقائد الإسلام وأحكامه العملية ما ليس منها ، وخرجت تعاليمـه من فضاء السهولة والبساطة واليسر ، إلى مضايق الحزونة والتعقيد والعـسر ؛ إذ كان الأعرابي في عهد النبي ﷺ يتعلم من عباداته الشخصية في مجلس واحـد مـا يكون به مسلمًا ، فصار يتعذر على المسلم الناشئ بين المسلمين أن يـتعلم مذهبـه الديني الموروث في عدة سنين ؛ لأن الأحكام كثرت بأقيسة المذاهب وتفريعاتهـا ، وعسر فهمها بضعف لغة المصنفين لكتبها ، فضاق ذرع الأمـة بهـا ، وانحـصر الطالبون لتحصيلها في عدد قليل من أهل الأمصار ، يطلبها أكثرهم لأجل الـدنيا لا لأجل الدين . (١)

وهكذا كانت نشأة علم الكلام في التاريخ الإسلامي نتيجة ما اعتبـره المـسلمون ضرورة للرد على ما اعتبروه بدعة من قِبَل هذه الطوائف وكان الهدف الرئيسي هو إقامة الأدلة وإزالة الشُّبَه .

نشأة السلفية

إن طبيعة اللون الفلسفي من ألوان التفكير وطبيعـة البـراهين التـي اسـتخدمها المتكلِّمون قد جعلت هذا الفكر فكر " صفوة " لا فكر عامة وجمهور بـل وذلـك أن العامة والجمهور قد وقفت بها مداركها عند النصوص بل وعند ظواهر النـصوص في أغلب الأحيان .. بل لقد ارتابت العامة في جدوى هـذا المـسلك الـذي سـلكه المتكلِّمون ، بل وفي عقائد هؤلاء المتكلمين ! وزاد من هذه الريبة غلو اللاهـوتيين

---

(١) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣

من غير المسلمين في رفض النصوص قد جعل نفراً من المتكلمين يهملون النصوص الإسلامية أو يغضُّون من شان بعض المأثورات أو يؤولونها تأويلاً لا يبرأ من العسر والاعتساف . حتى جاء الوقت الذي خُيِّل فيه إلى العامة والجمهور أن إسلام عرب شبه الجزيرة الأول إسلام النصوص الواضحة البسيطة الغنية عن التأويل ، والذي عرفه الناس زمن البعثة والصحابة والتابعين ، قد أصبح غريباً في هذا الواقع الفكري الجديد . [1]

إن بعض هؤلاء المتكلِّمين غالى في استخدام عقله فتعدى فروع الدين الجزئية التي يجوز الاختلاف فيها ، من أهل الاجتهاد ، إلى المعلوم من الدين بالضرورة الذي لا ينبغي الاختلاف فيه من أهل الاجتهاد فضلاً عن غيرهم فتجرءوا على ثوابت الدين في العقيدة والعبادة والشريعة كما يفعل بعض العلمانيين اللا دينيين في زمننا فهم لا يقبلون من الدين إلا ما وافق هواهم واستساغته عقولهم .

الإمام أحمد ومدرسة أصحاب الحديث

الإمام أحمد بن حنبل أحد الأئمة المشهورين الذي زاد عن الإسلام في عصر انتشرت فيه الآراء الفاسدة في الدين ككثير من آراء الخوارج والمعتزلة والشيعة والجهمية والماتدرية ... الذين تأولوا نصوص الدين وحرَّفوا الكلم عن مواضعه انتصاراً لمذاهبهم من غير دليل شرعي على صحة آرائهم بل ربما وصل بهم الشطط إلى حد التقوُّل على الرسول وإسناد إليه ما لم يقله من أحاديث موضوعة ، وفي هذه الظروف ومع تلك المذاهب رأى الإمام أحمد أن يغلق على المسلمين أبواب الفتن وأن يعتصم بالحديث النبوي الشريف وآراء الصحابة بلا تأويل لتلك النصوص يصرفها عن ظاهرها ذلك التأويل الذي كان في ذلك العصر سلاح المذاهب الفاسدة فأراد أن يجردهم من أهم أسلحتهم ألا وهو سلاح القول في الدين بالرأي وتأويل النصوص على حسب الهوى ؛ فعمد إلى أحاديث النبي فجمع أكبر قدر منها – وإن كان ضعيفاً – كما جمع ما بلغه من آراء الصحابة وفتاويهم ليكون هناك مرجعية نصية لهذا الدين يحتكم إليها بدلاً من فوضى الآراء الفاسدة التي تستمد مرجعيتها من نفس أمارة بالسوء أو هوى متبع أو عقل مأفون أو فلسفة وثنية أو أديان سماوية منسوخة أو ديانات بشرية باطلة مزهوقة كتلك الآراء التي تسللت

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ١٢

للمتصوفة ، والخوارج ، والشيعة ، والجهمية ، والقدرية ، والمعتزلة ، والماتدرية ... لقد كان أحمد بن حنبل أشبه ما يكون بِمُحَدِّثي عصر الصحابة لا فقهائهم أقرب لعبد الله بن عمر بن الخطاب لا لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وكان عصر الإمام أحمد قريب عهد بعصر النبوة فلم يكن هناك اختلاف كبير بين العصرين في طبيعة الحياة فلم تكن آراؤه تصدم واقعه أو تشق على الناس أو توقعهم في الحرج ، ومن لم يعجبه مذهب الإمام أحمد النصي فأمامه مذاهب فقهية أخرى كمذاهب الأئمة الفقهاء (أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والجعفري ، وعبد الله بن المبارك ...)

الأصول التي بنى عليها أحمد بن حنبل فتاويه ...

بنى أحمد بن حنبل فتاويه على خمسة أصول هي :

الأصل الأول : النصوص فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائناً من كان .

الأصل الثاني : الصحابة فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف لها مخالف منهم فيها لم يعدها إلى غيرها ، ولم يقدّم عليها عملاً ولا رأياً ولا قياساً .

الأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخيَّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكي الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

الأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وهو الذي رجَّحه على القياس .

الأصل الخامس : القياس فإذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص ولا قول الصحابة أو واحد منهم ولا أثر مرسل أو ضعيف عدل إلى القياس فاستعمله للضرورة .

فهذه الأصول الخمسة من أصول فتاويه وعليها مدارها وقد يتوقف في الفتوى لتعارض الأدلة عنده أو لاختلاف الصحابة فيها أو لعدم اطلاعه فيها على أثر أو قول أحد من الصحابة والتابعين .

وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف كما قال لبعض أصحابه إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام وكان يمنع من استفتاء من يعرض عن الحديث ولا يبني مذهبه عليه ولا يسوغ العمل بفتواه .[1]

وهكذا .. وعلى هذا النحو أضفت الحركة السلفية الحنبلية القداسة على النصوص والمأثورات ووقف منهجها النصوصي عند هذه النصوص والمأثورات ، بل لقد وقف عند ظواهرها عندما رفض أن يعمل فيها الرأي أو الاجتهاد أو التأويل أو القياس ، حتى عندما كانت تتعارض وتتناقض نصوص هذه المأثورات ومضامينها.

في أمور الدين ، لا الدنيا ، يكاد يتفق علماء الإسلام على أنه لا مجال للرأي أو الاجتهاد إذا وجدت النصوص ، لكن العلماء المجتهدين ، من غير أتباع السلفية الحنبلية ، يشترطون في النصوص التي لا اجتهاد معها أن تكون " قطعية الدلالة وقطعية الثبوت " بمعنى أن تكون دلالتها واضحة وقاطعة ، لا تقبل الاحتمالات وأن يكون ثبوتها قطعياً من حيث الرواية ، والأكثرون يشترطون في النصوص الدالة على الأمور اعتقادية أن تكون " متواترة " ولا يقبلون الإلزام في هذا الباب بأحاديث الآحاد .

أما إذا لم تكن النصوص قطعية الدلالة وقطعية الثبوت فإنهم ، غير السلفية الحنبلية ، لا يرون وجودها مانعاً من إعمال الرأي فيها والاجتهاد معها .

فالاجتهاد مع النصوص ، في هذه الحالات ، أمر وارد ، بل ومقرر عند غير السلفيين (الحنابلة) من العلماء .[2]

الموقف الذي وقفه السلفيون الحنابلة من الرأي وقفوه من القياس أيضاً فقد رأوا أن النصوص والمأثورات قد أحاطت بحكم جميع الحوادث ، الماضي منها والحاضر والمستقبل ، ومن ثمَّ فلا حاجة للقياس كما أنه لا حاجة للرأي ؛ لأن النص إذا وجد، وهو دائماً موجود ، فلا قياس .

واتساقاً مع منهج السلفية النصوصي رفضوا " التأويل " الذي هو : صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله بل ذهبوا إلى أن التأويل هو الذي أفسد سائر الأديان ، وحولها عن الاستقامة والسداد .[1]

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج١ ص ٢٩ -٣٣ بتصرف .
(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

وينبغي فهم آراء الإمام أحمد الداعية في الاعتماد على النصوص والمأثورات لا على الرأي والقياس والاستحسان في إطار ظروف عصره الذي لم يكن الحديث الشريف قد تم جمعه جمعاً كاملاً ولم يكن قد تم بيان الصحيح منه وغير الصحيح ، ويكفي أن نقول أن الكتب الستة أصح الكتب في الأحاديث لم تكن قد جمعت بعد ؛ ولم يكن قد تم شرحها وبيانها ، ولم يكن علم أصول الفقه قد انتشر بالشكل الكافي ؛ ولم يكن قد تم انتشار كتب علوم العربية من نحو وصرف ولغة وبلاغة ولا غيرها من العلوم التي تعين على فهم الدين الفهم الصحيح إنما ما كان قد تم منها فهو مجهودات فردية لم يكتب لها الذيوع والانتشار ولم تقم لها المدارس التي تقوم على تعليمها ، ومما أفسد الحياة العلمية آنذاك كثرة المذاهب الدينية والسياسية واستخدم الدين لتحقيق مصالح دنيا وكثرة علماء السوء وانتشار قالة الباطل ووضع الأحاديث.

أحمد بن حنبل فقيه أم محدث ؟

يقول الإمام أحمد عن مسنده : " إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فإن كان فيه وإلا ليس بحجة " [٢] ويقول أيضاً عن مسنده : " عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله ﷺ رُجع إليه " [٣] والإمام أحمد في عمله هذا يعد أقرب للمحدِّثين مثل : البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود منه إلى الفقهاء المجتهدين : مالك وأبو حنيفة والشافعي والليث بن سعد ... والذي يؤكد ذلك :

١- حرص الإمام أحمد الشديد على جمع الحديث في كتاب " المسند " الذي يعد موسوعة كبيرة تشتمل على ما يزيد على ثلاثين ألف حديث " بإسناد أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ وأئمة الصحابة وينتهي بأسانيد الأنصار والمكيين والمدنيين وأهل الكوفة والبصرة والشاميين وقد ذكر العلماء أن الإمام لم يكن يقتصر في روايته على الحديث القوى ولذلك لم تبلغ أحاديثه في صحتها مبلغ أحاديث البخاري ومسلم التي يضعها المحدثون في الدرجة الأولى من الصحة بل أن فيها كثيراً من

---

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٣١ .
(٢) " إسلام بلا مذاهب " د. مصطفي الشكعة ص ٤٩١
(٣) نفسه ص ٤٩١

الأحاديث الضعيفة وفي عبارة ابن حنبل نفسه ما قد يشير إلى ذلك حيث يقول " قصدت في المسند الحديث المشهور وتركت الناس تحت ستر الله تعالى ولو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء . " (١)

٢- عدم ترتيب مسنده بحسب الموضوعات الفقهية كما فعل الفقهاء السابقين عليه أو اللاحقين به فقد " رتب مسنده حسب الصحابي الذي روى الحديث فيجمع في موضع واحد كل الأحاديث التي رواها ذلك الصحابي ثم تتبع بالأحاديث التي رواها صحابي آخر وهكذا ، والكتاب بهذا يخالف في منهجه ما سارت عليه كتب الحديث من قبله مثل " الموطأ " ومن بعده مثل " الجوامع الصحاح " فكلها مرتبة بحسب الموضوعات الفقهية وغير الفقهية ولذلك لاحظ العلماء أن الكتاب تصعب مراجعته للاستشهاد به في المسائل الفقهية . " (٢)

٣- لم يفرد الإمام أحمد كتاباً مستقلاً للفقه كغيره من الفقهاء ككتاب " الموطأ " الإمام مالك وكتاب " الأم " للإمام الشافعي وكتاب " الفقه الأكبر " الذي ينسب للإمام أبى حنيفة . " ولم يضع ابن حنبل كتباً في الفقه على نمط خاص به وكل ما روى له في الفقه مسائل سئل عنها فأفتى فيها وإنما رتب المذهب وبوبه ودونه أتباعه فإن نحن نظرنا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقيها ، وجدنا ابن حنبل أكبر أثرا في الحديث منه في الفقه . " (٣)

٤- تحذير الإمام أحمد تلامذته من تدوين آرائه الفقهية " ولم يذكر المؤرخون أن ابن حنبل وضع كتاباً في الفقه على نمط خاص به وإنما كل ما يروى عنه فيه مسائل سئل عنها فأفتى فيها وهناك نصوص تؤكد أنه حذر تلاميذه من تدوين آرائه الفقهية خشية أن تحل محل القواعد العامة التي يجب أن يكون مرجعها الكتاب والسنة فحسب . " (٤)

٥- تصريح بعض العلماء بأن ابن حنبل لم يكن فقيهاً بل كان محدّثاً مثل الإمام الطبري وابن قتيبة وابن عبد البر والمقدسي وابن خلدون وغيرهم من القدماء

(١) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين الهيئة العامة للكتاب ص ١٠٩

(٢) نفسه ص ١٠٩

(٣) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ٢٣٦ الهيئة المصرية للكتاب .

(٤) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين ص ١١١

وأحمد أمين وغيره من المحدثين " فقد كان هناك من يصفه بأنه رجل حديث لا رجل فقه كما فعل ابن جرير الطبري الذي ثارت عليه الحنابلة وكما فعل بعض العلماء الذين اقتصروا في دراستهم للفقهاء على الأئمة الثلاثة : أبى حنيفة ومالك والشافعي . " (١)

ويقول د. أحمد أمين : " ولا خلاف في عدِّ أحمد بن حنبل من كبار المحدثين ولكن الخلاف في عده من الفقهاء فابن جرير الطبري ..كان يقول هو رجل حديث لا رجل فقه .. ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه " المعارف " بين الفقهاء ، وذكره المقدسي بين المحدثين لا في الفقهاء ، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء على الأئمة الثلاثة ، أبى حنيفة ومالك والشافعي . " (٢)

٦- أنه لم يأخذ في أغلب ما أُثِر عنه من فتوى بعلم أصول الفقه الذي يجعل القياس ، والعرف ، والاستحسان ، والمصلحة المرسلة .. من الأدلة الشرعية التي يجب على الفقيه المجتهد أن يأخذ بها أو على الأقل يأخذ بمعظمها لكن لا ينبغي له أن يستغنى عنها جميعاً .

يقول ابن خلدون : " أحمد بن حنبل رحمه الله كان من علية المحدثين.. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما أحمد بن حنبل، فمقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية، وللإخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن . " (٣)

الفرق بين المحدِّث والأصولي والفقيه

وفرق كبير بين المحدث والفقيه ليس في الفضل بالطبع فكلاهما خادم للدين بل الفرق في المنهج ، فالمحدث همه جمع الحديث وتتبع رواياته ، ورواته وتمييز الصحيح منه وغير الصحيح ، ولابد أن يتسلح بعلم مصطلح الحديث الذي يشتمل على نحو تسعين علما منها " علوم الرجال والطبقات والتواريخ ، للثقات

---

(١) نفسه ص ١١٠

(٢) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ٢٥٣ ط مكتبة الأسرة .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٧

والمقبولين ، وللضعفاء والمجروحين ... وكانت – هذه العلوم – هي للحديث بمثابة " الأصول " للفقه " [١] .

ويبدأ الفقيه من حيث ينتهي المحدث " فالفقيه يبحث في بيع المكلَّف وإجارته ورهنه وتوكيله وصلاته وصومه وحجه وقتله وقذفه وسرقته وإقراره ووقفه لمعرفة الحكم الشرعي في كل فعل من هذه الأفعال " [٢] ولابد أن يتسلح الفقيه بعدة علوم تعينه على استنباط الحكم الشرعي الصحيح ومن أهم هذه العلوم علم أصول الفقه فهو بالنسبة " للفقيه كمثل علم المنطق بالنسبة لسائر العلوم الفلسفية فهو ميزان يضبط العقل ويمنعه من الخطأ في الفكر كذلك علم أصول الفقه بالنسبة للفقيه يضبط الفقيه ويمنعه من الخطأ في الاستنباط .. فهو الذي يبين حجية القرآن وتقديمه على السنة ، وأنه أصل الشريعة ، ويبين الظني والقطعي ، والمنهاج الذي يرسم عند تعارض ظواهر النصوص ثم يبين تفاوت دلالة العبارة المختلفة فيبين مرتبة الخاص من العام ثم يتجاوز ذات الأدلة إلى المكلفين فيبين من الذي ينطبق عليه الأحكام الشرعية فيطالب بواجبها ويمنع من محرمها ، ويجازى على الطلب والمنع ثم يبين أثر الأحوال العارضة كالجهل بالشرع أو الغلط أو النسيان ونحو ذلك من الأحوال التي تعرض للشخص فتفقده المسئولية أو تخفف منها . "[٣]

ودونك هذا المثال الذي يبين عمل الأصولي وكيف يستنبط الأحكام " القرآن هو الدليل الشرعي الأول على الأحكام ونصوصه التشريعية لم ترد على حال واحدة بل منها ما ورد بصيغة الأمر ومنها ما ورد بصيغة النهي ومنها ما ورد بصيغة العموم أو بصيغة الإطلاق . فصيغة الأمر ، وصيغة النهي ، وصيغة العموم ، وصيغة الإطلاق ، كأنواع كلية من أنواع الدليل الشرعي العام وهو القرآن فالأصولي يبحث في كل نوع من هذه الأنواع ليتوصل إلى نوع من الحكم الكلى الذي يدل عليه مستعيناً في بحثه باستقراء الأساليب العربية والاستعمالات الشرعية فإذا وصل ببحثه إلى أن صيغة الأمر تدل على الإيجاب وصيغة النهي تدل على التحريم وصيغة العموم تدل على شمول جميع أفراد العام قطعاً وصيغة الإطلاق تدل على

(١) د . يوسف القرضاوى " المرجعية العليا في لإسلام للقرآن والسنة " مكتبة وهبة ص ٨٦
(٢) عبد الوهاب خلاف "علم أصول الفقه " ص ١٢
(٣) أصول الفقه " الإمام محمد أبو زهرة ص ٦

ثبوت الحكم مطلقاً وضـع القواعد الآتية : الأمر للإيجـاب ، والنهـي للتحـريم ، والعام ينتظم جميع أفراده قطعاً ، والمطلق يدل على الفرد الشائع بغير قيـد وهـذه القواعد الكلية وغيرها مما يتوصل الأصولي ببحثه إلى وضعها يأخذها الفقيه قواعد مسلمة ويطبقها على جزئيات الدليل الكلى ليتوصل بها إلى الحكم الشرعي العملـي التفصيلي . "[١]

وكذلك بالنسبة للسنة النبوية فليس كل أمر للنبي ﷺ فريضة كما أنه ليس كل نهـي له ﷺ تحريماً ؛ " فالواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من المكلَّف طلباً حتميـاً بأن اقترن بما يدل على تحتيم فعله كما إذا كانت صيغته نفسها تدل على التحتـيم أو دل على تحتيم فعله ترتيب عقوبة على تركه أو أيـة قرينـة شـرعية أخـرى "[٢] كالصلاة ، والصيام ، وبر الوالدين ، والصدق ، وأداء الأمانة ....

أما المحرم فهو " ما طلب الشارع الكف عن فعله حتماً بأن تكون صـيغة الكـف نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ } (النساء : ٣) وقوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } (الأنعام : ١٥١) أو { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ } (النساء : ١٩) أو يكـون النهي عن فعله مقترنا بما يدل على أنه حتم مثل { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً } (الإسراء : ٣٢) [٣]

وواضح مما سبق أن هناك فرقاً كبيراً بين علمـاء الحـديث وعلمـاء الأصـول والفقهاء ، وأنهم جميعاً لا غنى لأحدهم عن الآخر ، فالمحـدث يجمـع الأحاديـث ويصنفها : صحيح ، مشهور ، ضعيف ، موضوع .. والأصـولي يـضع القواعـد العامة لكيفية استنباط الأحكام من مصادر التـشريع القـرآن الكـريم ، والحـديث الشريف ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، المصلحة المرسـلة ، والعـرف ، الاستصحاب ، شرع من كان قبلنا ، ومذهب الصحابي . ثم يأتي دور الفقيه ليطبـق هذه القواعد العامة على فروع الشرع وجزئياته ليقول مثلاً : أن صـوم رمـضان فريضة ، وصوم يوم الشك حرام ، وصوم ست من شـوال سـنة ، وأن الـسحور مستحب ، وأن اغتسال الصائم مباح ... ويدلل على كل حكم بالأدلة الشرعية .

---

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ١٣
(٢) نفسه ص ١٠٥
(٣) نفسه ص ١١٣

الواقع أن عمل الفقيه متمم لعمل المحدثين وحارس للسنة من أي خلل قد يتسلل إليها عن ذهول أو تساهل . إن في السنة متواتراً له حكم القرآن الكريم وفيها الصحيح المشهور الذي يفسر العموم والمطلق في كتاب الله وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي اشتغلت بها المذاهب الفقهية وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعلة كامنة فيه وفي عصرنا ظهر فتيان سوء يتطاولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة ولا استهانوا بحديث صحت نسبته وسَلِمَ متنه وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض المرويات فردوها – وفق المنهج العلمي المدروس – وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سبيلاً وهم بهذا يتأسون بالصحابة والتابعين ... من أجل ذلك فإن أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب يعتمد على القرآن الكريم أولاً فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه وإلا فالقرآن الكريم أولى بالاتباع وحديث الأحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة وإن صح سنده . [١]

ولابد للفقيه أن يكون أصوليّاً – عالماً بعلم أصول الفقه – وليس شرطاً أن يكون الفقيه محدثاً ما دام يعتمد على كتب الصحاح التي صنفها علماء الحديث .

وليس كل محدِّث فقيهاً فغالباً ما يقتصر المحدِّث على جمع الأحاديث الصحاح وتصنيفها في أبواب ليسهل رجوع الفقهاء إليها كما فعل أئمة الحديث كالبخاري ومسلم والترمذي ... وإن أثر عنهم بعض الفتوى أو أراء في قضايا دينية فهي من قبيل الاجتهاد الشخصي الذي لا يرقى إلى أن يكون مذهباً فقهيّاً متبعاً .

وهذا لا يمنع أن يكون الفقيه مُحَدِّثاً فقد كان الإمام مالك فقيهاً ومحدِّثاً .

استمرت مدرسة أصحاب الحديث التي أنشاها الإمام أحمد منتشرة نحو ثلاثة قرون من الزمان حتى ضعفت الخلافة العباسية الداعمة لها وبدأ زحف المماليك لوراثتها ، والمماليك جند مرتزقة غرباء عن العرب المسلمين حضاريّاً وقوميّاً وبسيطرتهم على مقاليد الحكم ومقدرات الأمة فشت البدع والمظالم ، وغالبت عقائد السلفية حتى غلبتها . [٢]

---

(١) محمد الغزالي " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " ص ١٦،١٧

(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٠

وبضعف الخلافة العباسية لم تَبْتَلِ الأمة الإسلامية بتفشي البـدع والمظـالم فـي الداخل فحسب بل بدأ تهديد المعتدين (التتار والصليبيون) لها من الخارج .

وفي هذا العصر قلَّ الإنتاج العلمي، وركدت الأذهـان، وأقفـل بـاب الاجتهـاد وسيطرت نزعة التقليد والجمود، وأصبح قِصارى جهد كثير من العلماء هو جمـع وفهم الأقوال من غير بحث ولا مناقشة، فأُلِّفَتْ الكتب المطولة والمختصرة، ولكن لا أثر فيها للابتكار والتجديد، وهكذا عصور الضعف تمتاز بكثـرة الجمـع وغـزارة المادة مع نضوب في البحث والاستنتاج .

وفي تلك الأثناء التي انعدم فيها المدافع عن تعاليم الإسلام من المبتدعة والمـدافع عن بلاد الإسلام من المعتدين بدأت صحوة الحركة السلفية وكان من أبرز أعلامها

أبو الوفاء ابن عقيل (٤٣١- ٥١٣ هـ)

وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨ هـ)

وابن قيم الجوزية (٦٩١- ٧٥١ هـ)

ولقد واصلت الحركة السلفية في صحوتها هذه السير على منـوال العقائـد التـي صاغها ابن حنبل ومعاصروه ونهجت النهج النصوصي الذي بلوروه مع إضـافات عديدة طرحتها مواجهتهم لما استجد من بدع وخرافات ومع مرونة ملحوظـة فـي الموقف من القياس والتأويل فرضتها التعقيدات التي طرأت على المجتمعـات التـي عاشوا فيها والأبنية الفكرية التي تصارعت في هذه المجتمعات . [١]

مما يؤخذ على السلفية الإصلاحية إفراطها في الحديث عـن ذات الله وصـفاته، والرد على من خالفهم من المتأولين ، ولم يعرف من توسع في الحديث عـن هـذا الموضع قبلهم ، ولا من تكلم فيه بعدهم إلا اقتداء بهم .

والعجيب أن المدرسة السلفية الإصلاحية ومن نحا نحوها قد وضعوا أنفسهم فـي حرج كبير بإنكارهم المجاز في اللغة والقرآن الكريم ، وعدم قبولهم برأي من تأول بل معاداتهم وتكفيرهم مما جعل أعداءها يتهمهم بالتجسيم ويحكم عليهم بالكفر !!

---

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٠

الوهابية والعودة إلى المدرسة الحنبلية

لقد حاول ابن عبد الوهاب أن ينهج نهج ابن تيمية في محاربة البدع وأهلها وتنقية التوحيد وإن كان لم ينهج نهجه في مجال التشريع فالمسائل التي تعكسها المبادئ الكبرى التي وضعها ابن عبد الوهاب هي في المقام الأول ذات طبيعة عقدية وتستهدف تنقية العقيدة ، التي ليست في النهاية سوى التوحيد النقي ، لقد قدَّر ابن عبد الوهاب فعلاً أن إيمان معاصريه ابتعد إلى درجة كبيرة عن الأصول التي كان عليها السلف الصالح ، وأن المجتمع الذي يحيط به دخل مجدداً في حالة الجاهلية شبيهة بتلك التي سبقت ظهور الإسلام .

ولا يكفي المرء بحسب ما يراه ابن عبد الوهاب أن يعلن الوحدانية لله ليكون مسلماً بل لابد أيضاً أن ينعكس هذا الإعلان في العبادات . وهنا يكمن الخلاف الذي يقيمه ابن عبد الوهاب بين مبدأ الاعتراف بوحدانية الله أو توحيد الربوبية من جهة ومبدأ توحيد الإلوهية من جهة ثانية . هذا المبدأ الأخير كانت تخالفه الممارسات الدينية المختلفة التي كانت منتشرة في الجزيرة على نحو تقديس الأولياء (وفيها يقع التوسل والتشفع) وكذا التشيع ، تأسست الوهابية على هذا النحو إذن ضد الممارسات أساساً وهي الممارسات التي أنكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بوصفها أشكالاً من الشرك .

لكن الوضوح الذي يبدو في مواقف ابن عبد الوهاب في ميدان العقيدة لا يضاهيه وضوح بنفس الحجم في مواقفه في مجال الفقه ذلك لأنه أولاً وقبل أي شيء يحتل مكانة أقل مركزية في مشروعه ، ويعتبر موقفه المبدئي أن المعايير الوحيدة لصحة الفتوى يجب أن تعتمد على القرآن الكريم والسنة وإجماع السلف الصالح .

ويرتكز هذا المسعى من الناحية النظرية إلى نفي سلطان التقليد الذي تمثله المذاهب الفقهية الأربعة وتحويل الاجتهاد إلى عمود العملية الفقهية ، بيد أن ابن عبد الوهاب استمر من ناحية الممارسة العملية في الاعتماد على المذهب الحنبلي في مسائل الفروع ، وكان هذا بالضبط ما ذكره عندما وصف نفسه في رسالة وجهها إلى علماء المدينة المنورة بأنه " متبع غير مبتدع " للمذهب الفقهي الحنبلي وهو بذلك سعى إلى إثبات الطابع السلفي الحنبلي لدعوته .

في الواقع لقد ثبت أنه لم تصدر لابن عبد الوهاب أية فتوى جديدة وأنه كان غالباً ما يكتفي باجتهاد نسبي لا يخرج عن المذهب الحنبلي .[1]

ولقد وجهت عدة انتقادات للوهابية أهمها :

١- نقل مسائل الفروع المختلف عليها إلى الأصول التي يجب الإيمان بها ، مثل مسائل البناء على القبور، والتوسل بالأنبياء والأولياء .

٢- الإفراط في تكفير وتضليل كل من هو على اختلاف معهم وتكفير أئمة الشيعة الإمامية وأكثر الصوفية بل وكثير من أهل السنة كذلك !! لقد ساوى ابن عبد الوهاب بين المسلمين الموحدين الذين يتوسلون في دعائهم بالنبي فقط بمشركي مكة الذين يعبدون الأصنام !!

٣- استخدامهم القوة في فرض الدعوة وإلزام الناس بها ، وعدم التسامح مع المخالفين لهم مع أن نصوص الدين قطعية الثبوت والدلالة تدعو إلى عدم إكراه الناس في الدين والدعوة يجب أن تكون بالحِكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وأن الغلظة في مجال الدعوة منفرة .

{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ }(البقرة : ٢٥٦)

فالإسلام يمنع إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام فما بالك بمن يُكْرِه بالقوة أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى على الدخول في مذهبه !!

٤- الخروج على الخلافة الإسلامية العثمانية، حيث سعى محمد بن عبد الوهاب لإقامة مذهبه بالقوة والسيف، فاستولى على قسم كبير من الجزيرة العربية، وهاجم الكويت وساحل عمان ودمشق وكربلاء والنجف .

٦- هدم الشواهد والآثار النبوية المتبقية مثل ما فعلوا بمكان ولادة النبي محمد بن عبد الله، ومكان عيشه في مكة، وبستان الصحابي سلمان الفارسي حيث كانت هناك نخلة غرسها النبي محمد بن عبد الله، وبيت الصحابي أبو أيوب الأنصاري، وردم بئر العين الزرقاء، وبئر أريس (بئر الخاتم)، وبئر حاء، وغيرها ..

---

(١) ستيفان لاكوروا " سلطة الحديث في السلفية المعاصرة " ترجمة عومرية سلطاني وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية ص ٦

٧- تحريمهم الاحتفال بالأعياد والمناسبات من ذكرى مولد ونحوه باعتبار ذلك عبادة لمن يحتفل بمناسبته وتعظيم له .[١]

السلفية النهضوية

ظهرت الدعوة السلفية النهضوية بشكل مختلف - في جوانب متعددة عن السلفية الوهابية ، من خلال رواد كبار مثل: جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم. وقد انتشرت هذه الدعوة في سائر البلاد العربية ، وكثير من البلاد الإسلامية كتركيا ، وأندونيسيا ، وأفغانستان وإيران ، ومسلمي الهند ... ، ومستشرقي الغرب .

ولاقت هذه الدعوة رضى واستحسان كثير من الناس الذين أتيح لهم الاطلاع على علوم الغرب الحديثة ومذاهبه الجديدة كما لاقت صدوداً واستهجاناً من المقلدين أعداء كل جديد .

امتازت السلفية النهضوية بأنها ولدت في آتون معمعة الصراع الحضاري والثقافي مع الغرب المستعمر مما أعطاها حافزاً ودافعاً كبيراً للتجديد في ميادين الدين والسياسة والاجتماع والمعرفة والفكر والثقافة.

ولم يكن هؤلاء الرواد مُنبتّي الصلة بتراثهم الإسلامي وعلمائهم الأفذاذ بل رسخت أقدامهم في العلوم الإسلامية ، واشرأبَّت أعناقهم لتطالع الجديد من العلوم العقلية والحكمية والطبيعية التي برع فيها الغرب . فجمعوا بين الحسنيين : ثوابت الدين ، ومتغيرات العصر ، أو بين صحيح الدين ، وحقائق العلوم .

وهكذا كان موقف التيار السلفي الإصلاحي وسط بين التغريبيين المتحررين من عُرا الإسلام ، وبين التقليديين المُغَيَّبين عن العصر - فأخذوا الإسلام من منابعه الصافية ، وآمنوا بأنه منهاج كامل للحياة ، للفرد والأسرة والمجتمع والدولة . فنظروا إلى الإسلام بعين ، وإلى العصر بعين ، وحاولوا الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح ، فشرعوا يلتزمون بالسلفية المجددة ، ويوازنون بين الثوابت والمتغيرات ، ويدعون إلى احترام العقل ، وتجديد الفكر ، والاجتهاد في الدين ، والابتكار في الدنيا ، ويقتبسون من أنظمة العصر أفضل ما فيها ، ويرون أن

---

(١) ويكيبيديا الموسوعة الحرة " الوهابية " .

الديمقراطية أقرب ما تكون إلى الإسلام ، بعد أن تنقى من بعض ما بها من شوائب، وأن تطعم بما ينبغي من قيم الإسلام وأحكامه . [١]

مع تقديرنا لمنهج السلفية النهضوية : الأفغاني وتلميذه محمد عبده ، وتلميذه رشيد رضا ، وصديقه الكواكبي ، واجتهادهم في محاولة الجمع بين تحديات العصر ، والثورة العلمية ، وبين نصوص الدين ليثبتوا أن الدين ليس عائقاً ضد التطور والتحديث إنما يواكب كل جديد ويصلح لكل زمان ومكان ، فإنهم – كسائر المجتهدين – لم يسلموا من الخطأ والانحياز لبعض النظريات العلمية التي لم تصبح حقائق راسخة في تفسير الدين ، مثل تفسيرهم السموات السبع بالكواكب السبع السيارة ومداراتها في أفلاكها [٢]، وتفسيرهم حجارة من سجيل في قوله تعالى {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} بميكروب الجدري [٣] كذلك إعجابهم بالاشتراكية وإن كان لهم عليها بعض التحفظات .

كذلك مما يؤخذ على السلفية النهضوية إنكار روادها بعض الغيبيات صحيحة النقل بدعوى مخالفتها للعقل .وهذا لا يغض من قيمة هؤلاء المفكرين العظماء ، ولا مما قاموا به من خدمات جليلة لتجديد الدين الإسلامي ، ودنيا المسلمين ، وإيقاظ الغافلين ومحاربة أهل البدع والضلال ، وأهل الكفر والإلحاد ، والمفتونين بكل غربي مستورد الكارهين لكل إسلامي أصيل .

الألباني ومدرسة الحديث الجديدة

إذا كان أحمد ابن حنبل هو رائد مدرسة الحديث وإمامها فإن الألباني يعد رائد مدرسة الحديث المعاصرة فقد انتصر لظاهر الحديث الصحيح وقدَّمه على رأي الصحابة والتابعين ، ورأي الفقهاء الأربعة الأعلام الذين أجمعت الأمة على إمامتهم في الفقه (أبو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، أحمد) وقدم ظاهر الحديث على العقل ، والمصلحة بل إنه جعل السنة قاضية على القرآن الكريم !!

ويحمد للألباني وكل أنصار السنة دفاعهم عن السنة النبوية الشريفة ، وتنقيتها من الموضوع والضعيف ، وجهد الألباني في هذا الصدد لا ينكر ، وتصنيفه لسلسلتي

---

(١) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " دار الشروق ص ٩

(٢) مجلة المنار ج ١٤ ص ٣٤٠

(٣) مجلة المنار ج ١٤ ص ٦٧٤

الأحاديث الصحيحة ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة ما ندعو الله أن يجعله في ميزان حسناته ، وما عمله الألباني يجعله أحد المحدثين الذين يعملون على الحفاظ على صحيح السنة المطهرة وتنقيتها مما علق بها من شوائب غير صحيحة ، ولقد سبقه إلى ذلك أئمة أعلام مثل : مالك ، البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، والحاكم ، والسيوطي .. وغيرهم .

لكن الألباني لم يكتف بعمله كمحدث إنما راح يزاحم الفقهاء في الإفتاء في أمور الدين وقضايا العصر بل إنه أعلن الحرب على كل الفقهاء ففي رأيه إنه لا ينبغي للمسلم اتباع علماء الفقه والأصول ولا حتى صحابة رسول الله إنما يجب الأخذ بظاهر الحديث الشريف الذي صحَّ لديه دون اعتبار لعقل أو مصلحة أو مقاصد الشريعة العليا أو أي اعتبار آخر وضعه علماء الأصول ؛ لأن كل ما وضعه علماء الأصول من قواعد لاستنباط الحكم باطلة فمصادر التشريع اثنان لا ثالث لها القرآن الكريم ، والحديث الشريف فقط لا غير ، ولا يلتفت لقول سلف أو خلف إن خالف ظاهرهما وأن القرآن لا يفهم إلا بالسنة وإذا تعارضا فإن الحديث يقضي على القرآن !

يقول الألباني : " قال بعض السلف : السنة تقضي على الكتاب " [١]

وهذا القول ليس قرآناً كريماً،ولا سنة مطهرة،ولم يقل به أحد من صحابة رسول الله ﷺ ولا من تبعهم بإحسان إلا قوم منهم مكحول والزهري عفا الله عنا وعنهم .

وقد أنكر أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث على من قال السنة تقضي على الكتاب فقال بل السنة تفسر الكتاب وتبينه .

والذي يشهد الله ورسوله به أنه لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله ﷺ تناقض كتاب الله وتخالفه ألبتة . [٢]

ونحن نكره التعصب للمذاهب الفقيه على حساب الأدلة الشرعية ، كما أننا لسنا مع العمل بظاهر النصوص ، إن خالفت العقل الصريح والمصلحة المؤكدة ، والحقائق العلمية ، وفقه الواقع المعيش ، ومقاصد الإسلام العليا . فإذا كان لا فقه بغير حديث فكذلك لا حديث بغير فقه أيضاً .

---

(١) ناصر الدين الألباني " منزلة السنة في الإسلام " ص ١٢

(٢) ابن قيم الجوزية " الطرق الحكمية في السياسة الشرعية " ص ١٠٧

نحن مع الفقه المستقل فقه المجامع الإسلامية التي تأخذ من آراء الفقهاء الأحكام بأدلتها ، وما يناسب العصر وفقه الواقع من آرائهم ، وتفتي بما يناسب الزمان والمكان والحال فيما يستجد من أمور ولا تخرج على مقاصد الشريعة الإسلامية ومصلحة الأمة ورفع الحرج عنها .

السلفية الجهادية

السلفية الجهادية مصطلح يطلق على ذلك التيار الذي يدَّعي أنه يتبع منهج سلف المسلمين وأن الجهاد أحد أركانه وأن الجهاد الذي يجب وجوباً عينيّاً على المسلمين يتم تطبيقه ضد العدو المحتل وضد النظام الحاكم المبدِّل للشريعة الإسلامية ويحكم بالقوانين الوضعية أو النظام المبالغ في الظلم والقهر .

لقد أنشأ السلفيةَ الجهاديةَ مجموعةٌ من الشباب المتحمس صغير السن قليل العلم عديم الخبرة بفقه الواقع ومصلحة الأمة ، وكانت الظروف التي نشأت فيها تلك التنظيمات الجهادية شديدة التعقيد ، حالكة السواد ، ليس فيها بارقة أمل في التغيير والإصلاح ؛ فقد ادلهمت في أواخر الخمسينات من القرن العشرين وطوال عقد الستينات الخطوب ، وكثرت فيها المظالم ، واستبدل حكامها الشيوعية بالإسلام ، والديكتاتورية بالديمقراطية ، وتصفية الخصوم جسديّاً بالحوار ، والنظام البوليسي بالأحزاب السياسية ، وكان هؤلاء الشباب ممن اصطلوا بنار هذا النظام ورأوا من ألوان العذاب في السجون والمعتقلات مالا يصدقه إنسان .

أهم مبادئ السلفية الجهادية

والسلفية الجهادية تؤمن بعدة مبادئ تميزها عن سائر المدارس السلفية الأخرى منها :

المبدأ الأول : مبدأ الحاكمية لله الذي يعني أن تكون مرجعية التشريع الوحيدة في الدستور والقوانين هي الشريعة الإسلامية بما تحمله من مصادر أصلية وفرعية وتعني أن الحكم والتشريع هو حق خالص للخالق، فأي إضافة مساوية أو إباحة للأخذ من مرجعية أخرى بجانب الشريعة الإسلامية فهذا شرك وكفر بالله الخالق .

وهم بذلك يخالفون ما نادت به السلفية الإصلاحية والنهضوية من وجود " الشرع المُتَأوَّل " الشامل لاجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء وتشريعات الحكام والولاة الذي

يمكن أن نسميه " تراث الأمة القانوني والسياسي " الذي أصبح مما ينـدرج تحـت مصطلح " الشرع والشريعة " وإن لم تكن له قدسية الدين وإلزام " الشرع المُنَـزَّل " لجميع المؤمنين فهنا نمو في "الشريعة والشرع " ولكنه نمو يتكون منه " بناء قانوني " ذو " طبيعة مدنية " وليس دينية . (١)

المبدأ الثاني : مبدأ الولاء والبراء ويعني أن تكون الدولة قائمـة علـى أسـاس إسلامي ديني وليس شعوبي قومي ولاؤها للإسلام والمسلمين ومعاديـة للـشرك والمشركين دولة تتبنى الإسلام في سياستها الداخلية ليصبح المسلمون في موضـع عزة وتحكم في مفاصل الدولة المهمة، وفي السياسة الخارجية هدفها إعلاء كلمة الله وإقامة دولة إسلامية عالمية قوية، دولة معادية للأنظمة المحاربة وغيـر الـشرعية (والنظام الشرعي من وجهة النظر الفقهية السلفية إما أن تكـون الدولـة: إسـلامية تحكم بالشريعة أو ذمية تدفع الجزية أو معاهدة) .

والحقيقة أن الدولة في الإسلام دولة مدنية ولم يعرف تاريخ الإسلام كلـه الحكـم الثيوقراطي ، حكم البشر المتألهين ، حكم فرعون موسى { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ } (غافر: ٢٩) ذلك الحكم الذي عرفتـه الأمـم الكافرة قديماً وساد أوربا في العصور الوسطى عصور الظلام والجهل .

أما الخلفاء المسلمون المهديون فدستور حكمهم " إني قد وليـت علـيكم ولـست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. أطيعـوني مـا أطعـت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم . "

حتى الخلفاء الظالمون المتجبرون في تاريخ الإسلام لم يدَّع واحد منهم أنه إلـه أو ابن إله أو حتى يوحى إليه من الله أو أن كلامه قرآن ، وفعله سنة .

يقول كرم زهدي (عضو مجلس شورى الجماعة الإسـلامية فـي مـصر) فـي مراجعاته : " نعم لا حكم إلا الله لكن لا بد للناس من أمير وحاكم يعـرف أمـورهم بما لا يخالف ثوابت الشرع . فالشريعة المنزلة من عند الله تمثل الحاكمية العظمى، لكن الفقه الذي يطبق الشريعة على الواقع لا بد أن يكون بالضرورة فقهـاً إنـسانيّاً

(١) لمزيد من التفاصيل حول أنواع الشرع الرجوع لكتاب " المدارس السلفية " للمؤلف دار زهور المعرفة والبركة الباب الأول ، الفصل الخامس .

متغيرا يواكب مستجدات الزمان والمكان والمصالح والوقائع والأعـراف وجميـع المتغيرات الإنسانية . فهناك حاكمية ربانية أساسها المبادئ الرئيسية لا تشغل نفسها بالتعامل مع الجزئيات أما حاكمية البشر فهي التي تحكم بالاجتهـاد فـي الفـروع والمتغيرات وللبشر أن ينشئوا أحكاماً وقوانين توافق متغيرات عصرهم وتلزم الناس جميعاً ما دامت لا تتصادم مع أحكام الشريعة ." (١)

المبدأ الثالث : مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعية خاصة الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية، والجهاد ضد الدول المحتلة والدول الداعمة للاحـتلال والأنظمـة العميلة. كان تنظيم الجهاد المصري يركز على جهاد الأنظمة العميلة، فـي مقابـل تنظيم القاعدة السعودي يركز على جهاد الدول المحتلة والداعمة، ثم تحالفـا وكونـا تنظيم قاعدة الجهاد .

ونترك الرد على مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعية لأمير تنظيم الجهاد السيد إمام عبد العزيز المعروف ، عند الجهاديين ، باسم الدكتور فضل الذي يقـول فـي مراجعاته : " أما من الناحية الشرعية : فإن الصدام مع الـسلطات الحاكمـة باسـم الجهاد لا يجوز لعدم توفر كثير من شروطه ووجود بعض موانعه ولغلبـة مفاسـده على المستويين الخاص والعام .

والرسول ﷺ لم يجاهد ولم يفرضه الله عليه إلا بعد ما توفرت له مقومات الجهـاد وهي من شروط وجوبه ومقدمات نجاحه، وهذه لا وجود لها في معظـم البلـدان، ومنها:

١- دار الهجرة والنصرة : لا دار التخفي، ولم يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة إلا بعدما أخذ من أهلها البيعة على الإسلام ثم على الإيواء والنصرة والمنعة في بيعتي العقبة الأولى ثم الثانية .

٢- التكافؤ في العدد والعدة : فمع انعدام التكافؤ بين طرفي الصدام لا يجب الجهاد، (فالعجز يسقط التكليف والوجوب)، وهذا هو واقع حال الجماعات الإسلامية في معظم بلدان المسلمين .

---

(١) نقلاً عن د. عبد المعطي محمد " شيوخ بلا خناجر " الهيئة العامة للكتاب ص ١٣٨

٣- تأمين ذراري المسلمين (نساؤهم وعيالهم): متعذر، ومن خاضوا الصدام عاد بالضرر على ذراريهم، وفي غزوة الأحزاب جعل النبي ﷺ الذراري في حصن بالمدينة، وهذا يتعذر.

٤- النفقة اللازمة للجهاد: متعذرة وهذا يسقط وجوبه ،ولا يحل نهب أموال المعصومين بذريعة تمويل الجهاد ، ولا يجوز ارتكاب ما لا يحل لأداء ما لا يجب.

٥- الفئة التي يمكن التحيز إليها: لا جود لها، وقال عمر رضي الله عنه: " أنا فئة لكل مسلم " فأين هذا ؟ .

٦- تميز الصفوف متعسر: بما يؤدي إلى قتل من لا يحل قتله من المعصومين والمسلمين حال الصدام .

ومع عدم توفر مقدمات الجهاد ومقوماته ومع وجود موانعه، فلا يجوز شرعًا الإصرار على خيار الصدام مع السلطات لأجل تحكيم الشريعة ويجب الانتقال إلى الخيارات الشرعية الأخرى الميسورة كالدعوة والإصلاح ونحوها، وخصوصاً أن التجارب السابقة أظهرت مفاسد جسيمة ترتبت على هذا الصدام على المستويين الخاص والعام، والقاعدة أن " درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" وأن " الفساد علة التحريم»" وأن " الضرر لا يزال بمثله ولا بأشد منه " وهذا كله يثبت منع الصدام من الناحية الشرعية . (١)

هذه كانت أهم مبادئ السلفية الجهادية وردوهم هم بعد ذلك عليها في مراجعتهم التي بدأت عام ١٩٩٨م .

وهكذا تراجعت السلفية الجهادية المصرية ، معظمها ، عن تكفير الحاكم والسعي إلى الانقلاب عليه ، كما تخلت عن فكرة الحاكمية لله والدولة الدينية ، وارتضت الدولة المدنية والنظام الديمقراطي ، واستبدلت تغيير نظام الحكم عن طريق الانتخابات الحرة بالانقلاب الدموي الجهادي ، وللأسف تمت هذه المراجعات بعدما تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء من المصريين وغيرهم .

نسأل الله تعالى أن يتقبل توبتهم التائبين منهم ويعفو عنا وعنهم ، وفي هذا درس عظيم يجب أن يعيه كل من شرَّفه الله تعالى بالعمل في حقل الدعوة إلى دين الله

---

(١) الدكتور فضل من حديث له عن الأسباب الشرعية والواقعية التي تدعو إلى عدم الصدام مع السلطات بمصر " جريدة الجريدة " بتاريخ ١٧/ ٢ / ٢٠٠٩

تعالى أن يفهم دينه فهماً صحيحاً قبل أن يدعو الناس وأن يفرق بين المقطـوع بـه والمختلف عليه ، فلا ينكر المختلف فيه وإنما ينكر المتفق عليه . (١)

لقد ابتلانا الله تعالى ببعض أدعياء العلم الذي أفسدوا على الناس دينهم ودنياهم ، وأثاروا الفتن وسفكوا الدماء باسم الدين ، والدين منهم براء ، وهؤلاء الذين وصموا الدين بتهمة التعصب وعدم التسامح ، والتخلف ، والرجعية .. ، ووصموا المسلمين بتهمة التشدد والتزمت والإرهاب ، هؤلاء المرضى النفسيون ، الجهلة بحقائق الدين البعيدون عن وسطية الإسلام التي هي أهم سمة من سمات الإسلام والمسلمين .

آراء علماء النفس والاجتماع في المتطرفين .

وقبل أن نتحدث عن أهم المآخذ التي تؤخذ على هـؤلاء النـصيين الحـرفيين ، والسلفيين الجهاديين نتحدث أولاً عن الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى عدم اسـتخدام العقل الصريح في فهم النص الصحيح ، ودفعتهم إلى استخدام القـوة فـي فـرض آرائهم السقيمة وسوف نستعين بأهل التخصص في تحليل شخصية المتطرف .

يقول د. سمير نعيم أحمد (٢) " إذا حللنا شخصية المتطرف وفقاً للدراسات النفـسية العالمية والمحلية التي أجريت على الشخصية المتطرفة فإننا نجد أنهم يعانون مـن اضطراب في المستويات النفـسية الثلاثـة : العقليـة أو المعرفيـة ، الانفعاليـة ، والسلوكية .

١ - على مستوى العقل

تتسم شخصية هؤلاء المتطرفين بأسلوب مغلق جامد للتفكير أو بعدم القدرة علـى تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقداتها أو أفكارها أو معتقدات جماعتهـا ، وعـدم القدرة على التأمل والتفكير ، وإعمال العقل بطريقة مبدعـة ، وبنـاءة ، وتعطـل ملكاتها النقدية ، ويميل مثل هذا الشخص دائما إلى معتقده على أنه صـادق صـدقاً مطلقاً وأبديّاً وأنه يصلح لكل زمان ومكان وبالتالي لا مجال لمناقشته ولا للبحث عن أدلة تؤكده أو تنفيه ويميل إلى إدانة كل اختلاف معه في الرأي .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المدارس السلفية الرجوع إلى كتابنا " المدارس السلفية وجدلية العقل والنقل والمصلحة " دار زهور المعرفة والبركة .

(٢) أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

٢- على مستوى الانفعالي

يتسم المتطرف بشدة الانفعال والتطرف فيه فالكراهية مطلقة وعنيفة للمخالف أو المعارض للرأي والحب الذي يصل إلى التقديس والطاعة العمياء لرموز هذا الرأي. والغضب يتفجر عاتياً عند أقل استثارة .

٣- على المستوى السلوكي

تتسم هذه الشخصية بالاندفاعية والعدوانية والميل إلى العنف .

فالمتطرف الديني شديد التعصب لدينه ولا يعترف بحرية العقيدة بل وحتى لا يقبل أو يتسامح مع أي تفسير لنصوص دينه سوى تفسيره ، وهو مهيأ دائماً الاستثارة واللجوء إلى العنف .

إذا كانت أنظمة الشخصية التي يفتش فيها عالم النفس عن الخلل المؤدى إلى التطرف أو التسلط هي : العقل، الانفعال ، والسلوك ، فإن أنظمة المجتمع الأساسية التي يتناولها عالم الاجتماع بالتحليل هي : الاقتصاد ، والسياسة ، والتربية ، والأسرة ، والثقافة بمؤسساتها المختلفة .

١- الأزمة الاقتصادية والتطرف

تؤكد الأدلة التاريخية والمعاصرة على ارتباط ظهور وتنامي التطرف بأشكاله المختلفة وأبرزها جماعات العنف الدينية بالأزمة الاقتصادية .

وتدل الشواهد التاريخية أيضاً على الأزمة الاقتصادية تصيب أول ما تصيب الطبقات الدنيا التي تعانى بشدة من تدهور ظروفها المعيشة بفعل انتشار البطالة وتدهور الخدمات كما أن هناك فئات تثرى وتستفيد من الأزمة ومضاعفاتها وتسلك سلوكا استفزازية بالنسبة للفقراء بثرائها وإسرافها ، ويرتبط التطرف في الفقر بالتطرف في الفكر ويولد الإحباط عدوانا وعنفا وتخلق قسوة الواقع أوهام الخلاص.

وتدل الدراسات الاجتماعية التي أجريت على أعضاء الجماعات الدينية المتطرفة على أن الغالبية العظمى منهم من الشباب ومن الطبقات الدنيا والمتوسطة ومن المناطق الأكثر حرماناً مثل الريف وبخاصة الوجه القبلي والأحياء الشعبية الفقيرة الذين يعانون من البطالة أو انخفاض الدخل والعجز عن توفير متطلبات الحياة

الضرورة مثل : السكن ، وكذلك من العجز عن إيجاد حلول لمشكلاتها كـالهجرة أو الوساطة أو رفضهم الانغماس في الأنشطة مضادة لقيمهم الدينية كالفساد والرشوة أو الإدمان وكلها صور أخرى للتطرف بمعنى أو آخر ...

وترتب على زيادة معدل البطالة والتضخم وغلاء الأسعار وبالتالي حدة التفاوت الطبقي خاصة مع ظهور فئات طفيلية أثريت وانعكست أثار هذا الخلل الخطير على الشباب بخاصة في الطبقات الدنيا ونشأت تربة صالحة للتطرف تزود جماعات العنف السياسي الديني التي تهدد استقرار ومستقبل الأمة بأعضاء يعانون الإحباط وافتقار الشعور بالأمن والأمل في المستقبل فيقعون بسهولة فريسة الانقياد لأوهام الخلاص .

٢- الفراغ السياسي والتطرف

الملاحظ أنه ليس هناك حزب واحد في مصر حتى الآن (١) استطاع أن يحشد الشباب وراء هدف قومي أو من أجل بناء مستقبل واعد كما أن كافة التنظيمات الشعبية تحولت إلى تنظيمات رسمية أو شبه رسمية كالاتحادات والنقابات وأصبحت العضوية فيها شكلية وهنا تأتى التنظيمات السرية أو الجماعات المتطرفة لتملأ الفراغ وحتى لتتغلغل في التنظيمات الرسمية القائمة كالاتحادات الطلابية والنقابات المهنية وتهيئ للشباب فرصة الشعور بالانتماء وتحقيق الذات والقيام بدور ما لتحقيق هدف أو أهداف مرسومة خاصة وأن هذه الجماعات تقوم بدور فعال في مساعدة أعضائها على حل مشكلاتهم الحياتية أو على الأقل التخفيف من حدتها .

إن شبابنا يفتقد أي فرصة للممارسة السياسية بمعناها الواسع التي تنمى لديه القدرة على إبداء الرأي والحوار حول مسائل عامة أو اجتماعية وتعوده على تقبل الرأي الآخر بعد تحليله ونقده والتنازل عن رأيه إذا اقتنع بغيره وأسلوب الاعتراض المتحضر على الرأي وأدب الحديث .

وهكذا يكون دور الشباب هو دور المشاهد أو المتفرج ليس دور المشارك حتى في الندوات أو اللقاءات السياسية يدعى الشباب لكي يستمع إلى محاضرات الكبار

---

(١) كان هذا قبل ثورة ٢٥ يناير أما بعدها فقد انخرط كثير من الناس في العمل السياسي ، ووصل عدد الأحزاب القانونية إلى نحو سبعين حزباً غير التي ما زالت تحت التأسيس .

أو يلقن فكرهم وليصفق له ! والمؤسف أن الشباب في الغالب لا يتلقن الفكـر ذاتـه ولكن يتلقن أسلوب هذا الفكر : التطرف والتسلط ويصبح هـذا الأسـلوب الفكـري الجامد مسيطراً عليه في مختلف مجالات حياته ويسهل اجتذابه للتطرف الديني .

٣- أزمة التعليم والتطرف :

أفاض الكثيرون من المسئولين والمفكرين في الحديث عن أزمة نظامنا التعليمـي التي تتمثل في أنه نظام تلقيني ، يعتمد بصفة أساسية على حشو ذهن الطالب خـلال مختلف مراحل الدراسة بمعلومات عليه أن يـستظهرها دون إعمـال للعقـل ودون تحليل أو نقد وهو لا يشجع على تحصيل المعرفة بنفسه من خلال الاحتكاك بالواقع والاطلاع في المكتبات وإجراء البحوث الميدانية ، والتلقين مرتبط دائما بالسلطوية، أي تقبل كل ما تمليه سلطة المعلم وبذلك يصبح من السهل جداً على مثل هذا التلميذ أن يتقبل كل ما تمليه سلطة أمير الجماعة دون تحليل أو نقد أو معارضة ولـو لـم تكن هناك جماعات دينية وكان هناك بديل عنها كجماعات فاشـية لانخـرط فيهـا خريجو هذا النظام التعليمي ، ففي كل هذه الجماعات يتم تلقين الفكـر وتقبلـه دون تحليل ويسهل الانقياد بفعل إبطال عمل العقل . وقد يكون ذلـك تفـسيرا لانخـراط بعض حملة الشهادات العليا في مثل هذه التنظيمات . ومما يدعم هذا الرأي أيـضاً تغلغل التطرف في التنظيمات الطلابية بالكليات العملية كالطب والهندسة أكثر منـه في الكليات النظرية كالآداب والتجارة ذلك أن هذه الكليات النظرية تتيح قدراً أكبـر نسبيا لطلابها لإعمال الفكر فهو متعرض فيها لنظريات وآراء مختلفة ينقد فيها كـل اتجاه الآخر على عكس الكليات العملية التي لم تدخلها العلوم الإنسانية بعد .

وتتمثل أزمة النظام التعليمي أيضاً في نقطتين ترتبطان بتهيئة لظروف التطرف ، الأولى عجزه حتى الآن عن محو أمية ما يزيد على نصف الـسكان مـن جهـة ، والثانية أنه بدلاً من تزويده لسوق العمالة بالتخصصات اللازمة يزود البطالة بأعداد متزايدة نظراً لضعف الارتباط بينه وبين احتياجات المجتمع .

٤- تقصير المؤسسات الثقافية والتطرف

لقد قصرت المؤسسات الثقافية عن أداء دورها الذي أنشئت من أجله .. وتحولـت الثقافة من خدمة جماهير تدعمها الدولة إلى سلعة استثمارية تهتم بالربح وبـالمظهر

أكثر من الفائدة والمضمون . وفي مجال المسرح انحسرت موجة المسارح الشعبية والجماهيرية وتقلص الدور الحكومي الذي كان يزود الشباب بغذاء عقلي وروحي ويوسع مداركهم بما يعرضه من مسرحيات واقية وبأسعار مقبولة وتحول النشاط المسرحي إلى تقديم الفن هابط ومبتذل . وبالتالي لم تعد الثقافة المسرحية متاحة للقطاع الأعظم من الشباب إما حرماناً أو إحجاماً واحتقاراً ، وينطبق نفس الشيء على السينما وملأ الفكر المتطرف الفراغ الثقافي مثلما ملأت الجماعات المتطرفة الفراغ السياسي أما وسائل الإعلام وخاصة المرئية فهي تعرض لجماهير الشباب صوراً متنوعة وبكثافة عالية للإنفاق البذخي وللمظاهر الاستهلاكية الترفيه فتزيد من حالة الإحباط لديهم كما أنها تعرض نماذج سلوكية وثقافة غريبة أو مبتذلة الأمر الذي يثير نقمة واشمئزاز الكثير من الشبان أو يمثل غواية لهم للانحراف قد يكون التطرف الديني وسيلة دفاعية للاحتماء به منها .

هذا عن المضمون ، أما من حيث الأسلوب فإن وسائل الإعلام تكرس الجمود العقلي والتسلطية وإبطال عمل العقل الناقد فهي تعرض في الغالب الرأي الواحد حتى لو اشترك في عرضه ومناقشته عشرات الأفراد دون أن تتيح فرصة للرأي الآخر وللحوار والنقاش .الأمر الذي يكرس أيضاً القابلية للإيحاء والتلقين وهي خاصية العقلية التي تعتمد عليها الجماعات المتطرفة لاجتذاب أعضائها .

أما الثقافة الدينية التي يتعرض لها أبناؤنا فإنها في حاجة شديدة للمراجعة ويكفي أن نستمع إلى خطبة الجمعة بمساجد الجمهورية المختلفة والتي يلقيها في الغالب أشخاص غير مؤهلين لكي نتعرف على كيفية تكريسها للجمود العقائدي وعدم تمثل الأبناء لتعاليم الدين الإسلامي السمحة ، كما أن مقررات الدين في المدارس في حاجة ملحة للمراجعة .

٥- الأزمة الأسرية والتطرف

تصب كل نتائج الأنظمة السابقة الحديث عنها في الأسرة مهد التنشئة الاجتماعية فالأزمات التي عانتها الأسرة بفعل التضخم والغلاء والبطالة ومشكلات الحياة اليومية القاسية من مواصلات وإسكان وغذاء وملبس وتعليم وصحة وتلوث وضوضاء وفوضى واضطراب وحصار دعائي لسلع وخدمات تثير التطلعات دون إمكانية التحقيق أو الإشباع ، كل ذلك يضع رب الأسرة أو ربتها في دوامة هائلة

لا تسمح بالتنشئة السليمة والصحية للأبناء فضلاً عن اضطراره للتسلط في مواجهة الأبناء ومن المعروف أن الأزمة الاقتصادية قد دفعت بأعداد هائلة من أرباب الأسر إلى الهجرة طلبا للرزق . وقد بينت الدراسات الاجتماعية أن الهجرة كانت لها آثار خطيرة على الأسرة ، حيث غياب الأب أو الأم أو كليهما عن الأبناء وما ينجم عن ذلك من انحراف يلجأ البعض للاحتماء منها بالتطرف كما أن هناك أباء يعودون من بعض البلاد وقد تشبعوا هم أنفسهم باتجاهات دينية كانت غريبة عنهم وعن المجتمع المصري هذه العوامل تدفع بالأبناء إلى الذين تغيب عنهم آباؤهم إما إلى الانحراف أو الانتماء إلى جماعات متطرفة عوضا عن الانتماء الأسرى والتماسك الذي يسود الجماعات المتطرفة بديلاً للتماسك المفقود في الأسرة ." (١)

وتضيف د. سهير لطفي إلى تلك الأسباب " الظروف الاجتماعية والسياسية التي مرت بها مصر في تاريخها المعاصر كالصدام – سلسلة الاعتقال التي قام بها الرئيس عبد الناصر للجماعات الدينية – سنة ١٩٥٤م ثم تكرر ذلك سنة ١٩٦٥م وتفسير هزيمة ١٩٦٧م ببعد المجتمع عن الدين (٢) وتشجيع سلطة السبعينات الفكر والحركة الإسلامية في مواجهة التيارات العلمانية السياسية والاجتماعية الأخرى .

والأزمات الاقتصادية التي يعانى منها المجتمع المصري منذ هزيمة ١٩٦٧م وفشل الاتجاهات الاشتراكية والليبرالية في معالجة المشاكل الاقتصادية ، وازدياد معدل التغيير في وسائل الإنتاج وأسلوب الحياة كل ذلك جعل من الدين الإسلامي المأوى الأخير للشباب الذي يبحث عن حد أدنى من الاستقرار والثبات هذا إلى جانب سكوت بعض رجال الدين وعدم إبداء وجهة نظرهم في التيارات الإسلامية وعدم إجراء حوار مع الجماعات الإسلامية الشبابية . وهذا عكس ما كان معروفاً عن دور الأزهر التاريخي إذ يبدى رأيه بوضوح في القضايا الوطنية .

خمسة وعشرون مأخذاً على المتنطعين من دعاة الإسلام

ويمكن أن نلخص أهم المآخذ التي أخذت على النصيين الحرفيين ، والظاهريين البدو ، والسلفية الجهادية ، وكل المتنطعين في فهم الدين بعامة في الآتي راجين من الله تعالى أن يهدينا وإياهم سواء السبيل :

---

(١) من مقال د. سمير نعيم أحمد منشور في كتاب "جذور الإرهاب " الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) لمعرفة المزيد من الأسباب التي أدت إلى ظهور السلفية الجهادية في مصر الرجوع إلى كتاب "المدارس السلفية " للمؤلف فصل " السلفية الجهادية " .

أولاً: المذهبية الدينية المفرقة للجماعة

ومما يؤخذ على هؤلاء المتنطعين المذهبية الدينية ذات القالب الجامد الذي لا يقبل الاختلاف ولا التنوع خارجه من مذاهب أخرى أو آراء أخرى مهما كان القائل بها ، ولا عدد المؤمنين بها بل لا يقبل الاختلاف والتنوع داخل المذهب نفسه فهم يقصرون الفهم الصحيح للدين على جماعة بعينها ويحرمون غيرهم حق الاختلاف والزعم أنهم هم الفرقة الناجية ، مما ولد الانقسامات فيها ، وزاد الهوة بينها .

مع أنه من المقرر أنه " لا يجوز حمل الناس على الرأي الاجتهادي ولا يجوز لعالم مجتهد، ولا لإمام عام أن يحمل الناس على رأيه واجتهاده .

وصنف رجل كتاباً في الاختلاف، فقال أحمد: لا تسمِّه كتاب الاختلاف، ولكن سمه كتاب السعة. ولهذا كان بعض العلماء يقول: إجماعهم حجة قاطعة ، واختلافهم رحمة واسعة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا، ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة . "(1)

كما أنهم يطلقون على أنفسهم مسميات تمييزاً عن بقية المسلمين : ومن تلك الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم : " جماعة جند أنصار الإسلام" و " جماعة شباب المجاهدين " و " جماعة التكفير والهجرة " و" الجماعة الإسلامية " و " جماعة الجهاد " و " تنظيم القاعدة " " الناجون من النار" .. مع أن الله تعالى يقول{ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ }(الحج : ٧٨) يزكون بهذه الأسماء أنفسهم مع أن الله تعالى نهى عن تزكية الإنسان نفسه { فلا تُزَكُّوا أنفُسَكُمْ هُوَ أعْلَمُ بمَن اتَّقى } (النجم : ٣٢) .

ويحذرنا الله تعالى من التشيع والتحزب وفرح كل حزب بما لديه ، واعتقاده أنه هو الذي على صواب ، وبقية الأحزاب والشيع على باطل .

{ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } (الروم : ٣٠ – ٣١) .

---

(١) ابن تيمية " شرح العمدة في الفقه " ج ٤ ص ٥٦٧

ثانياً : الانغلاق على الذات :

ومن عيوب النصيين الحرفيين الانغلاق على الذات وعدم الانفتاح على المجتمع وعلى الآخرين "وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين وموازنة ما عنده وما عندهم والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً وأرجح ميزاناً " (١)

مع أن الباحث عن الحق يجب أن يتهم رأيه وإن كان متأكداً من أنه صواب وأن يضع في الاحتمال أن الحق يمكن أن يكون مع مخالفه، وبهذا الشعور يسهل عليه تقبل الحق عندما يظهر، ويلوح له .

ثالثاً : عدم التمييز بين مخالفة الرأي ومخالفة الدين

ومن عوار تفكير بعض النصيين الحرفيين أنهم يعتبرون أن كل مخالف لرأيهم مخالف للدين أو أنه كافر مهدر الدم مستباح المال وهذه بدعة ما قال بهذا سلف أو خلف غيرهم فلقد تعايشت المذاهب الإسلامية جنباً إلى جنب فما اتهم واحد من الأئمة غيره بالفسوق فضلاً على الخروج على الدين أما هؤلاء فقد دأبوا على " اتهام الناس بالخروج من الإسلام أو عدم الدخول فيه أصلاً كما هي دعوى بعضهم وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد وسائر الأمة في واد آخر وهذا ما وقع فيه الخوارج في صدر الإسلام والذين كانوا من أشد الناس تمسكاً بالشعائر التعبدية ، صياماً وقياماً وتلاوة للقرآن ولكنهم أتوا من حيث فساد الفكر لا فساد الضمير زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ومن ثم وصفهم النبي ﷺ بقوله " يحقر أحدكم صلاته إلى صلاته وقيامه إلى قيامهم وقراءته إلى قراءتهم ومع هذا قال عنهم : " يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم " وذكر علامتهم المميزة بأنهم " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان " (٢)

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٩ .
(٢) نفسه ص ٥٤ .

ولعمري إن هذا الوصف يكاد ينطبق على هؤلاء الصنف من النصيين الحرفيين فحروبهم موجهة لإخوانهم من المسلمين المخالفين لهم في الرأي . فكم من الأبرياء تلطخت أيديهم بدمائهم !

أما أعداء الإسلام والمسلمين المحتلين أرضه من اليهود عبدة الحياة المادية والغرب المسيحي عبدة الصليب فلم يصب منهم واحد من هؤلاء بأذى .

قال الشاعر عمران بن قحطان في مثل هؤلاء :

أسدٌ على وفي الحروبِ نعامةٌ * ربداءُ تجفلُ من صفيرِ الصافر

وقديماً أسلافهم من الخوارج " قابلوا مسلماً ونصرانيّاً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا احفظوا ذمة نبيكم ! "[١]

لقد حكمت جماعات السلفية الجهادية بالكفر على كل من ارتكب معصية وأصر عليها ، ولم يتب منها ، فهم يكفرون الحكام ؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله . ويكفرون المحكومين ؛ لأنهم رضوا بهم ، وتابعوهم على الحكم بغير ما أنزل الله .

وهم يكفرون علماء الدين وغيرهم لأنهم لم يكفروا الحكام والمحكومين ، ومن لم يكفر الكافر فهو كافر .

وهم يكفرون كل من عرضوا عليه فكرهم ، فلم يقبله ولم يدخل فيما دخلوا فيه .. لهذا حذر النبي من الاتهام بالكفر فشدد التحذير ففي الحديث الصحيح :

" من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " (متفق عليه) .

فما لم يكن الآخر كافراً بيقين فسترد التهمة على من قالها ويبوء بها وفي هذا خطر وقد صح من حديث أسامة بن زيد أن من قال " لا إله إلا الله فقد دخل في الإسلام وعصمت دمه وماله وإن قالها خوفاً أو تعوذاً من السيف فحسابه على الله ، ولنا الظاهر ولهذا أنكر النبي غاية الإنكار على أسامة حين قتل الرجل في المعركة بعد أن نطق بالشهادة وقال : قتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟!! قال أسامة : إنما قالها تعوذاً من السيف ؟ قال : هلا شققت قلبه ؟ ما تصنع بـ لا إله إلا الله ؟!! قال أسامة : فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ فقط ..

---

(١) د. مصطفي الشكعة " إسلام بلا مذاهب " ص ١٤٨

وكل الشبهات التي استند إليها الغلاة في التكفير مردودة بالمحكمات البينات من كتاب الله وسنة رسوله وهو فكر فرغت منه الأمة منذ قرون، فجاء هؤلاء يجددونه، وهيهات .. "[1]

رابعاً : الجمود وعدم فقه الواقع وتغيير الفتوى

إن أحد هؤلاء السلفيين النصيين لا يعلم من العلوم الحديثة إلا اسمها ، ولا يعلم عن التقنيات الجديدة إلا شكلها ، ولا يعلم من الحضارة الحديثة إلا عوارها ، ومع ذلك يفتى الناس على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم وثقافتهم وأحوالهم بفتوى واحدة فيما اختلف فيه العلماء والحقيقة أن العيب ليس عيبهم في هذه المرة إنما العيب عيب من استفتى مَن يختلف عنه وعن بيئته وحضارته وعاداته وتقاليده وترك علماء بلده وهم أقدر الناس على إفتائه بما يتناسب وظروف بيئته .

يقول ابن قيم الجوزية " مهما تجدد في العرف فاعتبره ومهما سقط فألغه ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك وسله عن عرف بلده فأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك قالوا فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين " (٢)

إن الإمام الشافعي غيَّر مذهبه في مدة وجيزة ، فكان له مذهب جديد ، ومذهب قديم ، وأن أصحاب أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثلث المذهب ؛ لاختلاف عصرهم عن عصره ، وقالوا : لو رأى صاحبنا ما رأينا ؛ لقال بمثل ما قلنا أو أكثر ، والإمام أحمد تُروى عنه في المسألة الواحدة روايات قد تبلغ سبعاً ، أو أكثر وما ذلك إلا لاختلاف الأحوال والملابسات ، وتغير الظروف والأوضاع في غالب الأحيان . [3]

أما المتنطعون فلا يكتفون بنقل فتاوى مضى عليها ألف عام أو أكثر قيلت في زمان ومكان وظروف تختلف تماماً عن الواقع الذي يريدون أن ينزلوا إليه الفتوى!

---

(١) يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية " ص٥٥

(٢) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨

(٣) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " مرجع سابق ص ٧ .

بل يعممون الفتوى على كل الناس على اختلاف عوائدهم وأعرافهم فهم يأبون إلا التقليد وإيقاع الناس في الحرج " وقد تجلى ذلك في البحث والتنقيب في حياة السلف وأقوال العلماء الأقدمين عن مرجع لأي أمر جديد، والاستغراق في قياسات جزئية لا تلبى حاجات الإسلام في العصر الحاضر ، ولا تجيب عن الأسئلة الكبيرة والخطيرة التي تواجه المجتمعات الإسلامية اليوم. والنظر بريبة إلى كل اجتهاد جديد لا يجد له مستنداً أو سابقة في حياة السلف .

وربما يجد المرء جذوراً تاريخية لهذا المنزع في تورع بعض العلماء الأقدمين مثل الإمام أحمد والإمام أبى داود من القول بالرأي ، وإيثارهم الأخذ بالآثار الضعيفة على الرأي والاجتهاد . وهو نوع من عدم الاعتراف ضمناً بحدود النص كان ممكناً في عصرهم الذي لا يختلف كثيراً عن عصور الإسلام الأولى، لكنه غير ممكن في عصرنا الحالي، نظراً للتغيرات العميقة في مسار الحياة وبنية المجتمعات، مما يجعل الاعتراف بأن "النصوص متناهية والحوادث غير متناهية" كما يقول الأصوليون أمراً لا محيد عنه "[١]

وهم بذلك يغلقون باب الاجتهاد أمام أهل الاجتهاد المعاصرين من علماء الأمة بل ألغاه بعضهم أمام العلماء منذ القرن الرابع الهجري واكتفوا بما صنفه المجتهدون الأوائل مع أن الاجتهاد سمة مميزة للإسلام قررها القرآن وأكد عليها النبي ومارسها النبي والصحابة والتابعين والعلماء الثقاة في كل العصور . فالمجتهدون هم الذين يجددون لهذا الدين شبابه ولولاهم لما كان هذا الدين صالحاً لكل زمان ومكان وفي ذلك يقول تعالى :

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } (التوبة : ١٢٢)

ويقول النبي : " "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " حديث صحيح (رواه أبو داود)

وأنّ رَسُولَ الله ﷺ لَمّا أَرَادَ أنْ يَبْعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ قالَ : " كَيْفَ تَقْضِي إذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟ قالَ أَقْضِي بِكِتَابِ الله. قالَ فَإنْ لَمْ تَجِدْ في كِتَابِ الله ؟ قالَ فَبِسُنّةِ

(١) محمد بن المختار الشنقيطي " مخاض الفكر السلفي " .

رَسُولِ الله ﷺ قالَ فَإنْ لَمْ تَجِدْ في سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَلاَ في كِتَابِ الله ؟ قَالَ أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي وَلاَ آلو ، فَضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ صَدْرَهُ ، فَقَالَ الْحَمْدُ لله الَّذي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ الله". (رواه أبو داود)

فهؤلاء المقلدون الجامدون لا يجب أن يتصدوا لإفتاء الناس وفي ذلك يقول الشوكاني في كتابه [القول المفيد] " فعندي أن المفتي المقلد لا يحل له أن يفتي من يسأله عن حكم الله أو حكم رسوله أو عن الحق أو عن الثابت في الشريعة أو عما يحل له أو يحرم عليه لأن المقلد لا يدري بواحد من هذه الأمور على التحقيق بل لا يعرفها إلا المجتهد هكذا إن سأله السائل سؤالا مطلقا من غير أن يقيده بأحد الأمور المتقدمة فلا يحل للمقلد أن يفتيه بشيء من ذلك لأن السؤال المطلق ينصرف إلى الشريعة المطهرة لا إلى قول قائل أو رأي صاحب رأي " .

وللأسف الشديد إن كثيراً ممن يشغلون المناصب العليا في الفتوى في بلادهم إذا سئلوا في فتوى لا يحاولون الاجتهاد من أنفسهم .. بل يفتون ببعض الفتاوى القديمة مهما كانت هذه الفتاوى تتعارض مع روح العصر وفي ذلك كسل عن الاجتهاد أو الخوف من المسئولية وكل ما يفعلونه أن يقولوا لنا هذا رأى الإمام أحمد وهذا رأى ابن تيمية ، وهكذا فهذا المقلد لا يعتبر مفتيا بالمعنى الصحيح بقد ما هو ناقل آراء وخير له أن يترك مهنة الإفتاء للعلماء المجتهدين وهم موجودون بفضل الله في كل زمان وفي ذلك يقول الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين " من أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم "(١)

خامساً : عدم إدامة النظر في كتاب الله

ومما أفسد فهم بعض السلفيين للدين إعراضهم عن القرآن الكريم لا يديمون فيه النظر ولا يتشبعون بروحه ولا يقتفون منهجه وتعظيم ما عظم وتهوين ما هون،

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨ .

فإذا القرآن تحدث عن ألف آية عن التفكير والعلم الشامل ونعى على مقلدي أسلافهم تقليدهم الأعمى . فإن السلفي النصي الحرفي يحقر من شأن العقل ، ولا يأخذ بالرأي ويغلق باب الاجتهاد ، ويقصر العلم على ترديد ما قاله بعض السلف . مع أن القرآن الكريم هو " حجة الله على الناس وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتباعه لأنه من عند الله وأنه نقل إليهم بطريق قطعي لا ريب في صحته "(١) ، وأن الله أمر الناس بتدبر القرآن { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد : ٢٤) وحث على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس .(٢)

ومن أعجب ما يدَّعوه – بهتاناً وزوراً – أن السنة تقضي على القرآن !!

أرأيتم جهلاً أكبر من هذا ؟! هل حديث الآحاد الذي لا يفيد إلا الظن العلمي مقدم على كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، ولا يأخذ من القرآن إلا ما وافقه ؟! هل هذا القول يقوله مسلم موحد بالله ؟ فما بالك إذا صدر من وعاظ يتبعهم الملايين من المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفي هؤلاء النصيين الحرفيين يقول الشيخ محمد الغزالي " قد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن كثيري النظر في الأحاديث يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة .." (٣)

سادساً : عدم التزام الأمانة العلمية في النقل وعرض الآراء

بعض السلفيين ينقلون ما يوافق هواهم ، ويغضون الطرف عن أدلة من خالفهم ، بدلاً من عرض آراء العلماء بموضوعية وحيادية ثم مناقشتها مناقشة علمية لا مذهبية ، وترك الناس تختار ما تشاء من آراء العلماء المجتهدين دون الحجر على رأى . أما السلفي النصي الحرفي فينتقى من كتب التراث ما يوافق هواه فإن كان

---

(١) علم أصول الفقه " عبد الوهاب خلاف ص ٢٤

(٢) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠

(٣) محمد الغزالي " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " ص ٢٠

هواه مع ظاهر بعض الأحاديث ، صحيحة أو ضعيفة ، يقول لك لا اجتهاد مع نص ويرد بهذا أقوال الفقهاء الذين تأولوا هذه الأحاديث في ضوء القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وفهم الصحابة ، وفي ضوء مقاصد الشرع ، وفقه الواقع ، وهي مقولة حق أرادوا بها باطلاً فحقاً لا اجتهاد مع نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، أما غير ذلك من النصوص فقطعاً فيها اجتهاد من أهل الاجتهاد ممن تحققت فيهم شروطه .

أما إن كانت الأحاديث صريحة في مخالفة ما ذهبوا إليه فإنهم لا يأخذون بظاهر الأحاديث وإنما يقولون لك لا حديث بغير فقه ويتخيرون من أقوال الصحابة أو العلماء ما يؤيد رأيهم ناسين أو متناسين ملابسات الفتوى ، والعصر الذي قيلت فيه، وطبيعة الناس الذين أفتى لهم العلماء بهذه الفتوى كما أنهم لا يذكرون أقوال من خالف رأيهم من سلف أو خلف ... دليل ذلك اقرأ أو اسمع كلامهم في الغناء ، اللحية ، النقاب ، معاملة غير المسلمين ، وتنظيم الأسرة ، الأحكام المتعلقة بالمرأة، التصوير ، إسبال الإزار ، القيمة النقدية لزكاة الفطر ، ...

بل إن بعضهم يلجأ إلى التدليس على الناس فإذا كان الحديث ضعيفاً في مسألة من المسائل بَحَثَ عمن يصححه من علماء الحديث فإن لم يجد فإنه يكتفي بذكر راوي الحديث دون بيان لدرجة الحديث ومدى صحته ، والناس ينطلي عليها هذا التدليس فلا دراية لهم بعلم الحديث ولا يعرفون إلا إن الشيخ مادام قد قال : قال رسول الله ﷺ فقد صدق وما عليهم إلا السمع والطاعة ووجوب العمل . وإذا كان العلماء قد أجازوا رواية الأحاديث الضعيفة إنما أجازوا روايتها في فضائل الأعمال لا في الأحكام وأشهر مثال على ذلك الأحاديث المحرمة للغناء فإن العلماء مثل : ابن حزم وابن العربي وأبو حامد الغزالي وغيرهم كثير يجمعون على عدم صحة هذه الأحاديث بعكس الأحاديث الدالة على إباحته فهي كثيرة وصحيحة ومتفق عليها إلا أن هؤلاء المدلسين غلاظ القلوب لا فتئون يذكرون الضعيف من الأحاديث ولا يذكرون الصحيح منها . أليس ذلك تدليساً وخروجاً على الروح العلمية ؟ والعجيب أن هذا الموضوع بالذات هو أكثر المواضيع التي يتحدثون فيها وويفردونها بمؤلفات خاصة !! لماذا هذا الإصرار العجيب على هذا الموضوع بالذات دون غيره كأنه من الأمور العقدية التي لا يصح إيمان إلا بها !! وكلها تصدر من بلد بعينه وتوزع بالمجان على سائر الدول التي تختلف في طبيعة الحياة

والتفكير والعلم والعادات والتقاليد والحضارة عن هذه البلد وعن علمائها فإذا كان علماء هذه البلاد لا يسمعون الغناء فهذا حقهم فلم يحرمونه على غيرهم في المناسبات السعيدة والأعياد ترويحاً للقلوب – بالشروط التي بيناها في غير هذا الموضع – كما كان يفعل هذا بعض صحابة رسول الله ﷺ جاء في الحديث الصحيح عن عامر بن سعد قال : " دخلت على قرظه بن كعب وأبى مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار يغنين فقلت أنتما صاحبا رسول الله ﷺ ومن أهل بدر يفعل هذا عندكم فقال اجلس إن شئت فاسمع معنا وإن شئت اذهب قد رخص لنا في اللهو عند العرس " (رواه النسائي والحاكم وصححه الألباني)

والذي دعاهم إلى تحريم الغناء جملة وتفصيلاً تقليدهم لبعض السلف المحرمين للغناء في عصرهم ، وفي ذلك يقول ابن القيم : " لا يجوز الفتوى بالتقليد لأنه ليس بعلم والفتوى بغير علم حرام ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم " (1)

سابعاً : الخلط بين المقدس وغير المقدس

وبعض السلفيين المتنطعين المقلدين يخلطون بين ما هو مقدس – وهو القرآن الكريم وصحيح السنة – وما هو اجتهاد بشرى ، فيخلطون مثلاً بين القرآن الكريم وتفسير بعض علماء السلف له فكلاهما مقدس لا يجوز الخروج عليه . فإذا قال الله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } (لقمان : ٦) فيكون مراد الله تعالى بلهو الحديث هو " الغناء " كما قال بعض السلف ومن قال بغير ذلك فقد خالف كتاب الله ! وبهذا أصبح بعض كلام السلف هنا مقدساً كالقرآن بالطبع إذا وافق هوى السلفي النصي الحرفي إما إذا خالف هواه في موضع آخر كتفسير ابن عباس وغيره من صحابة رسول الله ﷺ للمستثنى في قوله تعالى {وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا } (النور : ٣١) بالوجه والكفين لم يلتفتوا إليه بل يجعلون رأى ابن مسعود رضى الله عنه هو الرأي المقدس في هذه القضية وهكذا أصبح المقدس من آراء السلف ما يقدسونه هم حسب هواهم .

---

(1) ابن قيم الجوزية " إعلام الموقعين " ج ١ ص ٥١

وبعضهم يخلط بين الإسلام وبعض أقوال السلف فيجعلونهما سواء بسواء وهم بهذا يكونون قد جاروا على الاثنين معاً جاروا على القرآن الكريم والسنة المطهرة كما جاروا على السلف الصالح ؛ فالقرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو صالح لكل زمان ومكان يفهم منه علماء كل عصر بما يفتح الله عليهم به متسلحين بعلوم الدين وعلوم اللغة وعلوم العصر ، أما السلف الصالح وغيرهم من علمائنا الأفذاذ ما ادعى واحد منهم عصمة لرأيه ولا ادعى أن رأيه صالح لكل زمان ومكان ، وأن رأيه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما كان منهجهم ما عبر عنه الإمام الشافعي بقوله" رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب " وقول الإمام مالك " كل يؤخذ منه و يرد إلا صاحب هذا المقام – يقصد النبي ﷺ – . وقد روى أبو نعيم في "حلية الأولياء" عن مالك أنه قال: شاوَرَني هارون الرشيد في أن يعلّق الموطأ على الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكلٌّ مصيب " .

ولو كان للقرآن تفسير واحد لا يصح غيره لفسره النبي ﷺ إنما النبي ترك هذا الأمر لعلماء المسلمين الذين يجددون للإسلام شبابه { إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها } (رواه أبو داود والحاكم) معنى هذا أنه يجب فهم الدين بالمفهوم المعاصر له وعدم الاكتفاء ببعض أقوال السلف دون الأخذ بمنهجهم في فهم الدين .

وإذا كانت أقوال السلف مقدسة فلماذا تعددت التفاسير ولم يكتف بأقدمها ؟ ولماذا فسر ابن كثير القرآن بعد ابن عباس والطبري والقرطبي وغيرهم من أعلام التفاسير ؟ ولماذا يُحَرِّم مفسرو عصر من التفسير أو شرح الأحاديث أو الفقه ؟!

لقد " خلط بعض السلفيين بين الوحي والتاريخ في المرجعية، جراء نقص في الوعي بالتاريخ لا يميز بين صورته ومعناه، وتقصير في دراسة حياة السلف دراسة استقصائية تلم بكل جوانبها المضيئة والقاتمة ، ولا تقف عند سرد المناقب فقط. وذلك هو داء التجسيد تجسيد المبادئ في أشخاص، مهما يكونوا عظماء فهم غير معصومين، وفي وسائل مهما تكن ناجحة ، فهي محدودة بحدود الزمان والمكان. والذي يتأمل نصوص الشرع ومصائر الأمم يدرك أن الخلط بين المبادئ

والأشخاص ، أو المبادئ والوسائل ، من أسوأ الأدواء الفكرية والعملية . لقد أمرنا النبي ﷺ باتباع سنته بإطلاق لأنه معصوم: "عليكم بسنتي"، ثم أمر باتباع سنة الخلفاء من بعده، لكنه قيدها بالرشد "وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي". وفي ذلك درس ثمين في التمييز بين الشخص والمبدأ حتى ولو كان ذلك الشخص أحد الخلفاء الراشدين " [١]

ثامناً : مخالفة أولياء الأمور في الأمور العامة

ومما يؤخذ على بعض المتنطعين مخالفتهم لأولياء الأمر في بلادهم وعدم الالتزام بقوانين الدولة ولا بفتاوى مفتيها . مع أنه " يجب طاعة الإمام في الأمور العامة وإن أساء ما لم يخرج من الإسلام : ومنهج أهل السنة والجماعة الصلاة خلف أئمة الجور والجهاد معهم ، وإن كانوا فجاراً، والصوم بصومهم والحج بحجهم، وإعطاء الزكاة لهم ففي الصلاة صلى المسلمون خلف الذين حاصروا الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصلى السلف خلف الحجاج والوليد، والمختار بن أبي عبيد ، وأمر النبي ﷺ بالصلاة خلف الولاة وإن كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها وفي الزكاة قال النبي ﷺ : " أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم " (متفق عليه) " [٢]

أما أولئك فإنهم لا يعترفون بقوانين الدولة ولا تهمهم مصلحتها فإن أعطت الدولة الأمان للسائحين للسياحة في بلادهم قتلوهم بدعوى أنهم ناشرون للرذيلة والفساد ، وإن جعلت الدولة عصمة أرواح وأموال المواطنين غير المسلمين كعصمة أرواح وأموال المسلمين استباحوا هم دماءهم وأموالهم ، وإن عاهدت الدولة إسرائيل لتسترد أرضها – وقد استردتها بالفعل – اغتالوا الرئيس الذي وقع هذه المعاهدة وانتصر على إسرائيل حرباً وسلماً ...

إن هؤلاء الجهلاء بالدين والدنيا قد نصبوا أنفسهم مفتين في الدين وجنرالات في الحرب وسياسيين في المفاوضات ، وخبراء في الاقتصاد ، ومربين في مجال التربية .. !! والمدهش أن كثيراً منهم لم يكمل تعليمة أو اقتصر علمه على دراسة بعض المتون والحواشي على كتب مات أصحابها من ألف عام أو يزيد .

---

(١) محمد بن المختار الشنقيطي " مخاض الفكر السلفي " .

(٢) عبد الرحمن بن عبد الخالق " القواعد الذهبية في أدب الخلاف " ص ٤

تاسعاً : جعل أمور الدين في مرتبة واحدة

كثير من النصيين الحرفيين يجعلون أمور الدين في مرتبة واحدة فلبس النقاب كفرضية الصلاة ، وحلق اللحية كشرب الخمر ، والرسام والمصور كعابد الأوثان ، وسماع الأغاني والموسيقى كالزنا والفجور إن تركيزهم على مثل هذه الأمور وكثرة الحديث عنها والاستشهاد عليها من أقوال بعض السلف يجعل حلق اللحية وسماع الأغاني وسفور الوجه كترك الصلاة وشرب الخمر والزنا مع أن أمور الدين ليست على درجة واحدة " بل متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول وما يعد من الفروع ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ما هو من الفرائض ، وما هو من النوافل ما هو قطعي وما هو ظني ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ما هو في مرتبة الضروريات وما هو في مرتبة الحاجيات وما هو في مرتبة التحسينات على حد تقسيم الأصوليين وهذا أمر جد خطير حتى يأخذ كل عمل مرتبته وتأخذ كل مرتبة حكمها ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض كما يفعل بعض الناس الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسنن معاملة الفرائض والمكروهات كالمحرمات والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها والظنيات كالقطعيات ولهذا تضطرب أحكامهم ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل " (1)

نحن لا ننكر عليهم أن يرسلوا لحاهم ، وألا يسمعوا الموسيقا والغناء مهما كان موضوعها وطريقة أدائها، إنما ننكر عليهم جعل هذه الأمور من فرائض الإسلام وأن المحجبة غير المنتقبة سافرة ، وأن حليق اللحية فاسق ، وأن من يسمع الأغاني والموسيقا – وإن كانت النشيد الوطني لبلاده – خليع ماجن مع أن هذه الأمور من المباحات وأن كثيراً من الفقهاء قديماً وحديثاً قد أجازها " ومن حقائق الحياة أن الناس يتفاوتون في هذه القضية فمنهم المتساهل الميسر ومنهم المتشدد المعسر وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس والمتشدد كابن عمر رضي الله عنهما " (2)

لكن النصيين الحرفيين أو الظاهريين البدو يأبون إلا أن يفتوا الناس بآرائهم المتشددة ويلزموهم بها وكان عليهم إما أن يبينوا للناس بشيء من اليسر أشهر

---

(1) د. يوسف القرضاوي " نحو وحدة فكرية " ص ١٠٩

(2) د . يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٧

الآراء ويدَعُوا الناس تختار ما تطمئن إليه قلوبهم ، أو يكتفون بذكر الرأي الأيسر إقتداء بالنبي ﷺ الذي ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما ما لم يكن أثماً .

عاشراً: فرض الرأي بالقوة

وكثيراً ما يلجأ هؤلاء المتنطعين إلى استخدام الشدة بل العنف أحياناً في فرض آرائهم ورمى مخالفيهم بالابتداع ومخالفة السنة وتطاولهم على علماء أفنوا عمرهم في الدعوة إلى دين الله على بصيرة – جاهلين أو متجاهلين – نهج القرآن في خطاب الكفار – فما بالك بخطاب المسلمين – فيقول تعالى { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (النحل : ١٢٥) وقوله تعالى لموسى وهارون: { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } (طه : ٤٤) فإذا كان موسى أُمر بأن يقول لفرعون قولاً ليناً، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه. وقد قال تعالى { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً } (البقرة : ٨٣)[١]

ويعلمنا الله تعالى أن نخاطب المخالفين لنا في الدين بالتي هي أحسن فضلاً عن أخواننا في الدين { وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (العنكبوت : ٤٦)

إن سمة الداعي إلى الله على بصيرة أن يكون رقيق القلب يعفو عمن أساء ويدعو بالخير لمن أعرض وهكذا كان النبي ﷺ { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } (آل عمران : ١٥٩)

{ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (التوبة : ١٢٨)

أما المتنطعون فإما إن تسلم لهم برأيهم وتلتزم به قولاً وعملاً، وإلا رموك بالابتداع ، ومخالفة السنة ، والخروج على الدين ، وربما يغالى بعضهم فيحمل عليك السلاح! كما حملوه على الرئيس السادات، والشيخ الذهبي، ورفعت المحجوب، ورجال الشرطة ، والأبرياء من المواطنين – رحمهم الله – وكما رفعوه على نجيب محفوظ ، وجميع وزراء الداخلية في العقدين الأخيرين ...

---

(١) القرطبي في تفسير قوله تعالى " فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"

الحادي عشر : الاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى

ومن دلائل عدم الرسوخ في العلم ومن مظاهر ضعف البصيرة بالدين اشتغال عدد من هؤلاء السلفيين بكثير من المسائل الجزئية والأمور الفرعية ، عن القضايا الكبرى التي تتعلق بكينونة الأمة وهويتها ومصيرها فنرى كثيراً منهم يقيم الدنيا من أجل اللحية أو الأخذ منها أو إسبال الثياب ، أو تحريك الإصبع في التشهد ، أو اقتناء الصور الفوتوغرافية أو نحو ذلك من المسائل التي طال فيها الجدال وكثر فيها القيل والقال . هذا في الوقت الذي تزحف فيه العلمانية اللادينية وتنتشر الماركسية الإلحادية ، وترسخ الصهيونية أقدامها ، وتكيد الصليبية كيدها ، وتعمل الفرق المنشقة عملها في جسم الأمة الكبرى وتتعرض الأقطار الإسلامية العريقة في أسيا وأفريقيا لغارات تنصير جديدة يراد بها محو شخصيتها التاريخية وسلخها من ذاتيتها الإسلامية .. والعجيب أن الذين هاجروا أو سافروا إلى ما وراء البحار في أمريكا وكندا وأوروبا لطلب العلم أو طلب الرزق قد نقلوا هذه المعارك الجانبية إلى هناك .. وكان أولى بهؤلاء أن يصرفوا جهودهم إلى ما يحفظ على المسلمين وناشئتهم أصل عقيدتهم ، ويربطهم بأداء الفرائض ، ويجنبهم اقتراف الكبائر .. [١]

كنت في زيارة لأحد المعارف وعندما أذن لصلاة المغرب ذهبت للصلاة في مسجد قريب من بيته وإذا بمن أمَّنا في الصلاة ،وكان شاباً دون العشرين، يقرأ في الفاتحة { مَلِك يوم الدين } لا { مالك يوم الدين } وتأكدت من ذلك في الركعة الثانية فلما انتهت الصلاة انتحيت به جانباً أسأله عن ذلك ، وأنا أعلم أنها إحدى القراءات الصحيحة ، فقال : إنها قراءة نافع وأبو عمرو وغيرهما . فقلت له : ولماذا لم تقرأ بقراءة حفص عن عاصم وهي قراءة مسلمي مصر والسعودية وغالبية بلاد المسلمين ؟ وهل يجوز تعدد القراءات في الصلاة الواحدة ؟ وماذا لو ردك مصلٍ ؟ فقال : لقد حدث كثيراً لكنى لم أعبأ بهم . ، قلت له : وما غرضك من هذه البلبلة وتشتيت الناس ؟ قال : حتى يعلموا أن هناك قراءات أخرى ؟ قلت له : يكون هذا التعليم في دروس العلم لا في الصلاة .. لكنه لم يقتنع فدعوت الله لي وله بالهداية . هذا أنموذج من الشباب المغرم بالتفريق لا التجميع وخوض معارك كلامية لا طائل منها إلا الفرقة .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٧٢

إن بعض الذين يتصدون للدعوة مغيبون عن العالم من حـولهم يفتحـون الكتـب ويقرءون فيها لا يعلمـون ما يناسـب الناس وما لا يناسـبهم كالببغاء يردد كلامـاً لا يدرى معناه ولا جدواه وإليكم بعض نوادر إمام المسجد الذي أصلى فيه إنه شاب يقوم بإلقاء خطبة الجمعة وعقد دروس علم بين المغرب والعشاء كل يوم ، يمـسك بكتاب من كتب الدين القديمة ويقرأ ويعلق على ما يقرأ وهو أنمـوذج لكثيـر مـن خطباء المساجد المنتشرين في ربوع مصر والعالم الإسلامي ومن نوادره أنه عقـد درساً استغرق من المغرب للعشاء كان موضوعه حكم مس الحصى في الـصلاة ، وتلفت حولي فوجدت البسط الفاخرة تغطى أرض المسجد ولا أثر لحصاة ولا حتـى لحبة رمل في هذا المسجد ولا في غيره من المساجد ولكن الواعظ المتشدق عرض جميع أراء العلماء في حكم مس الحصى في الصلاة فما ضـره لـو تحـدث عـن أمراض المجتمع التي تعوق تقدمه وهي كثيرة .

وفي محاضرة أخرى كان موضوعها حكم صلاة الحنفي خلف الشافعي ، وحكى اختلاف العلماء حول القنوت بإسهاب غريب ونظرت حولي فوجدت معظم المصلين من العامة الذين لا يعرفون من المذاهب الإسلامية إلا أسماء أصحابها شأنهم شـأن غالبية المسلمين ، وبدلاً من التركيز على الأصول بطريقة عصرية ميسرة محببـة وضرب الأمثلة من حياة الناس راح الواعظ يشتت العقول بإقحامهم في صـراعات مذهبية عفي عليها الزمن، ولقد خصص هذا الواعظ خطبة جمعة كاملة عن النمـل وحكم قتل النمل واختلاف العلماء حول ذلك وعرض عـشرات الآراء حـول هـذا الموضوع وانتهي إلى تحريم قتـل النمـل إلا قـصاصاً – أي إذا قرصـتك – !! وخصص خطبة جمعة أخرى يرد فيها على الإمام أبى حنيفة في إباحته دفع زكـاة الفطر نقداً !

وهكذا الوعاظ في واد والعالم في واد آخر لأنهم نقلة ولا يعمـل أحـدهم علـى استخدام عقله في دراسة ما حوله من متغيرات وما يتناسب معه من تعاليم .

سمع شيخنا الغزالي أحد هؤلاء فقال له " اسمع يا بني لماذا تحيـون الخـصومات العلمية القديمة ؟ كانت هذه الخصومات ، ودولة الإسلام ممدودة الـسلطة ، خفيفـة الضرر إنكم اليوم تجددونها ودولة الإسلام ضعيفة ، بل لا دولة له فلـم تعيـدونها جذعة وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضراماً وجهوا الأمة إلى كتـاب ربهـا

وسنة نبيها واشغلوهم بما اشتغل به سلفنا الأول اشتغل بالجهاد في سبيل الله فاعتز وساد مع ملاحظة أنهم كانوا يحررون غيرهم أما نحن فمكلفون بتحرير أنفسنا " (١)

ومما يؤخذ على بعض الجماعات السلفية المعاصرة تحولها إلى ما يشبه المدرسة الكلامية القديمة التي تطنب في الحديث عن دقائق العقائد دون داع شرعي، وهو ما لا ينسجم مع منهج السلف القائم على البساطة، وتجنب الخوض في تلك المباحث إلا لضرورة. وقد كان جديراً بالسلفيين أن يأخذوا العبرة من المعارك التي مزقت لحمة المجتمع الإسلامي خلال القرون السابقة ، وأهدرت طاقاته الفكرية والعملية في الجدل حول أمور لا جدوى من الخوض فيها " (2)

أذكر أني في مطلع شبابي كنت متأثرا بالمنهج السلفي الكلامي في شرح العقيدة وكنت أخطب الجمع وألقي المحاضرات في العقيدة وذات مرة وبعد أن انتهاء حديث لي كان عن ذات الله تعالى ، عرضت فيه الموضوع كما يعرضه النصيون الحرفيون من أن لله عين بدليل قوله تعالى { وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } (طه : ٣٩) لكنها ليست كعيون مخلوقاته تعالى لأن الله تعالى{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } (الشورى : ١١) وكذلك له يد بدليل قوله تعالى { يد الله فوق أيديهم } لكنها ليست كأيدي مخلوقاته ... بعد المحاضرة اقترب مني رجل بسيط طيب وقال لي سامحك الله لقد أفسدت على إيماني فقد كنت أنزه الله بما يليق بجلاله وكنت عندما أمر بآيات الذات استشعر عظمة الله لكن بعد حديثك هذا لم أعد كذلك . فكرت في كلام الرجل البسيط فوجدته محقاً فيه وأن التفكر في مخلوقات الله أولى من بحث ذاته ولما تدبرت الأمر ملياً وجدت أن منهج الرجل البسيط الفطري هو منهج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فلم يؤثر عن أحدهم الخوض في الحديث عن ذات الله كما خاض فيه النصيون الحرفيون فعزفت عن تكرار هذا ثانية وأصبحت أكتفي عند حديثي عن الله جلّ وعلا بالحديث عن عظمة الله في خلقه وحكمته في شرعه دون التعرض لقضية الذات والصفات .

ويقال مثل هذا في معارك بعض السلفيين الكلامية الوهمية في الرد على بعد الفرق الدينية التي لم يعد يدين بها أحد من المعاصرين كالمعتزلة والخوارج والمرجئة .. فيقومون بعرض آرائهم والرد عليها ، وهي حرب بلا ميدان مثل

---

(١) " هموم داعية " محمد الغزالى ص١٦

(٢) " مخاض الفكر السلفي " محمد بن المختار الشنقيطى .

حروب دون كيشوت الوهمية فهم يبعثون آراء ماتت ليحاربوها ويـردوا عليهـا !! ليتهم علموا الناس القراءة والكتابة لكان أجدى للأمة وانفع من تعليمهم الخلاف فـي الدين وتعريفهم بآراء أصبحت في ذمة التاريخ .وإثارة موضوعات تجاوزتها الأمـة من قرون .

الثاني عشر : المبالغة في التمسك بالمظهر ، والتفريط في الجوهر

كثير من هؤلاء المتنطعين يتمسكون أشد التمسك في ارتداء الجلابيـب القـصيرة إلى قرب منتصف الساق ، ولبس الغترة الخليجيـة ، وإرسـال اللحيـة ، وتحـريم مشاهدة التلفاز ، وكل أنواع الفنون ، ... وفي نفس الوقت تجدهم لا يخلصون فـي أداء الأعمال الموكولة إليهم والتي يتقاضون عليها أجراً ، ولا يخالقون الناس بخلق حسن حتى وإن كانوا والـديهم أو أبنـاءهم ، أو أزواجهـم ، أو الـصالحين مـن المسلمين، لدرجة جعلت كثير من الناس لا يطمئنون إليهم ولا يستعملون من علـى هيئتهم بعدما أصبحوا عنواناً على الإهمال ورمزاً للعنف ، ودلـيلاً علـى التخلـف والرجعية ، والجدل العقيم ، وهم بهذا يسيئون إلى الإسلام والمسلمين جميعاً ، ومن المؤسف حقاً أن هؤلاء الذين يثيرون الجدل في هذه المسائل الجزئية وينفخون فـي جمرها باستمرار أناساً يعرف عنهم الكثيرون ممن حولهم ، التفريط فـي واجبـات أساسية مثل : بر الوالدين ، أو تحرى الحلال ، أو إتقان العمـل أو رعايـة حـق الزوجة أو حق الأولاد أو حق الجوار ولكنهم يغضوا الطرف عن هذا كله وسـبحوا بل غرقوا في دوامة الجدل الذي أصبح لهم هواية ولذة ، وانتهي بهـم اللـدد فـي الخصومة والمماراة المذمومة وهذا النوع من الجدل هو الذي أشار إليه الحديث " مَا ضَلَّ قَوْم بَعْد هُدَى كَانُوا عَلَيْهِ إلا أُوتُوا الْجَدَل ، ثُمَّ تَلا ﷺ تِلْكَ الآيَة { مَـا ضَـرَبُوهُ لَك إلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْم خَصِمُونَ } (حديث صحيح رواه أحمد والترمذي وغيرهما)

يقول د. يوسف القرضاوي : " روى لي الإخوة في أمريكا عن أحد الذين ارتفعت أصواتهم بالإنكار على أكل اللحوم المذبوحة من طعام أهل الكتاب مما أفتـى بحلـه عدد من العلماء قديماً وحديثاً وكان هذا من أعلاهم صوتاً وأكثرهم تشدداً وهو فـي نفس الوقت ، كما روى لي الثقات ، لا يبالى أن تكون الخمر على مائدته فهذه نقرة وتلك نقرة ، يعنى أنه يتشدد ويتوقف في المشتبه فيه والمختلف عليه ، علـى حـين يقتحم حمى المحرمات اليقينية الصريحة بلا توقف ولا مبالاة !! .

ومثل هذا الموقف المتناقض ، الاجتراء على الكبائر والوسوسة في التوافه ، هـو ما أثار الصحابي الجيل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حين سأله مَن سأله من أهل العراق عن دم البعوض ونحوه بعد أن قتل الحسن بن على فقال : ها ! انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ." [1]

الثالث عشر : إهمال علوم العصر ، وتعمير الأرض

ومن غريب فكرهم وتخلف منطقهم إهمالهم لعلوم العصر والانكباب فقط على دراسة بعض كتب السلف مما كان له أكبر الأثر في نفوس أتباعهم من طلبة المدارس والجامعات فأهملوا دراستهم ، أو كادوا ، أو على أقل تقدير لم يعطوا دراسة العلوم الحديثة الجهد الكافي لتعلمها فضلاً عن المشاركة في تطويرها مما يهدد بمزيد من التخلف والرجعية والتبعية للغرب في العلوم الحديثة بدلاً من منافسته والتفوق عليهم ومحاربتهم بسلاحهم .

إن عقلية السلفي النصي التقليد لا الابتكار والنظر للقديم نظرة تقديس ، والنظر للحديث نظرة ريبة وتوجس ، أو ازدراء واستهجان لأنه مخالف لما حفظة عن القدماء .

مع أن القرآن الكريم حث على العلم الشامل لجميع دروب المعرفة وليس العلم الديني فحسب فقال تعالى { وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ للموقنين وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } (الذاريات : ٢٠ – ٢١) وهذه الآية دعوة لدراسة العلوم الكونية جميعها والاستفادة منها ، كما أنها دعوة لدراسة العلوم الخاصة بالإنسان وما يتعلق به من فروع الطب المختلفة ، والهندسة الوراثية ، والصيدلة ، والعلوم الإنسانية وغيرها .

ولقد أمر الله تعالى أن نسأل العلماء فيما يستغلق علينا فهمه من أمور الدين أو الدنيا {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (الأنبياء : ٧)

فالعلماء ، وليس حفظة الذين يرددون ما لا يفقهون ، المتخصصون في علوم الدين والدنيا هم أهل الذكر .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٧٢

وترتب على إهمالنا لعلوم الدنيا وفهمنا غير المتجدد لعلوم الدين أن ورث الكفار الأرض واكتفينا نحن بالدعاء عليهم يقول الله تعالى (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء : ١٠٥)

ولقد مضت سنة الله تعالى في خلقه أن الصالحين لعمارة الأرض هم من يرثونها ويسخرونها لمصلحتهم .

وهذا هو الواقع أن غير المسلمين هم الذين يرثون الأرض الآن ، وأن المسلمين بسبب جهلهم وتخلفهم وعدم أخذهم بعلوم العصر أقصوا عن مقدمة الركب وأصبحوا في ذيل القافلة بل واستولى أعداؤهم على أراضيهم .

إن النصيين الحرفيين لا يدركون هذه الحقيقة القرآنية لا يدركون أن من يعمل للدنيا ويسعى لامتلاك زمام الأمور فيها فإن الله تعالى يؤته جزاءه في الدنيا : تقدم ، وقوة ، وهيمنة ، وعلو ، وليس له في الآخرة من نصيب ومن أراد الآخرة فعليه أن يعبد الله ويعمر الدنيا ويصلح فيها فيؤتيه الله تعالى الدنيا والآخرة { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } (الشورى : ٢٠)

والله تعالى لا يبخس الناس ، وإن كانوا كفاراً ، أعمالهم فمن كان يعمل للتمكين في الدنيا فأخذ في أسباب العلم والتقدم يمكّن الله له في الدنيا أما من كان يريد عبادة لله حقاً فليعمل للدارين فيأخذ في أسباب العلم المادي مع القيام بحق الله عليه .

{ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا }

(الإسراء : ١٨ – ٢٠)

أما النصيون الحرفيون فلا يقيمون للدنيا وزناً ولا يسعون لتعميرها ، ولا يعبدون الله تعالى بالسعي في مناكب الأرض ظانين أن ذالك ليس من موجبات الشرع ! بل مما حرم الشرع الاشتغال به ! فما خلق الله تعالى الإنسان إلا لعبادته والعبادة فقط أركان الإسلام مع الذكر والدعاء وقراءة القرآن !! فإصلاح الدنيا يتناقض مع عبادة الله .

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن دساتير الحكم وأساليب الشورى وتداول المال وتظالم الطبقات ومشكلات الشباب ومتاعب الأسرة وتربية الأخلاق ..ثم هو لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن تطويع الحياة المدنية وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة لها تهيج وبها تنفعل وعليها تصالح وتخاصم! " (١)

وتناسى هؤلاء قول الله تعالى : { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١)

إن كل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان .

وإياك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصنيفية التي في الفقه " قسم العبادات " و" قسم المعاملات " .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما في الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لنرقي بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضي الله عنه . (٢)

وفي الحديث الصحيح " أنتم أعلم بأمر دنياكم " توجيه نبوي حكيم إلى أن شئون الدنيا موكولة للعلم والعلماء الذين يعملون عقولهم في تسخير قوانين الطبيعة من أجل صالح البشر .

---

(١) محمد الغزالى " هموم داعية " ص ٣٠ .

(٢) تفسير الشيخ الشعراوي ص ١٥٠٦ .

الدنيا عند المتنطعين لا وزن لها ولا قيمة وطلابها عبيد لها ، والسعي فيها انشغال بها ، ولم يفهموا آيات القرآن التي تكلمت عن الدنيا والأحاديث الشريفة إلا على أنها تبغضهم في الدنيا بحلالها وحرامها ، وتأمرهم بطرحها بالكلية والتفرغ للعبادة ولا يكون العمل إلا لكسب لقمة العيش فقط وليس العمل الذي يجعل الدنيا في قبضة المسلمين ليس بقوة السلاح فقط إنما بقوة العلم أيضا وفي هذا المقام يجدر بنا أن نوضح مفهوم الدنيا المبغوضة من الله ورسوله والتي أمرنا ديننا الحنيف بألا تغرنا.

إن الناظر في الآيات التي تتحدث عن الدنيا يتراءى له الأمر جليّاً أن الله تعالى يقصد بها دنيا الكفار والعصاة تلك الدنيا التي لا يعرف عبيدها لهم رباً سواها ، تلك الدنيا التي تنسيهم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً لذا يجعلها الله تعالى في كثير من الآيات مقابلة للآخرة فإن كان العمل للآخرة يعنى الإيمان بالله الواحد الأحد الذي سخر الكون لعباده وأمرهم بإخلاص العبادة له وتعمير الكون فإن الدنيا تعني الانشغال بالمسخَّر عن المسخِّر ، وآفة هؤلاء ليست العمل في الدنيا والاستمتاع بها فالله تعالى أمرنا بالعمل فيها واستعمارها على لسان رسله { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } (هود : ٦١)

إنما آفة طلاب الدنيا هي نسيان الله المنعم والكفر بالآخرة .

{ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } (الأعراف : ٥١)

وعلى العقل الناضج أن يعامل الدنيا دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انجرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

الرابع عشر : **تطبيق عادات الجاهلية على المرأة المسلمة**

إن الظاهريين البدو ومن شايعهم من النصيين الحرفيين يريدون أن يلبسوا الإسلام ثوب العادات العربية بل والجاهلية أيضاً فإذا كان العرب من عادتهم لبس الجلباب

فإن الجلباب يصبح عند هؤلاء السلفيين ديناً ، وإذا كانت المرأة في الجاهلية مجلبة العار والأفضل أن تدفن حية وإن منوا عليها بالحياة فلا يجب أن يراها أحد ولا ترى أحداً ولا حق لها في تعليم أو عمل أو ميراث بل هي مما يورث كسائر المتاع كما أنها يجب أن تعيش حبيسة البيت فلا تخرج من بيتها إلا إلى بيت زوجها أو إلى القبر وصوتها عورة وكل جسدها عورة حتى وجهها وكفيها .. وهذه من العادات الجاهلية التي جاء الإسلام فأبطلها ، بل وجعل النبي العودة إلى هذه العادات البدوية من الكبائر فقال " اجتنبوا الكبائر السبع الشرك بالله وقتل النفس والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وقذف المحصنة والتعرب بعد الهجرة " (رواه الطبراني وصححه الألباني) " والتعرب بعد الهجرة " هو أن يعود إلى البَادية ويُقيمَ مع الأعرَاب بعدَ أن كانَ مُهَاجراً. وكان من رَجَع بعدَ الهِجْرة إلى موضعه من غير عُذْر يَعدُّونه كالمُرْتَدّ " (١)

ونعى الله تعالى على الجاهليين وأدهم للبنات فقال :

{ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَى ذَنب قُتِلَتْ } (التكوير : ٩)

كما حكم الله تعالى على جاهليين بالظلم وبسوء الحكم إذ يفضلون الذكر على الأنثى يقول تعالى : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ } (النحل : ٥٩)

وجاء الإسلام ليسوى بين الرجل والمرأة " في معظم شئون الحياة ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة الجنسين ومراعاة المصلحة العامة والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها ، وبل ومنفعة المرأة ذاتها .وكثير من حقوق المرأة التي أعطتها شريعة الإسلام لها حرمها منها هؤلاء النصيون الحرفيون واستبدلوا حكم الجاهلية بحكم الله تعالى . { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (المائدة : ٥٠)

أما الظاهريون البدو فقد حرموا المرأة من حق التعليم من أنه فريضة على كل مسلم ذكراً كان أو أنثى " طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ " (رواه ابن ماجة

(١) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث والأثر ".باب العين مع الراء .

وصححه الألباني) ، وحرموها من حق العمل خارج بيتها إذا اقتضت الظروف ذلك، كما حرموها ممارسة حقوقها المدنية ، كما جعلوها عورة يجب أن تظل حبيسة البيت ، وإن خرجت فلا يرى منها شيء ولا يسمع منها صوت وأن تكون في حراسة أحد محارمها ولا تستأذن في أي من الأمور وإن كان في أمر زواجها..

ولقد فطن العلماء من زمن بعيد إلى أن البدوي الجلف قاسى القلب ، بحكم البيئة القاسية التي تربى فيها ، لا يؤم الحضري الذي هذبته الحضارة وارتقى به العلم " المالكية قالوا: تكره إمامة البدوي ، وهو ساكن البادية ، للحضري ، ساكن المدن، ولو كان البدوي أكثر قراءة من الحضري، أو أشد إتقاناً للقراءة منه، لما فيه من الجفاء والغلظة، والإمام شافع فينبغي أن يكون ذا لين ورحمة " [١]

بل إن رسول الله ﷺ لم يجز شهادة البدوي فعن أبى هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " لا تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدَوِى عَلَى صَاحِبِ قَرْيَةٍ " إنما كره شهادة البدوي لما فيه من الجفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها " [٢]

وقد نزل في حقهم: { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِه } (التوبة : ٩٧) ويقول تعالى : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (المائدة : ٥٠)

ينكر تعالى على من خرج عن حكم اللّه المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللّه، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم " [٣]

وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ " أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه " ويشرح البخاري الحديث فيقول : " أبغض الناس" أكثرهم عقاباً

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى "الفقه على المذاهب الأربعة " مبحث إمامة الصلاة .
(٢) " عون المعبود شرح سنن أبى داود " للآبادى باب شهادة البدوي على أهل الأمصار .
(٣) " تفسير ابن كثير " للآية الكريمة .

منه وبعداً عن رحمته. " ملحد " ظالم مائل عن الحق والعدل بارتكاب المعصية. "مبتغ " طالب ومتبع . " سنة الجاهلية " طريقتها وعاداتها وأخلاق أهلها. "مطّلب"متكلف للطلب وساع وراءه في كل مكان. " بغير حق " يستبيح دمه. "ليهريق دمه" ليسيله، وهو كناية عن القتل.

فكيف يتصدى هؤلاء البدو الظاهريون الذين لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ لإفتاء الناس في مصر والعراق والشام والمغرب العربي ... وأوربا وأمريكا وسائر البلاد المتقدمة ، إنهم معزولون عن العالم الخارجي لا يدرون ما وراء بلادهم ولا يعلمون عن أحوال الناس وظروف حياتهم ما يجعلهم يفتونهم والعجيب أنهم ينهالون تجريحاً وطعناً في كل عالم فقيه يحاول أن ييسر على الناس دينهم ! لقد كان من جراء ذلك أن صدوا عن دين الله وبغّضوا الناس في الإسلام ، وأقنطوا الناس من رحمة الله تعالى ، وألزموهم بعادات بدوية ليست من الإسلام وجعلوها لهم دينا ، والمدهش أن هؤلاء البدو الأجلاف المتنطعين متكبرون مكابرون يصرون على قصر فهم الدين عليهم وحدهم ولا يسمحون بالاختلاف معهم وكأن الدين ميراث شخصي ورثوه كما ورثوا لبس الجلابيب والغترة .

الخامس عشر : نشر الخلاف بين المسلمين والتشنيع بالمخالفين

كثير من المتنطعين لا عمل له ولا غاية إلا تتبع وتصيد أخطاء وزلات غيره من علماء الإسلام ودعاته والتشنيع عليهم بها مع أنه لا تشنيع ولا تفسيق ولا تبديع للمخالف في الأمور الاجتهادية :

ولا يجوز اتهام المخالف ولا التشنيع عليه ، ولا ذكره من أجل مخالفته ، ولا تبديعه ، ولا تفسيقه ومن صنع شيئاً من ذلك فهو المبتدع المخالف لإجماع الصحابة.

قال ابن تيمية : وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ فِي مَسَائِلَ تَنَازَعُوا فِيهَا ؛ عَلَى إقْرَارِ كُلِّ فَرِيقٍ لِلْفَرِيقِ الْآخَرِ عَلَى الْعَمَلِ بِاجْتِهَادِهِمْ كَمَسَائِلَ فِي الْعِبَادَاتِ والمناكح وَالْمَوَارِيثِ وَالْعَطَاءِ وَالسِّيَاسَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَحَكَمَ عُمَرُ أَوَّلَ عَامٍ فِي الْفَرِيضَةِ الحمارية بِعَدَمِ التَّشْرِيكِ وَفِي الْعَامِ الثَّانِي بِالتَّشْرِيكِ فِي وَاقِعَةٍ مِثْلِ الْأُولَى وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ : تِلْكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا وَهَذِهِ عَلَى مَا نَقْضِي . وَهُمْ الْأَئِمَّةُ الَّذِينَ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ أَنَّهُمْ لا

يجْتمعُونَ على باطلٍ ولا ضلالَة وَدَلَّ الْكتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى وُجُوب مُتَابَعَتِهِمْ . وَتَنَازَعُوا في مسائلَ علْميَّة اعْتقَاديَّة كَسَمَاعِ الْمَيِّت صَوْتَ الْحَيِّ وَتَعْذيب الْمَيِّت بِبُكَاء أَهْله ورُؤْيَة مُحمَّد ﷺ رَبَّهُ قَبْلَ الْمَوْت مَعَ بقَاء الْجَمَاعَة وَالأُلْفَة . وَهَذه الْمَسَائلُ مِنْهَا مَا أَحدُ الْقَوْلَيْن خَطَأٌ قَطْعًا وَمِنْهَا مَا الْمُصيبُ في نَفْس الأَمْرِ وَاحدٌ عنْدَ الْجُمْهُور أَتْبَاع السَّلَف وَالآخَرُ مُؤَدٍّ لمَا وَجَبَ عَلَيْه بحَسَب قُوَّة إدْرَاكه وَهَلْ يُقَالُ لَهُ : مُصيبٌ أَوْ مُخْطئٌ ؟ فيه نزَاعٌ . وَمِنْ النَّاس مَنْ يَجْعَلُ الْجَميعَ مُصيبينَ وَلا حُكْمَ في نَفْس الأَمْر . وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة أَنَّهُ لا إثْمَ عَلَى مَنْ اجْتَهَدَ وَإِنْ أَخْطَأَ ." (١)

ومن عوارهم أنهم لا يحفظون لعالم حرمة ولا يلتمسون لفقيه عذر بل هم سيوف بتارة على كل من خالفهم من العلماء والمفكرين المجتهدين يتهمونهم بأنهم علماء السلطان ، أو علماء الحيض والنفاس ، فشيخ الأزهر في نظرهم أرضى الحكومة في سخط الله ، ومفتى الديار المصرية يحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ، وبقية علماء الأمة ، ممن خالف رأيهم ، إما جهلة متطفلون على موائد العلم أو منافقون يفصِّلون الفتوى حسب طلب سادتهم !! ولا يكاد يسلم واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء والعجيب أن هذه الأحكام الجريئة على الحق وأهله تصدر من أناس أقل ما يصفون به الجهل وسوء الأدب ، وعلى الجملة " إذا عرض داعية الإسلام عرضا يلائم ذوق العصر متكلما بلسان زمانه ليبين لهم فهو متهم بالهزيمة النفسية أمام الغرب وحضارة الغرب "(٢) .

ولقد سمعت شاباً متحمساً ذات مرة يطعن في شيخ الأزهر (الشيخ سيد طنطاوي) فقلت له لماذا تسب عالماً من علماء الدين أفنى عمره في العلم والتعليم وخدمة الدين؟ فقال ، غفر الله له ، لأنه يبيح الربا !! قلت له أتعرف ما معنى أن مسلماً يبيح الربا ؟ إن ذلك يعنى أنه كافر مرتد خارج عن الملة مستحق للقتل وإذا مات لا يغسَّل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مدافن المسلمين ، هل شيخ الأزهر الشريف العالم الجليل حافظ كتاب الله بل له تفسير بديع للقرآن الكريم كافر مرتد ؟!

هل قرأت ما كتبه في المعاملات المصرفية ؟ فقال لا .. قلت هل تعلم أن لجنة البحوث الفقهية ، بمجمع البحوث الإسلامية ، عُقدت لبحث الحكم الشرعي لشهادات الاستثمار وأرباحها سنة ١٩٧٦م وكانت تتكون من أربعة عشر فقيهاً يمثلون

(١) ابن تيمية مجموع الفتاوى " ج ١٩ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٢) يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٥٠

المذاهب الأربعة . وكان قرار اللجنة أن تسعة منهم ذهبوا إلى أن هـذه الـشهادات وأرباحها جائزة شرعاً ويكفي أن نقول أن من بين هؤلاء التسعة المجيزين لأربـاح شهادات الاستثمار أصحاب الفضيلة : عبد الله المشد ، وزكريا البرى ، وعبد الجيل عيسى ، يس سويلم ..، ويكفي أن نقول أن من غير هؤلاء العلمـاء التـسعة خلقـاً كثيرين أباحوا هذه المعاملات على رأسهم مجمـع البحـوث الإسـلامية بـالأزهر الشريف والشيخ محمد عبده ، وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في كتابه الفتاوى ، والشيخ عبد الوهاب خلاف ، والشيخ عبد المنعم النمـر ، الـشيخ علـى الخفيف والمفكر الإسلامي فهمي هويدي و ... وما أفتى به د.محمد سيد طنطـاوي كان بُناءً على قرار لجنة البحوث الفقهية فهل يعد الرجل مبيحاً للربا ؟! أم مجتهـداً له أجر أن أخطأ وأجران إن أصاب ؟ كما بين خير الأنام ﷺ .

ثم إنك في النهاية مخير بين أن تأخذ بالرأي الذي يـستريح إليـه قلبـك دون أن تصدر أحكاماً على علماء أفنوا أعمارهم في طلب الحق وتحصيله ، ومن أنت حتى تصدر أحكاماً بالكفر على علماء الأمة ؟! إن من أخس صفات هـؤلاء المتنطعـين أكلهم لحوم العلماء قال ابن عساكر : اعلم يا أخي وفقني اللّه وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة اللّه في هتك أسـتار منتقصيهم معلومة ، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه اللّه قبل موتـه بمـوت القلب { فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ } (النور : ٦٣)

ومن أمثلة تطاولهم على العلماء تطاولهم على الشيخ محمد الغزالي – رحمـه الله – العالم الجيل ومن مجددي الإسلام في القرن العشرين فقد اتهموه بمعـاداة الـسنة وليت الأمر اقتصر على القول فقط بل تعداه إلى تـأليف الكتـب فـي ذم الرجـل والهجوم عليه[١] رحم الله الشيخ الغزالي لقد كان عالماً عاملاً – نحـسبه كـذلك ولا نزكى على الله أحداً – أفنى عمره في خدمة الإسلام كما لم يخدمه عالم في العصر الحديث ومات وهو يلقى محاضرة يدافع فيها عن الإسلام ضد أعدائه "ودفـن فـي البقيع بين الإمام مالك وإبراهيم ابن النبي ﷺ "[٢]. كذلك لم يسلم منهم فقيه العـصر

(١) مثل كتاب " جنايات الشيخ الغزالى على الحديث وأهله " لأشرف بن عبد المقصود ، و كتاب " حوار هادئ مع محمد الغزالى " لسليمان العودة .
(٢) نقلا عن الأستاذ عمر خالد الداعية المعروف .

د. يوسف القرضاوى العالم الجليل والفقيه العظيم تلميذ الشيخ محمد الغزالي ، ولــم يسلم منهم د. عبد الصبور شاهين العالم المستنير فقد رموه بالكفر بسبب كتاب ألفــه "أبى آدم" وأقيمت ضده دعوى تكفير رفضت لأن د. عبد الصبور اجتهد في بحــث مسألة من المختلف حوله في مسائل الدين فهو مأجور وإن أخطأ ، ولم يسلم مــنهم د. مصطفي محمود صاحب البرنامج العظــيم " العلــم والإيمــان " بــسبب كتابــه "الشفاعة" بين فيه مفهومه للشفاعة التي أساء الناس فهمها ولم يعجب هذا سدنة الدين وكهان الإسلام فرموه بالكفر والخروج عن الملة ، والمدهش حقاً أن أغلب من كفَّر وخطَّأ هؤلاء العلماء لم يقرأ ما كتبوه إنما هم ببغاوات تردد ما تسمع ، ومــن قــرأ كتب هؤلاء العلماء لم يفهم ما قرأ ومن فهم لم يرق لمستوى هؤلاء العلماء الأجلاء ليقدر علمهم واجتهادهم !

ولقد حذر النبي من لعن المؤمن ومن قذفه وعد لذلك قتلاً

قال ﷺ " من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنا فهــو **كقتله** ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يــزده **الله إلا قلة " (متفق عليه)**

فكم مؤمن قتل هؤلاء ! وكم عالم لعنوه وقذفوه ! وإنا لله وإن إليه راجعون .

لقد دأب بعض المتنطعين من دعاة الإسلام على تأجيج الخلاف بين المسلمين على مسائل فرعية مع أن إبقاء الأخوة مع الخلاف في الرأي في المسائل الخلافية أولــى من دفع المخالف إلى الشقاق والعداوة : إذا علمت من مخالفك أنه لا يبقى أخــاً إلا ببقائه على ما هو عليه من أمر مرجوح ورأى مخالف للحق في نظرك فتركه على ما هو عليه أولى من دفعه إلى الشقاق والخلاف لأن بقاء المسلمين أخوة في الــدين مع اختلافهم في المسائل الاجتهادية خير من تفرقهم وتمزقهم وبقائهم على خلافاتهم .. لا يجوز لمسلم أن يقاطع أخاه المسلم لرأى ارتآه، أو اجتهاد اجتهد فيــه مــا دام يعلم أنه تحرى الحق، واتبع ما يظن أنه الصواب، ولا يجوز في مثل هــذه الحالــة هجران أو تعزير، ولا شك أنه لو أن كل مختلفين تهاجرا لم يبق مسلم مع مسلم "(١)

---

(١) نفسه ص٧ .

وهؤلاء المتنطعون يفضلون تمزيق جماعة المسلمين مع تمسكهم برأيهم على رأب صدع الأمة مع قبول آراء المخالفين لهم !!

يقول حسن البنا في الأصل الثامن من رسالة " التعاليم " الخلاف الفقهي في الفرعيات لا يجب أن يتسبب في اختلاف بين الأطراف أو سبباً للتفريق في الدين ، أو يؤدي إلي خصومة ولا بغضاء " الاختلاف لا يفسد للود قضية " .

من سنة الإسلام إحسان الظن بالناس وعدم اتهام نواياهم .

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله " إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رَسُول ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، اللّه يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة " فشريعة الإسلام تقضى بألا يسئ المسلم الظن بغيره " مهما كان مخالفك مخالفاً للحق في نظرك فإياك أن تتهم نيته، افترض في المسلم الذي يؤمن بالقرآن والسنة ولا يخرج عن إجماع الأمة، افترض فيه الإخلاص، ومحبة الله ورسوله ﷺ والرغبة في الوصول إلى الحق، وناظره على هذا الأساس،وكن سليم الصدر نحوه.

لا شك أنك بهذه الطريقة ستجتهد في أن توصله إلى الحق إن كان الحق في جانبك وأما إذا افترضت فيه من البداية سوء النية ، وقبح المقصد فإن نقاشك معه سيأخذ منحى آخر وهو إرادة كشفه وإحراجه ، وإخراج ما تظن أنه خبيئة عنده، وقد يبادلك مثل هذا الشعور، فينقلب النقاش عداوة، والرغبة في الوصول إلى الحق رغبة في تحطيم المخالف وبيان ضلاله وانحرافه." [١]. وكثير من هؤلاء المتنطعين ما يكاد أحد يناقشه في مسألة من المسائل ويختلف معه فيها إلا وانتفخت أوداجه ورمى محدثه بسوء النية وقبح الطوية ومعاداة السنة ومخالفة السلف !

السادس عشر : عدم الأخذ بسنة التدرج

بعض المتنطعين يريد ممن يدعوه أن يلتزم بكل ما يلزموه به دفعة واحدة ودون تفريق بين ما هو من الأصول وما هو من الفروع ، وما هو من الأركان وما هو من المكملات ، و ما هو من الفرائض وما هو من النوافل ، ما هو متفق عليه وما

---

(١) عبد الرحمن بن عبد " القواعد الذهبية في أدب الخلاف " الخالق ص ٥ .

هو مختلف فيه ، فمع إلزامهم للمدعو بالصلاة يلزمونه بعدم الصلاة فـي المـساجد التي فيها قبور كمساجد السيدة زينب ، وسيدنا الحسين ، والسيدة عائشة ، والـسيدة نفيسة وغيرها ، ويحرمون عليه لبس الملابس الإفرنجية ، وإسبال الإزار ، وحلـق اللحية ، وسماع الغناء ، والرسم وتصوير ، والعمل في البنوك مع تحريمهم عليـه الزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير كل ذلك وغيره يريدونه أن يلتـزم بـه دون تدرج مما يجعل الناس يردُّون ما يلزمونه به كله ، فبذلك يصدون عـن ديـن الله والعجيب أنهم يعرضون الإسلام بهذه الطريقة في بلاد غير المسلمين فيقولون لمـن تريد أن تدخل في الإسلام إن صوتك عورة فيجب ألا يسمع صـوتك رجل حتـى ولو كنت تقرئين القرآن ، وجسمك كله عورة فيجب ألا يظهر منك وجه ولا أيدي ، وخروجك من البيت حرام فيجب أن تتركي عملك وتلزمي بيتك وإذا دعـوا رجـلاً للإسلام ألزموه أول ما يلزمونه " جلباباً أبيض وعمامة فوقها عقال أو لـيس فوقهـا عقال ! ما هذا ؟! أ هذه دعوة إلى الإسلام أم إلى تقاليد البادية العربية "[١]

والتدرج سنة كونية ، وسنة شرعية . ولهذا خلق الله السموات والأرض في سـتة أيام وكان قادرا أن يقول كن فتكون .. وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبـات كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها . فهذا من الناحية الكونيـة، وأمـا من الناحية الشرعية ، فقد بدا الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة الـسليمة ، ثم كان التشريع شيئا فشيئا فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدريج ، كما هو ثابت في فرض الصلاة والصيام والزكاة ، وتحريم الخمر وغيرها ولهذا افتـرق القرآن المكي عن القرآن المدني وفي هذا تقول السيدة عائـشة رضـي الله عنهـا واصفة تدرج التشريع ونزول القرآن " إنما نزل أول ما نـزل منـه سـورة مـن المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسـلام نـزل الحـلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبـداً، ولـو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكـة علـى محمـد ﷺ وإنـي لجارية ألعب: { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ }. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده " .

أراد عمر بن العزيز أن يعود بالحياة إلى هدى الخلفاء الراشدين الأربعـة وذلـك بعد أن يتمكن ويمسك الخيوط في يديه ولكن ابنه الشاب الغيور عبـد الملـك مـن

---

(١) محمد الغزالى " مستقبل الإسلام خارج أرضه " ص ٥٤

الأتقياء المتحمسين ، ينكر على أبيه عدم إسراعه في إزالة كل بقايا الانحراف والمظالم والتعفية على آثارها ، ورد الأمور إلى سنن الراشدين فقال له يوماً : مالك يا أبت لا تنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالي ، لو أن القدور غلت بي وبك في الحق !

فكان جواب الأب الفقيه المؤمن : لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة ، إني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة ، فيكون من ذا فتنة .[١]

إن الله تعالى لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة، فكذلك تحريم الخمر .[٢]

السابع عشر : إهمال الإصلاح الاجتماعي

فالواحد من هؤلاء قد تتعثر قدمه في القاذورات وتلال القمامة وهو يغدو ويروح إلى المسجد فلا تستوقفه هذه المناظر القبيحة والروائح الكريهة ، وقد تخترق أذنه أصوات آلات تنبيه السيارات أو مكبرات الصوت في المحال ، والأفراح التي تبيت حتى الفجر تصدح بأصوات منكرة في أحياء مكتظة بالسكان ، وفوضى المرور وعشوائية الباعة .. يرى كل هذا وغيره دون أن يكلف نفسه عناء إرشاد الناس وتعليمهم حسن السلوك وآداب الطريق وأهمية النظافة والنظام في حياة الشعوب كأن هذه الأمور ليست من الدين أو أنها ليست من مهمة رجال الدين إصلاحها مع أنها من صميم الدين ، وأولى واجبات رجال الدين فالناس تحب الدين وتتأثر بكلام رجاله فعلى رجال الدين أن ينبهوا الناس إلى السيئ من الأقوال والأعمال حتى تنصلح أحوالهم .

أتدرون لماذا لا يلتفت هؤلاء المتنطعون إلى سلبيات المجتمع في النظافة والنظام والسلوكيات ومحاولة إصلاحها ؟ لأن هذه السلبيات غير منصوص عليها في كتب السالفين – بالطبع لأنها لم تكن موجودة على أيامهم – ولو سجلوها لما كف

---

(١) الشاطبي " الموافقات " ج ٢ ص ١٤٢

(٢) " تفسير القرطبي " لقوله تعالى { "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما"

أصحابنا عن ترديدها في مواعظهم !! . أيها السادة إن الإسلام دين حضاري ومن أساسيات الحضارة النظافة والنظام والعمل والإتقان .

إن الوظيفة الرئيسية لكل دين جدير بهذا الاسم تهذيب طباع الإنسان ومواجهة غرائزه الحيوانية لكي يصبح إنساناً رفيع الخلق والطباع ومأمون في معاملاته ولا يمكن أن يقتصر معنى الدين على انقطاع الإنسان عن العمل وتركيز الجهد كله على عبادة الله فإن الله سبحانه ليس في حاجة إلى عبادة الناس ، حقاً إن الله سبحانه يقول : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ " والعبادة هنا يدخل فيها العمل وكسب الرزق والقيام بكل ما يصلح الأرض والناس "(١)

الثامن عشر : عدم مخاطبة الناس على قدر عقولهم

من غريب أمر المتنطعين أنهم يتحدثون في القضائيات في مسائل لا ينبغي أن تناقش أمام العامة بل تناقش في مجالس العلماء الخاصة ، ولكنهم لا يراعون في دعوتهم اختلاف عقول الناس فيخاطبون عامة الناس بما لا يصح أن يخاطب به إلا الخاصة كالخلافات بين المذاهب وترجيح رأى على رأى ، أو الخلافات التي وقعت بين الصحابة حول القضايا السياسية والحكم ، وكتفصيل الكلام عن الفرق الإسلامية.. كما أنهم لا يراعون سن ونوع المخاطب مما يجعل حديثهم فتنة لبعض الناس ، وكثير من هؤلاء كانوا سبباً في الصد عن الدين فإن أحدهم ليجعل خطبته لشباب صغير السن في عمر الزهور عن عذاب القبر ، وما أدراك ما عذاب القبر عند هؤلاء ، إنه أقرب إلى أفلام الرعب منه إلى دين الله ، ويقارن الشاب الصغير بين ما يسمع من هذا الواعظ وبين ما يسمع من دعاة الشيطان الذين يحببونه في المعاصي ويزينون له الحرام وييسرنه له ، فيجد أن الواعظ قد سد أمامه كل أبواب الرحمة وفتح له كل أبواب النيران أما أولئك فقد فتحوا له كل أبواب الملذات . فماذا يفعل المسكين ؟ إنه شاب يريد أن يعيش حياته ويستمتع بها والدين – كما سمع من وعاظ السوء – يحرم عليه كل المباحات والملذات والطيبات ؟! فيفتن في دينه ويشك في كل ما يسمع ويلق بنفسه في بحر المعاصي والآثام !

ما ضر هؤلاء الوعاظ لو ترفقوا بهؤلاء الشباب ويسروا عليهم دينهم ولم يخاطبوهم بما لا تتقبله عقولهم ، ما ضرهم لو حببوا إليهم الإيمان وزينوه لهم

---

(١) د . حسين مؤنس " المصريون والحضارة " ص ٧٥

بالحكمة والموعظة الحسنة ، ما ضرهم لو فتحوا أمـام العاصـي أبـواب التوبـة والمغفرة .

ولو سئل عن عذاب القبر قال إنه روضة من رياض الجنة للمؤمن وحفـرة مـن حفر النار للكافر ومرتكب كبائر الذنوب .

عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما أنت بمحدث قوماً حديثا لا تبلغه عقـولهم إلا كان لبعضهم فتنة. وقال ﷺ : " حدث الناس بما يفهمـون أتحبـون أن يكـذب الله ورسوله ". وهذا محمول على بعض العلوم، كعلم الكلام أو ما لا يستوي في فهمـه جميع العوام، فحكم العالم أن يحدث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته " (١)

إن المدرس ينبغي أن يكلم كل طالب على قدر فهمه وعقله فيجيبه بمـا يحتملـه حاله ومن اشتغل بعمارة أو تجارة أو مهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على قـدر ما يحتاج إليه من هو في رتبته من العامة وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن ولا يولد له الشبه والشكوك فإن اتفق اضطراب نفس بعـضهم بـشبهة تولدت له أو ولدها له ذو بدعة فتاقت إلى معرفة حقيقتها اختبره فإن وجده ذا طبـع موفق للعلم وفهم ثابت وتصور صائب خلى بينه وبين التعلم وسوعد عليه لما يجـد من السبيل إليه وإن وجده شريراً في طبعه أو ناقصاً في فهمه منعه أشد المنع ففـي اشتغاله مفسدتان تعطله عما يعود نفعه إلى العباد والبلاد وشغله بما يكثر من شـبهة وليس فيه منفعة وكان بعض المتقدمين إذا ترشح أحدهم لمعرفـة حقـائق العلـوم والخروج من العامة إلى الخاصة اختبر فإن لم يوجد خيراً أو غير منتهي للتعلم منع وإلا شورط على أن يقيد بقيد في دار الحكمة ويمنع أن يخرج حتى يحصل العلم أو يأبى عليه الموت ويقولون إن من شرع في حقائق العلوم ثم لم يبرع فيها تولدت له الشبه وتكثر عليه فيصير ضالاً مضلاً فيعظم على الناس ضرره وبهذا النظر قيـل نعوذ باللّه من نصف فقيه أو متكلم. (٢)

كذلك فإن خطابهم الديني واحد لكل فئات المجتمع المختلفة بل لكل بلاد المـسلمين المتباينة والمدهش حقاً أن خطابهم الديني الواحد لكل مسلم في كل زمان ومكـان ،

---

(١) " تفسير القرطبي " في قوله تعالى { إن الذين يكتمون ما أنزلنا }

(٢) الإمام المناوى " فيض القدير في شرح الجماع الصغير " .الجزء الثالث حرف الحاء .

فعندهم أن فروع الدين ، المختلف عليها ، يجب أن يلتزم بفهمهم الخاص لها : المسلم البدوي ، والخليجي ، والمصري ، والعراقي ، والمغربي بل والروسي ، والأمريكي ، والفرنسي ، والهندي ، والإندونيسي .. على ما بين هؤلاء من اختلاف كبير جداً في الثقافة والتعليم والعادات والتقاليد !! فإذا كانت المسلمة في الخليج يمكن أن تتقبل النقاب فهل نلزم به المسلمة الأوربية والأمريكية ؟ ونجعله لها فريضة واجبه ، وإذا كان البدوي يتقبل إرسال لحيته ولبس الجلباب والعمامة فهو يعتبرها من ميراث الأجداد ومن كمال الرجولة ، فهل من المنطق أن أفرض على المسلم الحضري أو الذي يعيش في الغرب إرسال لحيته ولبس الجلباب والعمامة حتى يكون مسلما ؟! وإذا كان البدوي والخليجي يفضل الأكل بيديه لأنه لم يتعود استعمال الشوك والسكاكين ويفضل الجلوس على الأرض وهو يأكل فهل من الإسلام أن ألزم مسلمي العالم كله بهذه العادات وأجعلها لهم دينا ؟!

مما ينكر من التشدد أن يكون في غير مكانه وزمانه كأن يكون في غير دار الإسلام وبلاده الأصلية أو مع قوم حديثي عهد بإسلام أو حديثي عهد بتوبة فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعية والأمور الخلافية والتركيز معهم على الكليات قبل الجزئيات والأصول قبل الفروع تصحيح عقائدهم أولا فإذا اطمأن إليها دعاهم إلى أركان الإسلام ، ثم إلى شعب الإيمان ثم إلى مقامات الإحسان "(١) .

التاسع عشر : عدم استخدام الطرق العصرية في الدعوة

وهم لا يعملون على تطوير وسائل الدعوة إلى دين الله تعالى فهم لا يعرفون إلا الخطب المنبرية والكتب الدينية وسيلة لتعليم الناس في الوقت الذي نجح أعداء الدين في استخدام وسائل جذابة وعصرية لبث سمومهم ، ويرجع عدم اهتمامهم بالوسائل الحديثة إما للجهل بها والتخلف عن مواكبتها ، أو بسبب اعتقادهم أنها من البدع المحرمة ومن وسائل الشيطان ، فالتليفزيون حرام ، والتمثيل رجس من عمل الشيطان ، والغناء مزمار الشيطان .. إن الجمود وعبادة عادات الآباء والأجداد داء عضال فلقد ظل قادتنا الأشاوس يحشدون الفلاحين والعمال المهنيين إلى ميادين القتال ويزجون بهم في معارك يستخدم فيها العدو أحدث الأجهزة التكنولوجية والوسائل العلمية المتطورة وكان على الفلاح المصري الذي لم يطور آلات

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٤

الزراعة التي ورثها عن أجداده الفراعنة : الفأس والمحراث والشادوف والنورج .. ويشرب من الترعة ويبنى بيوته من الطين ويضيء بيته بمصباح الزيت ويسير حافيا وينام على الحصير كان هذا الفلاح في ظن قادتنا الأشاوس بمقدوره مواجهة اليهود !! والنتيجة معروفة هزائم متلاحقة وضياع للأرض و للكرامة حتى أدركتنا العناية الإلهية وبعث لنا الله من جند طلاب الجامعة والمتعلمين القادرين على استيعاب المعدات الحديثة فكان نصر العاشر من رمضان المجيد .

إن هؤلاء المتنطعين يظنون أن الدنيا تسير للخلف وانه ليس في الإمكان أبدع مما كان وأن وسيلة الدعوة قد قيلت فيها الكلمة الأخير ولا مجال لتغيير أو تعديل !! نحن نقول لهم هلا نظرت إلى عدوك وعرفت كيف سرق منك أهلك وعشرتك وشكلهم بفكره وأخلاقه عن طريق استخدامه للطرق الحديثة في التأثير على الناس؟! سؤال آخر كم مسلم ومسلمة يشاهد التلفزيون ، ويتأثر بما يقدم فيه ، وكم مسلم ومسلمة يسمع خطب الجمعة ويتأثر بما قيل فيها ؟ أفيقوا أيها المسلمون وكفي غفلة وركون والناس من حولنا مستيقظون ومتربصون .

العشرون : إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى

بعض المتنطعين يريدون أن يشرعوا للناس ويلزمونهم بما لم يلزمهم به الله تعالى فيجعلون السنن فرائض ، والمكروهات محرمات . والمفروض ألا نلزم الناس إلا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا .

يقول تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (الشورى : ٢١) أي ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه . " ولطالما قلت : إن حسبنا من المسلم في هذا العصر أن يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر لنعتبره في صف المسلمين وأنصاره ما دام ولاؤه لله ورسوله وإن ألمَّ ببعض الصغائر من المحرمات فعنده من الحسنات مثل : الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان ، وغيرها ما يكفر عنه الصغائر { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } (هود : ١١٤) { إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا } (النساء : ٣١)[١]

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٣

عن طلحة بن عبيد الله " أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يـا رسول الله أخبرني بما فرض الله على من الصيام؟ فقـال: شـهر رمـضان إلا إن تطوع. فقال: أخبرني بما فرض الله على من الزكاة؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئا ولا أنقص مما فرض الله علـى شـيئا. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق " (متفق عليه)

وهذا التشدد في إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى لا يطيقه كل الناس ويوقع كثير من الناس في الحرج فهم لا يقدرون على القيام به والمتنطعون لا يكفون عـن إلزامهم به .

{ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِـن قَبْلُ } (الحج : ٧٨)

أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل اللّه لكم فرجـاً ومخرجاً، ولهذا قال ﷺ : "بعثت بالحنيفة السمحة "[١]

ومما يؤخذ عليهم كذلك تحريمهم لكثير من المباحات يقطعون فيها بالتحريم مع أن التحريم لا يكون إلا بنصٍ قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وهم لا يعلمـون أن مـن حرَّم ما أحل الله كمن أحلَّ ما حرم الله يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـاتِ مَا أَحَـلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّـهَ لاَ يُحِبُّ لْمُعْتَدِينَ } (المائدة : ٨٧)

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبـي ﷺ قـالوا: نقطـع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في لأرض كما يفعل الرهبان، فبلـغ ذلـك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك – قالوا: نعم، فقال النبي ﷺ : " أمـا والله إنـي لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى " (رواه : البخاري)

{ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ } يعنى بالطيبات: اللذيـذات التـي تـشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالـذي فعلـه القسيـسون والرهبـان،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥

فحرموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم " (١)

"ولا تعتدوا " قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين؛ أي لا تشددوا فتحرموا حلالا، ولا تترخصوا فتحلوا حراما؛ قاله الحسن البصري. وقيل: معناه التأكيد لقوله: "تحرموا "؛ قاله السدي وعكرمة وغيرهما؛ أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع " (2)

ويقول تعالى أيضاً :

{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ } (النحل: ١١٦)

قال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون الباري تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إني أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى." (٣)

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم اللّه أو حرم شيئاً مما أباح اللّه بمجرد رأيه وتشهيه، ثم توعد على ذلك فقال: {إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون} أي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: {نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ} " (٤)

---

(١) " تفسير الطبرى " ج١٠ ص ٥٢٣ .
(٢) " تفسير القرطبى " ج ٦ ص ٢٦٣
(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٦
(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٠٩

وما أكثر المباحات التي حرمها المتنطعون ! وما أكثر المندوبات التـي فرضـها المتفيقهون ! ولقد كثرت تلك الكتيبات وانتشرت بين أيـدي الـشباب التـي تحـرم العادات كلبس " الدبلة " للخاطب والمتزوج ! والاحتفال بالمولد النبوي حتى بـذكر الله وقراءة القرآن ! والاحتفال بأعياد الميلاد وإن كانت خالية من الإسراف والبذخ! والاحتفال بعيد الأم وإن كان فيه صلة رحم مقطوعـة ! وتحـريم جميـع أنـواع الموسيقا والغناء حتى ولو كان دفاً يعلن به النكاح ! وتحريم حلق اللحيـة أو أخـذ شيء منها ! وتحريم التصوير وإن كانت صورة في بطاقة شخصية أو جواز سفر ! وتحريم تعليم المرأة وإن كان ولابد فتتعلم العلوم الدينية فقط وما عدا ذلك فحـرام ! وتحريم كشف المرأة وجهها ، وإن كان لضرورة تقتضيها حاجة العمل ! ...

وأصبح التنافس بين هؤلاء الكتاب المتنطعين على البراعة في تحـريم المباحـات وفرض المندوبات !!

الحادي والعشرون : إلقاء الكلام على عواهنه

ومن غريب أمرهم وتدليسهم على الناس إلقاء الكلام على عواهنه دون بيـان لـه وتحديد مفهومه الصحيح ، كسرد الآيات والأحاديث في القضية التـي يريـدون أن يثبتوها دون توضيح أو بيان لهذه الآيات وتلك الأحاديث مما يجعل الناس يأخـذونها على ظاهرها أو يذهبون في فهمها كل مذهب كتلك الآيات والأحاديث التي تتحـدث عن الدنيا وتزهد الناس فيها دون بيان للمقصود بالدنيا المذمومة في هذه النـصوص مما يقر في ذهن السامع أن الطريق الأمثل لرضا الله تعالى ترك عملـه والتفـرغ للعبادة وعدم الضرب في الأرض ولا السعي فيها ، والسامع إما يقتنع بترك الـدنيا والتفرغ للعبادة ، أو لا يقتنع لشدة حاجته للعمل من أجل أسـرته وأولاه ومـستقبله وطموحه فإنه يغض الطرف عن هذه النصوص من باب " إن قالوا : حـرام فقـل حرام : ولكن اللذاذة في الحرام "[(١)] وبهذا يكونون قد أساءوا إلى دين الله وأفـسدوا دنيا الناس . ما ضرهم لو بينوا للناس أن طلاب الدنيا المذمومة هم الذين يرفضون الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق مكتفين بمتاع الدنيا عن نعيم الآخرة .

---

(١) بيت لأبي نواس يتكلم فيه عن الخمر .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } (التوبة : ٣٨)

طلاب الدنيا المذمومة هم الذين يغفلون عن شرع الله ولا يرجون لقاء الله لسوء ما قدمت أيدهم .

{ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ {٧} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } (يونس : ٧-٨)

طلاب الدنيا المذمومة هم من يصدون عن سبيل الله ويحتكمون إلى الهوى فيضلهم عن شرع الله .

{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ }(إبراهيم: ٣)

طلاب الدنيا المذمومة الذين اتخذوا الدين لهوا و لعبا واغتروا بقوتهم وأموالهم وسلطتهم ونسوا الله وشرعه .

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ {٥٠} الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } (الأعراف : ٥٠ – ٥١)

أما من يملك الدنيا في يده ويسخرها لطاعة الله فهذا هو المؤمن الطالح الذي اقتدى بالسلف الصالح الذي ملكوا الدنيا وملئوها عدلا ورحمة وعلما وحضارة لقد كان من دعائه ﷺ " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى في كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر " (رواه : مسلم)

فكيف نطلب من الناس أن يتركوا دنيا العمل والجهاد والتقدم والعلم ؟

ومن هذا الباب أحاديث الشفاعة التي يسردها الواعظ متتابعة دون شرح لمعناها ولا لمن المستحق لها ومن المحروم منها مما يترتب عليه الفهم الخاطئ للشفاعة

وهو أن الله تعالى يحكم على أهل الكبائر من أمة محمد بدخول النار لكن النبي يرفض هذا ويصر على عدم دخولهم فيها هكذا كأن سيدنا محمد أرحم بالمسلمين من الله تعالى وحاشى لله أن يكون هذا هو مفهوم الشفاعة ، إنما مفهومها كما بينته الآيات الكريمة هو أن الله تعالى قضت مشيئته ورحمته بالعفو عمن ماتوا ولم يشركوا به شيئا لكن قلت حسناتهم عن سيئاتهم شيئا يسيرا فتداركتهم رحمة الله وعفوه فيأذن لمن يشاء من عباده الصالحين تكريما لهم ورفعا من قدرهم بأن يشفع في هؤلاء فيشفع أو أن الله تعالى يستشفع من يشاء من عباده الصالحين في الموحدين من أهل الكبائر الذين قضوا أجلهم في النار بأن يخرجوهم منها وعلى ذلك فمفهوم الشفاعة عند أهل السنة مقيد بأمرين: رضا الله تعالى عن الشافع ليشفع، ورضاه عن المشفوع له وفي ذلك يقول تعالى : مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِه } (البقرة : ٢٥٥) .{ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ } (الأنبياء : ٢٨)

هذا بالإضافة إلى الشفاعة العظمى للناس جميعا من لدن آدم إلى يوم القيامة والتي اختص بها سيدنا محمد لإراحة أهل الموقف والحشر من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم.

ومن عجيب أمر هؤلاء المتنطعين أنهم في الوقت الذي يطالبون الناس بالالتزام الشديد بالسنن والمندوبات وتحذيرهم المبالغ فيه من الصغائر واللمم فإنهم يذكرون للناس أحاديث ظاهرها يدل أن النبي يحول بين دخول أي مسلم والنار وإن زنا أو سرق أو ارتكب كبائر الإثم ! فلماذا إذن هذا التشدد في التمسك بالسنن وتجنب الصغائر إذا كان أهل الكبائر سيدخلون الجنة !! والحقيقة غير ذلك فأهل الكبائر يدخلون النار – إن ماتوا دون توبة نصوحا – ويأذن له تعالى كما بينا لمن يشاء من النبيين والصديقين والشهداء والعلماء بأن يشفعوا فيهم فيدخلون الجنة بعد قضاء أجلهم في النار .

ومن هذا الباب أيضا سردهم لنصوص العذاب لدرجة تجعل الناس يقنطون من رحمة الله ويوقنون بأنه لن ينجو من النار أحد ، وسردهم لأحاديث الشفاعة سردا متواليا دون فقه فيقر في روع كل مسلم أنه لن يدخل النار أحد من أمة محمد ﷺ فمحمد لن يرضى أن يدخل أحد من أمته النار وإن لم يعمل من الخير شيئا ؟

ومن هذا الباب حديث " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" الذي يفهم منه من لا فقه له أنه دعوة إلى إجبار الناس بالقوة على تغير المنكر بقطع النظر عن سلطة الداعي على المدعو .

والأمثلة على ذلك كثيرة لذا يقول العلماء لا حديث بغير فقه كما أنه لا فقه بغير حديث فإذا ذكر الإنسان حديثاً فعليه إن يبين المراد منه وأقوال العلماء فيه ولا يترك الناس تفهم كما تشاء !

إن عيب هؤلاء عدم فهم الدين ككل متكامل فإذا تحدث عن آيات العذاب لابد أن يتحدث عن آيات الرحمة ، وإذا تحدث عن الزهد في الدنيا لابد أن يتحدث عن السعي والعمل الصالح أما الاكتفاء بالجزء دون بقيته يكون كمن قرأ { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ } (الماعون : ٤) دون تكملة للآية الكريمة .

الثاني والعشرون : الاعتلال النفسي ، والانحراف السلوكي

إن كثيراً من هؤلاء المتنطعين يجمعون إلى جانب كلالة العقل اعتلال النفس وانحراف السلوك ، وإذا دخل مجال الدعوة واحد هذه صفاته فلا تنتظرن منه إلا الفساد والإفساد " الواقع إن الأمراض النفسية عند هؤلاء المتعصبين للفرعيات تسيطر على مسالكهم وهم باسم الدين ينفسون عن دنايا خفية ! وعندما يشتغل بالفتوى جزار فلن تراه أبدا إلا باحثا عن ضحية "(١)

ولو درست حياة هؤلاء لوجدت العجب فإنك ستجد كثيراً منهم اشتهروا إلى جانب الغباء والفشل في التعليم ، بالتعصب وانحراف المزاج وإثارة المشاكل ويندر أن تجد واحداً من هؤلاء متفوقاً علمياً أو رقيق القلب ، حلو المعشر ، سمح الخلق ، محبوبا من أهله وعشيرته ومن رؤسائه في العمل . كنت أعرف شاباً لم يكمل تعليمه .. ما ترك منكراً إلا فعله .. غليظ الطبع قاسي القلب كان الناس يتحاشونه لسوء خلقه انقطعت معرفتي به ثم رأيته بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات فإذا به كث اللحية حتى لتقارب صدره قصير الثياب حتى ليقارب ركبتيه تعجبت من هذا التحول الكبير ، وعندما تيقنت من أنه أحد أعضاء جماعة إرهابية زال عجبي ،

---

(١) هموم داعية ، محمد الغزالي ص١٨

وهذه القصة تكررت بعينها مع آخرين ممن أعرف ، وليس معنى هذا أن الله لا يقبل توبة العاصي وأن من فسد في بداية حياته محكوم عليه بالشقاء الأبدي لا إنما معنى ذلك أن دين الله لا يناسبه ولا ويصلحه إلا اللين والرفق ، والعمل والتعامل بالمسامحة والتسامح .

الثالث والعشرون : **يريدون أن يَحكُموا بإسلامهم لا أن يُحَكَّموا بالإسلام**

ورغم جهلهم بالسياسة الخارجية والداخلية والقوانين الدولية وأنظمة الحكم وأحوال البلاد والعباد . ورغم هذا الجهل إلا أنهم لا يكفون عن التدخل فيما لا يعلمون يفرضون وصايتهم على المختصين بل وكثيرا ما يرمونهم بالتبديع والتكفير الخروج على الدين ، وصار السب في الحكام والمسئولين هو أقصر الطرق لشهرة وذيوع الصيت مما جعل كثير من هؤلاء المتنطعين يخصص معظم كلامه للإفتاء ليس في الدين فحسب بل وفي السياسة والحكم وجعلوا همهم استعداء المحكومين على الحكام وتشكيك الناس في الأنظمة الحاكمة دون أدنى معرفة لنظم الحكم ولا يتركون هذه الأمور المتخصصة لأولى الأمر ، وأهل الذكر والمدهش أن بعض هذه الجماعات كالجهاد وغيرها يسعون إلى الحكم ويعملون على إسقاط الأنظمة الحاكمة وهم لا يدرون شيئا عن الحكم اللهم إلا بعض الشعارات الدينية المرفوعة لكسب تأييد الناس دون وعى دقيق بكيفية تطبيقها وهي نفس الشعارات التي رفعها أسلافهم من الخوارج " لا حكم إلا لله تعالى " ورد عليهم على رضى الله عنه قائلا : " كلمة حق أريد بها باطل " . ولقد تمكنوا من السيطرة على بعض الحكام العرب وفرضوا آراءهم على المجتمع فما زادت البلاد إلا سوءا وما أزاد أعداء الإسلام إلا في الإسلام طعنا واتخذوا هذه الصور الشائهة للإسلام ذريعة للطعن في الإسلام ووصمه بالتخلف والرجعية والإرهاب ومعاداة الديمقراطية وتأكيد حكم الفرد الاستبدادي ... مع أن هؤلاء لو أحسنوا تعليم الناس وإرشادهم سواء السبيل لأحدثوا التغير المطلوب كما المستشار حسن الهضيبي أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم ، لكنهم لا يريدون أن يقام شرع الله على أيدي الفاهمين للإسلام إنما يريدون أن يحكموا هم ويطبقوا ما يفهمون من الإسلام !!.

الرابع والعشرون : **طلب الرياسة و تعجل الشهرة وذيوع الصيت**

إن لعالم الدين مكانة عظيمة في المجتمع وكثير من الناس من يحب مجالسة العلماء فضلا عن أن يكون واحداً منهم وليس في الإسلام رجال دين بالمفهوم

المسيحي بمعنى أن علم الدين قاصر على بعض الرجال دون سواهم وليس من حق أي إنسان ، عندهم ، أن يكون من رجال الدين إلا إذا انقطع للدين وتفـرغ للعبـادة وحصل على شهادة عالية من كليات اللاهوت ، أما في الإسلام فيستطيع أي إنـسان أن يعلم الناس ويعظهم بشروط ذكرناها في غير هذا الموضـع ، وبعـض النـاس اعتقد،خطأ، أن التصدي للدعوة أمر سهل يسير فما عليـه إلا أن يرسـل لحيتـه ، ويلبس جلبابا قصيرا أبيض ، ويحفظ بعض الآيات وبعض الأحاديث ، ويقرأ بعض الكتب أو يستمع إلى بعض شرائط الكاسيت فيكون بذلك عـالم ! ويناديـه النـاس بفضيلة الشيخ ! وغاب عن هؤلاء الناس أن عالم الدين هو من يشهد له علماء الدين بالعلم وليس العامة كما يظن وأن عالم الدين ليس من لبس ملابس علماء الدين إنمـا من درس علوم الدين : عقيدة و تفسير وفقه وعلم أصول فقـه ومـصطلح حـديث وسيرة .. ودرس علوم اللغة العربية : نحو وصرف وبلاغة وعلم لغـة ... ودرس الواقع وفقهه : سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً ... وفوق كل هذا لابد أن يكـون مـن أرباب الفهم وأصحاب العقول المستنيرة ، ولكن هذا الطريق صعب ومضن وشـاق ويحتاج إلى سنوات وسنوات وصاحبنا لا طاقة له بهذا العناء ولا عقل له يـسترعب هذه العلوم فليسلك أقصر الطرق وهو إرسال اللحية ولبس الجلباب القصير الأبيض ويضع على رأسه عمامة و في جيبه سواكا ، وبين عشية وضحاها يـصبح عالمـا يؤم الناس في الصلاة ويفتيهم في أمور الدين والدنيا ! كالذي – مع فارق التشبيه – يريد أن يصبح إنسانا عصريا متحضرا فيخلع جلباب قريته ويلبس بنطلـون جينـز وفانلة عليها العلم الأمريكي ويحلق شعره ويدخن السجائر الأمريكية ويشاهد الأفلام الأمريكية ويظن نفسه أمريكا ! . إن حب الرياسة قد يورد صاحبه موارد الهلكة فقد يجرئه على الفتوى بغير علم وعلى الكلام في الـدين بـالرأي ، وحـب الرياسـة والسمعة جعل هؤلاء المتنطعين يستفتون في المسائل الدقيقة فيـستحى أحـدهم أن يقول الله أعلم بل يكابر ويفتى برأيه أو بما سمع دون تحقق ممـا سـمع فيَـضل و ويُضل وما ضره لو قال لا أعلم فيما لا علم حقيقي به اقتـداء بالملائكـة { قَـالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (البقرة : ٣٢) .

واقتداء بالأنبياء والفضلاء من العلماء ، فالنبي وهو سيد ولد آدم وخـاتم الأنبيـاء وإمام المرسلين عندما سأله رجل " أي البقاع شر ؟ قال : (لا أدرى حتـى أسـأل

جبريل) فسأل جبريل ، فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ، فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق " .

" وقال الصديق للجدة : ارجعي حتى أسأل الناس. وكان على يقول: وأبردها على الكبد، ثلاث مرات. قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم. وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال: لا علم لي بها ، فلما أدبر الرجل. قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به! ذكره الدارمي في مسنده ... وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال: لا أدرى. وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدرى.
قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم. قال ابن عبد البر: من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم. روى يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف . قلت: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام (أوغاد الناس) ! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسى القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . "[١]

والاستسهال " والفهلوة " داء أصاب الأمة في مقتل فما يكاد ينجح مشروع إلا وتجد أن كثيرا من الناس لجا إليه على اختلاف خبراتهم فإذا فتح خباز مشروع فرن تنتج مخبوزات ونجح فإن صانع الأحذية وصاحب المكتبة والكهربائى .. يحولون محالهم إلى أفران تنتج المخبوزات ، ومثل هذا تجده في صالونات الحلاقة والمقاهي ، ومحال التليفون المحمول ومراكز الاتصالات ... وإذا ذاع صيت عالم وجدت أصحاب المهن : الكهربائي والمبيض والنقاش .. والموظفين في شتى الهيئات والمصالح ، وطلاب المدارس و الجامعات ، يصعدون المنابر ويعقدون مجالس العلم والإفتاء !!

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٨٦

الخامس والعشرون : الجدل والمراء والخصومة

إن هؤلاء المتنطعين ما أعطوا شيئا أكثر من الجدال والمراء والخصومة فهـم لا يقبلون رأيا يخالف رأيهم لذا يظل أحدهم يجادل بالتي هي أسوأ حتى ينتهي الجـدال إلى خصومة وتتبادل فيه الشتائم وربما انتهي إلى تشابك بالأيدي وقطيعة أبدية ، ما ضرهم لو عرضوا وجهة نظرهم بالحكمة والموعظة الحسنة وإن كان جدال فيكون بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى { ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (النحل : ١٢٥) فالتفقه في الدين إنما يحمـد إذا كـان للعمل لا للمراء والجدال .

قال الإمام أبو حامد الغزالي: المراء: طعنُك في كلام الغير لإظهار خَلل فيه، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيَّتك عليه؛ قال: وأما الجدالُ فعبارةٌ عـن أمـر يتعلّقُ بإظهار المذاهب وتقريرها. قال: وأما الخصومةُ فلِجَاجٌ في الكلام ليستوفي به مقصودَه مَن مال أو غيره، وتارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضـاً؛ والمِـراء لا يكون إلا اعتراضاً."[1] .

لقد نهي القرآن عن الجدال إلا بالتي هي أحسن حتى مع من خالف لعقيـدتك فمـا بالك بالمسلم الذي على دينك : { وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (العنكبوت : ٤٦)

ونهي النبي عن الجدال في القرآن الكريم بغير علم وبهدف ضرب آياته بعضـها ببعض " لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالا فيـه كفـر " حـديث صـحيح (رواه الطيالسي والبيهقي)

" لا تجادلوا بالقرآن ولا تكذبوا كتاب الله بعضه ببعض فوا الله إن المؤمن ليجادل بالقرآن فيُغلَب وإن المنافق ليجادل بالقرآن فيغلب " (سلسلة الصحيح للألباني)

وغالبا ما يكون سبب الجدال عدم العلم فالمتنطع يكون قد قـرأ رأيـا أو فتـوى واعتقد أنها هي الصحيحة وجهل ببقية آراء العلماء أو علمها ولم يأخذ بها .

---

(١) " الأذكار " للنووى كتاب حفظ اللسان .

ونهي القرآن الكريم عن الجدال بغير علم فقال تعالى { هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (آل عمران : ٦٦) .

والجدال بالباطل من وحي الشياطين { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }. (الأنعام : ١٢١)

وأخبر النبي أن أبغض الناس إلى الله أولئك المجادلين بالباطل شديدي الجدل والولع به .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال : " أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِم" (متفق عليه) الألد شديد الجدال، والخَصِم : المولع بالخصومة الماهر بها ".

ولقد جعل النبي أن الجدل من طرق الضلال والباعث عليه .

عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } (الزخرف : ٥٨) (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه) .

والمراد بالجدل المنهي عنه في القرآن ضرب القرآن بعضه ببعض ، والأحاديث بعضها ببعض لترويج مذاهب المتجادلين وآراء مشائخهم من غير رغبة حقيقية في التعلم والوصول للحق .

ولقد حث النبي على ترك المراء والجدل ووعد تارك الجدل ببيت في الجنة .

وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له في وسطها ومن حسن خلقه بنى له في أعلاها (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي) .

إن الداعي إلى الدين عليه أن يؤلف الناس حول القرآن الكريم ويحببهم في دين الله وإذا أحس أن الناس بدءوا يختلفون وأن الجدل بدأ يكثر فليه أن ينهي الحديث محافظا على وحدة المسلمين ومغلقا باب الشيطان .

قال رسول الله ﷺ " اقرءوا القران ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم عنه فقوموا." (متفق عليه) .

لقد ابتلينا بأناس متعالمين يدعون الفهم في كل شيء رغم أنهم لا يحسنون عمل أي شيء حتى مهنهم ، تسمع موظفا لم يلعب كرة القدم حتى وهو صغير في الشارع ينتقد كبار مدربي فرق الكرة ! وهذا عامل أمي لا يحسن القراءة والكتابة يتكلم في السياسة ولا تعجبه قرارات السياسيين ويتهمهم بالعمالة والجهل والجبن ، وأنه لو كان بيده الأمر لفعل كذا وكذا وإذا أوكلت إلى هذا العامل عملا أفسد ولم يصلح ولا يقوم بالوفاء بواجباته .

ليت أمر هؤلاء المتنطعين اقتصر على إساءتهم لأنفسهم إذن لهان الخطب لكن الأدهى والأمر أنهم أساءوا بفهمهم المعوج هذا إلى الإسلام وعموم المسلمين مما جعل ديننا الحنيف " الإسلام " سبة في أفواه أعدائه وغلاً في أعناق أنصاره إن مصيبة هؤلاء أنهم جعلوا من عاداتهم الجاهلية البدوية ، وأمراضهم النفسية دينا يشغبون بها على دين الله تعالى . ويفرقون بها وحدة المسلمين .

لقد آن للأمة الإسلامية أن تتوحد حتى تصد مطامع أعدائها في بلادها فهلا ترك الناس المذهبية الدينية و وتركوا لعلماء أمتهم – وهم بحمد الله كثيرون في كل مجال – مهمة الفتوى والتفسير ، وأن يكتفي وعاظنا بتعليم الناس ما هو معلوم من الدين بالضرورة تلك الأمور غير المختلف عليها والتي أجمعت عليها الأمة والتي لا ينكرها مسلم كفرائض الإسلام و الأخلاق واستخلاص العبرة من قصص الأنبياء والصالحين ..بدلا من هذه الفوضى الدينية فكل من قرأ أو سمع حديثا أصبح مفتيا وكل من عرف معنى آية أصبح مفسرا ، وكل من أرسل لحيته أصبح داعية !!

من المكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

إن جميع المسلمين مكلفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي هذا يقول تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } (آل عمران : ١١٠) لكن الناس متفاوتون في معرفتهم بأمور الدين فكيف يطالب بالقيام به كل الناس ؟

إن هناك أموراً في الدين لا يجهلها مسلم تسمى معلوم من الدين بالضرورة كمعرفة أن الصلاة فريضة وأن الخمر محرمة وأن الحج يكون إلى بيت الله الحرام في أشهر معلومات وهذه الأمور يمكن أن يدعو الناس جميعاً إليها فإذا كان هناك

إنسان لا يصلى بغير عذر فهل يحتاج هذا الإنسان إلى عالم من علماء الدين ليقول له صل ؟ بالطبع لا ، إنما هذا واجب على كل مسلم له به علاقة ، وإذا كان إنسان يكذب فهل يحتاج إلى عالم دين ليقول له أن الكذب الحرام ؟ بالطبع لا ، إنما يمكن أن ينصحه بترك الكذب أي مسلم ، أما الأمور الخلافية والمباحث العلمية فلا يجب أن يتصدى للإفتاء فيها إلا العلماء وإذا اختلفوا جاز للعامة الأخذ بما الميسر من أقوالهم لكن يجب أن يراعى المسلم أموراً مهمة حال دعوته غيره منها :

١- أن تكون هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢- أن يتخير المكان والزمان المناسبين للدعوة .

٣- أن يكون من الملتزمين بما يدعو غيره له .

٤- ألا يتعدى حدود علمه فيتكلم في الدين بغير علم .

لكن الذي يحدث أن الواعظ يبدأ بالأمور العامة ثم ينسى قدره ويغتر بعلمه فيخوض في الحديث فيما لا علم له به ويفتى الناس ويترك مجال المعلوم من الدين بالضرورة إلى الإفتاء في دقائق الأمور والذي يغريه بذلك إقبال الناس عليه وتجمعهم حوله فيتوهم في نفسه العلم ومن كثرة ثناء الناس عليه يسيطر عليه إحساس بأنه أصبح عالماً ويقول للناس استفتوني أفتكم وهنا يكون البلاء وتحدث الكارثة ، ويدلى بدلوه في أمور الدين والدنيا والسياسة والحرب والسلام والاقتصاد وهذه آفة كل الوعاظ والدعاة ولم يسلم منهم إلا القليل النادر الذي اكتفي بالأمر بما هو معلوم من الدين بالضرورة .

وعامة الناس لا تستطيع التفرقة بين الواعظ والعالم فكلاهما يتكلم في الدين وكلاهما يستشهد بالقرآن والحديث الشريف وربما يكون الواعظ أكثر مصداقية من العالم بما يلتزم به من مظاهر الدين كإرسال اللحية ولبس الجلباب الأبيض والغترة، كما أن الناس ، ويا للعجب ، يؤثر فيهم من يخرج على الحاكم وينتقد المسئولين فيظنون أنه لا يخشى في الله لومة لائم حبذا لو قبض عليه رجال أمن الدولة عدة مرات فإنه يصبح ، في نظر العامة ، من العلماء الكبار المشهورين الذين تخشى الدولة على نفسها من أقوالهم !!

أما الدعوة الخاصة والإفتاء في المسائل الدقيقة فتكون لعلماء الدين الكبار الذين شهد لهم العلماء بالعلم إذ ليس من قال الناس أنه عالم صار عالما إذ أن العامة لا

يحكمون على العلماء إنما الذي يحكم على العلماء أكابرهم لكن الآفة أن من تجمع حوله بعض العامة يظن نفسه عالما بغض النظر عن قول العلماء فيه ، وهذا لا يحدث إلا في مجال الدعوة – وهو أخطر مجال – فإن من يحصل على أي شهادة علمية إنما الذي يمنحه إياها هم أساتذته ومعلموه وليس طلابه ومريدوه . و مع تعدد أمور الحياة و كثرة المستحدثات فإن أمر الفتوى لا يجب أن يترك حتى لآحاد العلماء إنما يجب ألا يناط بالأمور الدقيقة المؤثرة في حياة الناس إلا المجالس العلمية المتخصصة فقضايا مثل : إيداع الأموال في البنوك ، والتأمين على الحياة ، والتبرع بأعضاء الجسم ، والعمليات الفادئية في البلاد المحتلة ضد المدنيين ، وغيرها من الأمور التي يجب أن تدرس من كافة جوانبها ويناقشها كبار العلماء في مجامع للبحوث الإسلامية كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ودار الإفتاء ، ويجب أن يتم الاتفاق على ما يفتى به الناس خاصة في مواضيع ذات تأثير بالغ على حياة الفرد والمجتمع وأن يلتزم العلماء بقرار اللجان المختصة ، وخيراً فعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمع فتاوى الأزهر الشريف في مائة عام على اسطوانة ليزر ، ويسر طريقة البحث فيها ، وأنا شخصيّاً أراحتني هذه الفتاوى من الجدل العقيم فما يكاد يبدأ جدل حول قضية من القضايا الخلافية حتى أسارع بطبع نص فتوى الأزهر الشريف في هذه القضية لحسم الخلاف .

وإذا طبقنا منهج ميزان الحق الذي تحدثنا عنه على منهج النصيين الحرفيين والظاهريين البدو فإننا نجد أنهم يهملون حاجات بعض مكونات الإنسان .

فإذا كان العقل وهو من أعظم نعم الله على الإنسان وهو ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ وهو وسيلة المعرفة لا نصيب له عند النصيين الحرفيين فقد أهملوه وحرموه من التفكير والاجتهاد ، كما أهملوا حاسة الذوق القلبية التي تجعل الإنسان يستمتع بالفنون الراقية المهذبة للنفس والمحركة للعواطف النبيلة كالشعر الذي قال النبي فيه في الحديث الصحيح المتفق عليه " إن من البيان لسحرا " وجعله يخلع برده على كعب ابن زهير عندما أنشده قصيدته "بانت سعاد" فعفا عنه وكان قد أهدر دمه بل من فرط إعجابه خلع عليه برده . ذلك الشعر الذي قال عنه الرسول " إن من الشعر حكمة " (رواه البخاري)

أو كالغناء غير الفاحش ولا البذيء الذي يروح عن النفس ، ويحرك المشاعر النبيلة خاصة في المناسبات السعيدة فقد سمع النبي الغناء وأمر عائشة بأن تكون

هديتها لعروس ذات قرابة لها مغنيا يغنى لها . وكذلك سمع بعض الصحابة الغناء ولم يروا فيه بأسا خاصة في المناسبات السعيدة كالأعياد والزواج .

لكن ليس كل غناء مباح فالغناء المباح له شروط بيناها في غير هذا الموضع .

كما أنهم بالنسبة للروح التي غذاؤها معرفة الله وعبادته والأنس به فإنهم حولوا الكلام عن العقيدة إلى حروب كلامية وتحدثوا في موضوعات ما تحدث فيها السلف كحديثهم المستفيض في الذات والصفات لدرجة أنهم ألفوا فيها كتبا مستقلة ، وبدلاً من غرس الإيمان في قلوب الناس شغلوهم بهذه الأبحاث الكلامية التي لا طائل من ورائها إلا إضاعة الوقت وإضعاف الجهد ، وتمزيق الأمة .

أما بالنسبة للعبادة فإن منهج النصيين الحرفيين يركز على التفاصيل الدقيقة الفرعية في أداء العبادة أكثر من تركيزه على الحكمة من هذه العبادة فيركزون مثلاً على هيئة المصلى أكثر من خشوعه في الصلاة ، ويتشددوا غاية التشدد في التمسك بحرفية أداء العبادة ، حسب مذهبهم ، وهم ليسوا كذلك فيما يتعلق بثمرة هذه العبادات وهي حسن الخلق في التعامل مع الناس ، وإخلاص العمل في التعامل مع المعاش ، ورقة القلب كثمرة من ثمرات الشعائر التعبدية .

كما أن مفهومهم الضيق للعبادة الذي يقتصر على أركان الإسلام والذكر والدعاء وقراءة القرآن فقط قد أهمل المهمة الثانية للإنسان كخليفة وهو استعمار الأرض.

{ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } (هود : ٦١)

كذلك استبدالهم الحفظ والتكرار بالفقه والتدبر والاعتبار ؛ فركزوا في فهم الدين على الحفظ وترديد مقولات السابقين دون فقه للدين ولا للدنيا فكأني بهم لم تصبهم دعوة النبي ﷺ لابن عباس فقد " دَعا له النبي ﷺ فقال: اللهم فَقِّهْه في الدين وعَلِّمه التأويل " (رواه البخاري وأحمد وابن حبان والحاكم)

ولم تصبهم دعوته ﷺ لعلماء أمته " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (متفق عليه)

إن الناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أن التطور والتقدم والتحضر قرين الاجتهاد والإبداع والحرية المسئولة أما فترات الضعف والتخلف فقرينة التقليد والاتباع وتقديس التراث ، إن المدقق في الحضارة العربية الإسلامية يجد أنها كانت

حضارة مبدعة متفردة فعلماء تجتهد و فرسان تجاهد ، وعمال يعملــون وفلاحــون يزرعون كانت حضارة علم وعمل وهداية قادت العالم ألف سنة وشارك في صنعها علماء الدين إلى جانب غيرهم من علماء العلوم الطبيعية ، الرياضيات ، والفلاسفة، والشعراء .

الإسلام دين اليسر

إن الدين الإسلامي دين يسر وسلام لا دين مشقة وإجرام فنهج النبي وسنته اختيار أيسر الأمور " مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُــنْ إِثْمًــا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ " (متفق عليه)

ومع ذلك فإن إخواننا النصيين الحرفيين والسلفيين غير الأصوليين ومــن ســار على نهجهم يختارون من أراء السلف ما وافق هواهم ويلزمون الناس بــه ، ومــا خيروا بين أمرين إلا واختاروا أعسرهما ، وإن كان موقعاً في الحرج !!

فإن جادلتهم بالتي هي أحسن رموك بالابتداع ومخالفة السلف هكذا بصيغة الجمع السلف !!

وهذا هو الغلو في الدين ، والتنطع الذي حذر الدين منه أشد التحــذير فيقــول الله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَــوْمٍ قَــدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ } (المائدة : ٧٧)

ويحذر النبي من الغلو في الدين ويبين أنه كان سبباً في هلاك الأمم السابقة فيقول " وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" (أخرجه أحمد والنــسائي والحاكم وصححه).و يؤكد هذا بقوله ﷺ " عن ابن مسعود رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (هلك المتنطعون!) قالها ثلاثاً.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

المتنطعون : المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد. فعاقبة الغلو في الدين الهلاك كما بين النبي ، هلاك الدين باتهام الناس له بــالتطرف والتــشدد والتخلــف وهلاك الدنيا بالتخلف عن ركب الحضارة ، والاستعمار والاحتلال الأجنبي .
إن شريعة الإسلام خاتمة الشرائع، أنزلها الله للناس كافة، فــي مــشارق أرض الله ومغاربها، للذكر والأنثى، والقوي والضعيف، والغني والفقير، والعــالم والجاهــل،

والصحيح والمريض. ومن أجل هذا جاءت بفضل الله ولطفه وحكمته ميسوراً فهمُها، سهلاً العملُ بها، تسعُ الناس أجمعين، ويطيقها كلُّ المكلَّفين. دين الإسلام رخصة بعد عزيمة، ولين من غير شدَّة، ويسرٌ من غير عسر، ورفع للحرج عن الأمة.

التيسير مقصدٌ من مقاصد هذا الدين وصفة عامّة للشريعة، في أحكامها وعقائدها، وأخلاقها ومعاملاتها، وأصولها وفروعها. فربنا بمنه وكرمه لم يكلف عباده بالمشاق، ولم يُرد إعنات الناس ، أنزل دينه على قصد الرفق والتيسير .

شريعة الله حنيفية في التوحيد، سمحةٌ في العمل، فلله الحمد والمنة،{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } (البقرة:١٨٥) ، {يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً } (النساء:٢٨) ، {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ } (الحج:٧٨) .

أحكام الشرع تطبع في نفس المسلم السماحة والبعد عن التكلّف والمشقة، والتعلق الوثيق برحمة الله وعفوه وصفحه وغفرانه،{ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً } (الطلاق:٧)

واليسر كلّ عمل لا يُجهد النفس، ولا يثقل الجسم، والعسر كلُّ ما أجهد النفس وأضرَّ بالجسم، في الحديث الصحيح : " إن هذا الدين يسر، فأوغلوا فيه برفق" (أخرجه أحمد وحسنه الألباني) ، وقوله : " إن خير دينكم أيسرُه " قالها ثلاثاً .

(أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني)

وهذا شيء من بيان معالم اليسر ومظاهر التيسير، تتجلى في كتاب ربنا، وفي شخص نبينا محمد ﷺ وفي أصول الدين وفروعه .

أما الكتاب العزيز فقد أنزله الله ميسَّرَ التلاوة، وميسَّر الفهم، وميسَّر التدبّر والذكر، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءانَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر:١٧) ، {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلَسَانِكَ لِتُبَشّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً} (مريم:٩٧)

كتاب الله ميسَّر الحفظ، تدركه العقول، وترقّ له القلوب، يَلَذُّ استماعه، ولا يُملُّ سماعه، وإن كان فيه من الأسرار ودقائق العلوم ما يختصّ به الراسخون من أهل الذكر.

أما محمد ﷺ فقد بعثه الله رحمةً للعالمين أجمعين، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم، حريص عليهم، عزيز عليه ما يُعنتهم ويشقُّ عليهم، يضع عنهم إصرهم والأغلالَ

التي كانت عليهم، يقول ﷺ : " إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا" (رواه مسلم) وهو الذي يقول عن نفسه ﷺ : " أما إني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني "(متفق عليه)
أما أصول الدين وعقائده فقد جاءت ميسّرةً في مطلوباتها، واضحةً في أدلتها، من الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وكماله، والإيمان بالملائكة والكتب والنبيين، والإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. والدلائل على ذلك ظاهرة من النظر في السماوات وفي الأرض وسائر المخلوقات، والسير في الأرض والاعتبار بآثار الأمم. ويكفي في ذلك مسلكُ أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين من بعدهم من السلف المقتدى بهم، لم يكونوا أهل تكلّف ولا كثرة سؤال أو اختلاف .
أما أحكام الشرع فقد راعت أحوالَ المكلفين وظروفهم من الصحة والمرض، والحضر والسفر، وأحوال الاضطرار، فأعظم العبادات وأجلها بعد توحيد الله هذه الصلاة المفروضة، رُبطت أوقاتها بطلوع الفجر وزوال الشمس وظلها وغروبها، وما بين المشرق والمغرب قبلة، وفي الطهارة إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، وإذا شق استعمال الماء انتقل إلى التيمم، ويصلي المسلم قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، { لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا } (البقرة:٢٨٦) ويجمع بين الصلاتين: الظهر والعصر والمغرب والعشاء عند الحاجة، والمسافر يقصر الرباعية ركعتين، وذكر للنبي امرأةٌ تكثر من النوافل فقال ﷺ: " مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا "(متفق عليه) ومن أمَّ الناس فليخفّف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة، والصيام مطلوب من الصحيح المقيم، رُخّص فيه الفطر للمسافر والمريض، { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }(البقرة:١٨٥) ولا زكاة ولا حج ولا جهاد إلا على القادر المستطيع، والحج يوم تحجّون، والأضحى يوم تضحّون، والفطر يوم تفطرون. والمرأة لها أحكام تناسبها، وتراعي أحوالها. والقلم مرفوع عن المجنون والصبي والنائم، ورفع عن الأمة الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه. والأصل في الأشياء الحلّ والطهارة. والمشقة تجلب

التيسير. {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ }(البقرة:١٧٢)، والسيئة بمثلها أو يغفر الله، والحسنة بعشر أمثالها ويضاعف الله .

والمقصود من العبادات والطاعات استقامة النفس والمحافظة عليها من الانحـــراف والاعوجاج، وليس المقصود الاستقصاء ولا الإحصاء، ولكـــن ســـددوا وقـــاربوا، واستقيموا ولن تحصوا، وأتوا من الأعمال ما تطيقون. والاستقامة تحـــصل بمقـــدار سهل، ينبِّه النفسَ فتتلذّذ في العبادة، وإذا دخل العبد في المشقة والملل فقد لذةَ العبادة وابتعد عن بواعث الخشوع، بل لقد شرع لنا ديننا من الطاعـــات مـــا تقبـــل عليـــه النفوس بطبعها، بل مما تنشرح به صدورها وتتباهى به من العيدين والجمعة وأخـــذ الزينة والتجمّل باللباس والطيب للنفوس والمساجد، والاغتسال، والتغنـــي بـــالقرآن، وحسن الصوت بالأذان، { يَابَنِى ءادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْـــرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيّبَاتِ مِنَ الرّزْقِ قُلْ هِى لِلَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحياةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}

(الأعراف:٣١، ٣٢)

فيجب على دعاة الإسلام أن يأخذوا الناس باليـــسير مـــن الأمـــر، وألا يجـــشموهم المصاعب، ولا يكلّفونهم عُسراً، " بشِّروا ولا تنفّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا، والرفـــق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه " (أخرجه الترمذي بإســـناد حسن) وعنه ﷺ أنه قال: " حُرِّم على النار كل هيّنٍ ليّن سهل قريب من الناس "

(السلسلة الصحيحة لألباني)

وعلى أهل العلم ملاحظة التيسير في الفتوى، ومراعاة أحوال المستفتين، وإبعـــادهم عن مواقع الحرج مع ما يلزم من تحري الحق والصواب، يقول ســـفيان الثـــوري: "إنما العلم عند الرخصة عن ثقة، أما التشديد فيحسنه كلُّ أحد "

(أخرجه ابن عبد البر في التمهيد)

ومن رقى المنابر وتبوّأ صدور المجالس فحسنٌ منه أن يقول برفق، ويعـــظ بلـــين، وأن يعين الموعوظين على حسن الظن بربهم. فخير ديـــنكم أيـــسره، وحـــين بـــال الأعرابي في المسجد قال رسول الله ﷺ لأصحابه : " لا تزرموه ــ أي: لا تقعطـــوا عليه بوله ـــ، إنما بُعثتم ميسرين "(متفق عليه) ، رحمةٌ في الدعوة، وســـلامةٌ فـــي الحجة، وإخلاص في النصيحة، وإحسان في الموعظة.

إن العسر والتشدّد والتنطّع كثيرا ما يدعو إليه قلةُ الفقه في الدين، والجهلُ بمقاصد الشرع وأصول الملة وضعفُ العلم. وقد يدعو إليه دوافع من هوى النفوس وفي الحديث الصحيح: " ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فأوغلوا فيه برفق "(رواه البخاري) ومن قلة الفقه في هذا الباب أن يسلك بعض الناس مسالك التشدّد في بعض الظواهر من الأحكام الفرعية والعبادات والطاعات، ولكنه يتهاون في كبائر معلومٍ مراتبُها من الدين كالغيبة والنميمة والقذف والحسد والتماس العيوب للبرآء وتدبير المكايد لمن خالفه من إخوانه والوشاية وأكل أموال الناس بالباطل .

ولا ينبغي أن يُفهم من القول بالتيسير والتحذير من التشديد الدعوةُ إلى التساهل في أمور الدين عقيدةً وأحكاماً وأخلاقاً، أو التنصل من أحكام الإسلام والضعف في نصرة الدين والحق.

وليس من التيسير الإهمال في تربية البنين والبنات، وتركهم نهباً لزيغ العقائد وتيارات الإلحاد والبعد عن الالتزام بأحكام الإسلام والحفاظِ عليهم من دواعي الفجور واللهو المحرم بحجة التحضّر والبعد عن التعقيد وتغيّر الزمان.

وليس من التيسير ما يسلكه بعض من ينتمون إلى الثقافة حين يدَّعون سماحة الدين أمام أعداء الإسلام، ويتنصلون من أحكام الدين وتعاليمه، ثم هم من أشدّ الناس على الصُّلحاء والأخيار، بل قد يوظِّفون دعوى التيسير أداةً لقمع الدعوة إلى الإسلام وكبت الحق وتكبيله بحجة مسايرة العصر ومتغيرات الزمن. (١)

***

---

(١) من خطبة للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد ، المسجد الحرام ، بتاريخ ٢٠/ ٧ / ١٤٢٣

الفصل الخامس

الإســلام والنفس الإنسانية

والنفس هي ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر.

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس : ٧-٨) .

فكما أنها تتصف بـ : الإيثار ، والتواضع ، والكرم ، والقناعة ، والعدل ... فإنها أيضا تتصف بالأثرة ، والكبر ، والبخل ، والطمع ، والظلم ، ... وتحتاج إلى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير ، وأن تكون شيئاً مذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

تكريم الله تعالى النفس الإنسانية

لقد خلق الله تعالى النفس الإنسانية في أحسن تقويم .

{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }(التين :٤)

{ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } (الذاريات : ٢١)

وجعل الله تعالى النفسَ آيةً على بديع خلقه الهادية إلى الإيمان بالخالق العظيم.

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (فصلت : ٥٣)

ولقد كرم الله تعالى الإنسان فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة .

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } (ص : ٧١-٧٢)

وسخر له ما في السموات والأرض ، وآتاه من كل ما سأل .

{ اللَّهُ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } (إبراهيم : ٣٤)

ولقد كرم الله تعالى الإنسان ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً .

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } (الإسراء : ٧٠)

ونص القرآن الكريم في مواضع كثيرة على تساوى البشر جميعاً في أصل الخلقة فكل الناس خلقوا من نفس واحدة وهي آدم .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً } (النساء : ١)

{ وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ }(الأنعام : ٩٨)

{هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (الأعراف:١٨٩)

حرمة دم النفس الإنسانية

ولقد صان الله تعالى حرمة النفس الإنسانية فحرم قتلها وجعل الله تعالى من قتل نفسا واحدة ، بغير حق ، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها ، صان حرمتها وحافظ على حياتها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً .

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة:٣٢)

والكلام عن حرمة النفس الإنسانية عام لا يختص بالمسلم فقط عكس ما زعم وعاظ السوء من استحلال دم ومال غير المسلمين !! فراحوا يقتلون في خلق الله بغير حق وزعموا أن هذا جهاد في سبيل الله ، والله برئ مما يفعلون إنما هو جهاد

في سبيل الشيطان ، فالآية الكريمة نصت على عموم النفس الإنسانية ولم تخصص نفس المسلمين .

ويجدر بنا في هذا المقام وقد كثر اللغط في هذا الموضوع ، وكثرت الجرائم التي راح ضحيتها الأبرياء بسبب الفهم الخاطئ لبعض المتفيقهين المتنطعين ، كنت أقول يجدر بنا في هذا المقام أن نوضح من الذي يجب قتاله من أعداء الله والإسلام، ومن يجب صيانة دمائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ؛ فقد أساء كثير من المسلمين فهم هذا الأمر وظنوا أن الإسلام حكّم السيف في علاقته بغير المسلمين فإما أن تسلم وإما أن تقطع رقبتك وهذا الفهم المناقض للإسلام بل المناقض لكافة الأديان والقوانين مازال مسيطراً على فهم بعض قساة القلوب خفاف العقول جهَّال الدين والواقع ، وهذا القول لا يقبل من مسلم أيام المد الإسلامي والفتوح فكيف يقبل من مسلم يعيش أيام الانحسار الإسلامي والاحتلال الصليبي والهوان !!

والعجيب أنه في الوقت الذي يعتذر فيه أعداء المسلمين عن أي قتلى أو جرحى من المدنيين أثناء قتالهم للمجاهدين من العرب[١] فإن بعض المسلمين يصرحون أن الإسلام يبيح قتل المدنيين من غير المسلمين بل وينسبون لأسامة بن لادن ، وهو شرف لم يدعيه ، قتل المدنيين في برج التجارة العالمي في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، ويقومون بمظاهرات تأييد له ، وتعلو الفرحة وجوههم ، ويقولون هذا هو الجهاد الإسلامي ، ويَصِم الغرب الإسلام كله بالإرهاب من جراء أقوال وأفعال هؤلاء المتخلفين " في فلوريدا في اللافتة التي يكتب عليها مواعيد الصلاة في الكنيسة – كتبت العبارة الآتية: " عيسى ينهي عن الاغتيال ، سفر متَّى ٢٦ – ٥٢، محمد يأمر بالاغتيال، سورة ٨ –٦٥ " [٢] وتستغل أمريكا الموقف وتشن حربها ضد المسلمين الأبرياء المسالمين بدعوى أنهم إرهابيون ، ويساندها الغرب كله في غزو أفغانستان ، ثم تنفرد بقرار غزو العراق لنزع أسلحة التدمير الشامل من أيدي صدام الطاغية المسلم الإرهابي !

---

(١) هم يقولون ذلك بأفواههم فقط أنما هم ضالعون في هذه المذابح الموجهة للمدنيين راجع المذابح اليهودية للعرب منذ احتلال إسرائيل إلى اليوم في كتاب " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف .

(٢) الأستاذ سليمان البطحى : أمين عام اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ "ندوة البيان" www.albayan-magazine.com

وهكذا فبدلاً من نشر دعوة الإسلام الداعية إلى الحب والسلام والتسامح يلصق به بعض المسلمين تهماً هو بريء منها تنفر الناس منه ، ويضطر علماء الدين ورجال السياسة والمخلصون للدفاع عن الإسلام وبيان سماحته علّهم يصححون صورة الإسلام في أذهان غير المسلمين وخاصة الغربيين لكن هيهات فقد تلقفت القوى المعادية للمسلمين الطامحة في احتلال أراضية هذه الدعاوى المغرضة ونشرتها واتخذتها ذريعة لحرب المسلمين واحتلال أراضيهم واستغلال مواردهم وخيراتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل في تنطع هؤلاء المسلمين وكيد أولئك الغربيين .

أنواع الكفار ومن المستحق للقتل منهم :

لذا كان لزاماً علينا ونحن نتحدث عن حرمة قتل النفس والاعتداء عليها بيان من المستحقون للقتل ؟ ومن يجب على المسلمين صيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ؟

أولاً لابد من " التفريق بين أنواع الكفار؛ فإنهم على أربعة أقسام : ذميون، ومعاهدون، ومستأمنون، وحربيون .

الذمي: هو من أقام بدار الإسلام إقامة دائمة بأمان مؤبّد .

والعهد : هو عقد بين المسلمين وأهل الحرب على ترك القتال مدّةً معلومة .

والمعاهدون : هم أهل البلد المتعاقد معهم .

وأهل الحرب : هم أهل بلاد الكفر التي لم يجرِ بينهم وبين المسلمين عهد .

وأما المستأمن : فهو الحربي الذي يدخل دار الإسلام بأمانٍ مؤقت لأمرٍ يقتضيه .

فالفرق بين الحربي والمعاهد أن الحربي ليس بينه وبين المسلمين عهد ولا صلح، بخلاف المعاهد .

والفرق بين الذمي والمستأمن أن الذمي هو من يقيم إقامة دائمة بأمان مؤبد، أما المستأمن فحربي دخل بلاد الإسلام لغرض متى انتهي ذلك الغرض خرج لبلده .

والمعاهد والذمي والمستأمن جميعهم معصومو الدم ، لا يجوز الاعتداء عليهم ولا التعرّض لهم . قال تعالى : { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمِ } (التوبة: ٤)

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " (رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه)

وقد عاهد النبي ﷺ أصنافاً من المشركين كبني قريظة وبني النضير، وهادن

قريشاً في الحديبية على ترك القتال عشر سنين، وأن من جاء من قريش مسلماً رده النبي إليهم . وهذا كله معلوم في كتب السنة والسيرة ." [1]

قال اللَّه تعالى { وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } (الإسراء : ٣٤)

{ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } (النحل :٩١)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } (المائدة : ١)

وحذر النبي من الغدر والخيانة العهد .

عن ابنِ عُمَرَ أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "إنّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بنِ فُلاَنٍ ". (متفق عليه) .

وجعل النبي من صفات المنافقين الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّهُ عَنْهُما أن النبي ﷺ قال: " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

ولقد كان النبي مثالاً حيّاً على الوفاء بالعهد فقد رد النبي ﷺ من جاءه من قريش مؤمنا وفاءً بعهده مع قريش وقال النبي ﷺ لأبى جندل الذي أتاه مسلماً في الوقت الذي كان يكتب فيه صلح الحديبية " يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم " [2]

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، وأرسلت قريش رجلين في طلبه " فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به،" واستطاع أبو بصير أن يقتل أحد الرجلين وعاد إلى المدينة وقال للرسول " يا رسول اللَّه قد واللَّه أوفي اللَّه ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني اللَّه تعالى منهم، فقال النبي ﷺ : "ويل أمه مسعر حرب (محرك لها وموقد لنارها)

---

(١) " أسئلة جريئة وأجوبة صريحة حول تفجيرات الرياض مسائل في أحكام الجهاد " إعداد موقع الإسلام اليوم ص من ٩ : ١٤

(٢) ابن كثير " البداية و النهاية " ج ٤ ص ١٩٣ .

لو كان معه أحد "، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتـــى ســـيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فواللّـــه مـــا يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده اللّه والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم" (١)

ويروى حذيفة بن اليمان سبب تخلفه عن القتال هو وأبيه في غزوة بـــدر وكـــان المسلمون في حاجة ماسة له فقد كان عدد المسلمين ثلث عدد الكفار فيقـــول : مـــا منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبى، حسيل. قال : فأخذَنا كفـــارُ قـــريش. قالوا: إنكم تريدون محمداً ؟ فقلنا: ما نريده. ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبـــر. فقال" انصرفا. نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم " (رواه مسلم)

لقد أمر رسول الله ﷺ بالوفاء بعهد الكفار المحاربين وهو في مسيس الحاجة إلـــى رجل فإذا به يرفض اشتراك رجلين وفاءً بعهد الكفار الذين جاءوا لقتاله ويقول "نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم" .

أي دين هذا ؟! وأي رجل هذا ؟! وأي خلق هذا ؟!

إنه دين الإسلام الذي جاء به صاحب الخلق العظيم محمد سيد الأنام ﷺ ، وكانت نتيجة الإيمان بالله والتمسك بأخلاق الإسلام وعلى رأسها الوفاء بالعهد أن نصر الله تعالى الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين . وهكذا كان صـــحابة الرســـول الكرام محافظين على الوفاء بالعهد فعن " جُوَيْرِيَةَ بْنَ قُدَامَةَ التَّمِيمِي قَـــالَ سَـــمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قُلْنَا أَوْصِنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ أُوصِـــيكُمْ بِذِمَّـــةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ " (رواه البخارى)

ولا يجوز للمسلمين بعد أن عاهدوا المشركين أن يطلبوا منهم الزيادة وفـــي هـــذا يقول الإمام الشوكانى : " لا يجوز للمسلمين بعد وقوع الصلح بينهم وبـــين الكفـــار

---

(١) تفسير ابن كثير " ج ٧ ج٣٥٤ .

على شيء أن يطلبوا منهم زيادة عليه فإن ذلك من ترك الوفاء بالعهد ونقض العقــد وهما محرمان بنص القرآن والسنة "(١)

ولقد نهي الله تعالى عن قتال الكافر : الذمي والمعاهد والمستأمن بل أمر بالإحسان إليه وعدم ظلمه .

{ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُــوكُم مِّــن دِيَــارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة : ٨)

قال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ، أي غير منسوخة ، واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبي ﷺ : هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة ؟ قــال: "نعــم" (متفق عليه). وقيل : إن الآية فيها نزلت . روى أن أبا بكر الصديق طلّق امرأتــه قتيلة في الجاهلية، وهي أم أسماء بنت أبى بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانــت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبى بكــر الصديق قُرْطاً وأشياء؛ فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلــك له، فأنزل الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين". ذكر هذا الخبر الماوردى وغيره، وأخرجه أبو داود الطيالسى في مسنده "(٢)

ومن عظمة الإسلام أن ساوى بين حرمة الذمي ، هو من أقام بدار الإسلام إقامــة دائمة بأمان مؤبّد من غير المسلمين ، وحرمة المسلم في الدم والمال والعرض .

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِــالنَّفْسِ} (المائدة : ٤٥) " قال الكوفيون والثوري: يقتل الحــر بالعبــد والمــسلم بالــذمي، واحتجوا بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلــى" فعــم، وقوله: { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } (المائدة: ٤٥) ، قالوا: والــذمي مــع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة علــى التأبيد، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صــار مــن أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهــذا يــدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمــه إذ المــال إنمــا

---

(١) الشوكاني " نيل الأوطار " الجزء الثامن باب الأمان والصلح والمهادنة .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٥٩ .

يحرم بحرمة مالكه. واتفق أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبى ليلى على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به ، وهو قول داود، وروى ذلك عن على وابن مسعود رضي اللّه عنهما، وبه قال سعيد بن المسيب وقتادة وإبراهيم النخعى والحكم بن عيينة " [(١)]

ويعرِّف النبي المسلم بأنه من سلم الناس – مسلم أو غير مسلم – من أقواله المحرمة : الغيبة والنميمة والكذب والبهتان والشتم واللعن ... ومن يده : بالقتل والضرب والعدوان والهدم .

ويجعل النبي المؤمن هو من يحافظ على دماء الناس، مسلمين وغير مسلمين، كما أن من صفات المؤمن المحافظة على أموال الناس كل الناس : المسلمين وغير المسلمين .

" المسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم " حديث صحيح (رواه النسائي)

ياله له من دين عظيم ذلك الدين الذي يأمر أتباعه بالمحافظة على أرواح الناس وأموالهم وأن يكفوا عنهم ألسنتهم وأيديهم ليت غير المسلمين يفهمون هذا بل ليت المسلمين يفهمون هذا ويطبقونه ، نقول هذا لأن بعض المسلمين يستحلون دماء غير المسلمين وأموالهم ويعتبرون غير المسلم عدواً مستباح الدم والمال ، ومن هؤلاء جماعة تسمى " الشوقيون " الذين دأبوا على قتل وسرقة غير المسلمين وذات مرة قرأ نائب أمير جماعة الشوقيين ويسمى " عادل محمد عبد الباقي " في كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي أن النبي في الهجرة سمح لكل الصحابة بالهجرة إلا لأبى بكر لأنه سيكون رفيقه في الهجرة " أما عليٌّ فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدى عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته "[(٢)]

وأدرك عادل محمد عبد الباقي خطأ ما كان يفعله ؛ فالنبي لم يستحل أموال الكفار الذين كذبوه وظاهروا عليه وأخرجوه من أحب بلاد الله إليه ، وجعل عليّاً رضى الله

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) محمد الغزالي "فقه السيرة " ص ١٧٣ .

عنه يتخلف عن الهجرة ليرد أماناتهم إليهم ! حاول عبد الباقي أن يقنع شوقي أمير التنظيم بما قرأه من سيرة المصطفي ﷺ لكنه لم يقتنع أو أقتنع لكنه قال : إن الأمــر قد خرج من يده فكيف يَعْدل عن رأيه الذي أفتى به الجماعة وقاموا بالاستيلاء على كثير من الأموال بمقتضاه ! لكن عبد الباقي إذ عرف الحق أبــى أن يــستمر فــي الباطل فترك شوقي وجماعته وسلّم نفسه لرجال الأمن الذين اعتبروه شــاهد ملــك وأطلق سراحه بعد الإدلاء باعترافه أما شوقي ورفاقه فوقعوا صرعى بنيران أجهزة الأمن .

أرأيتم الفرق بين العالم الفاهم كالشيخ الغزالي ، وبين الجاهل المتطرف كــشوقي ورفاقه من الجهلة الحمقى بل من المجرمين الذين اتخذوا من الدين ستاراً للممارسة جرائمهم .

توصية خاصة بأهل الكتاب :

وهناك توصية خاصة بأهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بالإحسان إليهم .

فقد أمر الله في كتابه العزيز بالإحسان إلى أهل الكتاب حتى بعد إصرارهم علــى عدم الدخول في الإسلام والتمسك بدينهم ، وأحل للمسلمين مآكلتهم وتبادل الإهــداء بالأطعمة .

بل يذهب الإسلام إلى ما هو أكثر من هذا حيث أحل الله تعالى زواج المسلم مــن الكتابية على ما للزواج من مودة ورحمة ، وحــسن المعاشــرة ، وائتمــان علــى العرض، والأولاد ...

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِــلُّ لَّهُــمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُــواْ الْكِتَــابَ مِــن قَــبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَــانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (المائدة : ٥) .

وشدد النبي ﷺ في تحذيره من إيذاء أهل الكتاب بظلم أو بنقص حق أو بتكلــيفهم ملا يطيقون ، أو بالأخذ منهم شيئا بغير طيب نفس فقــال "مــن ظلــم معاهــداً أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه (أي خصيمه) يوم القيامة".حديث صحيح (رواه أبو داود) .

والمدهش أن النبي ﷺ لا يكتفي بحسن معاملة أهل الكتاب وهم أحيـاء فقـط بـل يراعي إنسانيتهم بعد الموت حتى لا يظن ظان أن الإسلام إنما كان يرمى من حسن معاملتهم وهم أحياء ترغيبهم في الدخول في الإسلام فقط فها هو النبي يقوم لجنـازة يهودي عندما مرت به ويستنكر على من ظن أن نفس اليهودي بلا حرمة قوله .

وهذا في الصحيحين من حديث قيس بن سعد وسهل بن حنيف قالا " إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة، فقام، فقيل: إنه يهودي، فقال أليست نفساً ؟ "[1]

ولم يشرع الإسلام القتال إلا رداً للعدوان على الدين أو النفس أو الـوطن فيقـول تعالى : { وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَـاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ } (البقرة : ١٩١)

ويجعل الله تعالى العدوان فقط على الظالمين أما المسالمون فلا عدوان عليهم مهما كانت عقائدهم . {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة : ١٩٣)

وجعل الله تعالى تقوى الله هي مقياس التفاضل بين الناس وليس أحسابهم وأنسابهم وأموالهم .. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات : ١٣)

وعن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبـة الوداع فقال: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أبـاكم واحـد، ألا لا فـضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يـا رسـول الله. قال: فليبلغ الشاهد الغائب " حديث صحيح (رواه أحمد)

فلا تفاضل في الإسلام إذن بين نفس ونفس إلا بالتقوى ولـيس بـالجنس والمـال والسلطان والجاه .

إن الإسلام لا ينتصر بعدد ولا بعدة – والمسلمون مـأمورون بـأن يعـدوا مـا استطاعوا من قوة – إنما ينتصر بقوة الإيمان وتمسك المـؤمنين بتعـاليم الإسـلام

(١) " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف دار الإبداع للصحافة والنشر ص ٥٢

ومبادئه وها نحن هؤلاء كثيرون " إن عدد المسلمون في العـالم نحـو ١,٨ مليـار مسلم؛ أي ما نسبته ٢٥,٢٢ % من سكان العالم، تحتلون مساحة ١٩% من مساحة العالم تقريباً، ويعيشون في ٥٤ دولة إسلامية، وقيمون في ١٢٠ مجتمعاً في العـالم ومع أننا كثير لكن " كثاء السيل " لأنه دب فينا الوهن " حب الدنيا وكراهية الموت " [١] كما أخبر سيد المرسلين .

والحربي هو الوحيد الذي يقتل لأنه جاء بجيوشه وعدته وعتاده معتدياً على دماء المسلمين ومغتصباً لأرضهم ومنتهكا حرماتهم بالقوة .

{ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّـهَ لاَ يُحِـبِّ الْمُعْتَـدِينَ } (البقرة : ١٩٠)

قال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي محكمة أي قاتلوا الـذين هـم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم . [٢]

ويدخل في ذلك تحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مـصلحة ولهـذا جـاء فـي صحيح مسلم عن بريدة أن رسول اللّه ﷺ كان يقول: " اغزوا في سبيل اللّه، قـاتلوا من كفر باللّه، اغزوا ولا تغلوا ولا تغـدروا ولا تمثلـوا، ولا تقتلـوا الوليـد، ولا أصحاب الصوامع". وعن ابن عباس قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا بعـث جيوشـه قال: "اخرجوا باسم اللّه قاتلوا في سبيل اللّه من كفر باللّه، لا تعتدوا ولا تغلـوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الـصوامع" (رواه أحمـد وأبـو داود) وفـي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغـازى النبـي ﷺ مقتولـة فأنكر رسول اللّه ﷺ قتل النساء والصبيان " .

ويجب على ولى الأمر أن يعد الجيوش للدفاع ضد المعتدين وأن على كل مـسلم المساهمة بقدر ما يستطيع في صد المعتدين تحـت إشـراف أوليـاء الأمـور وألا يتصرف منفردا حتى لا يفسد خطط وتدابير أولياء الأمور فيجب على كـل مـسلم راغب في مقاومة أعداء الله ألا يخالف أولياء الأمر المختصين بذلك وأن يلتزم بمـا يأمرونه به ولا يُتْرك الأمر فوضى يفعل كل إنسان ما يراه صحيحاً فإن مثـل هـذا

---

(١) قال رسـول الله " يوشـك أن تداعى عليـكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصـعتها قيل يا رسول الله فمن قلة يومئذ قال لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت . " (رواه أحمد وأبو داود)

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٤٨ .

يشتت القوى وتكون عواقبه وخيمة كما يحدث الآن من بعض الأفراد والجماعــات الذين يقتلون ويخربون ويدمرون دون موافقة أولى الأمــر ممــا أســاء للإســلام وللمسلمين جميعاً .

فإن طلب الأعداء الصلح فيجب إجابتهم إليه حقناً للدماء بشرط أن يكون السلام شاملاً وعادلاً .

{ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِن يُرِيــدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } (الأنفال:٦٠، ٦١)

{وإن جنحوا} أي مالوا {للسلم} أي المسالمة والمصالحة والمهادنة {فاجنح لها} أي فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضــع الحرب بينهم وبين رسول اللّه ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا مــن الشروط الأخر.

وبعض الناس يريد أن يحاسب غير المسلمين على نوايــاهم فيقــول لــك إنهــم يضمرون لنا الشر ويتربصون بنا الدوائر والله تعــالى يعلمنــا أن نعامــل النــاس بالظاهر وألا نتهم الضمائر فإن أراد أعداء المسلمين السلم سالمناهم وإن كان ينــون خداعنا بهذا السلم فإن الله تعالى تكفل لنا بالنصر .

{ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ }
(الأنفال : ٦٢)

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله : " إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رَسُول ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمــالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، اللّــه يحاســبه فــي سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة "
(رَوَاهُ البخاري)

حرمة نفس المؤمن

هذا عن حرمة قتل غير المسلمين فإن كانوا مسلمين فالحرمة أشد فقــد جعــل الله تعالى عقوبة من يقتل مؤمناً متعمداً الخلود في النار وغضب من الله أكبر ولعن من الله أشد .

{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } (النساء : ٩٣) . والنبي يجعل مجرد حمل السلاح على المسلم منافاة للإسلام .

وعن النبي ﷺ قال : " من حمل علينا السلاح فليس منا " (متفق عليه)

وحرم الله تعالى قتل النفس وجعل جزاء المنتحر الخلود في النار .

{ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً } (النساء :٢٩)

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبد " (متفق عليه)

وقال ﷺ " من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة " (متفق عليه)

وقال رسول اللّه ﷺ : "كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فما رقأ الدم حتى مات، قال اللّه عزَّ وجلّ: عبدي بادرني بنفسه حرمت عليه الجنة " (متفق عليه)

القصاص في الإسلام

وجعل الله تعالى القصاص شريعة للناس فالنفس بالنفس ، والعين بالعين ...

{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (المائدة : ٤٥) .

فمن قتل يقتل ولا يقتل أحد سواه ، رداً على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يَقْتُل، وتقتل في مقابلة الواحد مائة، افتخاراً واستظهاراً بالجاه والمقدرة،

فأمر اللّه سبحانه بالعدل والمساواة، وذلك بأن يُقْتَل من قَتَلَ، فتفقــأ العــين بــالعين والأنف بالأنف والسن بالسن وتقتص الجراح بالجراح .

بل حرم الإسلام كل اعتداء على المسلم

قال رسول اللّه ﷺ : " المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى ها هنا بحسب امرئ مــن الــشر أن يحتقر أخاه المسلم " (رواه الترمذي)

فالمسلم لا يخون أحداً وخيانته لأخيه المسلم أشد ، وكذلك المسلم لا يكــذب أحــداً وكذبه على أخيه المسلم أشد ، والمسلم لا يعتدي على حرمة دم أحــد وحرمــة دم المسلم أشد ، ويكفيه من رذائل الأخلاق احتقاره أخيه المسلم .

فعن النبي ﷺ أنه قال: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر مــن هجر ما نهي اللَّه عنه " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

ويجعل النبي شتيمة المسلم خروج عن طاعة الله ، وقتاله كفر بالله ، ورفع السلاح في وجهه موجب للطرود من رحمة الله .

وقال رَسُولُ اللَّه ﷺ :" سِبابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُهُ كُفرٌ " (متفق عليه)

وقال ﷺ " من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كــان أخــاه لأبيــه وأمه" (متفق عليه)

أين هذا الهدى النبوي في حياة الناس ؟

إن المسلمين في عالم اليوم لَهُم أكثر شعوب الأرض ظلماً بعضهم البعض ،ومكراً بعضهم ببعض ، واستغلالاً بعضهم البعض ، وسباباً بعضهم البعض ، وإن المــسلم ليتعرض في اليوم الواحد لعشرات الإيذاءات من إخوانه المسلمين بدأً من خروجــه من بيته إلى عودته إليه ، إذ يؤذيه زحام المواصلات ، ودخان السجائر فيها وسباب الركاب ، يؤذيه ظلم كبار المسئولين وإهمال صغارهم ، يؤذيه فوضــى المــرور ، وقذارة الشوارع ، وضجيج مكبرات الــصوت وآلات التنبيــه ، يؤذيــه الرشــاوى والمحسوبية والواسطة في التعيين فــي الوظــائف المهمــة ، وقــصر العــلاوات والترقيات على المحاسيب والمنافقين ، يؤذيه اختلال المــوازين ، وجــشع التجــار والبائعين ، يؤذيه عرى النساء وفساد الشباب .

أنواع النفس

النفس الأمارة بالسوء

وهي النفس المجبولة على الشهوات المهلكة والأهواء المضلة .

{ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّـي إِنَّ رَبِّـي غَفُـورٌ رَّحِيمٌ} (يوسف : ٣٥)

فهي التي تحرِّض صاحبها على المعاصي والآثام وتحضه على البغي والظلم .

{ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّـاسِ رَسُولاً وَكَفَي بِاللّهِ شَهِيدًا } (النساء : ٧٩)

وقد تحضه على ارتكاب الجرائم والقتل وسفك الدماء بغير الحق .

{ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

ويجب على المسلم أن يقهر نفسه الأمارة بالسوء ويلزمها قبول ما جاء به الشرع، وينهاها عن اتباع الهوى حتى تكون الجنة مأواه .
{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هي الْمَأْوَى } (النازعات : ٤١- ٤٢)

النفس اللوامة

وهي نفس المؤمن تلومه على ما قد يقع فيه من أخطاء " كـل بنـي آدم خطـاء، وخير الخطائين التوابون " (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والدارمى)
كما تلومه علي عدم استكثاره من الخير .
{ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } (القيامة : ٢)
قال مجاهد: " هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه ".

النفس المطمئنة

وهي النفس الذاكرة لله دائما ، والنفس المطمئنة تعبد الله كأنها تراه وهذه المنزلـة هي أسمى درجات الإيمان فطمأنينة القلوب وسكينتها منزلة أعلى من منزلة الإيمان { هُوَ الذي أَنزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ } (الفتح : ٤)

ولن يصل إليها المؤمن إلا بذكر الله تعالى الدائم واعتياده المساجد ومدارسته لكتاب الله تعالى{ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد : ٢٨)

ويقول النبي ﷺ : " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " (رواه مسلم وأصحاب السنن)

لذا استحقت هذه النفس المطمئنة لطاعة الله وذكره أن تؤمّن يوم الفزع الأكبر والنجاة من عذاب القبر وتفوز بالفردوس الأعلى ورضوان من الله أكبر .

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } (الفجر : ٢٧- ٣٠) .

قال رسول الله ﷺ " إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا، وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟! قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " (متفق : عليه) .

اختبار الله النفس بالخير والشر

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان للنفوس ليميز الله الخبيث من الطيب ، و ابتلاء الله تعالى يكون بالشر كما يكون بالخير أيضاً .

{ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } (الأنبياء : ٣٥)

وبعض الناس يظن إنعام الله تعالى عليه بمتاع الدنيا دليل رضا الله عنه ، كما يظن أن تضيق الله تعالى عليه في الرزق إهانة له ، وينكر الله تعالى على هؤلاء فهمهم الخاطئ هذا فيقول تعالى : { فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } (الفجر:١٥- ١٧)

ويقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من اللّه إكرام له، وهو ليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان .

{ أَيحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ } (المؤمنون : ٥٥- ٥٦) .

وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق ، يعتقد أن ذلك من اللّه إهانة له، قال اللّه تعالى: {كلا} أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن اللّه تعالى يعطى المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة اللّه في كل من الحالين، إذا كان غنيّاً بأن يشكر اللّه على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .[١]

لا تزر وازرة وزر أخرى :

ومن رحمة الله أن تحاسب كل نفس بما قدمت ولا تأخذ بذنب غيرها .

{ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً } (البقرة : ٤٨) .

{ قُلْ أَغَيْرَ اللّه أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (الأنعام : ١٦٤)

ولقد ضل أقوام جعلوا المعصية إرثا يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وجعلوا معصية آدم ، أكله من الشجرة المحرمة ، خطيئة توارثها بنو آدم عن أبيهم وتدنسوا بها قرونا طوال ، وأخيراً قرر الرب تطهير البشرية من هذه الخطيئة ، التي ارتكبها أبوهم ولا ذنب لهم فيها ، فأنجب ابناً وعاش هذا الابن بين الناس ولاقى كل ألوان العذاب من أجل أن يكفر عن الناس خطيئة أبيهم آدم ! وتنتهي حياته مصلوباً مكللاً بالشوك . فمن آمن بهذه العقيدة غفر الرب له خطيئة آدم وأورثه ملكوت السموات !! ومن لم يؤمن بها يظل مدنسا بخطيئة أبيه آدم ومصيره النار وإن لم يفعل أية معصية ، وفعل كل طاعة !!

وهذا الاعتقاد باطل في الإسلام لأنه فضلاً عن تنزيه الله تعالى عن أن يكون له ولد سبحانه فإن الله تعالى لا يأخذ أحداً بذنب غيره .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٩٨ .

{ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } (يونس : ٥٢)

{ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى } (النجم : ٣٩ – ٤١)

فالله تعالى من أسمائه العدل فكيف يحاسب الإنسان على ذنب ارتكبه آدم من آلاف السنين ! { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } (الأنبياء : ٤٧)

{ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } (المدثر : ٣٨)

ثم ما هذا الذنب الخطير الذي يريدون أن يصموا به جميع البشر فضلاً عمن ارتكبه وهو آدم أبو البشر ؟

إن القصة غير ما توهموا فالله تعالى عندما خلق آدم ، لم يكن آدم لينزل إلى الأرض التي خلق ليكون خليفة فيها إلا بعد أن يتعلم بعض الدروس المهمة لحياته في الأرض " أخذ الله تعالى آدم وزجه إلى الجنة ولم تكن هذه الجنة التي أخذ الله تعالى إليها آدم وزوجه " جنة الآخرة " التي بها الثواب والعقاب بل كانت " مكاناً " يستر آدم وزوجه ليتعلما فيها ويتلقيا التدريب على الخلافة في الأرض " (١)

أول هذه الدروس درس معرفة أسماء الأشياء الموجودة في الأرض { وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (البقرة :٣١)

هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل ... كذلك لا بد من دروس في أوامر الله تعالى ونواهيه { وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ } (البقرة : ٣٥)

ودرس آخر في وجوب معصية الشيطان مهما وسوس بكلام ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى } (طه : ١٢٠)

ودرس في أن المعصية تكشف ستر الله تعالى وتفضح صاحبها { فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ } (طه : ١٢١)

---

(١) الشيخ محمد متولى الشعراوى " من فيض الرحمن في تربية الإنسان " ص ٦٠

ودرس في كيفية التوبة إلى الله من المعصية { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة : ٣٧) .

وهذه الكلمات هي { قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (الأعراف : ٢٣)

وكانت نتيجة الندم على المعصية والاستغفار والإصرار على عدم العودة أن تاب الله تعالى على آدم { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة : ٣٧) .

ولما أتم آدم دروسه أنزله الله تعالى إلى الأرض ليمارس المهمة التي خلقه الله تعالى من أجلها وهي عبادة الله تعالى وعمارة الكون { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١) .

إن آدم تعلم حقائق الأشياء وسنن الله تعالى التي تحكمها وتضبط خيرها وشرها وتنظم نفعها وضرها .. وليس المراد بالتعليم أنه سبحانه أعطاه درساً في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها مما يضع في يده أزمة قوانين هذا لكون الأرض إنما المراد أنه بث فيه أسرار الفهم والتميز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض .(١)

إن آدم عندما كان في الجنة لم يكن مكلفاً بعد لأنه كان يتعلم ، فخطؤه إنما كان قبل التكليف .

هذه حقيقة الخطيئة التي وصموا بها البشرية قروناً متطاولة ، ولم تغفر إلا بأن أنجب ربهم ابناً ليكفر بصلبه وعذابه خطيئة آدم !

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته وإنما الصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة ولله أن يفعل ما يشاء وقد قال { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (٢)

---

(١) البهي الخولى " آدم عليه السلام " ص ١١٠

(٢) تفسير القرطبي " ج ١ ص ٣٢١

ولقد أكد القرآن الكريم في كثير من الآيات على أن الإنسان مجزي بعمله ولا يحمل وزر غيره { مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } (الإسراء : ١٥)

{ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } (فاطر : ١٨) .

الإنسان مسير أم مخير ؟

لقد هيأ الله تعالى النفس طائعة لصاحبها : تقوى أو فجوراً

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس : ٧-٨) .

ومن دعائه ﷺ : " اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " (رواه مسلم والنسائي)

لذا لا عجب أن تتصف النفس بعدة صفات متناقضة فهي تتصف بالإيثار ، والتواضع، والكرم ، والعزة ، والإرادة ، والكرامة ، والرضا بالقليل ، وحب الخير للناس ... كما إنها أيضا تتصف بالأثرة ، و التكبر ، والبخل ، و الذلة ، والعجز ، والطمع ، والحسد ...

وهي مهيأة لفعل كل هذه الصفات حسب رغبة صاحبها فهي كالطفل الذي ينشأ على ما كان قد عوده أبوه .

قول أبى ذؤيب :

" والنَّفْسُ رَاغبةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعِ "

وكما قال الإمام البوصيري :

والنفسُ كالطفلِ إن ترضْعهُ شبَّ على حُبِّ الرضاعِ وإن تفطمْهُ ينفطمِ

ولقد ضل من ظن أن الإنسان مسير و لا حيلة فيما يفعل – من القدرية وغيرهم – فالإنسان مخير فيما كلفه الله تعالى به وما سيحاسبه عليه .

{ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (النحل : ٩٠) .

فالإنسان مخير في إقامة العدل وفعل الإحسان وصلة الأرحام وفعل كل طاعـــة ، كما أنه مخير في فعل الفحشاء والمنكر والبغي وفعل كل معصية .

{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

(الأنعام : ١٥١)

فالإنســان مخــير في الإيمــان بالله أو الشــرك به ومخــير في بر الوالدين أو عقوقهما ومخير في قتل النفس بالحق وبغير الحق ومخيــر فــي فعــل الفــواحش واجتنابها ... وعلى الجمــلة مخير في فعل أو ترك كل ما أمر الله تعــالى أو نهي عنه . وهذه الأوامر والنواهي هي مناط التكليف وعليها الجزاء والحساب .

أما ما لا اختيار للإنسان فيه فلا يحاسب عليه فلا حساب على المــيلاد والمــوت، ولا الجنس والنوع ، ولا الشكل واللون .

إنما الحساب على ما للإنسان فيه اختيار كالأيمان والكفر إن بلغته رسالة نبي وإن لم تبلغه رسالة نبي كأهل الفترة فلا عذاب لهم { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}

(الإسراء : ١٥)

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }

(يونس : ٤٧)

والحساب إنما يكون على أوامر الله تعالى ونواهيه .

{ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِــدِينَ فِيهَــا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْــدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً {١٢٢} لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْــلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِــدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَــصِيراً {١٢٣} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَــــئِكَ يَــدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } (النساء : ١٢١- ١٢٤)

ومن عدل الله تعالى أنه لم يسو بين من آمنوا و عملوا الصالحات وبين من كفروا واجترحوا السيئات .

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّــذِينَ آمَنُــواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَــانُواْ يَكْفُرُونَ } (يونس : ٤)

مفهوم الشفاعة :

لا يقبل من الكافر ولا ممن غضب الله عليه شفاعة ولا فداء .

{ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ } (غافر : ١٨)

فالذين ظلموا أنفسهم فارتكبوا المعاصي والآثام وخالفوا شريعة الله فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ولن يسمع فيهم شفاعة ولا يقبل منهم فداء حتى يأخذوا جزاءهم .

{ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } (البقرة : ٤٨) .

{ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } (المدثر : ٤٨)

فلا شفاعة فيمن اتخذ دينه لهواً ولعباً وغرته الحياة الدنيا ونسي ذكر الله .
{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}
(الأنعام : ٧٠)

{ اللَّهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } (السجدة : ٤)

حتى إذا أراد الله تعالى رحمة من أراد من أهل النّار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السّجود ، فقد حرّم الله على النار أن تأكل أثر السّجود ، فيخرجون من النّار وقد احترقوا فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون .

وجاء في الحديث الصحيح " أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون؛ ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر (جماعات)، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل "
(رواه مسلم وأحمد)

وعلى فرض أن هذا العاصي كان معه ما في الأرض جميعاً وأراد أن يفدى نفسه به من عذاب الله فلن يقبل منه .

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } (يونس : ٥٤)

فالشفاعة يوم القيامة لمن يستحقون الشفاعة من أهل الخلاص وهي مقيدة بأمرين :

أولاً : إذن الله تعالى للشافع بأن يشفع لقوله تعالى :

{ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } (البقرة : ٢٥٥)

{ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } (سبأ : ٢٣)

{ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً } (طه :١٠٩)

{ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (يونس : ٣)

ثانياً : رضا الله تعالى عن المشفوع له لقوله تعالى :

{ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } (الأنبياء : ٢٨)

أما من غضب الله عليهم كالكفار ، ومرتكبي الكبائر المصرِّين عليها وماتوا دون توبة نصوحا من جميع الأمم فلا شفاعة تمنعهم من دخول النار ولقد توعدهم الله تعالى بها لما ارتكبوا من كبائر الذنوب وبعد أن يأخذ عصاة الموحدين جزاءهم يستشفع الله فيهم من ارتضى من عباده الصالحين وعلى رأسهم خير المرسلين فيدخلون الجنة ، أما الكفار والمشركين فخالدون مخلدون في النار ولن تنفعهم شفاعة الشافعين .

نقول هذا لأن كثيراً من المسلمين فهم الشفاعة خطأ فظن أنه مادام من أمة محمد فإنه حتماً سيدخل الجنة ولن يعرض على النار ولن يدخلها وإن قتل وزنا وسرق وارتكب كبائر الإثم والفواحش بفضل شفاعة النبي لن يدخل مسلم النار " فأمة محمد بخير " !

والآيات القرآنية شديدة الوضوح في دخول الكفار والمجرمين وأهل الكبائر النار من المسلمين أو من غيرهم ما لم يتوبوا توبة نصوحاً .

{ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } (مريم : ٨٦-٨٧) .

وإلا ما قيمة أوامر الله تعالى ونواهيه إن كان كل المسلمين ، برهم وفاجرهم ، سيدخلون الجنة ولن يمسهم عذاب من النار! وأين عدل الله تعالى إن كان جميع المسلمين ، برهم وفاجرهم ، ينجون من عذاب الله ، فلمن يكون العذاب إذن للكفار والمشركين فقط ؟!!

وماذا يقولون في قوله تعالى { إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا } (النساء : ٣١)

فما حكم من لم يجتنب كبائر ما نهي الله تعالى عنه ؟

هل سينجى من النار ويدخل الجنة أيضاً ؟!

وماذا يقولون في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } (الشورى : ٣٦- ٣٩)

وماذا يقولون في قوله تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } (النجم : ٣١- ٣٢)

الحقيقة أن من ذهل عن آي الذكر الحكيم واكتفي بالمرويات دون فقه صحيح وعقل صريح فلن يصح له دين ولن يصح له عمل ويصير كالحمار يحمل أسفارًا .

إن كثيراً ممن يقرءون أحاديث الشفاعة ، أو تقرأ عليهم ، دون فهم صحيح لها في ضوء الهدى القرآني والهدى النبوي يسيء فهم أحاديث الشفاعة إذ لابد من ضم الأحاديث بعضها إلى بعض والآيات الكريمة حتى يصح الفهم واستنباط الحكم الصحيح .

فكما بينا أن الله تعالى قد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين اجتنبوا كبائر الإثم والفواحش بأن يتجاوز عن صغائر ذنوبهم ويدخلهم الجنة ، أما أهل الكبائر الذين عصوا الله والرسول ﷺ فليس لهم إلا النار سواء أكانوا من أمة محمد أو من أمة غيره من الأنبياء صلى الله عليهم جميعا .

{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (النساء : ١٤)

{ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } (النساء : ١١٥) .

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } (الرعد : ١٨) .

إن الفهم المغلوط للشفاعة ليجرأ الناس على ارتكاب المعاصي والآثام ويغريهم بالفحش في القول والعمل .

فإذا جئنا إلى الأحاديث الصحيحة فهي ناطقة بما قرره القرآن الكريم ولا تخالفه وهي ناطقة وواضحة ببطلان هذا الفهم السقيم للشفاعة .

قال رسول الله ﷺ " إني فرطكم على الحوض من مر على شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول إنهم مني فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ؟ فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدى (متفق عليه)..(سحقاً سحقاً) معناه : بعداً بعداً . والمكان السحيق البعيد. ونصب على تقدير ألزمهم الله سحقاً أو سحقهم سحقاً .

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِى بَكْرٍ: قَالَ رَسُولُ ﷺ : "إِنِّى عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَى مِنْكُمْ. وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِى. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّى وَمِنْ أُمَّتِى. فَيُقَالُ: أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ " (رواه مسلم) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة وصحيحة .

أما حديث " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (الترمذي وأبو داود وغيرهما) .

وحديث "إني ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة "

(رواه الطبراني في الأوسط)

فهذان الحديثان وما في معناهما محمولان على : توبة مرتكب الكبائر عنها في الدنيا ، أو دخولهم النار وقضاء أجلهم فيها ثم يشفع النبي لهم فيخرجون من النار بإذن الله تعالى .

تأمل معي هذا الحديث وهو في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ قال "إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم وذكر الحديث وقال فأقول:

يا رب، أمتي أمتي، فقال: انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فافعل ثم أرجع إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قبله أدنى وأدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، سل تعطه واشفع تشفع فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي، لأخرجن من قال: لا إله إلا الله " (متفق عليه)

وهذا الحديث يبين أن الشفاعة التي هي لأهل الكبائر تكون بعد دخولهم النار لا قبل دخولهم فإن الله تعالى في كل مرة يقول للنبي فأخرجه منها أو أخرجه من النار فيخرج من النار بعد قضاء أجلهم فيها ما شاء الله تعالى ، ويكون الخروج على حسب المعاصي فمن قلت معاصيه خرج أولاً ثم الأكثر فالأكثر الفرق بين خروج كل جماعة كبير جداً بمقاييس الدنيا فلا يستهين الواحد بعذاب الله تعالى ولو لمدة قصيرة في النار فإن اليوم فيها بخمسين ألف سنة { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } (المعرج : ٤)

ونختم حديثنا عن الشفاعة بما قاله العلامة ابن القيم : " فقد تضمنت هذه الأحاديث خمسة أنواع من الشفاعة .

أحدها: الشفاعة العامة التي يرغب فيها الناس إلى الأنبياء، نبيًا بعد نبي، حتى يريحهم الله من مقامهم.

النوع الثاني: الشفاعة في فتح الجنة لأهلها.

النوع الثالث: الشفاعة في دخول من لا حساب عليهم الجنة.

النوع الرابع: الشفاعة في إخراج قوم من أهل التوحيد من النار.

النوع الخامس: في تخفيف العذاب عن بعض أهل النار.

ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس.

أحدهما: في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها. وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه.

وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول، فلا يدخلون. فلم أظفر فيه بنص.

والنوع الثاني: شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب، ورفعة الدرجات. وهذا قد يستدل عليه بدعاء النبي ﷺ لأبى سلمة، وقوله " اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته في المهديين." وقوله في حديث أبى موسى " اللهم اغفر لعبيد أبى عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك."

وفي قوله في حديث أبى هريرة " أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله" سر من أسرار التوحيد. وهو أن الشفاعة إنما تنال بتجريد التوحيد، فمن كان أكمل توحيداً كان أحرى بالشفاعة. لا أنها تنال بالشرك بالشفيع. كما عليه أكثر المشركين وبالله التوفيق "[1]

فجزاء الله عدل وقضاؤه سبحانه إنصاف فكيف يتصور إنسان مؤمن بالله العادل المقسط أن الله تعالى يجبر بعض الناس على الإيمان والطاعة ، ويجبر آخرين على الكفر والمعصية فيدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار ، أو يسوى بين المترفع عن الصغائر ومرتكب الكبائر في دخول الجنة والنجاة من النار !!

هذا مستحيل في حق الله تعالى القائل :

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } (الأنبياء : ٤٧) .

وهناك عشرات الآيات ينفي فيها الله تعالى الظلم عن نفسه .

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } (هود : ١١١)

---

(١) ابن القيم " تهذيب سنن أبى داود " باب الشفاعة .

إذن الإنسان مخير فيما سيحاسبه الله تعالى عليه ومما سيحاسبه الله تعـالى عليـه تزكية نفسه من فجورها من : الطمع ، والكبر ، والحسد ، والجبن ، والبخل ...

هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

والإجابة بالطبع نعم في وسعه و إلا ما كلفه الله تعالى بهذا فالله تعـالى لا يكلـف بمستحيل إنما يكون التكليف في إطار الوسع و المستطاع .

{ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } (البقرة : ٢٨٦)

فباستطاعة الإنسان أن يزكى نفسه من شرورها وبمقـدوره أن يحليهـا بمكـارم الأخلاق فإن فعل هذا فقد أفلح .

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَـدْ خَـابَ مَـن دَسَّاهَا} (الشمس : ٧-١٠) .

أي أفلح وفاز من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفـسه في المعاصي .

وكثير من الناس من يعتذر عن سوء خلقه بسـوء طبعه وأنه هكذا خلقـه الله ولا حيلة له في سوء خلقه وكأن سوء الخلق غريزة تتأبى على المجاهـدة والتغييـر ، والحقيقة أنه إذا قوى الإيمان في القلب سهل على الإنسان تزكية طبعه الـذي جبـل عليه ومجاهدة نفسه الأمارة بالسـوء ، أما من سـاء خلقه فاعلم أنه لا إيمان لـه ، فبقدر الإيمان يكون حسن الخلق وفي ذلك يقول النبي : " إن أكمل المؤمنين إيمانـا أحسنهم خلقا وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة " حديث صـحيح (رواه البزار) " فكمال الإيمان يوجب حسن الخلق .

ولو كان حسن الخلق غريزة لا اكتساب فيها ما أمر الرسول ﷺ به فعن أبـى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخـالق الناس بخلق حسن) (رواه أحمد والترمذى والدارمى) .

ولو كان سوء الخلق طبع لا تفلح مجاهدة معه ما أبغض الله تعالى الفاحش البذيء.

فعن أبى الدرداء أن النبي ﷺ قال: " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامـة من خلق حسن وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء " (رواه الترمذي وابن حبان)

ولو كان حسن الخلق طبع لا فضل لصاحبه في جلبه ، وسوء الخلق طبع لا حيلة لصاحبة في دفعه لكان دخول صاحب الخلق الرفيع الجنة ودخول صاحب الخلق الوضيع النار لو كان ذلك كذلك لكان ظلما وحاشا لله أن يظلم .

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء : ٤٠)

قال القرطبي في " المفهم " الخُلُق جبلة في نوع الإنسان ، وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها إن كان محموداً وإلا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفا فيرتاض صاحبه حتى يقوى." (١)

والنفس الإنسانية ، كما بينا ، تتصف بعدة صفات مختلفة والناس متفاوتون في حظهم من صفات النفس وهذا ما يجعل الناس مختلفين ولا يوجد اثنان متماثلين لا في الخلْق ولا في الخُلق – تبارك الله الخلاق العظيم – فلقد خلق الله تعالى الناس مختلفين في الأخلاق و السلوك من أجل إعمار الأرض حتى يكمل بعضهم بعض ويحتاج بعضهم لبعض .

{ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } (هود : ١١٨– ١١٩)

قال الحسن ومقاتل، وعطاء : الإشارة للاختلاف أي وللاختلاف خُلُقهم .

وهذا الاختلاف سنة كونية فقد خلق الله تعالى جميع المخلوقات مختلفة فمن حيث الجنس : إنس وجن وملائكة وهناك حيوانات ونباتات وجماد ، ومن حيث النوع هناك ذكر وأنثى ، أو سالب وموجب في كل جنس ، وهناك اختلاف في كل نوع فالإنس مختلفون في الأعراق واللغات والألوان ...

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ } (الروم : ٢٢) .

والناس وإن اتحدت أعراقهم ولغاتهم وألونهم فهم يختلفون في عاداتهم وإن اتحدت عاداتهم فهم يختلفون في أخلاقهم وإن تقاربت أخلاقهم فهم يختلفون في شخصياتهم

---

(١) نقلاً عن ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٠ ص ٤٥٩

فكما أن لكل إنسان بصمة أصابع وبصمة صوت ، وبصمة حمض نووى ، وبصمة شكل وملامح ... فإن له بصمة شخصية وأخلاقية أيضاً .

وكذلك كل جنس من الأجناس يتفرع إلى أنواع وكل نوع يتفرع إلى أشكال وأنوع وكهذا دواليك .

تأمل هذه الآيات البينات التي يوضح فيه البديع جل وعلا دلائل قدرتـه وعظـيم آلائه ونعمه تجد الاختلاف والتنوع يسم كل مخلوقاته جل وعلا ، فهنـاك المـساء والصباح ، السموات والأرض ، والعطشى والظهيرة ، الحـي والميـت ، الـذكر والأنثى، والليل والنهار ، والخوف والطمع ...

ويبن الله تعالى أنه لولا هذا الاختلاف في البشر لفسدت الأرض ، كما أنـه لـولا هذا الاختلاف في بقية المخلوقات لفسـدت الأرض أيضاً فلا يصلح نهار بلا ليـل ولا أرض بلا سماء ولا ذكر بلا أنثى ... ولولا اختلاف أخـلاق النـاس وتنـوع ميولهم ورغباتهم لفسدت الأرض كذلك .

{وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَـى الْعَالَمِينَ } (البقرة : ٢٥١) .

{ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَـلَوَاتٌ وَمَـسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } (الحج : ٤٠) .

ولكن لابد من تنظيم لهذه الأخلاق المتباينة وبيان المحمود منها والمذموم وبيـان حدود كل خلق حتى لا تسود الفوضى ويعم الخراب ويصبح هذا الاختلاف المفيـد لعمارة الأرض تناقضاً يدمر الحياة ويفسدها لذا أنزل الله تعالى الـشرائع والأديـان لتهذيب النفوس وتقويم المعوج منها وهذا هو المقصود من" الـدفع " فـي الآيتـين السابقتين وهذا الرأي هو ما حسنه الإمام القرطبي حيث يقول : " قيل : هذا الـدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع ، ولولا ذلـك لتـسالب النـاس وتنـاهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك فتأمله " [١]

ويؤكد ذلك علماء النفس حيث يقولون إن " الفرد يتعلم خلال عملية النمو أن يسلك ويتصرف وفقا لما يتوقعه منه المجتمع ويقبل الفرد قيم المجتمـع و معـاييره دون

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٦١

تفكير كثير ودون وعى بان هذه المعايير تختلف عن مجتمع آخر فإذا كان المجتمع الذي نعيش فيه يقيم النظافة والسرعة والعمل الجاد فإننا نحاول أيضا أن نتحلى بهذه الخصال ويصبح الأفراد الذين يتحلون بها موضع تقديرنا وإعجابنا ... ولعل هذا يوحى بوجود طابع ميز للشخصية يميز شخصيات الأفراد في كل مجتمع من المجتمعات فنجد أن الطابع الغالب للشخصية في أحد المجتمعات هو العدوانية بينما نجد أن الطابع الغالب في مجتمع آخر برود الأعصاب وفي مجتمع ثالث السلبية ، ويتمشى ذلك مع الأفكار الشائعة عن الطابع القومي فيقال فمثلاً أن الفرنسيين يختلفون عن الإنجليز وهؤلاء يختلفون عن الصينيين ..." (١)

ومهمة الأديان والشرائع أن تجعل صفات النفس في حالة توازن ووسطية حتى تؤدى دورها المنوط بها في عبادة الله وعمارة الأرض فمثلا الإنفاق إن زاد عن حد الاعتدال صار إسرافا وتبذيرا وإن قل كان بخلا وتقتيرا { وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } (الفرقان : ٦٧)

والحمية إن زادت عن حد الاعتدال صارت اندفاعا و تهورا وإن قلت كانت جبنا وضعفا ... ، يقول الله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } (البقرة : ١٤٣)

فالفضيلة وسط بين رذيلتين . قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين.

وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ولكي يصل الإنسان إلى حسن الخلق الذي جاء الدين به فعليه أن يجاهد نفسه ولا يستسلم لصفات نفسه الدنيئة وبقدر مجاهدته للتخلي عن فجور نفسه ومجاهدته للتحلي بالتقوى يكون الأجر والثواب والمنزلة الرفيعة والدرجات ، وبقدر ما يستسلم الإنسان لرغبات نفسه وشهواتها يكون الجزاء والعقاب والمنزلة الوضيعة والدركات .

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لنبيه الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول حالاته ﷺ فقام بواجب ذلك من مجاهدة النفس ، ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه والمواساة به

---

(١) د. محمد فرغلى فراج " مدخل إلى علم النفس " ص ٨٤ دار الثقافة للنشر والتوزيع

والإيثار مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله، وهي صورة الكفاف التي مات عليها ، وهي حالة سليمة من الغنى المغطى والفقر المؤلم، وأيضاً فصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا ؛ بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة . (١)

ويجعل النبي صدقة الشحيح الذي يخشى الفقر ويرجو الغنى أعظم أجراً من صدقة الكريم الذي لا يخشى الفقر .

فعن أبى هريرة قال : قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان . " (متفق عليه)

ويجعل الله تعالى من صفات الإبرار أنهم يطعمون الطعام للمساكين والفقراء والأسرى على شدة حبهم له وحاجتهم إليه وما فعلوا هذا وخالفوا هواهم من أجل ثناء أو شكر أو مصلحة يرجونها من الناس إنما فعلوه لوجه الله تعالى .

وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا } (الإنسان : ٨-٩)

بل يجعل الله تعالى شرط نوال الإنسان البر هو الإنفاق مما يحب ويحرص عليه .

وقال تعالى: { لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } (آل عمران : ٩٢)

ويمتدح الله تعالى الأنصار الذي آووا ونصروا وأجاروا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم .

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الحشر: ٩)

أهناك خلق أرفع من هذا ؟ أهناك خلق أرفع من أن تؤثر أخاك على نفسك فيما أنت محتاج إليه ؟!

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١١ ص ٢٧٤ .

ولا توجد نفس بشرية إلا وقد خلقها الله تعالى صالحة لفعل الخير والشر .

وعلى المؤمن الذي ابتلى بصفة ذميمة أن يجاهد هذه الصفة ولا يستسلم لها فيجاهد الجبن بالجهاد في سبيل الله وقول الحق ، ويجاهد البخل بالإكثار من الصدقات ، والأنانية بتقديم يد المساعدة لغيره ففي مجاهدة صفات النفس الذميمة يكون الفلاح والفوز بالجنة .

{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } (الشمس : ٩) .

ولن يتغلب الإنسان على فجور نفسه إلا بالإيمان القوى بالله والاعتصام بحبله المتين ، ومخالطة أهل التقوى والصلاح ، ومعرفة أن الدين حسن الخلق ، وأن سوء الخلق طريق جهنم وإن صام وصلى ، أما من استسلم لفجور نفسه ولم يجاهد صفات الشر فيها واتبع هواها، وخالط أهل الفسق والفجور فهذا هو الخاسر الخائب.

{ وَقَدْ خاب من دسَّاها } (الشمس : ١٠)

ويجب أن يكون الإنسان متيقظاً لنفسه في كل وقت وحين ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات .

المقصود بجهاد النفس ؟ وكيفيته ؟

المقصود بجهاد النفس ، جهاد الصفات المذمومة في النفس الإنسانية ولا يقصد به المعنى العام للنفس الذي يعنى ذات الإنسان التي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها والتي تنقسم إلى : مطمئنة ، ولوامة ، وأمارة .

يقول النبي ﷺ : " وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات اللّه عز وجل" حديث صحيح (رواه الطبرانى)

إن مجاهدة النفس أفضل من جهاد الكفار والمنافقين والفجار لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمرة مجاهدة النفس الهداية { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } (العنكبوت : ٦٩) وكفي به فضلاً وقد أمر اللّه بمجاهدة النفس فقال : { وَجَاهِدُوا في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } (الحج : ٧٨) [1]

---

(1) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٦٣

أما عن كيفية مجاهدة النفس فيكون بإلزامها ما يخالف هواها فإن كانت مُحبة للمال فأكثر من الصدقة ، وإن كانت مُحبة للكبر فخالط الفقراء والمساكين ...

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ليْس الشديد بالصُّرعة إنّما الشّديدُ الذي يملك نفسه عِند الغَضَبِ" (متفق عليه)

المراد بالشديد هنا: شدّ القوّة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإمساكها عند الشر ومنازعتها للجوارح للانتقام ممن أغضبها، فإن النفس في حكم الأعداء الكثيرين، وغلبتها عما تشتهيه في حكم من هو شديد القوّة في غلبة الجماعة الكثيرين فيما يريدونه منه.

وفيه إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدوّ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوّة. وحقيقة الغضب حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام. والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت .[١]

ويضرب رسول الله ﷺ لنا الأمثلة في كيفية مغالبة الطبع السيئ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " (رواه أحمد)

وعن ربيعة بن كعب قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة . قال أو غير ذلك ؟ . قلت هو ذاك . قال فأعني على نفسك بكثرة السجود ." (رواه مسلم)

" فأعنّي على نفسك " أي كن لي عوناً في إصلاح نفسك وجعلها طاهرة مستحقة لما تطلب فإني أطلب إصلاح نفسك من الله تعالى وأطلب منك أيضا إصلاحها بكثرة السجود لله فإن السجود كاسر للنفس ومذل لها وأي نفس انكسرت وذلت استحقت الرحمة والله تعالى .

وهناك قصة جميلة عن الصحابي الجليل ثابت بن قيس فقد كان هذا الصحابي مجبولا على بعض الصفات الذميمة مثل جهر الصوت بحضرة النبي ، وحب السيادة على قومه ، وحب الاختيال والفخر ، وكان الرجل مؤمناً حقاً فظل يجاهد

---

(١) الصنعاني' سبل السلام ' ج ٤ ص ١٨٣ .

هذه الصفات حتى تخلص منها وبشره النبي بالجنة وأكرمه الله تعالى فاستشهد في معركة اليمامة وإليك قصته .

قال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي } (الحجرات : ٢) دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره ، فقال : أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال ﷺ : " لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" . قال: ثم أنزل الله: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } (لقمان: ١٨) فأغلق بابه وطفق يبكي، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: " لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ". قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا ، " (رواه الطبراني في الكبير) (١)

أرأيتم كيف أن الصحابي الجليل ثابت ابن قيس قد جاهد نفسه ولم يستسلم لصفاتها الذميمة فعاش حميدا ومات شهيدا ؟

الدين حسن الخلق

ولقد مدح الله تعالى نبيهﷺ فقال :{ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (القلم : ٤)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً " (رواه البخاري ومسلم والترمذي)

إن حسن الخلق اقرب الناس لمجلس النبي ﷺ في الجنة لأنه كان أقربهم لخلقه ﷺ في الدنيا ، أما سيء الخلق فهو أبعد الناس من النبي في الآخرة .
" إن أحبكم إلى وأقربكم منى في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى في الآخرة أسوؤكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون "

(رواه أحمد والطبراني)

---

(١) ورواه القرطبي في تفسيره ج ١٦ ص ٣٠٥ .

"الثرثارون": الذين يكثرون الكلام تكلفا . "المتفيقهون": الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم ويتفصحون فيه (وانتبه لصيغة التصغير، فهم يتفعلون الفقه والفهم وليسوا من اهله . "المتشدقون" : المتوسعين في الكلام من غير احتياط وتحرز .

قال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه. قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والبشر والتودد لهم والإشفاق عليهم واحتمالهم والحلم عنهم والصبر عليهم في المكاره وترك الكبر والاستطالة عليهم ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة. (١)

وكثيرة تلك الأحاديث في حسن الخلق منها : " قالوا: يا رسول الله من أحب عباد الله إلى الله ؟ قال: أحسنهم خلقا " (رواه الطبراني وابن حبان)

يا رسول الله فما خير ما أعطى الإنسان قال خلق حسن "(وروواه الحاكم والبيهقى)

وقال ﷺ " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن فإن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء . " حديث صحيح (رواه الترمذي)

إن حسن الخلق هو الفارق بين التدين الحقيقي والزائف فإذا رأيت رجلا كثير الصلاة كثير الصيام كثير الكلام في الدين ومع ذلك سيء الخلق مع أهله وجيرانه ومع رؤسائه ومرءوسيه في العمل فاعلم أن تدينه زائف وهو مردود عليه .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال : " هي في النار " قال : يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها قال : " هي في الجنة " (رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم) . " الأثوار من الأقط " : قطع الجبن .

فليس مقياس التدين لحى طويلة ، ولا جلابيب بيضاء قصيرة ، إنما التدين الصحيح حسن الخلق .

فكثير ممن يتظاهرون بالتدين لا يسلم من أذاهم كل من خالطهم وتعامل معهم فهم بلاء في أي مكان حلوا به ، فإن أحدهم ليرمى أبويه بالفسق لأنهما يشاهدان

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ٧٨

التلفاز. ويرمى أخته بالفجور لأنها لا تلبس النقاب ، ويرمى أخيه بمعاداة السنة لأنه يلبس ملابس الفرنجة ولا يلبس الجلباب ، ويرمى جاره بالخروج على الدين لأنه لا يرسل لحيته ، ويرمى رئيس دولته بالكفر لأنه لا يحكم بشرع الله ، كما يفهمه هو ، ويرمى المجتمع بالكفر لأنه قبلوا حكمه !!

وهكذا ما يحل صاحبنا في مكان إلا وأشعل المكان ناراً ، وأثار جدالاً ، ومزق جمعا . مما يجعل الناس يتحاشونه ويتجنبون الكلام معه أو يتظاهرون بالاستجابة لما يقول : اتقاء شره ومنعا لجداله .

عن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: " بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة ". فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : " يا عائشة، متى عهدتني فحاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره" (متفق عليه)

وأنا أعرف كثيراً من الناس يهشون لمثل هؤلاء المتنطعين اتقاء لشرهم ، ومنعا لإيذائهم بالقول أو الفعل .

***

الفصل السادس

الإسلام والجسد

قلنا أن الجسد هو البدن وما يحتوى عليه من الروح والنفس والعقل والقلب والحواس الخمسة وسائر مكونات الإنسان وله حاجات فسيولوجية أساسية لازمة لحفظ الحياة كـ (الأكل ، والشرب ، والجنس ، والنوم ، والراحة ، والعمل ...)

ولقد خلق الله تعالى الإنسان فأحسن خلقه وصوره فأحسن صورته .

{ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ } (غافر : ٦٤)

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }(التين : ٤)

والحديث عن إعجاز الله تعالى في خلق الإنسان يطول ولقد هممت في بيان شيء منه لكنى تحيرت وطالت بى الحيرة بم أبدأ من الأعضاء وكلها بديعة وغاية في الإتقان ؟ وماذا أقول في كل عضو وكل عضو يحتاج كتاباً مستقلاً لتفصيل القول فيه ؟ ووجدت نفسى عاجزاً حيال إعجاز الله تعالى في خلق الإنسان.

{ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (المؤمنون : ١٤)

فأرجأت هذا الأمر لعل الله تعالى يمن عليَّ بالوقت والجهد لكتابة مصنف في هذا الموضوع الجميل والذي بدأ المسلمون يلتفتون إليه في السنوات الأخيرة وهو موضوع جد خطير لأنه أحد أهم الوسائل العصرية لتعريف الناس بقدرة الله تعالى في خلق الإنسان وإعجاز القرآن الكريم في بيان لمحات وإشارات هذا الإعجاز في خلق الإنسان أما خلق السموات والأرض فهو أكبر والإعجاز فيه أبهر .

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } (غافر : ٥٧)

حفاظ الإسلام على الجسد

ولقد أمر الله تعالى بالمحافظة على الجسد لأن بصحته تصح بقية المكونات فهـو الذي يربط بينها جميعاً وإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى وهو الذي يمد بقية المكونات بما يحفظ عليها حياتها وما يمكنها من القيام بدورها .

لذا لا عجب أن الإسلام حرص أشد الحرص على العناية بالجسم وأمر الإنسان بما يحفظ لهذا الجسم حياة سليمة صحية خالية من الأمراض .

ومما شرع الله تعالى لحفظ البدن :

أولاً : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

لم يكلف الله تعالى الإنسان بما لا يستطيع وبما ليس في وسعه أو ما يتنافي مع طبيعته .

" لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا } (البقرة : ٢٨٦)

فالله تعالى لم يكلف الإنسان إلا بما في مقدوره وبما يستطيع القيام به وحرم عليه التفرغ للعبادة والمبالغة فيها والرهبانية .

آخى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ قَالَتْ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمْ الآنَ قَالَ فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ . (رواه البخارى)

وأخرج البخارى عن أنس قال: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا

أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّـــه ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كذا وكذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَـــهُ لَكِنِّـــي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ."

عن سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ أَرَادَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ أَنْ يَتَبَتَّلَ فَنَهَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ أَجَازَ لَهُ ذَلِكَ لَاخْتَصَيْنَا. (رواه مسلم)

فالإسلام دين الفطرة وتشريعاته لا تجور عليها ولا تتناقض معها .

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } (الروم : ٣٠)

ثانيا : حرم الله تعالى على الإنسان الخبائث

لقد حرم الله تعالى على المسلم كل ما يضر الجسد أو يمرضه .

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْـرِ اللّـهِ بِـهِ وَالْمُنْخَنِقَـةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَـى النُّـصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَـلاَ تَخْـشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْـلاَمَ دِينـًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (المائدة : ٣)

كما حرم الله تعالى كل خبيث وأحل له كل طيب .

{ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِـي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف : ١٥٧)

فكل ما أحل اللّه تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والـدين ، وكـل مـا حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين .

أنواع النجاسات

حرَّم الإسلام كل أنواع النجاسات الظاهرة من بول وبراز ودم وكلـب وخنزيـر وأوساخ ، وأشهر النجاسات المغلظة وما توافقت على نجاستها الأدلة ، أى ورد في نجاستها نص لم يعارضه نص آخر وهى :

١- الخمر : وقـد ورد النص بنجاسـتها قال تعالى : { إِنَّمَا الْخَمْـرُ وَالْمَيْـسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (المائدة: ٩٠)

٢- الدم المسفوح من سـائر الحيوانات التي لها دم سائل ، قال تعالى : { قُـل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَى مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّـسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ }(الأنعام : ١٤٥)

٣- كل ما يخرج من جسم الإنسان وينقض الوضوء كالبول، والغـائط، والـدم، والصَّديد، والقيح، والمذى، والودى، والمنى، هو نجس. وبول الصغير كالكبير أكـل أو لم يأكل. أما البول فنجس، لحديث ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبـرين فقـال: "إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ومَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ وَأَمَّا هَـذَا فَكَـانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ " (متفق عليه)
وأما الغائط، فلما روى أنس بن مالك قال: " كان النبي ﷺ إِذَا تَبَرَّزَ لِحَاجَتِـهِ أَتَيْتُـهُ بِمَاءٍ فَيَغْسِلُ بِهِ " (رواه البخارى) . وأما الدم، فلما روت أسماء بنـت أبـى بكـر الصديق قالت: سألت رسول اللّه ﷺ عَنْ دَمِ الْحَيْضِ يَكُونُ فِي الثَّوْبِ قَالَ " اقْرُصِيهِ واغْسِلِيهِ وَصَلِّي فِيهِ " حديث صحيح (رواه النسائى وابن ماجه)
وأما المذى والودى، فعن ابن عباس قال: "المنى والمذى والودى. فالمنى منه الغسل ومن هذين الوضوء، يغسل ذكره ويتوضأ ". وأما المنى، فلما روى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت في المني: " كُنْتُ أَغْسِلُهُ مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَخْرُجُ إِلَى الصَّلاةِ وَأَثَرُ الْغَسْلِ فِي ثَوْبِهِ بُقَعُ الْمَاءِ " (متفق عليه)

٤- الخنزير نجس وكل ما يخرج منه من لعاب وغيره نجس، لقـوله تعالى :
{ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ } (الأنعام : ١٤٥)

٥- بول ما يؤكل لحمه من الحيوان، وروثه، ولعابه، كنجـو (بـراز) الكلـب ورجيع السباع وبول الفأرة كلها نجسة مطلقاً إذا حلت بالماء. ويعفي عن قليله فـي الثوب والطعام للضرورة .

٦- ميتة الحـيوان ذى الدم السـائل ، لقوله تعالى : {حرِّمت عليكـم الميتـة} (المائدة : ٣) والإنسان إذا مات فهو نجس، فإن كان الميت مسلماً إذا غُسِّل فطاهر .

٧- أما الجلد فهو نجس قبل الدبغ لحديث ابن عباس قال: سمعت رسول اللّـه ﷺ يقول: " إِذَا دُبِغَ الإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ " (رواه مسلم)

٨- روث وبعر ما يؤكل لحمه من الحيوان هو نجس نجاسة مغلظة ، لما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: " أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْغَائِطَ فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِثَلاثَةِ أَحْجَارٍ فَوَجَدْتُ حَجَرَيْنِ وَالْتَمَسْتُ الثَّالِثَ فَلَمْ أَجِدْهُ فَأَخَذْتُ رَوْثَةً فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَأَخَذَ الْحَجَرَيْنِ وَأَلْقَى الرَّوْثَةَ وَقَالَ هَذَا رِكْسٌ " (رواه البخاري)

ونشهد كل يوم الأمراض التي تنشر في الأمم التي لا تأخذ بهدى الإسلام في المأكل والمشرب والنظافة وحفظ الفرج كـ : الإيدز ، والزهري والسيلان ، والسرطان ، والالتهاب الرئوي الحاد المعروف باسم " سارس " والجمرة الخبيثة، وجنون البقر ، وأنفلونزا الطيور ... هذا بخلاف الأمراض النفسية والعصبية المنتشرة فيهم انتشار النار في الهشيم ، وكلها أمراض خطيرة فتاكة ناتجة عن استحلالهم للفروج ، وأكل الميتة ، وشرب الخمر ، وتربية الكلاب في البيوت ، وعدم الأخذ بأسباب النظافة الظاهرة والباطنة .

ثالثاً : شرع الله التداوي

ولقد علمنا النبي ﷺ أن نتداوى إذا ما مرضنا .

{ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (النحل : ٦٩)

في قوله تعالى: " فيه شفاء للناس" دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك وعن رسول الله ﷺ أنه قال: " لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

وعن أسامة بن شريك قال : " قَالَتْ الأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا نَتَدَاوَى قَالَ نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلا دَاءً وَاحِدًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ : الْهَرَمُ " (رواه أبو داود والترمذي)

رابعاً : أمر الله بالنظافة والجمال

أمر الله تعالى الإنسان بالنظافة وبالزينة في غير إسراف أو مباهاة .

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف : ٣١)

والإسلام دين الجمال والنظافة والأناقة في غير كبر أو إسراف .

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللّه التي أخْرَجَ لعبَاده وَالْطَّيِّبَاتِ منَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالصَةً يوْمَ الْقيَامَةِ } (الأعراف : ٣٢)

فحسن الهندام وحسن المظهر وجمال الهيئة ليس كبراً إن كان لا يقصد به احتقار الناس والتعالى عليهم .

قال : النبي ﷺ قال " لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِه مثْقَالُ ذَرَّةٍ منْ كبْرٍ، فقال رجلٌ: إن الرجلَ يُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً، قَالَ: إنَّ اللَّهَ جَميلٌ يُحبُّ الجَمالَ، الكبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " (رواه مسلم)

ومعنى بطر الحق: تسفيهه وإبطاله. وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم.

فالإسلام يفرض على المسلم قبل الشروع في الصلاة أن يكون طاهراً من الحدث الأكبر كالجنابة والحيض أو الأصغر الناقض للوضوء وجعل إزالة الحدث الأكبر تكون بالغسل الذي يجب فيه تعميم الجسد بالماء مع نية الغسل .

أما إزالة الحدث الأصغر فيكون بالوضوء ، كما يشترط لصحة الصلاة طهارة الثوب من النجاسة { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } (المدثر : ٤) . وكذلك طهارة المكان الذي سيصلى فيه .

كذلك يجب الطهارة من الحدثين عند لمس المصحف .

{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ في كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمينَ} (الواقعة : ٧٧- ٨٠)

كذلك عند الطواف بالكعبة .

لقد أهتم الإسلام ورسوله ﷺ بالنظافة أيما اهتمام والعجيب أن يأتى هذا الاهتمام الشديد بالنظافة في بيئة بدوية صحراوية عديمة الأنهار شحيحة المياه لدرجة أن كانت الحروب تقام بسبب المياه وكان المفترض والحالة هذه أن يكون موضوع النظافة ثانوياً لا يدخل في عبادة تكرر خمس مرات في اليوم والليلة كالصلاة .

وهذا ليس بمستبعد على الإسلام الذي كان ، كما بينا ، حريصاً على نظافة المسلم من الداخل من الكفر والحقد الحسد وسائر الأمراض الخلقية فـاهو يطهره من الخارج أيضاً فيفرض عليه الاغتسال من الجنابة والحيض والنفاس ويفرض عليه الوضوء قبل الصلاة ، كما أوجب عليه الاستنجاء من البراز والاستبراء من البول .

مرَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ بقبْرَيْن فقَالَ: " إنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَبْرِىءُ مِنْ بَوْلِه وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشى بِالنَّمِيمَةِ " (متفق عليه)
كما سن النبي تنظيف الأسنان بالسواك فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "وَلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي ، لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ " (متفق عليه)

وأمر النبي بأن ينظف الإنسان شعره ويعتنى به فعن أَبى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ " (رواه أبو داود)

أى فليزينه ولينظفه بالغسل والتدهين والترجيل ولا يتركه متفرقاً فإن النظافة وحسن المنظر محبوبان .

كما سن رسول الله ﷺ الطيب للرجال وحبب فيه " إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ " (رواه أحمد والنسائى والحاكم)
وعن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال : " الْفِطْرَةُ خَمْسٌ الْخِتَانُ وَالاسْتِحْدَادُ [١] وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَنَتْفُ الْآبَاطِ " (متفق عليه)

والشاهد أنه ﷺ كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل، وخشوع العبادة العظيمة ، عن مراعاة مصلحة بدنه ، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح، أو وسخ . [٢]
ومن هديه ﷺ عند العودة من السفر أن يتمهل حتى تتزين النساء لرجالهن ويتجملن لهن . فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ في غَزَاةٍ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ فَقَالَ : " أَمْهِلُوا حَتَّى نَدْخُلَ لَيْلا أَيْ عِشَاءً كَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ " (متفق عليه)

فالله تعالى جميل يحب الجمال وليس كل ما تهواه النفس يذم ، وليس كل ما يتزين به للناس يكره ، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يرى جميلاً . وذلك حظ للنفس لا يلام فيه. ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوى عمامته ويلبس بطانة

---

(١) والاستحداد: حلق شعر العانة .
(٢) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١ ص ١٩٩ .

الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج. وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم .

فالله تعالى كما يحب معالى الأخلاق ويكره رديئها يحب جمال المظهر ويكره قبحه .

قال ﷺ " إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها " حديث صحيح (رواه الطبرانى)

كما أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويكره التظاهر بالفقر .

" إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتباؤس " حديث صحيح (رواه البيهقى) . التباؤس : التظاهر بالفقر .

قال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله: وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه: أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة. والثانى: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه. والثالث: إظهار التزهد؛ وقد أمرنا بستره. والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة. ومن تشبه بقوم فهو منهم . (١)

وكان النبي ﷺ ينبه صحابته إلى ترجل شعرهم وغسل ملابسهم ، والاعتناء بنظافتهم الشخصية .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى رَجُلا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ فَقَالَ أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ وَرَأَى رَجُلاً آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ " حديث صحيح (رواه أبو داود)

ولقد شبه النبي ﷺ ثائر الشعر واللحية بالشيطان تنفيراً من مظهره وإرشاداً لوجوب الاعتناء بجمال مظهر المسلم وهيئتة .

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ اخْرُجْ كَأَنَّهُ يَعْنِي

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٩٧

إصلاح شعر رأسه ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله ﷺ أليس هذا خيرًا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان " (رواه مالك في الموطأ)

والحاصل إن الله جميل يحب الجمال فمن زعم أن رضاه في لبس الخلقان والمرقعات وما أفرط في الغلظ من الثياب فقد خالف ما أرشد إليه الكتاب والسنة .

ومع ذلك نجد بعض المسلمين من المتصوفة ومن غيرهم يرون في سوء المظهر تقوى وفي حسن الهيئة بطر وإن أحدهم ليطالعك بهيئة شيطان أشعث أغبر تزكم رائحة نتنه الأنوف وعندما تسأله أن يستحم وأن يلبس ما يستره يقول لك { وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ } (الأعراف : ٢٦) فيجمع بين قبح الهيئة والمظهر ، قبح الفهم والإدراك .

الإسلام والحواس .

لقد حدد الإسلام لكل جارحة المهمة المنوطة بها وحرم عليها كل ما يفسد هذه المهمة .

البصر :

فالعين هى عضو الإبصار والجارحة التي يرى بها الإنسان ، ولقد خلق الله تعالى العين لكى يبصر الإنسان بها الحياة من حوله فيصلحها ويعمرها ، ويتأمل بها بديع خلق الله تعالى ويكتشف بها سنن الله في خلقه ...

والقرآن الكريم يدعونا إلى النظر والتأمل في بديع خلق الله واستخلاص الحكمة والعبرة منها ، فهذه السماء التي تظلنا كم آية فيها وكم إعجاز ! والأرض التي تقلنا كيف زللها الله تعالى لتكون صالحة للحياة فقد جعل الله فيها الأنهار لنشرب منها ونسقى الزرع والحيوان ، والبحار والمحيطات لنأكل منه لحما طريًا ونستخرج منه اللؤلؤ .. كل هذا لنتمتع به ونشكر الخالق الوهاب .

{ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } (ق : ٦-١١)

إن صنعة الخلق مهما كانت متقنة لا بد لها أن تظهر فيها عيوب ، وأن تكون لهـا آثار سلبية مهما كانت مفيدة ونافعة ، أما خلق الخالق سبحانه فهو غاية التمام ونهاية الكمال وهو صالح على الدوام إلا إذا تدخل الإنسان فأفسده .

{ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } (الملك : ٣-٥)

فالله تعالى مبدع كل نافع وخالق كل مفيد وواهب كل الحياة ومقوماتها .

{ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (الأنعام : ٩٩)

ولقد أمر الله تعالى الإنسان أن يحفظ بصره من النظر إلى المحرمات ، وإلى التطلع إلى ما ليس لها .

{ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } (النور : ٣٠)

فالعين تزنى وزناها النظر كما أخبر النبي ﷺ " العين تزنى وزناها النظر "
(متفق عليه)

والنظرة الحرام مدخل الشيطان للقلب ، ومن تركها مخافة الله تعالى قوى إيمانه وسلم قلبه ووجد حلاوة تقوى الله .

" النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه إيماناً يجد حلاوته في قلبه " (رواه الطبراني والحاكم وصححه)

فمن حفظ بصره أورثه اللّه نوراً في بصيرته .

ولقد نهى النبي علياً رضى الله عنه أن يتبع النظرة النظرة فقال : " يَا عَلِيُّ لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ " (متفق عليه)

كما بشر النبي من يستخدم عينه في طاعة الله بالجنة : فعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " عَيْنَانِ لاَ تَمسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَــتْ مِــنْ خَشْيَةِ الله ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سَبِيلِ الله " حديث صحيح (رواه الترمذى)

الفرق بين البصر والبصيرة

وهناك فرق بين البصر ، والبصيرة ، فالبصر هو العين التــي تــرى الأشــياء الظاهرة ، أما البصيرة فهى : قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة والحجة .[١]

والبَشَر وإن كان معظمهم مبصرين فقليل منهم البصراء ، مــن علــى بــصيرة ، فكثير من الناس من صحت أبصارهم فرأوا بها نعم الله لكن عميت بــصائرهم فلــم يعبدوا المنعم جل في علاه ، فالعمى ليس عمى البصر إنما العمى عمى البصيرة .

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَــا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ التي في الصُّدُورِ } (الحج : ٤٦)

وإن من حفظ بصره أورثه اللّه نوراً في بصيرته .

قال مجاهــد : لكل إنســان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبــه لآخرته؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يــضره عمــاه شــيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا " [٢]

{ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ } (الأعراف : ١٩٨)

إذن الأعمى الحقيقى هو من فقد حاسة البصيرة لا البصر ، الأعمى الحقيقى هــو من عمى عن رؤية الحق بعد أن أبصره . ولقد أنزل الله تعالى الحجــج والبــراهين الناصعة للناس على لسان رسله وما معهم من شرائع إلهية لكى يؤمن النــاس بــالله والواحد الأحد ويعبدوه كما أمر لكن أكثر الناس عمى عن الحق إذ جاءه.

{ قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَــاْ عَلَــيْكُم بِحَفِيظٍ } (الأنعام : ١٠٤)

---

(١) انظر مادة " بصر " في المعجم الوسيط .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٧٧ .

ومن ضل طريق الله فلن يهتدى ويظل في طغيانه يَعْمَه .

{وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ} (يونس : ٤٣)

والله تعالى محاسب الذين رأوا آيات الله وأعرضوا عنها وتمتعوا بنعم الله وجحدوا خالقها ، أولئك كالحيوانات التي لا هم لها إلا الطعام والشراب ولا تعرف غاية مـــن خلقها ولا تسلك ســبل ربها ، بل الحيوانات أفضل منهم فهى طـــائعة لله لا تخـــرج عن الهدف من خلق الله لها.

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـــئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـــئِكَ هُـــمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف : ١٧٩)

وإن الله محاسب أولئك الكفرة الفجرة الذين استخدموا نعم الله في معـــصيته فـــالله سائلهم عن هذه النعم .

{ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـــئِكَ كَـــانَ عَنْـــهُ مَسْؤُولاً }

ويقف هؤلاء المجرمون أذلاء أمام الحق تبارك تعالى لا يجدون ما يعتذرون بـــه فقد أعطاهم الله البصر والسمع والأفئدة وغيرها من النعم فلم يحسنوا استخدامها

{ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } (السجدة : ١٢)

ومن يتخذ هواه إلهاً من دون الله ويعص الله بعد علمه بالحق يطمـــس الله علـــى بصره وسمعه فيظل في طغيانه يتخبط .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَـــلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

والله تعالى الذي أعطى السمع والبصر قادر على استرداد وديعتـــه ولا يـــستطيع كائناً من كان أن يعيدها .

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـــهٌ غَيْرُ اللّـــهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } (الأنعام : ٤٦)

إن من يعمى عن ذكر الله بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم يسبب الله له شيطاناً يأمره بالكفر وينهاه عن الإيمان ويزين له سوء عمله فيراه حسناً ، ويحشره يوم القيامة أعمى ، لأنه لم يرى بعينه الحق فاستحق العمى والعذاب .

{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } (طه : ١٢٤ - ١٢٦)

السمع :

السمع : قوة في الأذن تدرك بها الأصوات ، ولولاها ما تفاهم الناس ولا تعاونوا ولا بلّغ الرسل رسالتهم ، ولا استمتع الناس بالأصوات الجميلة .

والسمع من نعم الله العظمى التي مَنّ بها على الإنسان ، ولقد خلق الله تعالى السمع للإنسان ليسمع به كلامه وتعاليم رسله ؛وليسر له سبل الحياة وتعمير الكون.

{ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (النحل : ٨٧)

{ وَهُوَ الذي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } (المؤمنون : ٧٨)

أنواع السمع

والسمع منفذ للقلب والعقل كالبصر ، والناس بالنسبة للسمع والبصر على خمسة أقسام :

١- من يسمع الحق وينكره ويبصر الباطل ويتبعه هؤلاء الذين أخذوا عطاء الربوبية ، السمع والبصر والقلب والعقل فأفسدوه ،وأنكروا عطاء الألوهية رسالات السماء وهدي الأنبياء وحاربوه ؛ فهؤلاء كالحيوانات بل أضل فهم كفار على مستوى الإيمان .. متخلفون على مستوى الحضارة والعلم ، ، وهؤلاء يعيشون في الدنيا جهّالاً ويموتون كفّاراً ، ويصلون في الآخر ناراً .

وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى :

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف : ١٧٩)

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يسمَعُونَ أَوْ يَعقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضلُّ سَبِيلاً }
(الفرقان : ٤٤)

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ والنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ }
(محمد : ١٢)

٢- من يسمع ويبصر بعقل صحيح وقلب سقيم ، وهؤلاء وإن كان لهم حظ مـن علوم الدنيا ومن التقدم المادى فإنهم لا حظ لهم في الآخرة فلقد انتفعوا بالنعم وكفروا بالمنعم ، تفكروا في الكون واستفادوا من سننه ولم يتفكروا في خالقه ولم يـستفيدوا من رسالاته السماوية ، أخذوا عطاء الربوبية ، ولم يأخذوا عطاء الألوهية ففـازوا بالدنيا وخسروا الآخرة وفيهم يقول الله تعالى :

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَـلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

هؤلاء هم العلمانيون اللا دينيون والملاحدة الذين وصولوا إلى درجات عالية فـي العلوم المادية لكنهم جحدوا آيات الله وسخروا منهـا ورمـوا المـؤمنين بـالتخلف والإرهاب .

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِـم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون } (الأحقاف : ٢٦) .

إن هؤلاء العلمانيين عقلاء يستخدمون عقولهم في تحقيق مصالحهم الدنيوية لكـن قلوبهم مغلقـة دون سماع كلام الله عليها أقفال من الكفر والفـسوق والعـصيان لا تسمح لكلمة التوحيد أن تنفذ إليها .

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَـى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ } (محمد : ٢٥)

ولو شاء الله تعالى أن يعذب هؤلاء العلمانيين المتجبرين في الدنيا مـا أعجـزوه لكنه سبحانه أجل لهم العذاب .

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} (الأعراف : ١٠٠)

ويندرج تحت هذا القسم أهل الكتاب الذين عرفوا الحق وفهموه ومع ذلك اتبعوا هواهم ، واستكبروا على الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ الذي يعرفونه كما يعرفون أولادهم .

{ وَلَمَّا جاءهُمْ كِتابٌ مِّنْ عند اللّه مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ به فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ }

(البقرة: ٨٩)

ولم يكتف هؤلاء بالكفر والعصيان بل راحوا يفسدون الأديان ويحاربون المؤمنين ولو أنهم اتبعوا الحق إذ عرفوه لكان خيراً لهم لكنهم آثروا الكفر على الإيمان ، والزيغ على الرشاد فاستحقوا لعنة الله وعذابه .

{ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعه وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا في الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }

(النساء : ٤٦)

وأشد من هؤلاء كفراً هم المنافقون من المسلمين الذين عرفوا الحق وأهله لكنهم انضموا إلى الشيطان وحزبه يعينونه على إخوانهم المسلمين .

{ وَمِنَ النَّاس مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّه وَبِالْيَوْمِ الآخرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنوا وما يخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }(البقرة : ٩)

٣- من يسمع ويبصر بعقل كليل وقلب غليظ .وهؤلاء هم النصيون الحرفيون الذين سبق الحديث عنهم ، الذين أثّر ضعف عقولهم وغلظة قلوبهم على فهمهم لدين ربهم فأساءوا فهم الدين والدنيا جميعاً فضلوا ، هؤلاء الذين قال النبي ﷺ فيهم : "القضاة ثلاثةٌ: اثنان في النّار وواحد في الجنّة: رجلٌ عَرَفَ الحقَّ فقضى به فهوَ في الجنّة، ورجلٌ عرف الحقَّ فلم يقضِ به وجارَ في الحكم فهُوَ في النّار، ورجلٌ لمْ يعْرف الحقَّ فقضى للناس على جَهْلٍ فَهُوَ في النّار" (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وصحّحهُ الحاكمُ)

والمدهش أن هؤلاء الجهال هم الأكثر شهرة في ميدان الوعظ وهم عنوان الإسلام أمام العالم وهذا من أحجيات الدهر .

٤- ومن يسمع ويبصر بعقل صحيح وقلب سليم ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين فهموا رسالتهم التي كلفهم الله بها في الدنيا : عبادة الله ، وتعمير كونه ، فأعطاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة { فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران : ١٤٨)

ويحكي الله تعالى لنا قصة هؤلاء المؤمنين حقاً ، فيقول جل وعلا .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ } (آل عمران : ١٩٠ - ١٩٥)

أرأيتم ماذا فعل هؤلاء المؤمنون العقلاء الصالحون ؟

لقد تفكروا في خلق السموات والأرض { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} واهتدوا إلى أنه يستحيل أن يخلق هذا صدفة إنما وراءه خالق عظيم ، ومبدع قدير فآمنت قلوبهم بالله سبحانه ونزهوه عن الشريك والولد ووصفوه بكل صفات الكمال ونزهوه عن كل صفات النقص { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ } ولهجت ألسنتهم بالدعاء والاستغفار للتواب الرحيم {رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } وتحملوا صنوف الأذى في سبيل الله { فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ } وكانت النتيجة أن استجاب لهم ربهم {أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ } وكان جزاؤهم {لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ } .

٥- من حفظ سمعه وبصره عن الحرام ، وأبقى قلبه وعقله على أصل الفطرة وعمل بما علم فشرح الله صدره للإيمان ونزّه عقله عن الهوى والضلال .

" يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ " (رواه مسلم)

يريد ، والله أعلم ، أنها مثلها في أنها خالية من ذنب ،سليمة من كل عيب ،لا خبرة لهم بأمور الدنيا . وفي ذلك يقول الله تعالى :

{ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (البقرة : ٢٨٢)

فمن حافظ على أصل فطرته كما خلقها الله ولم يلوثها بالمعاصي والآثام وجاهد النفس والهوى والشيطان ولم تغره الحياة الدنيا ، وأدى ما فرضه الله تعالى عليه وتقرب إليه بالنوافل فهؤلاء هم أحباب الله وأولياؤه ، والناس في ذلك ليسوا على درجة واحدة بل متفاوتون وأعلى درجاتهم أولياء الله الذين تولاهم الله تعالى وتولى حفظهم وحياطتهم ورضى عنهم فلا يخافون يوم القيامة ولا يحزنون .

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } (يونس : ٦٢ – ٦٤)

وهؤلاء ليس شرطاً أن يكونوا من العلماء المشهورين أو الفقهاء المعروفين لينالوا هذه المكانة ، بل ربما كانوا من عامة الناس البسطاء سلماء القلب .

يقول الله تعالى في الحديث القدسي : " إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ " (رَوَاهُ الْبُخَارِى)

والمراد بـ " كنت سمعه ..." أحفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك، وأوفقه لما فيه خيره وصلاحه، وأعينه في المواقف وأنصره في الشدائد " قال الخطابي: هذه أمثال والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعه ما

يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعى إلى الباطل برجله " [١]

فمن طرق العلم والهداية التجرد لله مع صدق النية وحسن العمل .

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } (العنكبوت: ٦٩)

قال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هى في الذين يعملون بما يعلمون وقد قال ﷺ: " من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم" وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا ؛ قال الله تعالى : { واتقوا الله ويعلمكم الله } وقال أبو سليمان الدارانى: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين؛ وقمع الظالمين؛ وعظمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر . [٢]

فمن غض بصره عن محرَّم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدى بها سامعوه، ومن غض نفسه عن شبهة نوَّر الله قلبه نوراً يهتدى به إلى طريق مرضاة الله "[٣]

ويندم كل من لم يسمع سماع تدبر واعتبار يوم القيامة

{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } (الملك : ١٠)

فالسماع إذن خمسة : سماع غفلة واستنكار ، وسماع علم واستكبار ، وسماع جهل وتكرار ، وسماع وعى واستبصار ، وسماع أطهار وأبرار .

فهناك من يسمع بأذنه ولكن عقله غافل وقلبه منكر فيطمس الله على عقله وقلبه جميعا فيعيش جاهلاً ويموت كافراً .

وهناك من يسمع بأذنه ويتفكر بعقله لكن قلبه مشرب بحب الدنيا والهوى فيطمس الله على قلبه فلا يؤمن وإن كان يعطيه نصيبه من متاع الدنيا بقدر علمه وسعيه فيها .

---

(١) ابن حجر " فتح البارى " ج ١١ ص ٣٤٤

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٦٤ .

(٣) من كلام محمد بن سعد بن أبى الحسين الوراق حكاه عنه ابن كثير في البداية النهاية ج١١ ص ١٩٠

وهناك من يسمع بأذنه لكنه يسيء الفهم بسبب جهله ، وغلظة قلبه فهذا المسلم المتنطع شدد على نفسه فشدد الله عليه .

وهناك من يسمع بأذنه ويتدبر بعقله ويؤمن بقلبه فيعتبر ويهتدى وأولئك هم العلماء العاملون الهادون المهتدون .

وهناك من يسمع بأذنه فيفهم عن ربه بسبب سلامة فطرته وطهارة قلبه فيملأ الله قلبه نورا يهدى به رغم قلة علمه بعلوم الدنيا و الدين .

معاصى السمع :

ولقد حرم الله تعالى على المؤمنين جملة من المحرمات الخاصة بالسمع مثل : التجسس ، والغيبة ، والنميمة ، والبهتان واللغو .. وكلها أمراض تفسد المجتمع وتدمر القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } (الحجرات : ١٢)
عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلا يَنُمُّ الْحَدِيثَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ " (رواه مسلم)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ " أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ " (رواه مسلم)

ويعلمنا النبي ﷺ أن نرد غيبة المسلم فإذا سمعنا من يغتابه نرده ، وبشرنا النبي ﷺ بأن من يرد غيبة أخيه فسيرد الله عن وجهه النار فيقول ﷺ : " مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ " حديث صحيح (رواه أحمد)

وعلى المسلم أن يعرض عن مجالس اللهو المحرم التي تسمع فيها النميمة والغيبة والبهتان، فقد جعل الله تعالى من صفات المؤمنين أنهم يعرضون عن اللهو المحرم.

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } (المؤمنون : ٣)

{ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } (القصص : ٥٥)

ويحذرنا الله تعالى من الجلوس مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله ويسخرون من الذين آمنوا و ويأمرنا بألا نافقهم بالطعن في إخواننا المؤمنين أو الطعن في الدين حتى لا نكون أمثالهم .

{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } (النساء : ١٤٠)

ما أسوأ أصدقاء السوء من الفسقة والعلمانيين على المسلم فإنهم مهلكوه بما يفترونه على دين الله وشرعه .

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

(الإنعام : ٦٨)

وإن كثيرا من الناس من يظن أن مشاركة الناس حديثهم – حقاً أو باطلاً – من الذوق واللباقة ، فإذا تكلَّم الناس في الدين تكلم وإن سبوا في الحكام صدق على كلامهم وإن اغتابوا أحداً شارك ، وإن تكلموا في الجنس ابتهج ، وإن استهزئوا بآيات الله لم يعترض !!

ولقد علمنا النبي أن نكون أصحاب مواقف إيجابية فلا ننساق وراء الناس في الشر بل في الخير وحسب فيقول ﷺ : " لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا " (رواه الترمذى وحسنه)

والإمعة هو الذي يتابع كل ناعق ويقول لكل أحد أنا معك لأنه لا رأى له يرجع إليه . ومعناه: المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا رؤية.. وفيه إشعار بالنهى عن التقليد المجرد حتى في الأخلاق فضلاً عن الاعتقادات والعبادات .(١)

(١) المباركفورى " تحفة الأحوذى " . باب ما جاء في العفو والإحسان .

وللأسف الشديد إن هذا المرض شديد الانتشار في بلادنا لا يكاد يسلم منه أحـــد ، إلا من رحم ربى ، فالمرء يدور مع الحديث حيث يدور ويشارك الجالـــسين فيمـــا يقولون وخاصة إن كان المتحدث رئيساً أو مـــسئولاً فـــإن المرءوســـين يـــصدقون ويصفقون ويثنون ويمدحون ثم ما يكاد المسئول يعطـــيهم ظهـــره حتـــى يلمـــزوا ويتغامزوا ثم يسبوا ويشتموا !

وهم بذلك يكونون قد ارتكبوا جنايتين أولهما : سكتوا عن الحق في وجه من نطق بالباطل ، وثانيهما : نطقوا بالباطل في وجه من سكت عن الحق .

والله تعالى سوف يُشْهِد على الإنسان الكافر والعاصى جوارحه .
{ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
(فصلت : ٢٠)

إن الكفار والعصاة يظنون أن الله غافل عما يعملون ، وأنهم ما داموا قد سُـــتِرُوا في الدنيا و نجوا من ملام الناس ، ولكن الله تعالى محيط بهم وإن فعلوا المعاصـــي في غفلة من أعين الناس فعين الله ساهرة لا تنام فالله تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويُشْهِد عليهم جوارحهم التي عصوا الله بها .

{ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ } (فصلت : ٢٢)

فأين تذهب أيها العاصى من عذاب الله تعالى فإذا استطعت أن تفلت من العقـــاب في الدنيا فزورت ورشوت وشهدت زوراً ووجدت من يدافع عنـــك بالباطـــل فـــإن الشهود يوم القيامة لا يرتشون ولا يكذبون إن الشهود هم جوارحك التي ارتكبت بها جرائمك هل تُكَذِّب جوارحك ؟ هل تُكَذِّب لسانك ويديك ورجليك ؟

{ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (النور : ٢٤)

لن يفلح الكذب يوم القيامة ولن يفيدك الإنكار لأن من ارتكبوا الجـــرائم يعترفـــون بكل شيء أمام الله تعالى { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَـــشْهَدُ أَرْجُلُهُـــمْ بِمَا كَانُوا يَكْســـِبُونَ } (يس : ٦٥)

ويتعجب الإنسان الكافر والعاصى كيف تنطق الجوارح وتشهد عليه فهو يظن أنها ملكه وأنها مؤتمرة بأمره ولا يمكن أن تكون ضد . فتجيبه جوارحه بالحقيقة التـــي جهلها في الدنيا وهى أن الجوارح ملك لله تعالى هو خالقها وسيدها ومولاها الحقيقى

وإنما كانت عند الإنسان أمانة ووديعة ويوم القيامة يسترد الله تعالى أمانته وينطقها لتشهد لصاحبها أو عليه فلا عجب . { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (فصلت : ١٩- ٢١)

اللســان

اللسان : آلة النطق ولولاه ما كان هناك تفاهم ولا تخاطب بين البشر ولاستحالة الحياة على ظهر الأرض ، كما أنه ترجمان العقل والقلب ، وأداة التذوق ، واللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جرْمه عظيم طاعته وجُرْمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، وكل ما يتناوله العلم يعرب عنه باللسان إما بالحق أو بالباطل، واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك طريق الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ولا يكب الناس في النار على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو في عاجله وآجله من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله .[1]

فاللسان إذن من نعم الله الخلاق العظيم خص بها الإنسان ليرطبه بذكره ويستخدمه في تعمير كونه وهداية خلقه .

{ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } (البلد : ٨-٩)

ومن يعبد الله وحده ويكفر بالشيطان وحزبه ويدعو ربه ولا يشقى بدعائه فإن الله تعالى يرفع ذكره في الدنيا بالسلف الصالح ويهب له من رحمته ما يحول بينه وبين معاصيه ، ويثنى الصالحون عليه الثناء الجميل .

{ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } (مريم : ٤٩ – ٥٠)

---

(١) أبو حامد الغزالى " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٩٣

وإذا أحسن الإنسان لجام لسانه عن الشر ، ورطّبه بذكر الله تعالى ، وحفظ فرجه عن الزنا أدخله الله الجنة .

قال رسول الله ﷺ : " مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ (المقصود اللسان) وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ (المقصود الفرْج) أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ " (رواه البخارى)

لقد نبهنا الرسول الكريم ﷺ لخطورة اللسان وحذرنا من آفاته .

عن أسود بن أبى أصرم المحاربى قال: قلت يا رسول الله أوصنى. قال: "هل تملك لسانك ؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك لسانى. قال: فهل تملك يدك ؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك يدى! قال: فلا تقل بلسانك إلا معروفا ولا تبسط يدك إلا إلى خير" حديث صحيح (رواه الطبرانى)

فالنجاة في حفظ اللسان عن الحرام وفي التوبة والندم على المعصية .

فعن عقبة بن عامر: قلت يا رسول الله ما النَّجَاةُ ؟ قَالَ " أَمْسِكْ عليك لسانَكَ ، ولْيَسَعْكَ بَيْتُكَ. وابْكِ على خطيئتك" حديث صحيح (رواه الترمذى)

وباللسان تستقيم بقية الجوارح أو تعوج .

فعن أبي سعيد الخدرى رفعه إلى النبي ﷺ قال: " إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تَكْفُرُ اللِّسانَ ، تَقُولُ : اتَّقِ الله فِينَا ، فَإِنَّما نَحنُ بِكَ ؛ فَإِن استَقَمْتَ استَقَمْنَا ، وإِن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا " حديث حسن (رواه الترمذى والبيهقى)

وكثير من الناس من يستهين بالكلام ولا يأبه بحصيد لسانه فليعلم هؤلاء أن من أكثر الذنوب التي تكب الناس على وجوههم في النار هى حصائد ألسنتهم .

عن مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ ؟ قَالَ : " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ " حديث صحيح (رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه)

وقال : ﷺ " إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجات ، وإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله تَعَالَى لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ " (رواه البخاري)

إن المسلم ، فضلا عن المؤمن ، لابد أن يحفظ لسانه ويجنب الناس شروره وبوائقه فالنبي يعرف المسلم بقوله : " الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ " (متفق عليه)

ولقد جعل الله تعالى رسالة اللسان الكلمة الطيبة النافعة وحرم عليه الكذب ، الغيبة، والنميمة ، والبهتان ، والخوض في أعراض الناس وشهادة الزور ، وتزكية النفس ، وإيذاء الناس ...

وآفات اللسان كثيرة وقد أفرد المصنفون لها كتباً مستقلة وسنكتفي هنا ببيان أهمها.

وأهم آفات اللسان الكذب فهو رأس كل مذموم وجماع كل شر فالكذب ينفي عن صاحبه الإيمان ويسلكه مع المنافقين والفجار ومآله إلى النار فلا يدخل الجنة كذاب.

" إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " (متفق عليه)

وهو صفة من صفات المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار .

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } (النساء : ١٤٥)

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ " (متفق عليه)

ومن الناس من يكذب ليُضْحِك غيره ويعد ذلك مزاحاً بريئاً لا حرمة فيه ولا بأس ، والحقيقة أن المزاح إن كان يشتمل على كذب فهو حرام وتوعد النبي صاحبه بالويل . " وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ، فَيَكْذِبُ ؛ لِيَضْحَكَ بِهِ الْقَوْمُ، وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ " حديث حسن (رواه أحمد والترمذى وأبو داود)

أما المزاح البريء الخالى من الكذب والفحش مباح ، وكان النبي يمزح ويداعب ولا يقول إلا حقاً ولا ينطق إلا صدقاً .

عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسولَ اللّه! يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. فَقَالَ : " إِنِّى لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًا " حديث صحيح (رواه الترمذى)

ومن الناس من يمنى طفله ويكذبه ، ويعده ويخلفه وهذا حرام أيضاً ويكتب على صاحبه كذبة .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَنَا وَأَنَا صَبِيٌّ صَغِيرٌ فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ فَقَالَتْ لِى أُمِّى : يَا عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَ أُعْطِيكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَا أَرَدْتِ

أَنْ تُعْطِيه؟ " . قَالَتْ : أَرَدْتُ أَنْ أُعْطِيَهُ تَمْرًا. قَالَ : " أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةً " (رواه أبو داود والبيهقى وأحمد)

والمؤمن لا يكذب { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } (النحل : ١٠٥)

ومن أشد أنواع الكذب شهادة الزور فهى من أكبر الكبائر .

قال رسول الله ﷺ :

" أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ثَلاثًا أَوْ قَوْلُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ " (متفق عليه)

الفرق بين الكذب والتكذيب

وهناك فرق بين الكذب ، والتكذيب .

الكذب : إخبار بخلاف ما هو عليه في الواقع ، أما التكذيب : فهو الإنكار والجحود .

والكذب كبيرة من الكبائر كما بينا أما تكذيب الرسل ، وجحود رسالة الله فهو الكفر الصراح ، وتوعد الله تعالى صاحبه بالخلود في النار .

{ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (البقرة : ٣٩)
{ وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } (الأنعام : ٢٧)

والله تعالى يوم القيامة ينطق الجوارح بالحق ليشهدوا على الكاذبين المكِّذبين الذين لا يسمح لهم بالقول ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ } (النمل: ٨٣ – ٨٥) .
{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ }
(المرسلات :٣٤ – ٣٦)

وكان الإمساك عن الكلام من بين ما يصام عنه ، كالطعام والشراب ، في شريعة الأمم السالفة فخفف الله عن أمة محمد وجعل لهم الصوم إمساك عن الطعام والشراب والجماع وعن قبيح الكلام فقط .

{ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا } (مريم : ٢٦)

كانت سنة الصيام عند الأمم السابقة الإمساك عن الأكل والكلام ومن سنة خاتم المرسلين في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح قال ﷺ : " الصِّيَامُ جُنَّةٌ. فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ ، فَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ " (متفق عليه)

وقال ﷺ : " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " (رواه البخاري)

ولقد أدرك الغرب أن الكذب رأس كل آفة ، وعماد كل انحراف خلقي واجتماعي فربُوا أولادهم على الصدق ، وأباحوا لهم كل الفواحش إلا الكذب فهي أكبر الكبائر عندهم ، وقضية " كلينتون مع مونيكا لوينسكي خير شاهد على ذلك فلقد حوكم كلينتون وكاد أن يُقصى عن الحكم لا بسبب فعله الفاضح مع مونيكا – فهذا أمر مباح ومعتاد في أمريكا – ولكن بسبب كذبه على المحلفين وإنكاره لحقيقة علاقته بها ، وإن اعترافه بعد ذلك هو الذي نجاه وأبقاه في السلطة .

وللأسف الشديد وبرغم أمر الإسلام بالصدق وتحذيره الشديد من الكذب – كما بينا – إلا أن المسلمين يكادون أن يكونوا وحدهم الكذابين في العالم ، فالكذب صفة متفشية في المجتمعات الإسلامية لا يكاد يسلم منها أحد ، إلا من رحم الله ، حاكما أو محكوما صغيرا أو كبيرا رجلا أو امرأة !! ، وأنا لله وإن إليه راجعون .

ذكر الله

إذا كان الإسلام حرم الكذب وحرم كل ما يؤذي من قول فإنه أمر بأن يكون اللسان ذاكرا لله تعالى يلهج بالثناء عليه بما هو أهله سبحانه يدعوه فالدعاء مخ العبادة ، ويستغفره، فالاستغفار مفتاح مغفرة الذنوب وستر العيوب ، وسعة الرزق ، وعلاج العقم ، ودخول الجنة ، والنجاة من النار .

{ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا } (نوح : ١٠ – ١٢)

وكثير من المسلمين يقصر ذكر الله تعالى على ذكر اللسان فقط ، وهذا مفهوم ضيق لذكر الله فذكر اللسان من ذكر الله تعالى نعم ، ولكنه ليس كل ذكر الله تعالى فكل عضو من أعضاء الإنسان له ذكره ، فذكر القلب الخشوع ،والتقوى ، وذكر العقل التدبر والتفكر ، وذكر العين التأمل في بديع صنع الله ، والنظر في كتابه ، وذكر الأذن سماع كلام الله والطيب من القول ... والخلاصة ذكر الله تعالى المقصود به أن يكون الله تعالى معك أينما كنت وأن تؤدى ما أمرك الله به وتنتهي عن كل ما نهاك الله عنه في كل موقف أنت عليه ، وكل حال تمر به ، فإذا أذن المؤذن للصلاة فذكرك الله أن تلبى النداء وتقوم للصلاة ، وإذا رأيت فقيراً وكنت قادرا فذكرك لله أن تعطيه ، وإذا رأيت كاسية عارية فذكرك لله أن تغض بصرك ، وإذا ذهبت إلى عملك فذكرك لله أن تخلص فيه ، وإذا سمعت غيبة أو نميمة فذكرك لله أن ترد غيبة المسلم وتنصح المغتاب أو النمام بالكف ...

أما من يفهم أن الذكر شقشقة باللسان لا تبلغ الجنان ، القلب ، فقد أخطأ ولقد ابتليت الأمة الإسلامية ببعض صور الذكر ما أنزل الله بها من سلطان ولا يقرها عاقل من بنى الإنسان ، كحلقات الذكر التي تقيمها بعض الطرق الصوفية في الموالد يتمايلون فيها على أنغام الموسيقا بما لا يليق بذكر الله جل وعلا .

يقوله تعالى { فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون } (البقرة : ١٥٢)

أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمى الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبى ، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم ومعنى الآية: اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، قاله سعيد بن جبير وقال أيضاً : الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن . " (١)

من أذكار الصباح والمساء

ولقد علمنا النبي أذكارا نقولها في الصباح وأخرى في المساء ، وما من حالة يمر بها العبد إلا وللنبى فيها ذكر جميل يرطب العبد لسانه بذكر مولاه جل وعلا ويدفعه لعمل الطاعات ويجنبه المعاصى والزلات .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٧١ .

فإذا استيقظ من النوم قال :

" قالَ الْحَمدُ لله الذي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النّشُورُ" .

وإذا دخل الحمام قال :

" اللَّهُمَّ إني أعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ" .

وبعد وضوئه يقول :

" أَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أنّ مُحمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ " .

فإذا قام إلى صلاته افتتح الصلاة بتكبيرة الإحرام ثم يقول :

" وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنيفاً مُسْلِماً وما أنا من المُشْرِكِينَ، إنَّ صَلاتي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبّ العالَمينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأنَا مِنَ المُسْلِمينَ " .

وقبل أن يسلم يقول :

" اللَّهُمَّ إني أعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسيحِ الدَّجَّال، وأعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيا والمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إني أعُوذُ بِكَ من المأثَمِ وَالمَغْرَمِ" .

وبعد الصلاة يقول :

"لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ؛ اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ ".

فإذا أكل قال :

"إذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَاماً فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله، فإنْ نَسِي في أوّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله في أوّلِهِ وآخِرِهِ " .

فإذا فرغ من الطعام قال :

" الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلاَ قُوَّةٍ، " .

فإذا لبس ملابسه قال :

"مَنْ لَبِسَ ثَوْباً فَقَالَ: الحَمْدُ لِلّه الذي كَسانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلا قُوَّةٍ، غَفَرَ اللّه لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ " فإذا خرج من البيت قال :

باسم اللَّه، توَكَّلْتُ على اللَّه، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّه " .

فإذا ركب وسيلة المواصلات قال :

" سُبْحانَ الذي سَخَّرَ لَنا هَذَا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ ("مُقرنين": أى مُطيقين) ، وإنَّا إلى رَبِّنا لمُنْقَلِبُونَ} .

وهو في أثناء ذهابه إلى عمله يردد :

أَصبَحْنَا وَأَصبْحَ المُلْكُ لله رَبّ الْعَالَمِينَ. اللّهُمّ إنّى أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَ الْيَوْم فَتْحَهُ ونَصْرَهُ وَنُورَهُ وبَرَكَتَهُ وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ ما فيه وَشَرّ ما بَعْدَهُ، ثُمّ إذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلكَ" " اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنى وَأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدك ووعْدكَ ما اسْتَطَعْتُ، أبُوءُ لَكَ بنِعْمَتكَ عَلَى، وَأَبُوءُ بذَنبى، فاغْفِرْ لى فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ، أعُوذُ بكَ منْ شَرّ مَا صَنَعْتُ " .

وهكذا في كل عمل يعمله ومكان يدخله فيه ذكر حتى يعود إلى بيته فيقول :

"إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إنِّى أسألك خير المولج وخير المخرج، بسم اللّه ولجنا، وبسم اللّه خرجنا، وعلى اللّه ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله" .

وقبل النوم يقول :

"إذَا أَوى أَحَدُكُمْ إلى فِرَاشه فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بدَاخلَة إزَاره، فإنَّهُ لا يَدْرِى مَا خَلَفَهُ عَلَيْه، ثُمَّ يَقُولُ: باسْمكَ رَبى وَضَعْتُ جَنْبى وَبكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسى فارْحَمْهَا، وَإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْهَا بما تَحْفَظُ به عبادَكَ الصَّالحينَ" .

وهكذا أذكار عند السفر ، وأذكار عند الكرب ، وأذكار عند زيارة المريض ، وأذكار عند إغماض الميت ، وأذكار عند هبوب الريح ، وعند سماع صوت الرعد، وعند رؤية الهلال ، وأذكار عند التثاؤب ،وأذكار عند لقاء العدو وذى السلطان .. وعلى الجملة ما من حالة يمر بها العبد من ساعة أن يستيقظ إلى أن ينام إلا وفيها ذكر ومن ساعة ما يولد إلى أن يموت إلا وفيها ذكر .

طمأنينة القلب :

ومن لطائف بعض العارفين قولهم : إن طمأنينة القلب أعلى درجات الإيمان وكان فيما سبق لا يصل إليها عبد إلا إذا عاين غيبا فها هو خليل الله إبراهيم الذي طلب

أن يرى كيفية إحياء الموتى ، وهى غيب ، لكى يرتقى من حالة الإيمان إلى طمأنينة القلب وفي ذلك يقول الحق جل وعلا { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قال فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (البقرة : ٢٦٠)

فسيدنا إبراهيم كان مؤمناً لكن أراد برؤية إحياء الموتى أن يزداد إيماناً " أحب أن يترقى من (علم اليقين) بذلك إلى (عين اليقين) وأن يرى ذلك مشاهدة " [١] ويصل إلى درجة طمأنينة القلب .

وها هم حواريو عيسى يطلبون منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء – وهى غيب – لكى تطمئن قلوبهم { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } (المائدة : ١١٢) فقد كان حواريو عيسى مؤمنين ولكنهم أرادوا زيادة إيمانهم باطلاعهم على شىء من الغيب وهو نزول مائدة من السماء يأكلون منها .

والمسلمون في غزوة بدر الذين أنزل الله عليهم خمسة آلف من الملائكة مردفين،وهم غيب ، لكي تطمئن قلوبهم { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } (آل عمران : ١٢٣– ١٢٦) .

والمسلمون في بدر كانوا أكثر الناس إيمانا فزادهم الله إيماناً وأنزل عليهم ملائكة من السماء لكى يصلوا إلى طمأنينة القلب وهى أعلى درجات الإيمان .

أما أمة محمد فقد خصها الله تعالى بميزة وهى الوصول إلى طمأنينة القلب لا بمعاينة غيب فقط إنما يكون أيضا بذكر الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٨٩

{ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } (الرعد : ٢٨)

وهناك مرحلة أعلى من طمأنينة القلب وهى حق اليقين وهذه لا تكون إلا في الآخرة ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

أنواع اليقين

اليَقِينُ : العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر ، وهو ثلاثة أنواع : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فإذا حدثك جماعة تثق في صدقهم وإيمانهم أن اليهودى جبان وأنه يفر من أمام الطفل الفلسطينى الممسك بحجر فيصير جبن اليهودي عندك علم يقين ، فإذا سافرت إلى فلسطين المحتلة ورأيت ذلك بنفسك فقد انتقلت من علم اليقين إلى عين اليقين فإذا أمسكت حجراً وجريت وراء يهودى وفر من أمامك فذاك حق اليقين." فعلم اليقين كعلمنا بدخول الجنة، فإذا رأيناها فهو عين اليقين، فإذا دخلناها فهو حق اليقين" (١)

حاسة اللمس

الجلد مركز الإحساس وهو من الحواس التي خلقها الله تعالى لتشعرنا بالحر والبرد والألم ، وما إلى ذلك " إن انتشار شبكة الأعصاب تحت الجلد شيء لا يكاد يصدق وتنتهى الألياف العصبية بجسيمات يختص كل نوع منها بنقل حس معين فهناك جسيمات الحر ، وأخرى تنقل البرد ، وثالثة للمس والضغط ، ورابعة لحس الألم ، وخامسة تختص بنقل الحس العضلى . وأعصاب الجلد تنقل هذه الإشارات العصبية إلى مركز الإحساس بالمخ " (٢) فيترجمها ويصدر تعليماته للجسم باتخاذ اللازم حيال ما وصله من إشارات .

وجلد المؤمن يقشعر عندما يسمع كلام الله من الخشية والجلال ويلين من الرحمة والجمال .

{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } (الزمر : ٢٣)

---

(١) الأصفهانى "مفردات ألفاظ القرآن " .مادة يقن .

(٢) " الإعجاز العلمى في القرآن الكريم " C D إنتاج نيل سوفت .

أما متبلدو الإحساس فلا يؤثر فيهم سماع القرآن كأنهم لا يسمعون ، فتشهد عليهم جلودهم يوم القيامة بما كانوا يعصون الله ويكفرون بآياته .

{ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (فصلت : ٢١)

ويصليهم الله ناراً تحرق هذه الجلود التي ما قشعرت من خشية الله .

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا } (النساء : ٥٦)

والجلد كما قلنا هو مركز الإحساس بالألم فعندما يحترق ينقل الإحساس بالألم إلى المخ فيحس الإنسان بالألم والعذاب الذي ما بعده عذاب ، ولكن بعد حرق الجلد وتلف الأعصاب لا يعد يحس الإنسان بالألم والعذاب لذا فإن الله تعالى يبدل الذين كفروا جلودا غير جلودهم التي احترقت ليتجدد إحساسهم بعذاب الحريق وهكذا كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ولم يكن الناس يعرفون ، إلا حديثا ، أن الجلد هو مركز الإحساس وأن تلف أعصاب الجلد بمؤثرات كالحرق أو الجذام تفقد إحساس الإنسان بالألم ، والقرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة العلمية قبل أن يصل إليها الإنسان بأكثر من أربعة عشر قرناً .

فتأمل دقة التعبير القرآنى تبديل جلود الكفار يوم القيامة لتجديد شعورهم بالعذاب [١]

ويخبرنا النبي أن جلود الكفار تكون غليظة جداً حتى يطول عذابهم و يشتد عذاب باحتراقها .

{ إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ } حديث صحيح (رواه الترمذى والحاكم)

وينهى النبي عن إيذاء جلد المؤمن حتى ولو بنخامة .

" إِذَا تَنَخَّمَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَلْيُغَيِّبْ نُخَامَتَهُ لاَ تُصِيبُ جِلْدَ مُؤْمِنٍ ، أَوْ ثَوْبَهُ فَتُؤْذِيَهُ. " حديث حسن (رواه أحمد والبيهقى والبزار)

ويحرم الإسلام لمس المرأة الأجنبية ومصافحتها منعاً للفتنة وإثارة الغرائز .

---

(١) " الإعجاز العلمى في القرآن الكريم " C D إنتاج نيل سوفت .

قال رسول الله ﷺ " لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له " حديث صحيح (رواه الطبراني والبيهقي)

ولما ضعف الإيمان في القلوب وطال الأمد على بُعْد المسلمين عن دينهم انتشرت فيهم أمراض الغرب كالخلوة بالأجنبيات ومصافحتهن ومعابثتهن وربما عناقهن وتقبيلهن وأن كل ذلك صار مقبولاً معتاداً لا حرج فيه فهي صديقته أو زميلته أو جارته أو مثل أخته فلا بأس من كل صور المعابثات والملامسات !!

حاسة الشم

خلق الله تعالى لنا الأنوف لنشم بها الطيب من الروائح فنتمتع به وندرك الخطر بها فنجتنبه و نعرف بها الخبيث من الروائح الكريهة فنزيله بالنظافة والغسل ، والإسلام يحرص على النظافة أيما حرص فقد جعلها عبادة فلا صلاة للجنب من غير غسل ولا لمحدث من غير وضوء كما كان النبي يحب الطيب ويرغب فيه ، ويكره الخبيث من الرائحة وينهى عنه ، وكان النبي يقبل الرائحة الزكية إذا أهديت له . فعن أنس أن النبي ﷺ كَانَ لاَ يَرُدُّ الطِّيبَ " (رواه البخارى)

وكان ينصح صحابته بقبول الطيب هدية .

عن أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ طِيبٌ فَلاَ يَرُدَّهُ ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ " (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

وكان النبي يغتسل يوم الجعة ويتطيب .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال " غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ ، وَيَسْتَاكُ وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ " (رواه مسلم)

وقد نهى من أكل الثوم أو البصل أو الكراث أو غيرها مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد قبل زوال رائحته .
فعن ابن عمر رَضِى اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ : " مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ (يعنى الثوم) فَلا يَقْرَبْنَا أَوْ لا يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

وشبه النبي الجليس الصالح بحامل المسك والجليس السوء بنافخ الكير فقال :

فعن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ " إِنَّمَا مَثَلُ الجليس الصالحُ والجليسُ السوءِ كحاملِ المسك ، ونافخِ الكِيْرِ ، فحاملُ المسك : إما أن يُحْذِيَكَ ، وإما أن تبتاع

منه ، وإمَّا أن تجدَ منه ريحا طيِّبة ، ونافخُ الكير : إما أن يحرق ثِيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة." (متفق عليه)

حاسة التذوق

التذوق أحد الحواس التي مَنَّ الله تعالى على عباده بها لكى يتذوقوا به الحلال من الطعام والشراب ويستمتعوا به فإذا فقد الإنسان حاسة التذوق تساوى عنده التفاح والليمون في الطعم ، كما يتساوى عنده الملح الأجاج والعذب الفرات .

والله تعالى يأمرنا بالتفكر في الطعام الذي نأكله حتى نشكر الله تعالى عليه ولا نجحده .

{ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِه أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ} (عبس : ٢٤ – ٣٢)

فلو تتبعنا قصة رغيف الخبز مثلاً الذي نأكله والذي بعض الناس يبطره ، فإن الله تعالى سخر الشمس لترسل أشعتها إلى البحار والمحيطات ليتبخر الماء العذب من الماء المالح ، سبحان الله ، ثم يتكثف بخار الماء في طبقات الجو ويتجمع ، وتأتى الرياح لتسوقه إلى مساقط الأمطار ، سبحان الله ، حيث يتجمع المطر ويسير في أنهار ثم يسخر الله أناساً تزرع وأناساً تحصد وأناساً تطحن وأناساً تخبز ، سبحان الله ، ثم يأتى بعد ذلك من يقول ما هذا الرغيف البارد ويلقى به في القمامة فإن كان طازجا أكل بعضه ورمى الباقى ونسى أن هذا الرغيف الذي يبطره ندفع ثمنه الكثير من أموالنا وحريتنا من أجل الحصول عليه من أعدائنا ! بعدما أقفرت أرض مصر التي كانت يوما سلة غذاء العالم بأسره أن تزرع قمحه ! مصر التي أطعمت العالم كله أيام سيدنا يوسف وأنقذت العالم الإسلامى من الجوع والشدة في عام الرمادة تتسول الآن طعامها من الأمريكان !!

مصر سلة غلال العالم

إن الناس بالمدينة المنورة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب في سنة الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: من عبد الله عمر أمير المؤمنين

إلى العاص بن العاص، سلام! أما بعد فلعمرى يا عمرو! ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى، فيا غوثاه! ثم يا غوثاه ، يردده قوله. فكتب إليه عمرو بن العاص: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، أما بعد فيا لبيك! ثم يا لبيك! وقد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، فبعث عمرو إليه بعير عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا، فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص يقسمونها على الناس، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام أن يأكلوا الطعام وينحروا البعير فيأكلوا لحمه ويأتدموا شحمه ويحتذوا جلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام لما أرادوا من لحاف أو غيره، فوسع الله بذلك على الناس . فلما رأى ذلك عمر حمد الله وكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر، فقدموا عليه، فقال عمر: يا عمرو! إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطعام وقد ألقى في روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسع عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد، ..وحفر الخليج الذي في جانب الفسطاط الذي يقال له: (خليج أمير المؤمنين) فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى (خليج أمير المؤمنين). ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل (١)

ماذا جرى لمصر كثيرة الخير والطعام والتي فاض خيرها على من حولها ؟! ماذا جرى لمصر حتى لا يزرع أهلها ما يأكلون ؟!

أسباب الفقر وارتفاع الأسعار .

أنا أقول لكم إن السبب ضعف الإيمان ، وضعف الهمة والخلود إلى الكسل ، وعدم الرضا ، والجشع والطمع .

---

(١) المتقى الهندى " كنز العمال " وقائع عام الرمادة .

فالفلاح الذي كانت أرضه هى عرضه فرط في عرضه وهجر أرضـــه وهـــاجر ليعمل في بلاد الريال والدينار ، وترك أرضه لتسكنها الأفاعى والفئـــران ، وينعـــق فيها البوم والغربان ، وليعود بعد سنوات لا ليزرع أرضه فقد منّ الله عليه بالمـــال بل ليجرف بعضها ويبنى على الجزء الباقى البيوت والعمارات التي يعلو أسـطحها "الدش" الذي يظل يشاهد ما فيه من مفاسد حتى تطلع الشمس ، فهل مثل هذا يمكـــن أن يحمل بعد ذلك الفأس ؟!! وعندما يبدد ما جمع يعود للسفر مرة أخرى فـــإن لـــم يكن للسعودية أو الكويت فليكن للعراق أو ليبيا أو جزر القمر المهم أن يعمل خارج بلده ! ولذا نرى في مصر العجب نرى أن أخصب الأراضى الزراعية وهى التـــي على ضـــفاف النيـــل العظيم قد زُرعت بالعمارات الشـــاهقة ، ولم يعد أمامنـــا إلا الصحراء الجرداء إذا أردنا أن نزرع !! ولتنفق المليارات لاستـــصلاح الـــصحراء عديمة الخصب وليكسب الناس المليارات من البنـــاء علـــى الأراضـــى الزراعيـــة الخصبة ! ألم أقل لكم إنه ضعف الإيمان وضعف الهمة والخلود إلى الكسل والجشع . ولو قوى الإيمان في النفوس لكان همّ كل واحد أن ينفع غيره ويصلح بلده فيفـــتح الله تعالى عليهم بركات من السماء والأرض لكن الناس كذبوا بتعاليم الله ورســـوله إن لم يكن تكذيب إيمان و اعتقاد فعلى الأقل تكذيب تطبيق وانقياد .

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَـيْهِم بَرَكَـاتٍ مِّـنَ الـسَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } (الأعراف : ٩٦)

وهؤلاء الناس الذين لم يقنعوا بالمال الحلال القليل وطمعوا فـــي الحـــرام الكثيـــر فزرعوا أرضهم بالمخدرات أو جرفوها أو خالفوا أوامر أولى الأمر وبنوا عليها أو من تكسب بحاجة الناس وعوزهم فتاجر في صحة الناس وأرزاقهم أو بـــاعهم مـــا يؤذيهم ويضرهم فلن يستمتع بالمال الحرام ولن يهنأ له بال لكـــن ســـيعيش تعيـــساً ويموت ملعوناً ويحشر أعمى .

{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَـى قَـالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَـوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَـدُّ وَأَبْقَى }
(طه : ١٢٤ – ١٢٦)

{ومن أعرض عن ذكري} أى خالف أمرى وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، {فإن له معيشة ضنكا} أى ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة

له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس {فإن له معيشة ضنكا} قال: الشقاء. وعنه: إن قوماً ضلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معشيته فذلك الضنك. وقال الضحّاك: هو العمل السيء والرزق الخبيث "[1]

والمؤمن لا يأكل إلا حلالا ومن رزق حلال مخافة الله تعالى لذا فالله تعالى يطعمه من نعيم الجنة مما تشتهى الأنفس وتلذ العيون .

{ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ } (الزخرف : ٦٩ – ٧٣)

والمؤمن ، وإن كان فقيراً ، لا يبخل بطعام أو شراب على الفقراء والمساكين واليتامى . لذا يوفيه الله تعالى جزاءه يوم القيامة فيقيه شر هذا اليوم ويدخله الجنة حيث النعيم المقيم .

{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا }
(الإنسان : ٨ – ١٧)

والله تعالى يعطى الأجر على قدر العطاء وقدر حاجة الإنسان إلى ما يعطيه ، فإن الذين يطعمون الطعام أو ينفقون المال على شدة حاجتهم وحبهم له يضاعف الله لهم الجزاء أضعافا كثيرة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ " سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ قَالُوا وَكَيْفَ قَالَ كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا " (رواه النسائى وحسنه الألباني)

---

(١) " تفسير ابن كثير " ج ٥ ص ٣٢٣ .

وفي هذا حث للناس لكل الناس على الصدقة ولا يزعم أحد أنه فقير وليس عليه صدقة فلينفق كل على قدر سعته وله عند الله الأجر العظيم .

{ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } (الطلاق : ٧)

أما أولئك الذين طعموا خير الله وجحدوا شكره ، وتمتعوا بالنعم وكفروا بالمنعم فإن الله يطعمهم من شجرة الزقوم .

{ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ } (الدخان : ٤٤ –٥٠)

إن الذين أكلوا أموال الناس الطيبين بالباطل من اللصوص والنصابين ، والذين سرقوا أموال الناس المحتاجين وهربوا خارج البلاد ليعيشوا منعمين ، والذين تاجروا بصحة وأقوات ومصالح الناس المساكين ، هؤلاء الذين أعماهم الطمع والجشع وأنساهم أن هناك ربا قديرا فعالا لما يريد سوف يحاسبهم على ما ارتكبوه في حق البلاد والعباد فإن مصير أحدهم يوم القيامة شديد فيقول الله تعالى لملائكته .

{ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ } (الحاقة : ٣٠ – ٣٧) .

إن هؤلاء المنعمين بأموال الفقراء والمساكين ، هؤلاء الكاذبون المكذبون فإن الله يمهلهم قليلاً لعلهم يرجعون فإن استمرءوا الحرام واستحلوه وضيقوا على الفقير واستذلوه فإن الله تعالى سيذيقهم عذابا أليما بقدر ما أذاقوا الناس الذل والهوان .

{ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا } (المزمل : ١١)

وكثير من الناس مأكله من حرام ومشربه من حرام غذِّيَ من حرام ويتعجب من عدم استجابة الله دعاءه !

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } وَقَالَ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ثُمَّ

ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ " (رواه مسلم)

لقد عرَّف الله تعالى الذين يكذبون بيوم الدين فقال :

{ أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } (الماعون : ١ –٣)

فالذي يأكل مال اليتم ويقهره ويتاجر في أقوات الناس فيجوع الفقراء والمساكين ويذل المحتاجين فهذا هو الذي يكذب بيوم الدين إذ لو كان مؤمنا بالميعاد والجزاء حقا ما فعل ذلك بعباد الله تعالى .

ولقد توعَّد الله تعالى الذين يؤكلون أموال اليتامى ظلماً بعذاب السعير ، فما بالك بمن أكل أموال شعب ظلماً وعدواناً !

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } (النساء : ١٠)

وكما أن الصدقة يتضاعف ثوابها في يوم ذى مسغبة (مجاعة) يشتهى فيه الطعام ، فإن العذاب يتضاعف لمن يستغل حاجة الناس في وقت الشدة .. في وقت يشح فيه الطعام ؛ فيحتكر السلع ويرفع أسعارها ؛ ليضاعف مكسبه .

هؤلاء الظالمون الذين شبعوا من تجويع الناس .. والذين اغتنوا من إفقارهم فإن هذه البطون التي أتخمت بالمال الحرام سوف تمتلئ من شجرة الزقوم .

{ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ } (الصافات:٦٢ – ٦٨)

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ }

(الواقعة : ٥٣ – ٥٦)

إن الذين أطعموا الناس طعاماً فاسداً واستوردوا لهم سموماً في شكل أغذية سوف يسقون من عين آنية ولن يكون لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من

جوع . { تُسقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ } (الغاشية : ٥-٧)

وكذلك من كتم الحق مختاراً ونافق أهل الباطل سراً وجهاراً من أجل منصب أو مال ، أو من أباحوا الحرام من أجل هوى في النفس أو من أجل عَرَض من أعراض الدنيا كمن قالوا أن الرقص الداعر فن ، وأن عرى النساء تقدم ، وأن التمسك بالدين الصحيح تخلف ،وأن أكل أموال الناس بالباطل شطارة ، فإن ما أكله هؤلاء من مال حرام سوف يتحول إلى نار تحرق أحشاءهم يوم القيامة .

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة : ١٧٤)

وهذه الآية وإن كانت في أحبار اليهود فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك بسبب دنيا يصيبها .. وفي ذكر البطون أيضاً تنبيه على جشعهم وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له. ومعنى "إلا النار" أى إنه حرام يعذبهم اللّه عليه بالنار، فسمى ما أكلوه من الرشاء ناراً لأنه يؤديهم إلى النار .[1]

أما المؤمنون الذين اتقوا الله في عباده فأطعموا الجائع وكسوا العارى ورحموا الضعيف و أغنوا الفقير وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الجنة

{ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } (البلد:١٤ – ١٨)

فالذين يرحمون عباد الله يرحمهم الله والذي يرحم من في الأرض يرحمه من في السماء ، أما من جوَّع الأكباد وظلم العباد فلن يرحمهم من في السماء .

" الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ ".
حديث صحيح (رواه أحمد وأبو داود والترمذى)

إن هؤلاء المؤمنين الرحماء بعباد الله تعالى الذين قضوا حوائج الناس وأعانوهم في البأساء والضراء في الجنات يتنعمون تظهر على وجوههم مخايل النعمة ويشربون من خمر الجنة .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٣٥ .

عَنْ أَبِى سَعِيدِ الْخُدْرِىِّ قَالَ : " أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِناً شَرْبَةً عَلَى ظَمَإٍ سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِناً عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِناً ثَوْباً عَلَى عُرْىٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ "(١)

هؤلاء هم الأبرار الذين ذاقوا طعم الإيمان واتبعوا أوامر الرحمن وتمسكوا بشريعة الإسلام وتأسوا بالمصطفي خير الأنام .
"ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً " (رواه مسلم)

ويعلمنا الرسول الكريم ﷺ أن نكون مداومين على ذكر الله تعالى حتى يبارك الله تعالى في مطعمنا ومشربنا ويجنبا الشيطان .

" إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ " (رواه مسلم)

كما يعلمنا النبي عدم بطر النعمة ووجوب شكر الله عليها .

أن رسول الله ﷺ قال " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَىْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ " (رواه مسلم)

إن كثيراً من الناس ترمى أضعاف ما تأكل فكل رغيف أخذت منه لقمة ألقى في القمامة ، وكل طعام قد غمست فيه لقمة القى في الحمام ، في الوقت الذي يشتهى فيه الناس رائحة الطعام ويتقاسمون كسر الخبز .

حكمة الله تعالى في خلق الدوافع الفسيولوجية

ومن حكمة الله تعالى أن خلق في الإنسان دوافع فطرية – فسيولوجية – تحفظ له حياته ومن هذه الدوافع :

الحاجة إلى الطعام والشراب ، وإخراج الفضلات ، والنوم ، والجنس ، والراحة، والبعد عن الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة ... وإن عدم إشباع أى من هذه

---

(١) رواه أحمد عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً وروي موقوفاً وهو الصحيح .

الدوافع كفيل بهلاك الإنسان ، ولولا الإحساس بالشبع والرى والتعب .. لمات الإنسان من كثرة الطعام والشراب وكثرة العمل ، ولقد وضح الله تعالى الطريق القويم لإشباع هذه الدوافع ذلك الإشباع الذي يضمن الإبقاء على حياة الإنسان وصحته وراحته وبقاء نوعه وسوف نتناول أهم هذه الدوافع ونبين كيف أشبع الله تعالى هذه الدوافع دون إفراط أو تفريط وهذا هو منهج الإسلام الوسطى الواقعي .

منهج الإسلام في الطعام والشراب

بين الله تعالى للإنسان كيفية المحافظة على جسمه في المأكل والمشرب فقال تعالى : { وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف : ٣١)

قال ابن عباس: أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سد الجوعة وسكن الظمأ، فمندوب إليه عقلاً وشرعاً، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال؛ لأنه يضعف الجسد ويميت النفس، ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع وتدفعه العقل .

وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد . ثم قيل: في قلة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصح جسماً وأجود حفظاً وأزكى فهماً وأقل نوماً وأخف نفساً. وفي كثرة الأكل كظ المعدة ونتن التخمة، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل.

وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء. وقد بين النبي ﷺ هذا المعنى بياناً شافياً يغني عن كلام الأطباء فقال: مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاء شَرّاً مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ (لُقَيْمات) يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فإنْ كانَ لا مَحالَةَ فثُلُثٌ لِطَعَامِه ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِه ، وَثُلُثٌ لِنَفَسه " حديث صحيح (رواه الترمذى)

قال أحد علماء المسلمين تعليقاً على هذا الحديث الشريف : " لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة " ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان . فقال له على : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال قوله عز وجل: "وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا". فقال النصرانى: ولا

يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: (المعدة بيت الأدواء والحمية[1] رأس كل دواء وأعط كل جسد ما عودته). فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا.[2]

الغريزة الجنسية

أما عن دافع الجنس فقد وضع الله تعالى له نظاماً دقيقاً بالغ الدقيقة يشبع به هذا الدافع الذي يحفظ الجنس البشرى فلم يترك الله تعالى العنان للغرائز والشهوات الجنسية تنداح بلا قانون يحكمها ويصون الأعراض ، والنسل ، والأنساب ، والأسرة كما فعلت الإباحية الفارسية ، والرومانية قديماً ، وكما تفعل الدول الغربية حديثا . مما ترتب عليه اختلاط الأنساب ، وانهيار نظام الأسرة ، وانتشار الأمراض الفتاكة كالزهرى ، والسيلان ، والإيدز .

ولقد قضت حكمة الله تعالى أن يعم الناس بالبلاء إذا شاعت فيهم الفاحشة .

" إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله " حديث صحيح

(رواه الطبراني والحاكم)

ويقول أبو بكر في أول خطبة له بعد بيعته " ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء "[3]

ولقد حذّر الله تعالى من يشيع الفاحشة ، كبائر الذنوب عموماً ، والزنا خصوصاً ، بعذابين : عذاباً في الدنيا وهو ضياع ملكهم ، وانهيار حضارتهم ، وعذاباً في الآخرة وهو جهنم .

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (النور:١٩)

والناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أن أهم سمة من سمات الحضارات المتحللة والبائدة هى انتشار الفاحشة فيها .

" وَلاَ ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ ، إِلاَّ سَلَّطَ الله عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ "

(رواه الحاكم وصححه الألباني)

---

(١) الحمية : هى منع المريض مما يضره ، " والحَمِى، كغَنِى: المريضُ المَمْنوعُ مما يَضُرُّهُ، " القاموس المحيط مادة حمى .

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ١٩٢ .

(٣) سيرة ابن هشام " باب خطبة أبى بكر بعد البيعة .

ويكون مقدمة فنائهم ظهور الأمراض التي لم تكن في أسلافهم .

" لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمْ " حديث صحيح (رواه ابن ماجة والبيهقى)

ولقد صدق رسول الله ﷺ فظهر مرض الإيدز (فقد المناعة) الناتج عن شيوع الزنا وهو مرض جديد لم تعرفه الأمم السالفة وهو يهدد بالموت ملايين البشر كل عام وليس له علاج حتى الآن .

ولأحمد من حديث عائشة مرفوعاً " لا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا فَإِذَا فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا فَيُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِقَابٍ " (أحمد بإسناد حسن)

كيف عالج الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة ؟

وشاءت حكمة الله تعالى ومنهجه القويم أن يكون الزواج على سنة الله ورسوله ﷺ هو البديل الشرعى للعلاقة بين الرجل والمرأة فلم يكبت الإسلام فطرة الله التي فطر الناس عليها كما لم يترك لها العنان ترتع كيفما تشاء وهذه هى وسطية الإسلام وواقعيته التي راعت طبيعة الناس وواقعهم لذا شرع الله الزواج عصمة للإنسان من فتنة النساء فإذا أحب رجل امرأة تحل له فعليه بالزواج منها فالنبي ﷺ " " لم ير للمتحابين مثل النكاح " حديث صحيح (رواه ابن ماجه والحاكم)

وحث النبي ﷺ الشباب على التبكير بالزواج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . " يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " (متفق عليه)

وأمر أولياء أمور المسلمين أن ييسروا الزواج لمن لا زوج له .

{ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }(النور : ٣٢)

أى زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف والخطاب للأولياء .

ونصح ﷺ المقدمين على الزواج أن يختاروا ذوات الخلق والدين .

" تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ " (متفق عليه)

وبين النبي ﷺ مزايا هذه المرأة الصالحة ذات الدين فيقول : " أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ ما يَكْنِزُ الْمَرْءُ ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ " حديث صحيح (رواه أبو داود والبيهقى والحاكم في المستدرك)

وبعض الناس لا يعنيه من المرأة إلا حسنها فقط ، وكثيراً ما يكون جمال المرأة سبباً في فساد أخلاقها ، وطمع الناس فيها وهلاكها، كما أن من الناس من يتزوج بالمرأة لمالها فقط ؛ وكثيراً ما يكون غنى الزوجة سبباً في تكبرها وتعاليها ، وظلمها لزوجها ، وعدم القيام بواجباتها نحوه ، وإنما الصفة الأساسية التي يجب أن تختار على أساسها الزوجة هى الصلاح والتقوى .

كما أمر النبي ولى المرأة أن يزوجها لذى الخلق والدين ، وإن كان فقيراً ، الذي إذا أحبها أكرمها ، وإذا كرهها لم يظلمها .
" إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ " حديث صحيح (رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم)

وجعل النبي ﷺ أعظم النساء بركة أيسرهن مهراً . " إِنَّ أَعْظَمَ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرَهُنَّ صَدَاقًا " حديث صحيح (رواه أحمد والحاكم والبيهقى)

عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : " أَلا لا تُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ كَانَ أَوْلاكُمْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَصْدَقَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ وَلا أُصْدِقَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِهِ فَوْقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً أَلا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُغَالِي بِصَدَاقِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَبْقَى لَهَا فِي نَفْسِهِ عَدَاوَةٌ "حديث صحيح (رواه الحاكم والدارمي)

وإليك هذه القصة العجيبة التي ذكرت في الصحيحين والتي تبين كيف يسر الإسلام الصداق ، ودعا إلى عدم المغالاة في المهور .
" أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ لأَهَبَ لَكَ نَفْسِي فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ فَلَمَّا رَأَتْ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا فَقَالَ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ قَالَ لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ اذْهَبْ

إلى أهلكَ فانْظُرْ هَلْ تجدْ شيْئا فذهب ثُمَّ رجع فقال لا واللَّه يَا رَسُولَ اللَّه ما وَجَدْتُ شَيْئًا قَالَ انْظُرْ وَلَوْ خاتَمًا منْ حديد فَذَهب ثُمَّ رجع فَقَالَ لا وَاللَّه يَا رَسُول اللَّه ولا خاتمًا منْ حَديد ولَكنْ هذا إزاري قال سَهْلٌ مَا لهُ رِدَاءٌ فلَهَا نصْفُهُ فقالَ رسُولُ اللَّه ﷺ مَا تَصْنَعُ بإزَارِكَ إنْ لَبسْتَهُ لمْ يَكُنْ عَليْهَا منْهُ شَيْءٌ وَإنْ لَبستْهُ لَمْ يَكُنْ عَليْكَ منْهُ شَيْءٌ فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مجْلسُهُ ثُمَّ قَامَ فرَآهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ مُوَلِّيًا فَأَمَرَ بِهِ فَدُعيَ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ مَاذَا مَعَكَ منْ الْقُرْآن قَالَ مَعي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا عَدَّدَهَا قَالَ أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظهْرِ قَلْبكَ قَالَ نَعمْ قَالَ اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بمَا مَعَكَ منْ الْقُرْآنِ " **(متفق عليه)**

أبعد ذلك يسر في الزواج ؟

لكن غالى الناس في المهور في زماننا هذا وأكثروا من الكماليات فعنس الرجال والنساء .

ولقد جعل النبي ﷺ أن سبب فساد الأرض وكثرة الفتن فيها هو عدم تزويج الشباب ذوى الصلاح والتقوى ، فتأخير سن الزواج برفع تكاليفه ، وبعدم تيسيره ، فتنة كبيرة يترتب عليها انتشار الفاحشة ، وهو الحادث في أيامنا هذه فقد كان تعسير الزواج ، والمغالاة في المهور ، والإصرار على الكثير من الكماليات سبباً في عنوسة كثير من الفتيات والرجال ، أو تأخر سن زواجهم ؛ وترتب على ذلك الفساد الكبير الذي أخبر عنه النبي ﷺ .

خاصة وأن الإعلام الفاسد ، والأغانى المصورة الخليعة ، والأفلام الداعرة ، وتبرج النساء والفتيات وخلاعتهن و.. جعل القابض على دينه منهم كالقابض على الجمر .

فأجهزة الإعلام بما تعرضه من الأفلام الساقطة تدمر الأخلاق ، وتخرب العقول، وتفسد الذوق .

نعود إلى منهج الإسلام القويم في العلاقة بين الرجل والمرأة قلنا لقد أمر نبى الإسلام ﷺ الشباب بالتبكير بالزواج ، ونصحهم بأن يظفروا بذات الدين ، كما ،

أمر أولياء أمور البنات أن يختاروا الشاب ذا الخلق والدين زوجاً ، وأن ييسروا عليه مؤنة الزواج .

{ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى منكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (النور: ٣٢)

فإن لم يكن الشاب قادراً على الزواج فليستعفف حتى يغنيه الله من فضله .

{وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } (النور: ٣٣)

فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه أن يستعفف. ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإغناء من فضله؛ فيرزقه ما يتزوج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء.

عن أبى هريرة عن النبيﷺ قال:

" ثَلاَثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُ الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّاكِحُ يُرِيدُ الْعَفَافَ وَالْمُكَاتَبُ يُرِيدُ الأَدَاءَ " حديث حسن (رواه أحمد وابن ماجه)

والصوم من وسائل العفاف لأنه يحمى الصائم من النظر إلى المحرمات فضلاً عن ارتكابها حتى لا يفسد صومه ، كما أن الجوع والعطش يقلل من الشهوة ويهذب النفس ، ويملأ القلب بالتقوى وخشية الله تعالى ، ويضيق مجارى الشيطان .

" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " (متفق عليه)

وحرَّم الإسلام كل ما من شأنه أن يدعو إلى إثارة الغريزة وإشاعة الفاحشة .

فحرم الخلوة غير المأمونة بين الرجل والمرأة حتى ولو كان الحمو ، الحمو أقارب الزوج من غير المحارم كالأخ والعم والخال وأبنائهم، لما يترتب عليها ما لا يحمد عقباه .

فعن ابن عباس رَضِي اللَّهُ عنهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: " لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَة إلا ومعهَا ذُو مَحْرَمٍ وَلا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ إلا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

إنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا قَالَ انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ " (مُتَّفَقٌ عَلَيهِ)

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: " قَالَ إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ : " الْحَمْوُ الْمَوْتُ " (متفق عليه)

ويشرح البخاري " الحمو الموت " فيقول : أى لقاؤه الهلاك، لأن دخوله أخطر من دخول الأجنبى وأقرب إلى وقوع الجريمة، لأن الناس يتساهلون بخلطة الرجل بزوجة أخيه والخلوة بها، فيدخل بدون نكير فيكون الشر منه أكثر والفتنة به أشد"[١]

" ألا لا يَخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلاَّ كانَ ثالثهُما الشَّيطانُ " حيث صحيح

(رواه أحمد والترمذى والحاكم)

كما أمر الله تعالى بغض البصر .

{ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } (النور : ٣٠)

وليس غض البصر قاصراً على الرجال فحسب بل مأمورة به النساء أيضا .

{ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } (النور: ٣١)

فغض البصر عن النظر للحرام كما يظهر من الآية يحفظ الفرج من الزنا .

والحرام المأمورون بغض النظر عنه يشمل فيما يشمل على النظر بشهوة إلى النساء ، وعلى مشاهدة الرقص المثير ، والأفلام الجنسية ، أو الصور الخليعة ، وقراءة الأدب الماجن الإباحى ، وبالجملة النظر إلى كل ما يثير للغرائز الجنسية ، ويؤجج سعار الشهوات .

كما حرم الإسلام لصيانة المجتمع تبرج النساء وإظهار زينتها بوضع مساحيق الوجه ، والجفون ، وطلاء الشفاه والأظافر ، ووصل الشعر ولبس الباروكة وتركيب الرموش... فقال تعالى:{وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى} (الأحزاب:٣٣)

والتَّبرُّج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الأجانب .

---

(١) صحيح البخارى .

كما أوجب الله تعالى على الفتاة إذا بلغت المحيض أن ترتدى الحجاب .

{ ولْيضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } (النور : ٣١)

شروط الحجاب الشرعي

وكثير من الفتيات لا يعرفن من الحجاب إلا غطاء الرأس وهـذا جهـل فاضـح فالحجاب الشرعى يشمل خمس صفات هى :

١- ستر جميع البدن إلا الوجه والكفين { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } (النور : ٣١) .

وأكثر أهل التفسير يفسرون الاستثناء بالوجه والكفين كما سبق وأشرنا وهـو رأى جمهور الفقهاء .

٢- ألا يكون ضيقاً مجسماً للجسم بل يجب أن يكون واسعاً فضفاضاً .

٣- ألا يكون شفافا يشف عما تحته بل يجب أن يكون ساتراً .

قال رسول الله ﷺ : " صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِـيَاطٌ كَأَذْنَـابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَـائِلاَتٌ مُمِـيلاَتٌ رُءُوسُـهُنَّ كَأَمْثَالِ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَـدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا "(رواه مسلم)

٤- ألا يشبه ملابس الرجال فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" لَعَنَ اللَّـهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ " (رواه البخارى)

٥- ألا يكون معطرا لقول النبي " أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَـوْمٍ لِيَجِـدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ " حديث صحيح (رواه أحمد والنسائى والحاكم)

بعض المحرمات الخاصة بالنساء

حرَّم الإسلام على المرأة أن تضرب برجلها إذا مشت لتسمع صـوت خلخالهـا؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد .

{ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ } (النور : ٣١)

كما حرَّم عليهن تزجيج الحواجب ، ووصل الشعر ، ورسم الوشم ؛ لأن هذه الأمور مما يثير الرجال ويحرك الغرائز .

عن ابنِ عُمَرَ أنّ النبي ﷺ قالَ : " لَعَنَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ " (رواه مسلم)

(الواصلة) أى التي تصل الشعر، سواء أكان لنفسها أم لغيرها (والمستوصلة) أى التي تطلب وصل شعرها .

وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : " لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ " (متفق عليه)

والوشم يكون في اليدين، وهو أن يغرز ظهر كف المرأة ومعصمها بإبرة ثم يحشى بالكحل فيخضر. والمستوشمة التي يفعل ذلك بها. والمتنمصات جمع متنمصة وهى التي تقلع الشعر من وجهها بالمنماص، والمتفلجات جمع متفلجة، وهى التي تفعل الفلج في أسنانها . "الواشرات"، وهى جمع واشرة، وهى التي تشر أسنانها؛ أى تصنع فيها أشراً، وهى التحزيزات التي تكون في أسنان الشبان؛ تفعل ذلك المرأة الكبيرة تشبها بالشابة. وهذه الأمور كلها قد شهدت الأحاديث بلعن فاعلها وأنها من الكبائر. " (١)

كما حرَّمت الشريعة الإسلامية على النساء التبختر والتكسر والتثنى في المشى الذي يكون بتحريك جسدها ومواطن الفتنة فيه .

" وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلاَتٌ مُمِيلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَمْثَالِ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا " (رواه مسلم)

(مائلات) : متبخترات في مشيتهن .(مميلات) : أكتافهن وأكفالهن ..أو مائلات يتمشطن المشطة الميلاء، مشطة البغايا، مميلات يرغبن غيرهن في تلك المشطة ويفعلنها بهن. أو مائلات للرجال، مميلات قلوبهم إلى الفساد بهن بما يبدين من زينتهن . "رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة": أى يعظمن رؤوسهن بالخُمُر والعمائم يلففنها على رؤوسهن (أو بتسريحات الشعر التي ظهرت في قرننا) حتى

---

(١) تفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٩٣ .

تشبه أسنمة الإبل (أى القمم على ظهورها. وهذا حكمه حكـم التجمـل العـادى، فالمقصود هنا اللاتى يبدين ذلك لمن لا يحل له رؤيته " [1]

كل ذلك من أجل سلامة المجتمع وصيانة العفة فيه .

حرَّم الإسلام على المرأة الخضوع بالقول ، وهو التكسر في الكلام ، وأباح لهـا أن تتكلم بالمعروف وبطريقة غير مثيرة .

{فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا} (الأحزاب:٣٢)

إذن الإسلام حل مشكلة الغريزة الجنسية كما لم يحلها قـانون وضـعى ولا فكـر بشرى فلم يكبتها ، كما لم يترك لها العنان إنما وضع لها ما يجعلها تـؤدى الـدور الذي خلقها الله تعالى من أجله وهو الترغيب في النكاح من أجل بقاء النوع وتعمير الكون ولقد تمثل هذا الحل كما بينا في :

١- الدعوة إلى الزواج المبكر .

٢- تيسير الزواج على الشباب .

٣- أمر المرأة بالحجاب .

ومن لم يستطع الزواج فقد أمره الله بالعفاف عن الحرام والـسعى علـى رزقـه ووعده الله بأن يرزقه الله تعالى بما يعينه على الزواج .

ثم جعل الله تعالى مجموعة من الضمانات لصيانة المجتمع :

١- تحريم الخلوة غير الآمنة بين الرجل والمرأة .

٢- تحريم النظر إلى كل ما يثير الشهوة على الرجال والنساء .

٣- حرَّم على النساء جملة الأشياء التي من شانها إثارة الرجال وإشعال سـعار الغريزة الجنسية فيهم منها ، التبرج ، والخضوع بالقول ، والتكـسر والتثنـى فـي المشى ، لبس الخلاخيل ، والتعطر ، والوشـم ، و تـزجيج الحواجـب ، ووضـع المساحيق (المكياج)... وكل ما من شأنه إثارة الرجال .

وهذا الحل الأمثل للعلاقة بين الرجل والمرأة يأخذ به كل من صلحت فطرته وزكا قلبه وصح عقله أما أولئك { الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ } (إبراهيم : ٣)

---

(١) الإمام السيوطى " الجامع الصغير " باب الصاد .

أولئك الذين يأبون إلا الفساد في الأرض وانتهاك الأعراض ، أولئك الذين تسيرهم شهواتهم ، ويسخرهم الشيطان لمعصية الله وانتهاك حرماته فهؤلاء لابـد مـن أن يبتروا من المجتمع لكي يصح ؛ فوجودهم مفسدة له .

لذا جعل الله تعالى عقوبة الزانى المحصن ، المتزوج ، الرجم حتى الموت لأنـه عَطَن وعَفَن لو ترك لأفسد بقية الثمار الصحيحة ومن رحمة الله تعالى أن فرق بين الزانى المتزوج الذي لا عذر له في الزنا بعدما تيسر له سـبيل الـزواج ، وبـين الأعزب الذي لم يسبق له الزواج و لم يطفئ ثورة شهوته بزواج شـرعى فجعـل عقوبة الزانى الأعزب الجلد مائة جلدة ولا تقبل له شهادة ويغرب عن وطنه عاماً .

وأما الزانى المحصن فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت ولقد رجم النبي ﷺ مـاعز بن مالك الأسلمى، ورجم الغامدية ، ورجم اليهودية ، ورجم غير هـؤلاء ، ورجـم المسلمون بعده وإن كان غير محصن، فإنه يجلد مائة جلدة بكتاب الله، ويغرب عاماً بسنة رسول الله ﷺ .

الحدود في الإسلام

وهنا لنا وقفة فقد شنع أعداء الإسلام من غير المسلمين وممن جاراهم من أعـداء الله من المسلمين على الحدود في الإسلام وأنها بشعة لا رحمة فيهـا فكيـف يقتـل الزانى المتزوج ، وقاتل النفس ؟ وكيف تقطع يد السارق ؟ وكيـف يجلـد شـارب الخمر ، وقاذف المحصنات .. ؟

وهذه الحدود لها ضمانات وشروط دقيقة لكي تطبق .

والإسلام عندما يغلظ العقوبة على جريمة إنما يهدف إلـى منعهـا ألا تـرى أن الجرائم التي لا عقوبة لها أو لها عقوبة مخففة تكثر وتتفشى والجرائم التـي تُغلَّـظ العقوبة على مرتكبها ويُشدَّد في تنفيذها تمتنع ، لقد أصدرت الصين حكماً بالإعـدام على متعاطى المخدرات عندما انتشر مدمنو المخدرات بشكل وبائى فكانت النتيجـة أن امتنع الناس نهائيّاً عن تعاطى المخدرات ، ألا ترى أيـضاً أن الدولـة تحـارب التدخين وتحذر منه وتجبر أصحاب شركات التدخين أن يكتبـوا التـدخين ضـار بالصحة دون أن تجعل هناك عقوبة على المدخنين فلم يمتنع الناس عن التـدخين ، فمنعت إعلانات السجائر في وسائل الإعلام فلم يمتنع الناس عن التدخين ، أجبـرت

أصحاب شركات التبغ أن يكتبوا عبارة " التدخين ضاراً جداً بالصحة " فلم يمتنع الناس عن التدخين ، فأجبرت الشركات أن يكتبوا عبارة " التدخين يؤدى إلى الوفاة " أبعد ذلك تحذير ؟! لكن دون جدوى . إنها طبيعة الإنسان الخوف من العقاب ، بجانب إقامة الدليل على تحقق الضرر ، دافعه للإقلاع عن المنكر والمحظور . كذلك أين ذهبت تحذيرات العقلاء من الغرب بوجوب الإقلاع عن الزنا والشذوذ الجنسى والخمر مع بيانهم للأضرار الخطيرة التي تسببها هذه الفواحش دون جدوى ، ولم يسلم واحد من الغرب من هذه الفواحش وارتفعت نسبة الإصابة بالأمراض الناتجة عن الزنا ، وشرب الخمر إلى أعداد وبائية تهدد المجتمع بالفناء ، ومع ذلك يعيبون على الإسلام الذي بقوانينه الإلهية ونهجه القويم عندما طبق قد منع هذه الجرائم نهائيّاً رغم أن الحدود لم تطبق إلا على أحاد الناس { تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (البقرة : ٢٢٩)

إن هؤلاء الشاذين نفسيّاً وفكريّاً يدافعون عن الزناة ومدمنى الخمور ولا يهمهم بقية المجتمع من المواطنين الصالحين أليس هؤلاء من حقهم أن يعيشوا حياة آمنة يأمنون فيها على أموالهم وأعراضهم وحياتهم ؟!

إن أكثر الجرائم التي ترتكب إنما بسبب الجنس أو الخمر أو المال فإذا جاء الإسلام وصان هذه الحرمات وغيرها أيكون ديناً متخلفاً وحدوده قاسية لا رحمة فيها ؟!

فماذا ترتب على رحمتكم أنتم يا دعاة الرحمة ؟!

ألم تسل دماء الأبرياء أنهاراً من جراء رحمتكم هذه " إن معدل جرائم القتل وحده في أمريكا بلغ (أربعة وعشرين ألف) جريمة في السنة ، وهناك جريمة كل (٣) دقائق ، وآخر إحصائيات تقول بأن (٨٣ %) من الشعب الأمريكى مهدد بحدوث جريمة له "[١] هذه هى بلاد الحرية والديموقراطية والإباحية هذا هو الغرب المتحضر الذي قرأت عنه في الكتب .. جريمة .. اغتصاب .. وقتل .. وانتحار .. وشذوذ "[٢]

---

(١) د. هالة سرحان " أمريكا خبط لزق " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٦٣ .
(٢) نفسه ص ١٠٥

أكدت دراسة أمريكية فرنسية عملت لمدة عشر سنوات أن الأجزاء العارية من جسم المرأة الناتج عن ارتداء الملابس العارية الكاشفة عن مساحات كبيرة من جسم المرأة أكدت هذه الدراسات أن هذا العرى يسبب سرطان الجلد .

الإسلام دين واقعى ومن هذا المنطق الواقعى عمل الإسلام على صيانة الأعراض ومنع انتشار الفاحشة التي ما انتشرت في قوم إلا انتشرت فيه الأمراض الخبيثة التي لم تكن في أسلافه والتي لا تزال به حتى تقضى على المجتمع كله والتاريخ خير شاهد على ذلك .

حاجة الجسم إلى الراحة

أما عن دافع الراحة : فلقد حرص الإسلام على عدم الإفراط في إنهاك الجسم، وأمر بوجوب إعطائه قسطه من الراحة حتى يقوى على العمل والعبادة .

يقول تعالى:{طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} (طه : ١-٣)

وجاء فس سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً أي ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك في العبادة وتذيقها المشقة الفادحة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة . (١)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال لى رسول الله ﷺ :

" أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ " ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّـه ، قَالَ : "فَلا تَفْعَلْ ، صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا " (متفق عليه)

غريزة النوم

غريزة النوم التي تريح الجسم ولولاها لظلنا نعمل ونعمل حتى نموت من فرط التعب فهى وغريزة التعب والحاجة إلى الراحة مما يحفظ على الإنسان حياته .

فجعل الله تعالى للإنسان النهار مبصراً ؛ ليعمل فيه ويكد ، وجعل له الله الليل مظلما ؛ لينام فيه ويرتاح و لم يكلفه أثناء الليل بعبادة مفروضة فالصلاة المفروضة

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٦٨ .

تبدأ مع طلوع الصبح وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وتنتهي مع زوال الشفق والدخول في الليل ، وكذلك الصوم وغيرهما .

{ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } (يونس : ٦٧)

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً }

(الإسراء : ١٢)

الرخص في الإسلام

وشرع الإسلام الرخص لذوى الحاجات والأعذار حتى لا يكلفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، ومن رحمته سبحانه حب إتيان الرخص من العبد حتى لا يتحرج المعذور إذا أتى بالرخصة ويحس بالنقص أمام من أتى بالعزيمة ممن ليس له عذر كما أنه تعالى لا يريد أن يحرم الضعفاء من العبادة فإن عجزوا عن أدائها بتمامها (العزيمة) أدوها بقدر ما يستطيعون (الرخصة) .

فَعن ابْنِ عُمَرَ رضي اللَّهُ عَنْهُما قالَ: قالَ رسول الله ﷺ : "إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ " (رواهُ أَحمدُ وَصَحّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وابْنُ حِبّان)

" (أن اللّه يحب أن تؤتى رخصه) جمع رخصة وهى تسهيل الحكم على المكلف لعذر حصل وقيل غير ذلك لما فيه من دفع التكبر والترفع من استباحة ما أباحته الشريعة ، ومن أنف ما أباحه الشرع وترفع عنه فسد دينه فأمر بفعل الرخصة ليدفع عن نفسه تكبرها ، ويقتل بذلك كبرها ويقهر النفس الأمارة بالسوء على قبول ما جاء به الشرع ومفهوم محبته لإتيان الرخص أنه يكره تركه فأكد قبول رخصته تأكيداً يكاد يلحق بالوجوب .. وقال الغزالى رحمه اللّه: هذا قاله تطييباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركوا الميسور من الخير عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف درجاتهم وأصنافهم . قال ابن حجر رحمه اللّه: وفيه دلالة على أن القصر للمسافر أفضل من الإتمام " [١]

---

(1) الإمام المناوى " فيض القدير في شرح الجماع الصغير " ص ٢٩٧.

ومن الرخص التي رخص الإسلام فيها الإفطار للمسافر والمريض وكبار السن والضعفاء، والحامل والمرضى الذين لا يتحملون الصيام ، وإعادة ما أفطروا من أيام عند القدرة فإن كان المرض لا يرجى الشفاء منه أخرج المريض فدية طعام مسكين عن كل يوم أفطره .

{ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } (البقرة : ١٨٤) .

{يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } (البقرة :١٨٥)

ومن الرخص التي رخص فيها النبي قصر الصلاة (أداء الصلاة الرباعية ركعتان فقط) في السفر ، وثبت قصر الصلاة بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ } (النساء : ١٠١)

فهذه الآية قد دلت على أن قصر الصلاة مشروع حال الخوف ، وهي وإن لم تدل على أنه مشروع حال الأمن ، ولكن الأحاديث الصحيحة والإجماع قد دلت على ذلك، فمن ذلك ما رواه يعلى بن أمية ، قلت لعمر: ما لنا نقصر وقد أمنا ؟ فقال: سألت رسول اللّهﷺ فقال:" صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ" (رواه مسلم)

وقال ابن عمر رضى اللّه عنه: صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ لا يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَذَلِكَ " (متفق عليه)

هذا وقد أجمعت الأمة على مشروعية القصر .

ورخص الله تعالى في التيمم عند فقد الماء أو تعذر استخدامه .

{ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ } (النساء : ٤٣)

كما رخص الشرع الحكيم في القعود في الصلاة لمن عجز عن القيام فالقيام يسقط عن غير القادر عليه ويصلى على الحالة التي يقدر عليها .

اتفقت المذاهب على أن القيام فرض على المصلى في جميع ركعات الفرض، بشرط أن يكون قادراً على القيام ، فإن عجز عن القيام لمرض ونحوه. فإنه يسقط عنه، ويصلى على الحالة التي يقدر عليها .(١)

كما رخص الله تعالى للمضطر أكل الميتة ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله كل ذلك رخص به للمضطر الذي يخشى الهلاك إن لم يستعن ببعض هذه المحرمات على الحياة .

{ إِنَّمَا حرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (البقرة : ١٧٣)

الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة، والذي عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيّره العدم والجوع إلى ذلك، وهو الصحيح. وقيل: معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات. قال مجاهد: يعنى أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية اللّه تعالى، إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .(٢)

لقد أسقط الإسلام الأغلال والقيود التي كانت تثقل أهل الكتاب وتغلهم .

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبي الأُمِّى الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف : ١٥٧)

وقوله تعالى: " ويضع عنهم إصرهم" فإن بنى إسرائيل قد كان أُخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال؛ فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه. وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره." (٣)

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى " الفقه على المذاهب الأربعة " مبحث فرائض الصلاة .
(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٣) نفسه ج ٧ ص ٣٠٠ .

فدين الله يسر لا مشقة فيه ذلول لا صعوبة فيه .

عن الأعرج "أنه سمع النبي ﷺ يقول: إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ "

حديث حسن (رواه أحمد والطبرانى)

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : "يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا "

(متفق عليه)

***

الخاتمـة

وكهذا قد بينا كيف أن الإسلام دين الله الخاتم الذي ارتضاه للناس حتى قيام الساعة دين متوازن في تشريعاته ، كما أن الإنسان متوازن في تكوينه ، والكون متوازن في عناصره ومكوناته . وأن الإنسان إذا لم يطبق الإسلام بالمفهوم الصحيح – الذي اجتهدنا في بيانه – تطرف بتعطيل أحكام الله بحجة عدم ملاءمتها للواقع كالعلمانيين ، أو تطرف في فهمها وأوقع الناس في الحرج كالنصيين الحرفيين .

كما بينا أن جماهير المسلمين بعدت كثيرا عن الإسلام وتعاليمه فأهملت عملها ولم تؤد واجباتها وأسرفت في الترف ، وبطرت نعمة الله عليها ولم تبذل أقل الجهد لنصرة الإسلام والمسلمين ، وأقل الجهد أن يراعى كل إنسان عمله فالصانع يتقن صنعته ولا يتقاضى من الأجر فوق ما يستحق ، ولا يستغل حاجة الناس إليه ولا يهجر صنعته المفيدة للمجتمع ليعمل أعمالا أخرى لا فائدة فيها من أجل مزيد من الرزق وقليل من الجهد ، و الفلاح لا يهجر أرضه وينزح إلى العاصمة أو المدن الكبرى أو يسافر إلى خارج البلاد ليعمل في أعمال لم تجعل له ويترك الأرض التي هى في أمس الحاجة إلى جهده وعرقه ، و الموظف يجب أن يكون في خدمة المواطنين وأن يؤدى عمله لله وإن تقاض القليل فالله تعالى مبارك له فيه ولا يتطلع لرشوة أو استغلال وظيفته لابتزاز الناس ومساومتهم على قضاء حوائجهم ، والطلاب يجب أن يقوموا بأداء ما عليهم نحو العلم ونحو وطنهم وأن يستثمروا أوقاتهم فيما هو نافع ومفيد وأن يهجروا اللامبالاة والسلبية والاتكالية وأن يسخروا أوقاتهم وعلمهم وطاقاتهم الجبارة في العلم والعمل بدلا من إهدارها في اللهو والفساد ، وعلى كل مسئول أن يراقب الله في عمله ويجعل عمله خدمة لمصالح الناس لا خدمة لمنفعته الشخصية ويعلم أنه بقدر مسئوليته يكون حسابه ، وعلى المفكرين أن يتقوا الله في أقوالهم فلا يذيعوا الأفكار الهدامة ولا يعملوا على نشر الفساد فجموع الأمة ستعلق في رقابهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وعلى المسئولين على الإعلام والفنانين أن يحسنوا استخدام فنونهم لرقى المجتمع ولتهذيب النفوس ولنشر الفضيلة فهم أكثر تأثيرا من غيرهم في الناس فليعملوا على إنهاض الأمة من رقدتها وإقالتها من عثرتها بدلا من غمسها في

الملاهى والرذائل وما يفسد على الناس دينهم ودنياهم ، وعلى دعاة الإسلام مزيدا من العلم والفهم ودراسة الواقع وتفهم أحوال الناس وهجرا للخلافات حول قضايا مزقت الأمة وأضاعت وقتها وجهدها وحفزا للناس على العلم والعمل ، والتقدم والرقى فأنتم لكم تأثير كبير على الأمة فيجب أن تكونوا على قدر المسئولية نحو الدين والناس ، ولننظر جميعا للأمام .

لو أن كل إنسان حاول قدر جهده أن يتقن عمله المكلف به ويهجر كبائر الذنوب والمعاصى لتقدمنا ، لو أن كل إنسان تذكر أنه مسئول أمام الله " عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه" (رَوَاهُ التِّرْمِذِى) و ألا يعلل فساده بفساد الآخرين { مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } (الإسراء : ١٥) فعلى كل إنسان ألا يبخل على الناس بالعمل الصالح أو الكلمة الطيبة النافعة يؤديها بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يتخلى عن السلبية وقول : لا فائدة من الإصلاح فطوفان الفساد أكبر من المقاومة .

فالله تعالى أهلك الناس اليائسين الميئسين الذين رعوا المنكر ولم يسعوا لتغيره ولم ينج إلا من عمل صالحا ودعا إليه ونهى عن المنكر وحذر الناس منه .

{ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } (الأعراف : ١٦٣- ١٦٥)

فالآية تحدثنا عن ثلاث طوائف في المجتمع طائفة ترتكب المعاصى ، وطائفة لا ترتكبها ولا تنه عن ارتكابها ، وطائفة ثالثة لا ترتكب المعاصى وتنه الناس عنها بالحكمة الموعظة الحسنة ، فلما جاء عذاب الله تعالى نجى الفئة **الثالثة** التي نهت عن المعاصى ، نرجو من الله تعالى أن نكون منها وأننا بعملنا هذا نكون قد قدمنا معذرة إلى الله تعالى ولعل قومنا يهتدون بما فيها من هدى .

الرجاء من كل من يقرأ هذا الكتاب أن يرسل لنا بملاحظاته وتحفظاته أو انتقاداته ونحن نعد إن شاء الله تعالى بتصحيح أو استدراك ما يكون قد وقعنا فيه من أخطاء في الطبعات التالية " فالدين النصيحة "

***

كتب المؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- ميزان الحق (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار زهور المعرفة والبركة

٣- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٤- المدارس السلفية وجدلية العقل والنقل والمصلحة . دار زهور المعرفة والبركة

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو "" "" "" "" "" ""

٣- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي "" "" "" "" "" ""

٤- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي "" "" "" "" "" ""

٥- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء "" "" "" "" "" ""

٦- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية "" "" "" "" "" ""

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الاستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .
دار هبة النيل العربية

١- اليهود والصليبيون الجدد . دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة "" "" "" "" ""

٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن "" "" "" "" ""

٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة "" "" "" "" ""

٦-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية """ """ """ """

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . """ """ """ """

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " """ """ """

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) """ """ """ """

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) """ """ """ """

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (ثماني قصص) زهور المعرفة والبركة

كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة في العالم

(١٤) كتاباً جامعة هارفارد رقم ١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٢) كتاباً جامعة استنافورد رقم ٣ في الترتيب العالمي للجامعات .

(٤) كتب جامعة كاليفورنيا رقم ٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة كولومبيا رقم ٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٦) كتب جامعة برينستون رقم ٨ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة أكسفورد رقم ١٠ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٧) كتب جامعة ييل رقم ١١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٢) كتابان جامعة بنسلفانيا رقم ١٥ في الترتيب العالمي للجامعات

(١) كتاب جامعة واشنطن رقم ١٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة ميشيجان رقم ٢١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة كيوتو رقم ٢٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة تورنتو رقم ٢٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة إلينوي رقم ٢٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٦) كتاباً جامعة كورنيل رقم ٢٩ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتب جامعة دوكي رقم ٣٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتب جامعة تكساس رقم ٣٦ في الترتيب العالمي للجامعات.

هذا بخلاف كتب المؤلف العديدة الموجودة في مكتبات الجامعات الأجنبية الأخرى غير هذه الجامعات .

كتب للمؤلف في مكتبات الجامعات العربية

(٢) كتابان جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الملك فهد – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الإمام محمد بن سعود – المملكة العربية السعودية

(١) كتاب جامعة الحسين بن طلال– الأردن.

(١) كتاب جامعة اليرموك – الأردن .

(١) كتاب جامعة مؤتة – الأردن.

(١) كتاب الجامعة الأردنية للعلوم والتكنولوجيا.

(١) كتاب جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان.

(١) كتاب جامعة الإمارات – الإمارات العربية المتحدة.

(٢) كتابان جامعة النجاح – فلسطين.

(١) كتاب جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية.

(١) كتاب كلية دار العلوم – جمهورية مصر العربية .

(٢) كتابان كلية التربية – جامعة المنصورة – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الآداب – جامعة بني سويف – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الزراعة – جامعة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

(١) كتاب المكتبة المركزية - جامعة بنها - جمهورية مصر العربية

كتب للمؤلف في المكتبات العالمية والعربية

(١٢) كتاباً في مكتبة الكونجرس الأمريكية.

(٢) كتاب في مكتبة الإسكندرية.

(٣) كتب في مكتبات مبارك العامة.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الشباب الإماراتية.

(١) كتاب في مكتبة المجلس الوطني اليمني.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الخارجية أبو ظبي.

(٢) كتاب في مكتبة مسجد البيرة الفلسطيني.

-كتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية ، والأجنبية والمواقع الالكترونية.

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه " متى يثور لمصريون"

التليفون المحمول : 01226406489

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــــر
مجمـع البحـوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتــأليف والترجمـة

السـيد / محمد يونس هاشم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والدعوة الأصولية تأليف : سيادتكم في ٤٠٤ صفحة

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عـام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في ٢ / صفر / ١٤٢٦ هـ
الموافق ١٢ / ٣ / ٢٠٠٥ م

يعتمد
الأمين العام

فضيلة الشيخ / إبراهيم عطا الفيومي

المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة

الفصل الرابع : الإسلام والعقل

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الفصل الخامس : الإسلام والنفس الإنسانية

الفصل السادس : الإسلام والجسد

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة